الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا

أصالة الفكر العربي

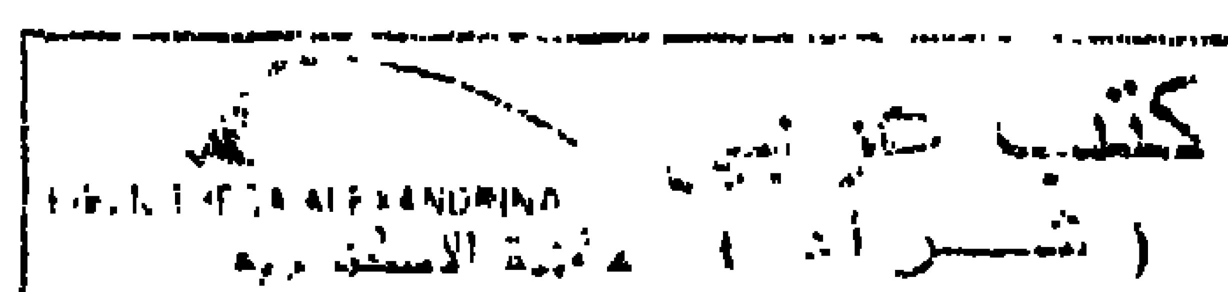
منشورات عويدات

أصالة الفكر العربي

لقد كان يُفترض في هذا الكتاب أن يكون جزءاً من كتاب عام شامل عنوانه (التفسير الحضاري للفكر الاسلامي) . لكني في اللحظة الأخيرة عدلت عن هذا العنوان لشموله واتساع آفاقه وعدم وفائه بالمطلوب وآثرت إصداره كتباً مستقلة هذا طليعتها . م . م.

محمد عبد الرحمن مرحبا

أصالة الفكر العربي



منشورات عويدات

الطبعة الأولى ١٩٨٢

مدخل إلى دراسة الفكر العربي

من المسلّم به اليوم أن البحث عن الحقيقة مطلب شريف ، وان الموضوعية والتجرد هما من أهم الصفات التي يجب أن يتحلى بها العلماء . لكن مما يؤسف له أنه حين يتطرق البحث إلى تاريخ الفكر - أيّ فكر - لدراسته وإصدار الأحكام عليه ، فان الكثير من الاحساس القومي والديني يتدخل في إصدار هذه الأحكام . هنالك تختل المقاييس وتتبدل الحقائق ، فتأتي مشوّهةً أو ناقصة . لقد انقلب الحكم تحكماً !

إن مزج المشاعر القومية والدينية بالأحكام العلمية عمل مضلل يدل على الجهل والغباء إن لم يدل على الخبث وفساد الطوية . وهناك أمثلة كثيرة على ذلك . فعلى الرغم من الحقيقة المعروفة لدى مؤرخي الأفكار وهي أن الفكر لا وطن له ، فإنه لا يزال في كتب التاريخ العقلي تصور فاسد سيطر بضعة قرون - بل ما انفك يسيطر على الكثيرين حتى الآن - أملته العنصرية وحب الاستعلاء ، مؤداه أن تطور الفكر - ولا سيما في بلاد حوض البحر الأبيض المتوسط - قد مرّ بمرحلتين أوربيتين أساسيتين : هما مرحلة الاغريق القدماء ومرحلة عصر النهضة الحديثة . أما ما بين المرحلتين ففراغ في فراغ .

ولقد قامت محاولات كثيرة لتصحيح هذا التصور الموروث ، ولاثبات أن الاغريق القدماء قد انتقلت إليهم إنجازات أجيال سبقتهم ، ولم يكونوا هم الواضعين الأولين لأصول الفكر والعلم . وقد وصلت هذه المحاولات إلى نتائج هامة كان جديراً بها أن تؤخذ بالحسبان . ومع ذلك فإن الغرض يُعمي ويُصم ، أو كما يقول العامة « الغرض مرض » . حتى لقد اشتكى العالم الدانمركي أوتونيبور Otto Neugebauer من أن « كل محاولة لربط إنجازات الاغريق بما قبلها من الأمم تصطدم بمعارضة حادة ، وليس هناك من يرضى بتعديل صورة

وضع الاغريق التي اعتاد عليها رغم جميع الدراسات التي أثبتت . . . ان ألفين وخمسمئة من السنين قد سبقت عصر اليونان » .

وكما اصطدمت كل محاولة لربط إنجازات الاغريق بما قبلها من الأمم بمعارضة حادة ، كذلك اصطدمت كل محاولة لربط إنجازات الفكر الاوربي بالفكر العربي الاسلامي بمعارضة أشد . فان من أبرز عوامل الغبن والعقوق في الفكر الاوربي إصراره على أنه ليس متصلاً بالفكر العربي الاسلامي ، وان الحضارة الغربية الحديثة التي برزت في أوائل القرن الرابع عشر الميلادي إنما كانت امتداداً للحضارة اليونانية الرومانية . كذلك أطلق على « الفراغ » بين الحضارتين اسم (القرون الوسطى المظلمة) .

وسنرى في تضاعيف هذا الكتاب وكتبنا التالية عدداً لا يحصى من الشواهد التي تثبت وجود مرحلة إبداعية ضخمة جداً بين مرحلتي الاغريق والنهضة . فليس هناك فراغ بين المرحلتين ، وإنما الفراغ في أصحاب النفوس المريضة الذين يرون كما يرى سائر الناس ، ولكنهم يؤمنون ببعض ما يرون ويكفرون ببعض . إنهم مَثَلٌ على جميع أولئك الذين يكتمون الحق وهم يعلمون . ليسوا سواءً . منهم طائفة وقفوا بعناد أمام هؤلاء العابثين وكشفوا زيفهم وبطلان أقاويلهم . فأنا لست ممن يُحبّون أن يكيلوا التُهم جزافاً للمستشرقين الغربيين فيما يكتبونُ عن الفكر العربي والثقافة الاسلامية القديمة . فللمستشرقين خدمات لا تُنكر اسدوها للعرب والفكر العربي ، أهمها أنهم أعانونا على فهم أنفسنا مضموناً ومنهجاً . فإن إسهامات المستشرقين في دراسة الاسلام وفهمه أضافت الشيء الكثير إلى الثروة العلمية المتوفرة لدينا الآن ، كما أنها بينت لنا موقف الفكر الغربي من الاسلام وأسلوب دراسته ونظرته إليه . وفضلاً عن ذلك فقد فتحت مجالات كبيرة وجديدة لمعالجته من زوايا قد لا ينتبه العلماء المسلمون إليها ، واتبعت في ذلك مناهج كثيرة متنوعة . حتى أن من أهم الأفكار التي عُرف بها نفر من قادة الفكر العربي في العصر الحديث والتي كانت من أسباب سيرورة ذكرهم في الآفاق وسطوع أسمائهم على أقلام الكتّاب ، أفكاراً استُعيرت في الأصل من هؤلاء المفكرين الغربيين الذين إنما يعود إليهم الفضل في معالجة قضايانا العربية والاسلامية معالجة علمية رصينة بعيدة عن الطرق التقليدية القديمة ، وهي طرق تتسم

بالدعاية والوعظ وتهتم بالخوارق اهتماماً لا نظير له . فلو لم يكن للمستشرقين إلا هذا التحول الجديد في كُتّابنا ومفكرينا ، وإلا إشاعة الأساليب العلمية في معالجة التراث ، فناهيك به نفعاً . لذلك لا يصح أن نصب جام غضبنا عشوائياً وبدون تروٍ على رؤوس هؤلاء المفكرين الغربيين لمجرد أنهم يخالفوننا في الرأي ، بل يجب الحذر والاناة ودراسة كل حالة على حدة قبل إصدار أحكامنا عليهم فمن الجحود والاجحاف في الحكم أن نعزو إليهم جميعاً وبلا تمييز نزعة التعصب العرقي أو الحقد الديني والاستعلاء الفكري والحضاري في كل ما كتبوه وقالوه ونشروه في أنديتهم العلمية أو في صحفهم ووسائل إعلامهم .

وإذا كنا نسجل للمستشرقين ـ وبكل أمانة ـ هذا الفضل لهم علينا ، فان ذلك لا يبرئهم أبداً ـ أو فريقاً كبيراً منهم على الأقل ـ من تهمة التحيز والهوى ، بل أكاد أقول من العمى الذي يصيب أمثال هؤلاء الباحثين أو أشباه الباحثين ، حتى ليخال المرء أنه أمام صبية صغار يتناوشون ويتسابّون بأقذع الألفاظ ، لا أمام علماء كبار أو بحاثة أكاديميين يرقبون الفكر والكَلِم ، ولا ينبسون بقول أو رأي إلّا بعد إحكامه وإطالة النظر فيه . فإذا كانت أكثر كتاباتنا في فكرنا وتاريخنا وتراثنا حتى الآن متخلفة بدائية فعُذرنا واضح ، وهو أننا لمّا نكد نهبّ من رقادنا وننفض عنا غبار الأجيال ، ولكن ما عذر أولئك الذين ينتسبون إلى أهل الاشعاع ويعيشون في مراكز الاشعاع ويفكّرون في إبّان عصر الاشعاع ؟

فهذا الكتاب ليس سوى محاولة إنصاف لواقع تاريخي حضاري يمسّ حياة الفكر العربي الاسلامي قبل أن يكون دفاعاً عنه ، ذلك الفكر الذي طالما تعسّفت عليه بعض المصادر الغربية وكالت له تهماً صيغت في أحكام ماسخة قطعية تعبّر في مجملها عن شهادة بسوء الاحدوثة مستخرجة من سجل غير عادل يخلو من دلائل الاثبات ، وضعته أيد أثيمة رائدها التزييف والتضليل والتوهين وإضعاف الثقة بالذات والتاريخ .

إن صراع الفكر العربي الاسلامي في هذه الأيام ليس صراعاً على بلد استلبه المستعمر ونهب خيراته ، بقدر ما هو صراع على تاريخ وحضارة ومفهوم

ورسالة ورمز . . .

إن عصور الفراغ أو العصور الوسطى كانت عصور ظلام وانحطاط للغرب المسيحي لا للشرق العربي الاسلامي الذي إنما ربط بين القديم والحديث ، وسدّ الهوة العميقة بين الاغريق (والرومان) وعصر النهضة . لقد كانت مرحلة الربط هذه مرحلة هامة في تاريخ الفكر الانساني كله ، بظهور الاسلام وتوسعه في خلال قرن واحد من الزمان من حدود الصين شرقاً إلى حدود فرنسا غرباً ، وزحفه على أوربا نفسها حتى لكاد يُطوّقها لولا معركة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢م .

لقد قام العرب والمسلمون في ظلام بربرية القرون الوسطى بحمل رسالة الفكر والحضارة . ومن ثم برزت نهضة عقلية وعلمية امتدت ألف عام . لقد كانت أوربا آنذاك عبارة عن أبراج يسكنها سادة نصف متوحشين يفاخرون بأنهم أميون وبأن الماء لم يمسّ أبدانهم سنين بعيدة . وطال عهد الجهالة هذا في أوربا حتى القرن الثاني عشر . ثم طرقوا أبواب العرب يستهدونهم ما يحتاجون إليه ويتعلمون منهم فنون العلم والحضارة .

إن حركة الانتصاف للفكر العربي من قِبَل الاوربيين أنفسهم تمضي قدماً ولكن ببطء وحذر . فان عدداً لا يستهان به من المفكرين والمستشرقين الغربيين أمثال ماكس مايرهوف وسارطون وجيكر وستيفنسون وورودنسون وكاجوري ونللينو وماسينيون وبلاشار ومونتغمري وات وبيرك . . . ان هؤلاء جميعاً ونفراً قليلاً غيرهم قد اعترفوا ـ على تفاوت فيما بينهم ـ بالاسهام الكبير الذي قدّمه العلماء والمفكرون العرب للحضارة الانسانية وبخدمة الحقيقة العلمية ، كما انهم شهدوا بفضل التراث العربي الاسلامي وبالمشاركة الفعالة التي حققها هذا التراث طوال قرون عديدة في ميدان التقدم العلمي والرقي الانساني . ان مجرد تصفح كتاب (الفهرست) لابن النديم ، و (إخبار العلماء بأخبار الحكماء) للقفطي ، و (طبقات الأطباء) لابن أبي أصيبعة ، و (وفيات الاعيان) لابن خلكان ، و (كشف الظنون) لحاجي خليفة ـ أقول أن تصفح هذه الكتب وكتب أخرى غيرها من كتب التراجم والطبقات ، يشعر المرء بالزهو والفخار ، إذ يجد نفسه أمام تراث ضخم متشعب ، فيه العلم ، وفيه الأدب ، وفيه الفلسفة والرياضة والتاريخ والجغرافيا والاجتماع والفن والعمارة والنحت . . . نحن

لا ننكر أن الحضارة العربية الاسلامية قد تأثرت في شتى مراحل نموها بكثير من الانجازات العلمية والفنية والفلسفية التي حققها القدماء ، غير أن الأمر لا يقتصر على ذلك ، بل ان عطاءات علمية وصفحات فكرية جديدة مثمرة انتجتها حضارتنا قد خالفت في كثير من الوجوه ما كان سائداً في الحضارات القديمة من أفكار ونظريات ، كما سنرى ذلك مفصلاً في كتاباتنا القادمة . فلولا ابن الهيثم والخازن والكندي والرازي والفارابي وابن سينا والبيروني والخوارزمي وابن النفيس والبتّاني والصوفي وابن الشاطر وابن يونس وابن رشد والبغدادي والطوسي وابن خلدون . . . ما ظهر بيكون وغاليليو ونيوتن وكبلر وكوبرنيقوس وهارفي وديكارت . . .

إن هؤلاء العلماء الأعلام ، والفلاسفة الكبار ، والمفكرين العظام ، قد تنكّروا للحياة وزخرفها ، وانصرفوا للبحث والنظر بصبر وأناة ، يطلبون الحقيقة في جميع مظانها ، وينشدون المعرفة أنّى وُجدت فعانوا في سبيلها ما عانوا من التعب والنّصب وشظف العيش ، وتجشموا ما تجشموا من الصعاب والمهالك . وكانت حصيلة ذلك كله عطاءً عملاقاً ، ومشاركة خصبة فعالة ، وحضارة يانعة فذة في ظروف بيئية وتاريخية نادرة .



وفي التراث العربي الاسلامي مواقف حضارية رائعة ، وصفحات مشرقة ناصعة البياض تكشف عن مستوى رفيع من التفكير واستيعاب العقيدة والشرع لا تشوبه عُقد ولا حساسيات ، يضع مصلحة المجتمع في المقام الأول بكل ما يترتب على إرساء هذه القيمة من رسوخ للعدل ، وعمارة للأرض ، وسمو في الفكر ، مما لا نجد له مثيلاً في العصور الوسطى اللاتينية ، عصور التعصب الأعمى ، والحقد الديني البشع الذميم .

فقد كانت مناصب الدولة تعطى للمستحق الكفء دون اعتبار لعقيدته أو مذهبه ، وبرؤية مخلصة صافية لمقتضيات المصلحة الاجتماعية التي تأتي أولاً . فقد ظل الأطباء المسيحيون في العهدين الأموي والعباسي في رعاية الخلفاء والأمراء ، وكان لهم حق الاشراف على مدارس الطب ببغداد ودمشق قروناً طويلة . وهكذا فإن ابن أثال الطبيب النصراني كان طبيب معاوية الأثير ، كما كان

سرجون كاتبه . وهذا مروان يُعين الناسيوس مع آخر اسمه اسحق في بعض مناصب الدولة في مصر ، وما زال يترقى حتى بلغ مرتبة الرياسة في دواوين الحكومة . وكان عظيم الثراء ، واسع الجاه والغنى ، حتى لقد كان له أربعة آلاف عبد وكثير من الدور والقرى والبساتين والذهب والفضة . وكان له في مدينة الرها اربعمئة حانوت شيِّد من ريعها كنيسة فخمة . وكانت شهرته بحيث انتدبه عبد الملك بن مروان لتعليم أخيه الصغير عبد العزيز الذي أصبح والياً على مصر فيما بعد ، وهو والد عمر بن عبد العزيز .

ومن الأطباء المشهورين الذين كان لهم الحظوة عند الخلفاء جورجيس بن بختيشوع . وكان مقرباً من المنصور أثيراً عنده . وكان لجورجيس هذا زوجة عجوز ، فأرسل اليه المنصور ثلاث جوار حسان . فرفض قبولهن قائلاً : إن ديني يحرّم عليَّ الزواج ما دامت امرأتي حية في عصمتي . فأعجب به المنصور وزاد في كرامته . ولما مرض أمر المنصور بحمله إلى دار الضيافة ، وأتى اليه ماشياً ليطمئن على صحته ، فاستأذنه الطبيب ان يرجع إلى بلده ليُدفن مع آبائه . هنا عرض عليه المنصور الاسلام ليدخل الجنة معه ، فرفض جورجيس وقال : رضيت أن أكون مع آبائي في جنة أو نار . فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ، ووصله بعشرة آلاف دينار .

وكان للمعتصم طبيب نصراني أيضاً هو سلمويه بن بنان . وعندما حضرته الوفاة جزع عليه المعتصم جزعاً شديداً ، وأمر بأن يُدفن بالبخور والشموع على مذهب ملته . كما كان للمتوكل طبيب نصراني من آل بختيشوع هو بختيشوع بن جبرائيل . وكان صاحب الحظوة عنده ، حتى لقد كان يضاهي الخليفة في أناقة اللباس وحسن الحال ووفرة المال وكمال المروءة .

وكانت الحلقات العلمية برعاية الخلفاء فرصة طيبة للجمع بين مختلف العلماء على تباين مللهم ونحلهم . فكان المأمون يناشد أصحاب الديانات والمذاهب في قصره ان يبحثوا ما يشاؤون دون ان يستدل كل واحد منهم بكتابه الديني كيلا تثور الفتنة بينهم . فالبحث والنقاش الهادئان يُقربان من الحقيقة بقدر ما يُبعدان التشاحن والحزازات والنعرات . . .

ولم تقتصر هذه الحلقات العلمية على قصور الخلفاء ، بل لقد كانت تُعقد

أيضاً على المستوى الشعبي . اذ يروي خلف بن المثنى انه شهد عشرة في البصرة يجتمعون في مجلس لا يُعرف مثلهم في الدنيا علماً ونباهة . وهم الخليل بن أحمد صاحب النحو (سنّي) ، والحِميْري الشاعر (شيعي) ، وصالح بن عبد القدوس (ثنوي) ، وسفيان بن مجاشع (خارجي صفري) ، وبشار بن برد (شعوبي خليع ماجن) ، وحماد عجرد (زنديق شعوبي) ، وابن رأس الجالوت الشاعر (يهودي) ، وابن نظير المتكلم (نصراني) وعمر بن المؤيد (مجوسي) ، وابن سنان الحراني الشاعر (صابئي) . فكانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتبادلون الأخبار ، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم ان بينهم كل هذه الفروق الدينية والمذهبية .

ولقد ذهب هذا المجتمع العجيب المدهش - وفي صميم القرون الوسطى - مذهباً بعيدا في احترام كرامة الانسان وتعميق الأخوة الانسانية دونما نظر الى دين أو طائفة . وكانت قاعدته في ذلك ، الآية الكريمة : « وإن احدٌ من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمع كلام الله ، ثم ابلغْه مأمنه » . اذ لا يكفي ان نجير المشركين والمخالفين لنا في العقيدة والمذهب ، وان نحميهم ونكفل لهم الأمن والرعاية في جوارنا ، ولا ان نرشدهم إلى الحق ونهديهم سواء السبيل ، بل لا بد ان نكفل لهم أيضاً الحماية والرعاية في انتقالهم حتى يصلوا الى المكان الذي يأمنون فيه كل غائلة .

فيا لهذا المجتمع الكبير !



ولا يفوتنا ان نذكر في هذا المجال ان عدداً كبيراً من حملة التراث العربي الاسلامي انما كانوا دوائر معارف حية ، وموسوعات مفكرة تسعى . فقد انجبت الحضارة العربية الاسلامية جهابذة عظماء يتميزون بسعة الأفق ، وغزارة الانتاج ، وخصب المادة ، في ميادين وحقول متنوعة يسود فيها كثير من الترابط العضوي . فقد كان الطب والعلوم والفلسفة معارف مُتلازمة بعضها مع بعض . وكذلك علم الكلام والشريعة كانا ينتميان إلى زمرة واحدة . والمدهش انه كان هناك أشخاص يجمعون بين هذه الفروع كلها . ولم يكن نادراً وجود الفقهاء الذين كانوا ادباء وشعراء في وقت واحد ، بل لقد التقى الشعر والرياضة والفلك في

عقل واحد لدى بعض علماء المسلمين كالخيام مثلاً . فالكندي - بالاضافة إلى كونه أول فلاسفة الاسلام - غزا علوماً كثيرة : كالطبيعة والمنطق والهندسة والحساب ، وأضاف إليها مادة جديدة ، وبث فيها دماً جديداً وروحاً جديدة لم يعرفها علوم اليونان . وهذا الجاحظ ، شيخ الفصاحة والبيان والأدب . فقد كان يكتب بنفس المستوى من الاجادة والعمق والشمول وخفة الظل ، في العقائد وعلوم الاسلام والأدب والتاريخ الطبيعي والطب والأجناس والحيوان واخلاق البشر . وتناول في كتاباته - معتمداً على المنهج التجريبي - أموراً علمية كثيرة ، ولا سيما في علم الحيوان ، وتوصل إلى نتائج وآراء مخالفة لتلك التي اثبتها أرسطو في تصانيفه . وهناك موسوعي آخر يكاد يضاهي الجاحظ في سعة العلم ، وحرية الفكر وكثرة التأليف ، وتنوع الكتب ، هو ابن قتيبة ؛ وهو يشبهه أيضاً في ان معظم كتبه الرئيسة سلم من عبث الأيام ووصل الينا . فكتابه (أدب الكاتب) هو خزانة علم الأدب ، ولوفُسّرهذا الكتاب وبُوِّب لكان دائرة معارف . أما كتابه (عيون الأخبار) فنموذج جميل من كتب الأدب بمعناه الواسع عند العرب ، وهو معنى يقابل تقريباً ما نسميه نحن اليوم بالآداب أو الانسانيات . والدينوري من هذا الطراز أيضاً . فقد ألف في النحو واللغة والتاريخ والهندسة والحساب ، ولا يزال كتاباه الرئيسان (الأخبار الطوال) و(الامامة والسياسة) من معضلات التواليف في مكتبتنا العربية ، لأن الخلاف طويل حول أصول مادتهما ونسبة بعض فصولهما اليه . ومن هذا القبيل أيضاً أبو العباس المبرِّد . فكتابه (الكامل) موسوعة لعلوم العرب الى أيامه (أواخر القرن الثالث للهجرة - التاسع للميلاد) فهو يتناول كل فن : الأدب والتاريخ واللغة والدين والطب . وهو ينتقل بقارئه من فن إلى فن على نحو كان يعجب القدماء ، ولكنه يجهد الباحث الحديث . اذ كانوا يرون ان الاستطراد من موضوع الى موضوع من شأنه ان يساعد القارىء على القراءة ويبعد عنه الملل ، بينما نحن نرى في ذلك تجزئة لوحدة الفكر والموضوع . كما ان الفارابي لم تقتصر مؤلفاته على الفلسفة وحدها - وهو سيدها وابن بجدتها - بل لقد تناول جميع فروع المعرفة أيضاً . ووضع كتاب (احصاء العلوم) وهو أول دائرة معارف مبوبة منسقة في الاسلام . وكان الرازي حجة في الفلسفة والطب والكيمياء والصيدلة والموسيقى . وكذلك ابن سينا امير الفلاسفة

وشيخ الأطباء والعالم الجهبذ التحرير . فقد التقت فيه شخصيات عديده فلما نجد لها شبيهاً في غيره من نوابغ الفكر والمعرفة . فهو فيلسوف منهجي ، وطبيب عبقري اكتشف جوانب كثيرة في مجاهل الطب . وهو في نفس الوقت منطقي كبير أضاف الكثير الى المنطق القديم ، وصحح اتجاهه الممعن في الاستدلال ، وأعطاه اتجاهاً تجريبياً سبق به رواد المنطق الحديث . وله أيضاً في الفلك والطبيعيات آراء ونظريات قيمة . وهو علاوة على ذلك رجل سياسة تولى الوزارة على عهد شمس الدولة البويهي مرتين . ولاخوان الصفا أخيراً دائرة معارف شاملة لكل علم وفن ظهرت في رسائلهم المشهورة .

وهؤلاء الموسوعيون هم الذين أعطوا الفكر العربي الاسلامي طابعه الموسوعي الانساني . ونحن لم نذكر منهم إلا أكابرهم. فبينما كان شارلمان ـ أكبر أباطرة الغرب في العصور الوسطى كلها ـ لا يعرف من الكتابة إلا رسم اسمه ، كان المجتمع العربي لا يرضى عن حاكم بلد صغير إلا إذا كان على حظ وافر من المعرفة بالتاريخ والشعر والنثر وعلوم الدين والطب والحكمة وأحوال الدنيا . فكان لزاماً على كل من يطمع إلى الرياسة أو إلى مقام رفيع في المجتمع ان يصل إلى مستوى لائق من المعرفة بهذه العلوم والتحقق بها . وقد يكون الرجل قائداً عظيماً ، أو خليفة واسع السلطان ، أو أميراً عظيم الولاية ، أو تاجراً ذا مال عريض ، ولكن المجتمع لم يكن يعترف بمكانه إلا إذا تحلّى بالثقافة الواسعة ، وقرأ عدداً لا يستهان به من الكتب ، و جالس أهل العلم والأدب وشاركهم الحديث وطارحهم الشعر ، لأن الأدب ـ أي الثقافة الانسانيةالواسعة ـ كان شرطاً من شروط الظهور والرياسة في ذلك المجتمع العربي الاسلامي المثقف العتيد .

لقد كان مجتمعاً عجيباً حقاً ، ارتفع عن النزوات الانسانية ، والنزعات العنصرية ، والخلافات الدينية . انه مجتمع دينه الاسلام ، ولسانه عربي . انه اسلامي عربي معاً ، على الرغم من خلاف قد نجده عند مطابقة نجريها بين العروبة والاسلام . فليست العروبة إسلاماً كلها ، وليس الاسلام عروبة كله .

فلقد ضم المجتمع العربي كل ما هو عربي ومن هو عربي ، مسلماً كان أو نصرانياً أو يهودياً أو صابئياً . كما ضم المجتمع الاسلامي كل ما هو من الاسلام وكل من كان مسلماً ، عربياً كان أو أعجمياً ، ما دامت اللغة العربية له

لساناً ناطقاً ، ويراعاً كاتباً ، ومنبراً مجلجلا .

أجل ، لقد كان العلم والفكر أعظم أمجاد هذا المجتمع العجيب . فقد اتسم طوال عصوره الذهبية باتساع الأفق ورحابة الفكر ، وموسوعية المعرفة ، وهو مجد تساوى فيه الحكام والمحكومون . فليس ادعى الى غبطة أهل الراي وأصحاب الفكر المتحرر ، من ان يتصوروا المأمون مثلاً ، وهو أمير المؤمنين وحامي حمى الاسلام ، يعقد المجالس العلمية في قصره ، ويقعد للمذاكرة مع كل ذي فكر ، على اختلاف دين ، واختلاف نشأة ، بل على اختلاف لسان . ومتى عاش المأمون ؟ عاش قبل ان يتحرر الفكر الأوربي بقرون . وهو مات قبل اليوم بما ينيف على الف ومئة عام .

قال النبي عليه السلام : « اطلبوا العلم ولو في الصين » . وطلبه خلفاء بني العباس في الصين وفي غير الصين . وهل هناك امتع لرجل العلم من تصور العالم الفلكي الهندوكي منكا ، يدخل بلاط الخليفة المنصور ليؤدي اليه بالذي عنده من علم ؟ ومن سعى به إلى بلاط الخلافة ؟ انه أبو اسحق ابراهيم بن حبيب بن سليمان الفزاري المسلم العربي ، وكان فلكياً مثله ، ومع ذلك لم تدخل الغيرة إلى قلبه .

ان هذه الروح هي التي انجبت الفكر العربي واثمرت الحضارة الاسلامية . ومع ان الناس في هذه الحضارة قد تقاتلوا أحياناً ـ سياسياً وعسكرياً ـ فقد ظلوا مجتمعاً واحداً له مجموعة واحدة من القيم والتزام خلقي واحد . وقد تحاور العرب مع الفرس والهنود على نطاق واسع ، وكان لهم ايضاً حوار مع الروم ، وبعد ذلك مع جيوب الحضارة اللاتينية . ونحن نعتقد بوجوب توسيع رقعة الحوار هذه وتعميقها . وهذا يعني ضمناً ان علينا ان نتعلم تراثنا من جديد ، كي نفهم ونفسر تراث الحضارات الأخرى ، ونقارنها بحضارتنا ونزيد مخزوننا من الافكار والثقافات . فلا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها : بالفكر سادوا وبالفكر انما نسود . فلا خلاص لنا إلا بالفكر .

●

والحق ان تخلّف العرب والمسلمين اليوم بعد قرون من التقدم نشر ضباباً كثيفاً حول الفكر العربي والحضارة الاسلامية حجب الرؤية الواضحة عن كثير

من المفكرين الأوربيين ، لا سيما أولئك المعروفين بمشاعرهم العدائية للعرب والاسلام . وهناك أيضاً حجاب آخر وهو أن صورة الاسلام في الغرب كان لا بد لها ان تتأثر لعدة قرون بتشويهات المنافسة الايديولوجية التي اشتدت بين العالمين الاسلامي والمسيحي . فقد كان هناك صدام مستمر بينهما ، لذلك كان العالم الاسلامي بالنسبة إلى أوربا بنية سياسية إيديولوجية عدائية يجب القضاء عليها . وهناك حجاب ثالث أيضاً وان لم يكن له أي طابع عدائي ، وهو ان العالم الاسلامي ينتمي الى حضارة مختلفة وإلى اقليم غريب ، ومنهج في الحياة مغاير لماكان سائداً في الغرْب . هذه الموانع المختلفة ، وان حجبت الرؤ ية عن أكثر الأوربيين ، فقد اثارت فضول قلة من المفكرين الذين كان رائدهم الوصول إلى الحقيقة . لكن الأكثرية الساحقة منهم اطلقوا لمشاعرهم العنان فاندفعوا في حملات التشهير بالعرب وتخلف العرب وتشويه تاريخهم بشتى الوسائل والسبل .

في هذا الجو بالذات كثرت الأوهام وشاعت عن تخلُّف الأمة العربية ، حتى لقد وقر في اذهان الكثيرين ان التخلف من طبيعة الجنس العربي الذي لم يُخلق لعمل عظيم . فقيل عن العرب « إنهم جاؤوا بالدين ولم يجيئوا بالعلم » . وقيل « لا يُفلح عربي إلا مصحوباً بنبي » . والعرب « لا يفلحون في دولتهم وفي غير دولتهم إلا محكومين » . وقال بعضهم « ان العرب لا يحسنون صناعة الحكم ، وإلا لما خرجوا من الاندلس بعد الغلبة عليها عدة قرون » . وقال آخرون : « إنهم لا يحسنون فنون الحضارة ، وإلا لكان لهم فنٌّ جميل غير نظم القصيد » . وقال قائل منهم أيضاً : « ان العرب لا يحسنون من اعمال المعاش غير ما تعودوه في البادية من رعي الابل » .واشتكى آخر من « ان العرب ظلوا شرقيين [لا يجدي فيهم علم أو ثقافة] . فانهم رغم اتصالهم باليونان لم يتأثروا بالصيغة الثقافية الجديدة التي صنعوها بعقولهم » كأنما العرب صنعوا هذه الصيغة لمجرد اللهو والتسلية وللحصول على بركتها الرسولية ، ثم لتصديرها بعد ذلك للآخرين . لقد حرموا انفسهم مما صنعوه بأيديهم . يا للغباء !

فالشرق مقرون عند اصحاب هذه الآراء البلهاء بصفات ذميمة أقلها الطغيان والجمود والسلبية وفساد الفطرة وانحطاط الخُلق وعدم القدرة على التقدم أو القيام بأي عمل ابداعي . فاذا كانت « المنطقة العربية هي التي قدمت

للعالم طريقة الكتابة بالحروف الأبجدية ، ونقلت الكتابة من فينيقيا إلى اليونان ، وهناك تطورت ، إلا ان العرب اكتفوا من هذه الطريقة بتقديس ما هو مكتوب ، كأنما هم عبدوا الأحرف التي صنعوها ، بينما نظر اليها اليونان على انها مجرد أداة للتفكير ، لا على انها شيء مقدس معبود » . فكأن ابتكار الكتابة الذي يكفي وحده للدلالة على نُقلة حضارية فذة ، انقلب على أيدي العرب ليكون أداة عبودية تسترقّهم ، وليكون هو نفسه اداة تفكير تسمو باليونان إلى أعلى المراتب ! والدليل على ذلك عبقرية العرب ! فالعبقرية اصبحت عبودية لا لشيء إلا لانتسابها إلى العرب !!! فالدليل على عبوديتهم عبقريتهم ! هذه هي النتيجة المنطقية لنقد ذلك « البحاثة » ـ لا فُضَّ فوه ـ الذي يبدو انه من « العبقرية » بحيث لا يعلم أن كلامه سيؤدي إليها . ولعله يعلم ذلك ولكنه يظن أننا نحن العرب الشرقيين من الغباء بحيث لا نستطيع فهم أقواله . وإلا لصاغها صيغة أخرى . أرأيت إلى هذه الأحكام الصبيانية ! أرأيت إلى قادة الفكر والرأي وهم أسرى التعصب والهوى !! ؟ هذه هي « عقدة العرب والاسلام » التي لا يزال كثير من الاوربيين يعانون منها . وسنرى أمثلة كثيرة لها في تضاعيف هذا الكتاب .

إن أقوالاً من هذا القبيل ، بعضها ـ وهو قليل جداً ـ يتوخّى الحقيقة ، ولذلك فهو يقال بحسن نية . ومن الممكن تغيير آراء هذا الفريق من رواد الحقيقة عندما يقفون على حقائق جديدة . إن مشكلتنا ليست أبداً مع هذا الفريق ، وإنما مشكلتنا ـ كل مشكلتنا ـ مع الفريق الآخر الذين يكتمون الحق وهم يعلمون هؤلاء لا سبيل إلى إدخال أي تغيير أو تبديل في أفكارهم المبيّتة . نحن لا ننكر أن هناك تياراً جديداً من النظرة المحايدة والمنصفة إلى الفكر العربي الاسلامي ، غير أنه يشق طريقه بصعوبة بالغة بين الألغام التي أقامها الفريق السابق الذي يلبس مسوح الاستشراق ولكنه يستقوي بقوى غازية ضخمة متسلطة شريرة ، مؤيّدة بسلطان النفوذ الاستعماري الذي يسعى إلى تحقيق غرضين :

الأول ـ انتزاع الفكر العربي الاسلامي من عالمه ، بالتشكيك فيه وإثارة الشبهات من حوله ، لفرض منطق الفكر الاستعماري ومقومات ثقافته، وبذلك تسيطر الثقافة الغربية وتصهر في بوتقتها مختلف الثقافات ، وفي مقدمتها الثقافة

العربية الاسلامية التي تختلف أساسا في جذورها ومقوماتها عن الثقافة الغربية المستمدة من الوثنية اليونانية والقانون الروماني والكاثوليكية الغربية .

الثاني ـ إسقاط نفوذ الفكر العربي الاسلامي الذي استطاع في أقل من قرن ـ وبدافع من مقوماته الذاتية ـ أن يسيطر على عالم ضخم واسع ، وأن يغير كثيراً من المفاهيم وموازين القوى وهو قادر على ذلك مرة أخرى في جولة جديدة إذا عاد إلى مفاهيمه الانسانية وقيمه الأصيلة ، وتسلح بالعلم والتكنولوجيا . وهذا ما لا يسلم به الاستعمار بسهولة .

وهكذا فلا مناص لنا من النظر إلى الاستشراق على أنه شيء ملازم للاستعمار ، حتى ولو كانت الروابط بينهما معقدة وغير مباشرة .



وإذا كان تخلف العرب الراهن من الأسباب التي حجبت الرؤ ية الواضحة عن أعين الأوربيين فالتخلف على كل حال ليس له جنسية أو دين . وانها لأكذوبة كبيرة أن نتصور للتخلف بطاقة دُوّن فيها أمام الاسم كلمة (عربي) ، وأمام الديانة كلمة (مسلم) .

فالاسلام لم يمنع العرب من التقدم ، بل ـ ماذا أقول ؟ ـ هو الذي أخرجهم من عقر دارهم وقذف بهم في الآفاق . ولولا الاسلام لظلوا يتسكعون في باديتهم إلى يوم يبعثون . . .

كما ان العروبة ليست هي أيضاً مانعة من التقدم ، بل ان العرب قبل الاسلام ينفردون بميزة لم تتوفر لغيرهم هي أن يقظتهم القومية اقترنت برسالة دينية، ولعل الأدق أن نقول : كانت هذه الرسالة تعبيراً عن تلك اليقظة . فالاسلام هو بحق ، خير مفصح عن يقظة العرب ونهضتهم وتقدمهم . لقد جاء بلغتهم ، ولبى حاجات بيئتهم ، ووحّد شخصيتهم ، واصطبغ بعبقريتهم ، وامتزج بتاريخهم ، وربط فيهم اللفظ بالشعور والفكر ، والتأمل بالعمل . فهو خلاصة ما في الشخصية العربية من مثل وقيم . ولهذا استطاع محمد في جيل واحد من الزمان أن ينتصر في مئة معركة ، وفي قرن واحد أن ينشىء دولة عظيمة ، وأن يبقى إلى يومنا هذا قوة مؤثرة في سير الأحداث وموازين القوى . أجل ان العرب قبل الاسلام كانوا على أبواب يقظة ظهرت بوادرها الأولى في الشعر الجاهلي

وحركة الحنفاء . فالعرب كانوا يتلمسون الطريق بحثا عن البطل الذي يقودهم إلى سواء السبيل ، كما ان محمداً عليه السلام كان هو بدوره يبحث عن قوم يحملون رسالته . فكأنهما جاءا على موعد . وهذا لعمري، من أهم اسباب النجاح الخارق الذي لقيته الدعوة الاسلامية بين الجماهير العربية ، والانتصار المذهل الذي حملهم في قرن، أو يزيد إلى جميع بقاع العالم المتمدن آنذاك .



لا ينكر أحد أن حاجزاً منيعاً لبث قروناً طوالاً يفصل بين حضارتين وثقافتين وطريقتين من الحياة ومن الفكر والنظر ، وهما بلاد فارس وبلاد الاغريق . يضاف إليهما حاجز آخر وإن كان أقل مناعة كان يقوم أيضاً بين هذين البلدين وبين بلاد الفراعنة . وكذلك كان هناك أخيراً حاجز ثالث أضعف من السابق وأقل منه أثراً ، وهو الذي كان يفصل بين الفرس والهنود بخاصة ، وبلاد الشرق بعضها عن بعض بعامة . ولما جاء الاسكندر الأكبر قام بأول محاولة تاريخية لتحطيم هذه الحواجز الحضارية ، وذلك عندما وصلت فتوحاته إلى أبواب الهند . لقد كان ذلك لقاء عظيماً بين حضارات متباعدة . لكن هذه المحاولة التاريخية الرائدة على اهميتها لم تستمر طويلاً ، فهي ليست شيئاً يذكر بالقياس إلى اللقاء الحضاري العميق الذي قامت به الفتوحات الاسلامية . ان فتوحات الاسكندر لم تستطع دمج هذه الرقاع الشاسعة بل سرعان ما انحسر هذا المد وعاد كل شيء إلى ما كان عليه بعد حقبة قصيرة نسبياً . فالدمج الذي لم يكتمل على يد القائد المقدوني العظيم بل ظل أملاً يداعب خياله،أصبح حقيقة واقعة على أيدي العرب : دمج لغوي وديني وسياسي وثقافي وحضاري . لقد التقت الأضداد ، وامتزجت الأمشاج ، وانصهرت الفوارق في تركيبة فكرية واحدة جديدة : هي الثقافة العربية والحضارة الاسلامية .

إن أصالة العرب ـ أو قل إن وجهاً واحداً فقط من وجوه أصالة العرب ـ ان المجتمع الذي إنما بدأ يتكون منذ القرن الأول للهجرة من بيئات شتى وثقافات مختلفة وألسنة متباينة ، أصبح مقراً فريداً لاتصال أصحاب المدارس العديدة وتلاقح أفكارها ، وموطناً لالتقاء الثقافات والأديان والحضارات التي كانت قبله منفصلة بعضها عن بعض بحواجز وحدود جغرافية ودينية وتاريخية وثقافية وحضارية

جعلت التفاعل بينها مطلباً عسيراً ليس إلى تحقيقه من سبيل . فلئن كانت مراكز الاشعاع القديمة قد أدركت نوعاً من التطور البطيء قبل الاسلام لضعف إمكانية التأثر المتبادل ، فقد وجدت في المجتمع الاسلامي العربي هذا التأثير ، وقفزت إلى مستويات رفيعة من التفاعل والأخذ والعطاء لم تعرفها من قبل . وفضلاً عن ذلك ، إن التقاء الحضارات القديمة وخلفياتها التاريخية بعضها ببعض في هذه المنطقة المترامية الأطراف المتسعة الأكناف ، كان أيضاً ذا أثر فعال في تنقية الأفكار وتصفيتها وفتح آفاق جديدة في المعرفة لم تكن بالحسبان .

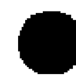
إن هذا المجتمع الجديد إذن هو الذي ولّد الصلة وحقق اللقاء . إن التفاعل التاريخي العجيب المذهل لم يتم إلاّ على أيدي أولئك الذين خرجوا من البادية بأفكار جديدة ـ نعم من البادية التي لم تنتج إلا رعاء الابل ـ ليدخلوا التاريخ من أوسع أبوابه . وان تعهد هؤلاء لهذا التفاعل وحضانتهم له ، وامداده بكل جديد وطريف كان عملاً فذاً رائعاً حافظ به العرب على حضارات الفراعنة والأغارقة الهنود ، أو على الأقل سمحوا ببقاء ما بقي منها . ولولا الحضارة العربية الاسلامية لتفرقت هذه الحضارات شذر مذر وذهبت أدراج الرياح . فلولا العرب لما تمّ التفاعل واللقاء ، ولانفصلت العصور القديمة عن العصور الوسطى ولضاع ميراث طويل وتجارب غنية خصبة . لقد وصلوا ما انقطع وجمعوا ما تفرق ، وربطوه بوشائج قوية حفظت التراث الانساني . بل ـ كما سنرى ـ لقد أغنوا هذا التراث بثمرات عقولهم وأضافوا إليه كل مبتكر جديدوأصيل.فنهضت بهشعوب، واغتذت به قلوب ، وكان متاع مفكري عصر النهضة في أوربا ومفجّر طاقاتهم ، وحجة العقل الانساني على غيره من جواهر الكون وعناصر الوجود .



ولا غرو في ذلك ، فللعرب تراث لا يفوقه تراث . وهذا التراث ليس محصوراً في نطاق الأدب كما يشيع البعض . ولكنه إلى جانب ذلك تراث ديني واجتماعي وعلمي . بل لعل الأصح أن نقول انه تراث خصب متنوع تتوفر فيه جميع الجوانب التي تكون للحياة الغنية الدافقة . فالتراث العربي في علم الحرب مثلاً لا يقل عنه في علم الكيمياء أو الفيزياء أو الفلسفة أو التاريخ أو الاجتماع أو الأدب أو علوم الدين . . . والمتأمل للحياة العربية والاسلامية في مختلف صورها

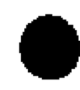
لا يسعه إلا أن يعجب بالمنجزات العربية الاسلامية في كل ميدان . ذلك بأن الحياة العربية الاسلامية كانت حياة غنية منفتحة على العالم شرقه وغربه ، تأخذ من كل مكان وتعطي لكل قوم . فتُغني وتغتني ، وتضع لنفسها تراثاً ضخماً في العلم والأدب والفن ومناهج الفكر والحياة .

أجل إن الناظر في كتبنا القديمة لا يسعه إلا أن يشعر بالاعتزاز والغبطة لما كانت عليه الحياة العربية من غنى بالقيم السامية والمثل الرفيعة والتقاليد الراسخة . فان لنا ماضياً نستطيع أن نفاخر به أيّ أمة ماضية مهما علا شأنها ، ولعمري انه لماضٍ مشرف في كل ميدان وكل منحى . ثم ان لنا تقاليد من حقنا أن نزهو بها على كل صاحب تقاليد . ولست أقول ذلك مباهاة أو إدلالاً ، وإنما أقوله تقريراً لواقع وتوكيداً لحق ، هذا على الرغم من علمي ان ماضينا ـ ككل ماض ـ فيه بعض ما لا يسر ، وان تقاليدنا وعاداتنا فيها أيضاً ما يخزي وما يجب التخلص منه . وحسب الحضارة العربية مكرمة انها حضارة احترمت الانسان وكرّمت الانسان ، ولم تتح اضطهاده وامتهانه لأقل هفوة . كيف لا والايمان بالقيم الانسانية إيمان رافق العرب والمسلمين عبر العصور . ويكفينا أن نذكر شواهد على ذلك ما نقع عليه في الدولة العربية منذ أيام الفتح الاسلامي من مساواة بين الناس وابتعاد عن العصبية العرقية ، وتنكر حتى للعصبية الدينية . ولقد تجلت فكرة المواطن في الدولة العربية في أبرز صورها وأبهى حللها منذ تباشير الحركة الاسلامية ، واتخذت اللغة العربية لساناً يجمع بين أبناء هذه الدولة ، وعدّت الروابط الأخرى روابط ثانويه ، وأباحت ضمن الكيان العربي حرية الأديان والمعتقدات . بل لقد أسهم أصحاب الديانات الأخرى في بناء الدولة إسهام المسلمين أنفسهم في ذلك ، وأسهم المتعربون من غير العرب الأصليين في بناء الحضارة العربية إسهام العرب الاقحاح في هذا البناء . وهكذا استطاع العرب أن يثبتوا عملياً إمكان التوفيق بين الطابع العربي للدولة العربية وبين احترام الانسان إلى أي جنس انتسب ، أعني بين المنزع القومي والمنزع الانساني . وجعلوا الجامع الذي يربط بين أبناء الدولة العربية هو العمل لهذه الحضارة الموحدة والايمان بأهدافها السامية وقيمها الرفيعة ومُثلها الانسانية السمحة .



هذا وإن حضارات الشعوب تتعرض في مسيرتها التاريخية لموجات متعاقبة من المد والجزر ، والارتفاع والهبوط ، وان حضارة العرب ليست مستثناة من هذه الظاهرة التاريخية العامة . ويطول بنا الحديث لو مضينا نستعرض ما طرأ على الحضارة العربية من هذه الموجات التي ارتفع مدها أحياناً فجعل من الاسلام دين العصر وفلسفته ، ومن لغته لغة النخبة الممتازة والكثرة المتطلعة إلى الرقي والمجد ، كما جعل من المسلمين قوة سياسية هائلة كبرى ترتفع إعلامها على أمصار متعددة الأديان واللغات والثقافات . . . ثم دار الزمن دورته ، فانحسر هذا المد العظيم ، وانكفأ المسلمون والعرب على أنفسهم في صراعات داخلية مذهبية وسياسية ، وأزمات معيشية واجتماعية . . . وتضاءلت أعمال الخلق والابداع ، وسادنوع من الرتابةالحضاريةالتي تجترّ ذاتهاوتكررذاتهاأوتكتفي بتقليدغيرها.

وانها لمهزلة من مهازل التاريخ أن يشعر العربي منذ أربعة عشر قرناً بالتفوق على غيره ، ثم يدور الزمن فتحوّل شعور التفوق عند العرب أنفسهم إلى عقدة التدني،وإذا بنا نسمع من يقول أن نقائصنا وأمراضنا سببها العروبة والاسلام . ولنتأمل لحظة ما كتبه بترارك ، وهو من فحول الأدب الايطالي في القرن الرابع عشر للميلاد ، ومن المبشرين بالنهضة الاوربية . لقد كتب الرجل يقول لقومه : انكم تتوهمون أنه لن ينبغ أحد بعد العرب.لقد نافسنا اليونان وتفوقنا عليهم ، ونافسنا كل الشعوب والأمم ، ومع ذلك تقولون أننا لن ننافس العرب ؟ تُرى ، هل أصيبت عبقرية الايطاليين بالعقم ؟



إن عملية إحياء التراث عملية قومية ، فضلاً عن أنها إسهام علمي وحضاري . انها ليست مجرد تحقيق للنصوص بقدر ما هي تصحيح للنفوس ومعايشة لاهرامات الفكر وقيم التاريخ والحقيقة . فنحن حين نعتزّ بتراثنا الفكري الذي خلفه لنا رجالات من أمثال الكندي والفارابي والرازي وابن سينا وابن الهيثم وابن البيطار وابن النفيس وابن باجة وابن طفيل وابن رشد وابن خلدون . . . فليس معنى ذلك أننا نلتمس لدى هؤلاء فكراً ندين به اليوم في العقود الأخيرة من القرن العشرين ، أو مذهباً عقلياً نسير على هديه ، أو حلولاً لمشاكل ومعضلات تطرح في هذا العصر . كلا . انه لا يهمنا مضمون هذا

التراث بقدر ما تهمنا روحه . فعندما نعتز بهؤلاء العظماء وننتسب إليهم فإنما نستلهم حبهم للحقيقة ، ونستوحي رغبتهم الصادقة في البحث عنها وطلبها في جميع مظانّها . فالاعتزاز بالتراث ليس معناه تقديس الموتى والعيش في القبور ، وإنما معناه أن ننفذ إلى روح ذلك التراث ونتذوقه ونعانيه ونحياه حتى يكون جزءاً من كياننا . فالقارىء لديوان المتنبي مثلاً قراءة إحياء يجب أن يخرج منها وقد سرت في عروقه كبرياء هذا الشاعر وإيمانه بذاته وقومه . وقارىء ابن الهيثم يجب أن يتقمص ابن الهيثم بحيث يخترق ضلوعه ويسري في شرايينه ليرى بعينه (بعين ابن الهيثم) ويبحث بعقله ووعيه وكأنه هو ابن الهيثم في رؤ يته للكون وتحليله للأحداث وظواهر الأشياء ، وتطلعه إلى اكتشاف الحقيقة والوصول إليها وسبر أغوارها . لقد كان ابن الهيثم باحثاً منقباً متفحصاً ، يخوض كل لجة ، ويتقحّم كل مشكلة ، ويرود كل مجهل . هذا هو ابن الهيثم ، وهذا هو الفارابي وابن سينا والبتاني . . . والأمم إنما تسمو وترتفع بأمثال هؤلاء الرجال . فلننفذ إليهم ولنندمج فيهم حتى نكون إياهم . ومثل هذا الدمج الذي تحققه لنا لحظات التذوق والمعاناة لتراث أسلافنا هو في مقدمة العوامل الكفيلة بأن يكون الخلف جديرين بأولئك السلف واستمراراً لهم في الروح والجوهر ، دون الاهتمام كثيراً بالمضمون والمادة في تفاصيلها التي تخطاها الزمن . وبذلك يعيد التاريخ نفسه ، إذا كان التاريخ حقاً يعود .

ومعنى ذلك أن العلم والفلسفة إذا كانت قد تقدمت اليوم تقدماً هائلاً قد لا يجعل الانتاج العلمي والفلسفي العربي ذا فائدة ، إلا أن ذلك لا ينفي أبداً أن الوقوف على التراث العلمي والفلسفي العربي ـ أو إحياء هذا التراث ـ من شأنه أن يحث همم أبناء الجيل العرب المعاصرين ويبعث فيهم الثقة بمقدرتهم على مجاراة الآباء والأجداد . فمن المؤكد أن البيئة العربية الاسلامية التي أنجبت علماء وفلاسفة عالميين كالفارابي وابن سينا والبيروني والطوسي وابن الشاطر لم تفقد قدرتها على إنجاب أمثالهم في الوقت الحاضر ، على أن يعاد النظر في هذه البيئة من جديد وفي الأسس والقواعد والمفاهيم التي تقوم عليها . فإذا فعلنا ذلك كنا خير خلف لخير سلف ، وإلاّ فبطن الأرض خير لنا من ظهرها .



إن فهم الأمة ـ أيّ أمة ـ لذاتها عنصر أساسي من عناصر حياتها الثقافية في أي عصر من العصور . ولكنه يكتسب أهمية خاصة وغير عادية في فترات التحول الحضاري الذي يرافقه دائماً تحول في أنماط التفكير والسلوك وأساليب البحث والنظر . إن هذا الفهم يعتمد اعتماداً كبيراً على فهمها لتاريخها فهماً علمياً صحيحاً ، وإدراكها لتراثها إدراكاً واعياً سليماً ، لاحياء ما يستأهل منه الاحياء ، وإسقاط ما اهترأ فيه ويبس ، وما يملأ جوانبه من غثاء وزبد يكبر حجمه وتقل منفعته ، ويكون عبئاً عليه يُثقل خطاه ويمنع حركته . فكل شيء يجري وكأن الانسانية ، كيما تتقدم ، لا بد لها أن تعمل على محورين : الأول حماية مكاسب تاريخها الماضي وإلاّ اضطرت إلى العودة والانطلاق من الصفر ، والثاني التخلص من ثقل هذا الماضي بقدر ما يعوق حرية الحركة والتطور فيها . وهكذا ، فحين بدأ الوعي العربي الحديث التفت العرب إلى تاريخهم يتدارسونه ، وإلى تراثهم يحيونه ويكتبون فيه . وان نظرة شريفة إلى ما كتبوه في المئة سنة الأخيرة تدل على إنتاج واسع يثير الكثير من التفاؤل والأمل . وقد ازداد التأليف في التاريخ والتراث سعة وغنى باطراد النهضة العربية . وهذا طبيعي لأن نهضة الأمة وتطورها الثقافي والاجتماعي على صلة وثيقة بحسها التاريخي ووعيها التراثي والحضاري وإيمانها بذاتها ومعنى وجودها .

ان التوثب العربي الحديث يتطلب فهم الذات العربية ، وان تجديد الكيان العربي وبناء مجتمع عربي سريع الحركة والتطور ، لا غنى له عن فهمه لذاته وإدراكه لجذوره التاريخية ليواجه المعضلات القائمة ويستعد للمستقبل الذي ينشده . فإذا كانت الشعوب التي ليس لها أي عمق تاريخي ولا تجارب حضارية قد استطاعت ان تتخطى جميع الصعوبات التي واجهتها وان تذلل جميع العقبات التي قامت في طريقها ، فأوْلى بالشعوب ذات العمق التاريخي والتجارب الحضارية كالشعب العربي ان تفعل ذلك لتعود إلى مقام الصدارة وتتولى بنفسها قيادة الاحداث . ولن يتحقق ذلك إلا بالدراسة الجدية وبالبحث العلمي الهادىء الرصين . فنحن لا نريد ان نبني تفكيرنا وكياننا بناء عاطفياً رومانسياً ، ولنا من الثقة بذاتنا وبرسالتنا التاريخية ما يكبح فينا كل جموح أو شرود ، ويردنا باستمرار إلى جادة الحق والصواب .

ان الوطن العربي يهتز اليوم بعد قرون طويلة من الاستقرار والاستخذاء . لقد بدأ يعيش في ضوء التاريخ بعد قرون من الحياة الهامشية المتسكعة في متاهات الظلام . وما التبدلات السياسية التي تحدث فيه من وقت إلى آخر - من زوال حكم وقيام آخر ، وانتهاء أسرة وحلول أخرى ، وسقوط نظام وصعود آخر . . . إلا مظاهر لتبدلات عميقة في المجتمع العربي تتفاعل فيه لتقيم على انقاضه مجتمعاً جديداً وحياة جديدة .

اجل اننا نعيش في عصر تحول سريع مررنا بمثله منذ قرون خلت : تحول سياسي من نظم قبلية أو تبعية استعمارية - عثمانية وأوربية - إلى استقلال ذاتي أوشبه استقلال ، تحوّل قومي وانتقال من حال التفتت الاقليمي والتشتت الفكري إلى البحث عن الهوية القومية ؛ تحول اجتماعي من مجتمع تسود فيه سلطة الأب وعلاقات أسرية صارمة وطائفة من الاعراف والتقاليد وانماط السلوك إلى مجتمع متحرر من هذه القيود يتبنّى القيم والمفاهيم الغربية ؛ تحوُل اقتصادي وثقافي أطاح بالكثير من المفاهيم القديمة ؛ تحوُل تكنولوجي وعلمي . . . تحوُل في كل شيء ونُقلة سريعة نشأت عنها تغيرات هامة في البنية الاجتماعية والصحة النفسية ، والتكوين الخلقي ، والمطامح والقيم والنظرة إلى الحياة .

اننا اليوم نكاد نسير في اتجاهين : اتجاه سلفي تقليدي ، والآخر مقلّد مستورد . وكلا الاتجاهين خطأ ، لأنه لا يمد الحضارة بطاقة خلاقة تدفع بها إلى الأمام . انه عبء على الحضارة ومثقل لخطواتها ، فهو بدلاً من ان يضيف قيماً جديدة ويكشف أبعاداً حضارية جديدة ، ومعاني إنسانية جديدة ، وارتباطات وعلاقات جديدة ، إذا به ينكفىء على ذاته ويكتفي بذاته ويجترّ ذاته وييبس في ذاته ، بلا أمل ولا طموح ولا شعور بمعنى الحياة . ولولا ما يعتمل في الذات العربية - في هذه الحقبة من تاريخها - من قوى وفعاليات تشدها إلى الأمام وتغذي فيها بعض التطلعات والآمال ، لأطيح بها ولما صمدت لعوامل الفناء .

فنحن اليوم يتنازعنا عالمان : عالم الماضي ، وقوامه تراث ثقافي وحضاري عريق لكن أصابه اليبس والاهتراء والتحجر دهراً ؛ وعالم الحاضر وما فيه من تحولات وثورات ومفاجآت وتناقضات تسُوطنا وتدفع بنا إلى أتون الأحداث لنصنع تاريخنا ووحدتنا ونقهر قوى التسلط والطغيان . انها تهيب بنا ألاّ نكون

غربيين صرفاً ولا تراثيين صرفاً ، بل ان نكون ذاتنا ، وذاتنا فقط ، وان نخلق شخصية ابداعية فريدة ، وهذا لا يتأتّى إلا بتنمية الحس التاريخي وتقوية الوعي القومي ، وتحليل الوقائع والأحداث الراهنة . يجب ان أعرف أين أنا وما يحيط بي من ظروف وأحداث قبل ان اشرع في العمل. فليس من الجائز أبداً لكل من يتصدى لدراسة التراث دراسة علمية واعية ان ينسلخ عنه نهائياً ، مهما كان داعية إلى التجديد ، ولا ان يتقمصه كلياً مهما كان ذا رؤ ية سلفية . ان دراسة التراث لا تكون منتجة إلا بقدر ما يساعدنا على ايجاد نموذج ابداعي جديد مغاير للنموذج القائم دون ان يفقد صلته به . لا ابداع في التزام النموذج القائم ولا في الانفصال عنه . لا تفتّح في ظل النظم الرجعية المستبدة والقوانين الصارمة . يجب ان نكون أحراراً لكي نكون مولّدين مبدعين ، لكي نكون ذاتنا حقاً وصدقاً . وأيُّ خطأ في هذا السبيل يُعرِّض المسيرة لافدح الأخطار وأشدها هولاً .

ان هذه الحقبة التي تتميز بالصراع والتغير والتضعضع وعدم اليقين تركت آثارها الواضحة في النفسية العربية وطبعتها بطابعها . ومن هنا ما نعاني من قلق وأرق وشعور بالغربة والضياع . . . انها تربة خصبة لحملات التشهير المسعورة التي يشنها علينا الاستعمار بأشكاله المختلفة صباح مساء ليوهن من عزيمتنا ، يدعمه في الداخل المرجفون والعملاء وأصحاب النفوس الضعيفة . انها فرصتهم الذهبية لكسب الحرب النفسية بعد ان استنفدت الحرب العسكرية جميع أغراضها . ففي هذه الفترة انطلقت ـ ولا تزال تنطلق ـ دعوات خبيثة مرجفة غايتها بث الذعر والهلع في النفوس وتثبيط العزائم . هناك تيارات ضخمة متعددة منها ما صدر عن عملاء شعوبيين في الداخل يدعو بعضها إلى الفينيقية أو الفرعونية أو البربرية ، وبعضها إلى التحلل من الحرف العربي واللغة العربية الفصحى واستبدالها بالحرف اللاتيني واللهجات الاقليمية [1] ، ومنها ما قذفت به أوربا (ووليدتها أميركا) من دعوات ومذاهب عنصرية ، تشكك في الشعوب غير البيضاء ، وتحتكر لنفسها حق التفوق والولاية على سائر الشعوب ، لتستنزفها وتنهب خيراتها ثم تذرها قاعاً صعصفاً ، ومنها . . . ومنها . . .

---

(١) انظر كتابنا : المرجع في تاريخ العلوم عند العرب . صفحة : ٢٣٢ ـ ٢٣٧ .

ولقد كان على هذه الأمة ان تنظر بيقظة وحذر إلى جميع هذه الدعوات ، وتفهم بواعثها وغاياتها ومصادرها ، وتقف على بينة أمرها لتستطيع مواجهتها والتصدي لها بعلم وحزم . إن دأب الاستعمار ودينه وديدنه التشكيك والتوهين والتمزيق وبث الفرقة وخلق البلبلة واذاعة روح القصور والحيرة والقلق ، في محاولة مكشوفة لدفع الفكر العربي المعاصر في مجال التبعية والانقياد للروح الغربية ، وللقضاء على المثل الأعلى للشخصية العربية والاسلامية، وخلق جو من فقدان الثقة بالقيم العربية الاسلامية والتاريخ العربي الاسلامي ، واحتقار كل ذلك وإثارة الشبهات من حوله ، لاحلال قيم الغرب ومفاهيمه محل القيم الفكرية الثقافية التي يدين بها الشرق والعالم العربي والاسلامي ـ وهي قيم ومفاهيم تختلف في جوهرها عن قيم الفكر العربي ومفاهيمه ـ ولابقاء المشرق العربي والاسلامي ممزقاً مفككاً . أو ليس من العار والسخرية معاً أن يقال (الشعوب العربية) و (الدول العربية) ؟ فليت شعري هل يقال (الشعوب الفرنسية) و (الدول الانكليزية) ؟ ان الوحدة هي المطلب الأساسي للعرب ، وهي دواؤهم الشافي . انها الأمل الكبير الذي تتطلع اليه الملايين من أبناء العروبة ، ولا خلاص لنا إلا بهذه الوحدة . وما دامت الأمة العربية ممزقة فستظل لقمة سائغة في أفواه المستعمرين الغاشمين ، ولن تصبح شوكة في حناجرهم إلا بتوحيد الكلمة والهدف والصف وجمع الشمل والرأي وتضافر الجهود والطاقات للافادة من خيرات هذه المنطقة وتوزيعها توزيعاً عادلاً ، وإقرار نظام واحد في الحكم والادارة يُراعي الفوارق الاقليمية والاختلافات الجغرافية ، ويأخذ بالحسبان جميع الظروف الموضوعية لكل بلد ، دون ان يفرّط في مصلحة المجموع . ولا ينبغي ان نتصور هذا كله متحققاً في المجتمع بأكمله بل يكفي ان يكون متحققاً أولاً في الطليعة القائدة ثم يسري منها إلى سائر أفراد المجتمع. فالحركات التاريخية الكبرى انما تبدأ بالنخبة والطليعة أولاً ثم تُثنّي بالشعوب .

نحن في أمس الحاجة إلى ان نعرف كيف نقرن الثورة الاجتماعية بالثورة الثقافية ، بالتراث القديم ، وما يحمله من قيم إيجابية ، حتى لا يكون التحول انفصالاً عن الماضي ولا استيراداً مُنْبت الصلة بتاريخ الواقع . فالتحول الحقيقي هو انفصال عن الماضي واتصال به في وقت واحد ، في معادلة دقيقة تجمع بين

تنمية الحس التاريخي وتقوية الوعي الاجتماعي والثقافي ، واذكاء الانتماء الحضاري والانساني . فالمجتمع ـ أيّ مجتمع ـ لا يمكنه ان يعيش بذاكرة ذابلة ، كما لا يمكنه أبداً ان يلقي بثقله على جهود الآخرين ويدين لهم بكل أسباب وجوده . لا يمكنه ان يعيش اسير تراث جامد دون تقليمه من وقت إلى آخر وإزالة ما ذبل فيه وتقادم . لا يمكنه ان يُعوِّل على غيره ويعتمد عليه في جميع أمره بلا طموح ولا أمل . لا بد من التزام معادلة دقيقة بينهما ، فيأخذ ويعطي ، ويُرفد ويسترفد ، ويضيف قيماً جديدة وحقائق جديدة ، كل ذلك ضماناً لسلاسة الحركة الاجتماعية وسلامتها ، ولتوفير أكبر قدر من التوافق الاجتماعي بين الفرد والمجتمع ، بين الواقع المادي والواقع الفكري ، ولاطراد حركة المجتمع وتوسيع أبعاده الحضارية وآفاقه الانسانية .



أجل ، لقد استطارت الاتهامات ودعوات التشكيك في مختلف مجالات الثقافة العربية الاسلامية وقيم الفكر العربي واللغة العربية والتشريع الاسلامي والتاريخ الاسلامي . . . استطارت منذ بدأ الاحتلال والنفوذ الغربيان يسيطران على العالم الاسلامي والأمة العربية . وهكذا ترافقت الحرب العسكرية والحرب النفسية ، وتعاون السيف والقلم للقضاء على المقومات الأساسية للفكر العربي الاسلامي ، وهي المقومات التي كانت ولا تزال تحمل لواء المقاومة لكل غازٍ ودخيل ، دون ان تتخلى يوماً عن انفتاحها على الثقافات المختلفة والبحث عنها في جميع مظّانها . ولم تكن سيطرة الاستعمار الأوربي على العالم العربي الاسلامي إلاّ حلقة من سلسلة طويلة من المعارك بدأت في القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) بالحروب الصليبية التي انتهت بهزيمة الغرب ، ولكنها أمدَّته بقوة جديدة ودم جديد . ولم يلبث العالم العربي والاسلامي بعد ذلك بقليل ان أصيب بالجمود والضعف ، فاقفل أبوابه متخلياً عن أبرز مقوماته الفكرية ، وهي القدرة على الحركة واليقظة والقوة والتجدد وحماية الثغور . ثم جاء الحكم العثماني فكان ضغثاً على ابالة . واعقبه أخيراً الاستعمار الغربي الذي لا يزال ينشب أظفاره فينا رغم مظاهر الاستقلال المزيف . ومن سوء حظ هذا الاستعمار ان استعماره سينقلب عليه عاجلاً أم آجلاً ، ولا سيما بعد ان زرع اسرائيل في هذه المنطقة .

فكما ان الصدمة التي أحدثتها الحروب الصليبية الأولى أفلحت في ايقاظ العرب من جديد وعملت على تماسكهم بحيث استعادوا بيت المقدس على يد صلاح الدين عام ١١٨٧ ، فان الصفعة التي تلقاها العرب في حرب ١٩٤٨ وتلك التي اعقبتها ١٩٦٧ سيكون لهما ـ دون شك ـ آثار أقوى ذات أبعاد دولية شاملة .

ان القيود التي كبلت الشعوب العربية والاسلامية دهراً طويلاً قد أخذت تتمزق ، نتيجة تفاعل قوى كامنة في طبيعة هذه الشعوب لا يعرفها إلا من درس عقائدها وأخلاقها وتاريخها وتراثها ، وغاص في مجتمعاتها ، للوقوف على طبيعة هذا الإباء للهزيمة وهذا الرفض للسيطرة مهما كانت قوة المستعمر وجبروته .

واليوم وبعد مرور ما يقرب من قرنين من المواجهة الحضارية والاختلاط الثقافي والغزو العسكري ، فقد بدأ الاستعمار يتجرع الغصة تلو الغصة . فالعالم العربي اليوم غيره بالأمس القريب ، وسيرتدُّ كيدُ الغرب إلى نحره ، وستزول خليفته اسرائيل لا محالة ، وستتطهر المنطقة من رجسها . انها شيء طارئ فرضته القوى العظمى . انها ضد قوى التاريخ والتطور وسنن الاجتماع . فبعد انقضاء عصور الدول الدينية ، وفي بداية نهاية عصر القوميات وإقبال عصر الاتحادات الكبرى ، تريد اسرائيل ان تقيم كياناً دينياً عنصرياً متعصباً . وفي عصر انحسار الاستعمار تريد اسرائيل اعادة عهد الاستعمار ، بل شر انواع الاستعمار : الاستعمار الاستيطاني . ان القضاء على اسرائيل مرهون بالقضاء على الاستعمار ، بل هما يسيران معاً . أو لا ترون ان كل دولة تتحرر من الاستعمار فانها لا تلبث ان تقلب لاسرائيل ظهر المجن ، سواء كان ذلك في افريقيا أو آسيا أو أمريكا اللاتينية ، هذا فضلاً عن دول المعسكر الاشتراكي ؟ وها هي ذي هيئة الأمم المتحدة تخذلها وتنقلب عليها المرة تلو المرة . وكان رد اسرائيل على ذلك في غاية الصفاقة : إذْ أطلقت على هذه الدول اسماً مليئاً بالازدراء والاحتقار وهو (دول الأكثرية الأوتوماتيكية التي تسير في ركاب موسكو وتأتمر بأوامر موسكو) . رغم ان كثيراً من هذه الدول تنتهج سياسة معادية لموسكو . أما الأقزام الذين يدورون في فلك الامبريالية الأمريكية ، وبالتالي يؤيدون اسرائيل ، فان دولهم دول حرة متحضرة !! فيا للعهر الاسرائيلي !!! ان هذا الرد جزء من الاستعلاء الغربي والصلف الاستعماري تجسَّد في اسرائيل ووجد فيها

خير متنفّس لاحقاده وضغائنه . وها هي ذي تكرر معزوفته القديمة المستهلكة التي تسم كل حركة تحررية في العالم بأنها حركة شيوعية أو تخدم أغراض موسكو . وعلى كل حال ، لقد بدأت الأرض تميد من تحت اقدام اسرائيل ولمّا تبلغ مرحلة الشباب . لقد خسرت اسرائيل هيئة الأمم . ولن يبقى ظهيراً لها إلاّ سيف الفيتو الأمريكي المصلت في مجلس الأمن . ولكن هذا السيف سيهوي على أصحابه في يوم من الأيام . ان الخناق يضيّق على اسرائيل يوماً بعد يوم . لقد كان يحلو لي في السنوات الأخيرة نشبيه إسرائيل بتائه في الصحراء انهكه العطش حتى اشرف على الموت . فحياته رهن بقطرة ماء . وكذلك حال اسرائيل التي يقترب الحبل من عنقها كل يوم لولا ان جاءتها قطرة الماء من بلد عربي شقيق له ماضٍ طويل في النضال وحركات التحرر . ولكن هذه القطرة لن تجدي اسرائيل كثيراً ما لم تكن أول الغيث، لأن رياح التغيير في المنطقة تجري بما لا تشتهي إسرائيل ، وان كان من الواضح ان هذه القطرة ستوسع الخرق على الراقع وستضيف عبئاً جديداً على حركة النضال العربي وتزيد من تعقيداته .ان اسرائيل تعيش على الحقن والحبوب والتغذية الصناعية التي تأتيها من أقصى الأرض، ومما يدل على الوجود الهش وبالتالي غير الطبيعي لاسرائيل انها ـ خلافاً لجميع دول العالم ـ لا تحتمل أكثر من هزيمة واحدة في هذا البحر المتلاطم من الوجود العربي الذي تعاقبت عليه الهزائم والانتصارات دون ان تطيح به . وان كنا نحن سندفع الثمن غالياً ، لأن اسرائيل لن تقرّ بهزيمتها بسهولة ولو كلفها ذلك ان تشعل حرباً نووية ، وهي المنزع الأخير الذي سيبقى في قوسها لمقاومة قوى التاريخ والتطور ؛ فلديها جميع الامكانيات العلمية والتكنولوجية لتشنّ مثل هذه الحرب ، والأمر مرهون بنا ان نصمد ونقاوم . ولا علينا ان ندفع هذا الثمن الباهظ ، فهذا هو قدرُنا . وإذا كانت قوى التاريخ والتطور وسنن الاجتماع تعمل في غير مصلحة اسرائيل ، فلا يعني ذلك ان نركن إلى هذه القوى وننصرف لشأننا كأن الأمر لا يعنينا . حذار من الاعتماد على هذه القوى ، لأنها انما تعمل بنا وبسواعدنا . فليست قوى التاريخ والتطور شيئاً آخر غيرنا نحن العرب وغير قدرتنا على مواجهة الأخطار والتحديات بالعلم والتكنولوجيا والتخطيط والتنظيم والدراسة الشاملة للرياح التي تهب على هذه المنطقة ، لتوجيهها لمصلحتنا وسخيرها للأغراض والمنافع التي تخدم

تقدمنا وتساعدنا على تطوير أنفسنا ومجتمعنا واغناء تراثنا وحضارتنا . بذلك فقط ينسألنا في الأجل ، ويُقضى على الاستعمار والصهيونية ونعود من جديد إلى مسرح الأحداث .

لقد عمل الاستعمار طويلاً للقضاء علينا بالعلم والتكنولوجيا . لكن السحر انقلب على الساحر . فقد أفاد العالم العربي والاسلامي من احتكاكه بالغرب قوة ، وها هوذا الآن يجدد نفسه ويصطنع المناهج الحديثة في إبراز معالمه . وقد استطاع ان يبعث من أعماقه قوة قادرة على الحركة والنشاط . ومن خلال النفوذ الاستعماري المسيطر عسكرياً واقتصادياً وثقافياً لم يتوقف الفكر العربي عن التجدد والحركة ، وسيظل كذلك ، لأن التحديات كبيرة . لقد كانت قضيته الكبرى هي الدفاع عن مقوماته وكيانه ووجوده ازاء تلك الحملات الضخمة التي شنت عليه ، واستطاع في إبان حركة الدفاع هذه ان ينفتح على الفكر الانساني ، فيهضمه ويسيغ منه ما يزيده قوة وحياة .

ومع ذلك يجب ألا نسرف في التفاؤل . فيجب ان نعلم منذ الآن أن نضالنا لا يتم في فراغ ، بل ضمن علاقات دولية معقدة وفي ظل سعي حثيث للهيمنة على الدول الصغرى . ثم ان المعركة بيننا وبين إسرائيل هي معركة حضارية بين دولة أوربية متقدمة ودول أخرى متخلفة ، دولة تصنع أسلحتها بنفسها أو تفرضها فرضاً على آلة الحرب الأمريكية ، ودول تستورد كل أسلحتها من الغرب بل تستجديها استجداء بشروط مذلة فيها اراقة لماء الوجه ، فتقبل الصفعة تلو الصفعة دون ان تثور لكرامتها . وأخيراً فان أخشى ما أخشاه في هذه الأجواء الملبدة بالغيوم ان يزداد التصدع في جدار المقاطعة العربية بانضمام السودان إلى معسكر داود بعد انفراج « الأزمة » المفتعلة بينه وبين مصر . فتثور المشاعر والعواطف وتشحن الأجواء بالحقد على الامبريالية والصهيونية ، ويجول الخطباء ويصولون على المنابر وفي الساحات العامة منددين باسرائيل وعملاء أسرائيل . ثم تهدأ العواصف بعد ان حققنا « انتصارات » ساحقة في المعارك الكلامية . وفي هدأة الليل تدخل المعسكر المشؤوم دولة عربية أخرى فنستيقظ على الزعيق والصياح والمهرجانات الخطابية المعروفة . وهكذا دواليك .



اننا نشعر شعوراً قوياً بضرورة اللحاق بالغرب . ولكن مما يثبط عزيمتنا ان المسافة بيننا وبينه بعيدة جداً . وقد ذكر عبد الرحمن الكواكبي منذ نصف قرن أو يزيد ان تقصيرنا عن اللحاق سوف يكون وبالاً علينا . واننا لنقرأ في كتابه (أم القرى) صيحة مدوية تكاد تكون كما وصفها هو « صيحة في واد أو نفخة في رماد » . يقول الكواكبي رحمه الله : « والحاصل ان تقصيرات العلماء الأقدمين، واقتصارات المتأخرين ، وتباعد الشرقيين إلى الآن عن العلوم النافعة الحيوية ، جعلتهم أحط بكثير من الأمم . ولا شك اذا تمادى تباعدهم هذا خمسين عاماً أخر تبعد النسبة بينهم وبين جيرانهم كبعدها ما بين الانسان وباقي أنواع الحيوانات . . . » . وها قد مضى اكثر من خمسين سنة على هذه الصيحة دون ان نحرز تقدماً يذكر ، رغم ان انتشار العلم عندنا قد خطا خطوات لا بأس بها . علينا اذن ان نتحرى اسباب ذلك .

يؤكد بعض المفكرين في الغرب ان ذلك انما يرجع إلى نقص في خصائصنا العرقية . وقد تبجح الكثيرون في ذلك ووضعوا شتى النظريات لاثبات مقولة تفوق بعض الأجناس على بعض ، وتبيان ان العرق الأبيض يتميز من سائر الأعراق الأخرى . فالرقي إنما هو وليد هذا العرق وهو سر تفوقه ووصوله إلى أعلى الدرجات في سلم الحضارة ، لأنه يحمل في أصلابه وذرياته قوى فعالة يفتقر اليها غيره ، وهو الجدير وحده بفهم جهود المبدعين من ذويه ، وقادر على خلق جميع القيم وتمييزها والاستفادة منها . وهذه النظرية باطلة وغير علمية ، وقد عقدنا الفصل الأول من هذا الكتاب لكشف ما فيها من زيف وفساد . ويكفي ان نقول هنا للرد عليها باسطر قليلة إن كثيرين من طلابنا العرب عندما انتقلوا إلى جامعات أوربا وأمريكا ومعاهدها العلمية والفنية قد اظهروا مواهب نادرة في ميادين العلوم والفنون والآداب . أما ما نراه من جمود وتقصير في أجيالنا الحاضرة فلا يرجع إلى خصائص عرقية ، بل هو ناجم عن عدم صقل المواهب عندنا ، وبالأحرى عن عدم اتاحة الفرصة لها للظهور والتكشف ، فتظل بذلك هاجعة كامنة في مرقدها حتى لكأنها أصيبت بالذبول واليبس ، بينما اتيحت لهذه المواهب نفسها في أوربا وأمريكا أجواء وفرص صقلتها وارتقت بها حتى آتت جناها . ومعنى ذلك ان تخلفنا العلمي انما يرجع الى أوضاع وظروف اجتماعية

واقتصادية طارئة ، لا إلى اختلاف في البنية العرقية يجعلنا دون العرق الأبيض . ويضيق المقام هنا عن ذكر الكثير من أبنائنا الذين تفتقت مواهبهم في شتى فروع العلم والمعرفة بعدما انتقلوا إلى مراكز الاشعاع في أوربا وأمريكا .

ومن حملات التشكيك في الفكر العربي أيضاً انه فكر غير مستقل بنفسه ، طبيعته السطو على منجزات الشعوب والاقتباس منها . والدليل على ذلك اعتماد أجدادنا العرب على اليونان والشعوب التي تنتمي إلى العرق الأبيض ، واستقاء علومهم وفلسفاتهم منهم . فإذا كان الأسلاف كذلك ، فلا يطمع الاخلاف ان يكونوا خيراً منهم . ان الخَلَف لن يكونوا خيراً من السَلَف ، وكلاهما في التخلف سواء . إن « البذرة » العربية مريضة فاسدة ، وهل يُصلح العطار ما أفسد الدهر ؟ وهذه أيضاً نظرية باطلة ، وسيتولّى الفصل الثاني مناقشتها مناقشة علمية منهجية ، وسنرى الكلمة الفصل فيها .

والخلاصة ان الفكر العربي الاسلامي ـ بحسب دعوات التشكيك المعروفة فكر عديم الأصالة . فالأصالة من معدن العرق الأبيض وحده ، وكل من عداه فأوشاب وأوضار ! فما هي الأصالة وما حقيقة أمرها ؟ وهل صحيح انها احتكار غربي أبيض ؟ هذا ما سنحاول الاجابة عنه في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

إن الغرب قد قطع أشواطاً طويلة للوصول إلى ما وصل إليه من رقيّ وتقدّم . وبطبيعة الحال إن هذا الغرْب يودّ لو لم نلحق به ، وإلاّ لما شنّ علينا حروبه النفسيّة والعسكرية ، ولما قيّد علينا أنفاسنا وتربص بنا الدوائر ، ولما نطلق في حملات التشكيك والتوهين التي رأينا طرفاً منها لتخلو له الساحة وحده ويستأثر بالولاية علينا . ومن هنا تحذير كثير من ساسته وعلمائه لنا من مغبة اللحاق بالغرْب بسرعة . انهم « ينصحوننا » بالتزام الهدوء والتؤدة والتعقل في مسيرتنا العلمية والتكنولوجية وفقاً لقاعدة « من تأنّى نال ما تمنّى » . فإذا ما أردنا اللحاق به على الوجه العلمي الصحيح فعلينا أن نقطع نفس الطريق الذي قطعه هو ، ونجتاز جميع المراحل التي اجتازها ، ليكون سيرنا مأموناً وسعينا مبروراً . فنبدأ بالصناعات الأولية كصناعة منافض السجاير مثلاً . وبعد مئات السنين نصبح مهيأين للصناعات الثقيلة . كذلك يأخذ هذا الفريق على أسلافنا انهم لم يسيروا في نهضتهم على النمط اليوناني بل لقد كانوا نشازاً بين الأمم الناهضة .

وهذه النظرية ـ النصيحة نظرية باطلة كسابقتها . وقد عقدنا فصلاً كاملاً لإظهار بطلانها ، وذلك في معرض نقدنا لنظرية التطور الطولي ورفضنا لمبدأ الالتزام بالنمط اليوناني أو النمط الأوربي بحسبان انه النمط النموذجي الوحيد لكل تقدّم وتطور . وسنرى ذلك في الفصل الرابع والأخير .

إن هذه الفصول الأربعة تعرض لمختلف المواقف والايديولوجيات التي حملت لواء التشكيك في الفكر العربي الاسلامي ، فتتناولها بالتحليل والدراسة ، وتكشف أوجه التحامل فيها، وتفصل بين ماقدتحتوي عليه من مضمون علمي وما تنطوي عليه من ايديولوجية غير علمية عليها مُسوح العلماء وقناع الباحثين الأكاديميين . إن هذه الفصول تصب جميعاً في قناة واحدة هي إبراز شخصية الفكر العربي الاسلامي ومواجهة حملات التشهير بروح علمي والتزام موضوعي بعيد بقدر الامكان عن الانفعال ومقابلة التشهير بالتشهير . ونقول : « بقدر الامكان » لأن هذه الحملات قد تخرج أحياناً عن الرصانة حتى لتصل إلى حد الوقاحة . وهنا فقط قد تجمح بي الألفاظ بعض الجموح ، وقد تندّ عني عبارات لا تخلو من الشحنة الانفعالية ، ولكن دون أن يمس ذلك مطلقاً بـالأساس العلمي للمناقشة . فالالتزام بهذا الأساس واجب مقدس عندي سأحرص عليه باستمرار ، ولن أحيد عنه ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .



ولعل هذه الفصول جميعاً تجد صعوبة في إقناع من لا يريد أن يقتنع . فالاغراض والغايات والأهواء والنزوات هي دائماً حُجُب تمنع الرؤ ية الواضحة . فليس الانسان مجرد عقل ، انه عقل وغرائز وعواطف وأطماع وشهوات وعادات . . . انه صراع بين عوامل متعدّدة ليس العقل سوى عامل واحد منها ، وقد تكون له الغلبة عليها حيناً ، لكن قد تكون لها الغلبة عليه أحياناً كثيرة . انه قشرة خارجية هشة لا تصمد كثيراً أمام اغراءات الحياة وتجاربها . ولا يسلم إلا من رحم ربك . إن أصحاب الأهواء والأغراض يُسخّرون العقل والعلم ـ كما سنرى كثيراً في تضاعيف هذا الكتاب ـ لأغراض غير عقلية ولا تمتّ إلى العلم بصلة . انهم يُخفون أهواءهم ونزواتهم بطلاء رقيق من العقل ويهارج من العلم والمنطق لا تنكشف لكل أحد . وهنا يكمن خطرها . وما أكثر الناس الذين

يؤخذون بالأسماء الكبيرة والمصطلحات العلمية التي أسيء استعمالها .

أجل إن فصول هذا الكتاب ستتناول مواقف التشكيك في الفكر العربي الاسلامي وستبحثها من وجهة نظر علمية أكاديمية صرف . ولكن هذه « العلمية الأكاديمية » تظلّ دون ما يُتوخّى منها ، لأنها كلها مقارنات واستنتاجات وتجارب ان استطاعت إقناع المخلصين وطلاب الحقيقة الذين يصدعون بالعلم وصوت العقل ، فإنها تظل عاجزة عن إقناع أولئك الذين في قلوبهم مرض والذين يستطيعون باستمرار الطعن والتشكيك في كل ما لا يروق لهم ولا يجد هوى في نفوسهم . وقد ادخرنا لهذا الفريق من المتعنتين والمتحذلقين وأصحاب الأغراض والأهواء كتاباً آخر سيتلو كتابنا هذا مباشرة . ومع اننا قد فرغنا منه فإننا لم نستقر بعد على عنوان له . ولعلنا نسميه :

مخاض الجزيرة العربية
أضواء من السيكوسوسيوديناميكا

وسيتألف من مقدمة وأربعة فصول :

الفصل الأول - السيكوسوسيوديناميكا .

الفصل الثاني - الانتفاضة .

الفصل الثالث - الانفجار السيكوسوسيوديناميكي .

الفصل الرابع - العوامل السيكوسوسيودينامية لنشأة الفكر الاسلامي .

والحق ان الكتاب الحالي ليس سوى مقدمة للكتاب التالي الذي سيكون آخر منزع في القوس . لذلك فاني أعقد عليه آمالاً كباراً . فجميع الذين كتبوا في الفكر العربي حتى الآن لا يزالون يتلمسون طريقهم في الظلام . إن حوارهم مع المعارضين والمؤمنين والمشككين والمتردّدين في أمر الفكر العربي هو أشبه بحوار الصُّم ، مع اعتذاري الشديد عن هذه الكلمة وتقديري البالغ للجهود الكبيرة التي بذلت في هذا السبيل . بمعنى ان الفريقين المتحاورين : الفريق المدافع عن الفكر العربي والفريق المعارض ، لا يزال كل منهما عاجزاً عن إقناع الآخر ، ولا سيما عندما تتدخل النزوات والأهواء ، هذا باستثناء الحالات القليلة التي يدور

الحوار فيها بين علماء مخلصين رائدهم الوصول إلى الحقيقة في ذاتها . إذ ليس هناك مواقف مشتركة يمكن التفاهم عليها سلفاً والانطلاق منها إلى مواقف أخرى . فكل منها متشبث بوجهة نظر معينة لا يحيد عنها ويعض عليها بالنواجذ ، كل منهما ينحي باللائمة على الآخر ويتهمه بالجمود والتعنّت . ومن هنا التخبّط والفوضى والتعسف في الرأي بين الفريقين . هذا ينفي ويمضي في النفي إلى نهايته ، وذاك يثبت ويمضي في الاثبات إلى غايته ، حتى لكأن كل فريق لا يسمع الفريق الآخر . انه حوار على مستوى حوار الصمّ ، أو هو شيء من هذا القبيل . فرغم جميع ما كتب في إثبات الفكر العربي والشخصية الاسلامية والحضارة العربية الاسلامية ، فإن كثيراً من الباحثين لا يزالون يعتقدون بقصور هذا الفكر . ورغم كل ما كتب في قصور الفكر العربي فإن كثيراً من الباحثين لا يزالون يؤمنون بعظمة هذا الفكر وينافحون عنه ولا يشكّون يوماً في اصالة الشخصية العربية والحضارة الاسلامية . إن هذا التشبّث في الرأي من كلا الجانبين يرجع إلى عوامل متعدّدة أهمها الأفكار الثابتة والأهواء السياسية والتربية الشخصية والجو العائلي والحساسيات الدينية والقومية وشعور الاستعلاء وخلفيات أخرى هي وراء ما نرى من عناد وتشبّث في المواقف . فلو أمكن تجاوز هذه الخلفيات جميعاً وإيجاد أسس مشتركة للتفاهم تضع حداً للنزاع القائم بين الفريقين ، إذن لخطونا الخطوة الأولى في سبيل إنشاء علم موضوعي في هذا الباب يمنع بقدر الامكان تسرب العوامل الذاتية .هنالك يصفو الجو ، وتتضح الرؤية ، وتهدأ الأعصاب . نحن في هيكل العلم ، وفي الهيكل يتفق الناس ولا يختصمون . فلا شحناء ولا بغضاء بعد اليوم ، نحن بالوادي المقدس ، فليس بالوادي المقدس إلاّ الحبّ والود والوئام . إن النزاع لا يقع في العلوم الطبيعية ، بل إنما يقع فقط في العلوم الانسانية ، بل في بعض العلوم الانسانية دون بعض ، ولا سيما ما اتصل منها بالسياسة ، والمشاعر القومية والدينية . فكيف عسانا نتغلّب على هذه الصعوبات بغير العلم ؟ العلم وحده هو الذي يرفع كل خلاف ويقطع كل نزاع . ولكن كيف ننشىء هذا العلم ؟ لا بد من خطة للعمل ، لا بد من منهج للبحث ، لا بد من علم للفكر .

ولن أحاول هنا أن أدّعي حياداً كاذباً بين الاتجاهين ، بل سأحدّد موقفي

منـذ الآن . فقد مضى علـيّ ما يقـرب من ربع قـرن ولا هاجس لي يقضّ مضجعي إلاّ هاجس الفكر العربي . فأنا من المؤمنين بالفكر العربي لأسباب وقرائن عديدة . ولكن كيف عسـاي أنقل إيمـاني إلى الآخرين بغـير الوسـائل التقليـدية . فقـد لاحـظت بمنتهى الحسـرة والأسى أنـه تزيد في معرفتنا بالعرب وبالفكر العربي وعظمة هذا الفكر ، فإن احداً من رجال الفريق الأخر لا يرضى بتعديل صورة وضع العرب التي اعتادوا عليها . فكلما طلعت علينا الوثائق بمعلومات جديدة قلّلوا من أهميتها بحذلقتهم وقوة تحليلهم التي تشبه عملية تشقيق الشعر . فعلى من تقرأ مزاميرك يا داود ؟ أيُّ الفريقين أولى بالاتباع ؟ إن الأمر هنا لا يتقرّر بموقف هذا الفريق أو ذاك ، وإنما هو يتقرّر بمعرفة مجموعة من العوامل الموضوعية التي حدثت عند ظهور الاسلام وما أعقبها من نتائج وأحداث ، وما ترتب عليها من مواقف وأفعال وتغيرات . فإذا بقيت الأمور على ما نرى فسيظلّ كل فريق متمسكاً بموقفه ولن يتزحزح عنه قيد أنملة ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً . إن المعارضين لا يؤمنون إلاّ بالمحسوس الذي لا يحتمل التأويل ويكون من الوضوح بحيث لا يمكن تكذيبه، بل لا يتسع القلب لتقدير ذلك ، ولكن هل يتعذّر على هؤلاء التشكيك في المحسوس ؟ لا أعتقد ذلك . وهل نسينا اللاأدريين البيرونيين؟ هل نسينا السوفسطائيين ومذاهب الشك الأخرى ؟ بل هل نسينا برمنيدس وقبيله الذين أنكروا الحسّ والحركة والتعدّد والتغيّر ، إيماناً بالفكر وحده ؟ إن العقل لا يعجزه إنكار أي شيء ولا إثبات أي شيء منطلقاً من معطيات واحدة ، ولا حدود لهذه القدرة . وإذن فإن عملية الانكار للمحسوس يمكن أن تستمر إلى غير نهاية . ولكن هذا الانكار لحسن الحظ سيظلّ محصوراً في قلّة ضئيلة لا يؤبه لها . وإلاّ فإن العلم نفسه سيكون في خطر لأن من الممكن التشكيك فيه دائماً . ولكن الأكثرية الساحقة من العلماء والمفكرين ، والعامة والخاصة لا تتخلّى بسهولة عن الايمان بالمحسوس والاذعان لحكمه، وإن كانت قد تختلف فيما وراءه . فكيف السبيل إلى الوصول بالفكر الاسلامي إلى هذه الدرجة من المحسوسية التي يلتقي عندها الجميع ـ ما عدا قلّة ضئيلة جدًّا من البيرونيين إذا صحّ التعبير ـ مهما اختلفت منطلقاتهم وتعدّدت مذاهبهم ؟ هنا برقت لي بارقة أمل . فقد وضعت يدي على عالم لا أقول انه عالم

جديد علينا . معاذ الله ! بل هو عالم نعرفه جميعاً ونتفاهم به جميعاً ، لكن لعلّنا لم نقدّره حقّ قدره . انه عالم الافكار . أجل عالم الأفكار . فهل في الأمر من جديد ؟

إن أحداً لا يعتقد ان الأفكار لها عالمها الخاص ، اللهم إلاّ أن يكون ذلك على سبيل المجاز ، أو على سبيل عالم المثل الأفلاطونية ، أو المثالية الحديثة . أما نحن فلا نقصد أي معنى من هذه المعاني ، وإلاّ لبقينا في نطاق الشعر والفلسفة دون أن نقدم مادة علمية جديدة . إن عالم الافكار الذي نعنيه هنا هو عالم حقيقي واقعي ، بل لا يقل واقعيّة عن العالم الواقعي إن لم يكن أكثر منه واقعية وأرسخ وجوداً ، لأنه هو الذي يحكم عالمنا الواقعي ويوجه سيره ويسدّد خطاه . فهو عالم مؤثر فعّال يموج بالحركة والنشاط . فلا يحدث شيء في عالمنا الانساني إلاّ بأمره . لا معقّب لحكمه ، ولا رادٌّ لقضائه . انه هو الذي يؤثر في عالم الأشياء ، ولولاه لبقي عالم الأشياء كما كان : دُمية تتقاذفها الرياح والمصادفات وقوى الطبيعة الغاشمة . وهذا العالم له جيشانه وصخبه ، وله ضغوطه وتوازناته واختلالاته وصراعاته وتوتراته وقوانينه ، وهو يضغط علينا ويسيِّرنا ويخترق وجودنا ويملأ كياننا فليس بالخبز وحده يحيا الانسان ، بل ان الخبز نفسه لا طعم له بدون أفكار . قد نعبر عن هذا العالم بأنه (عالم العقل) ، ولكن هذه الكلمة ميتافيزيقية غامضة فضفاضة غير دقيقة لا تنطوي على ما تنطوي عليه كلمة (عالم الأفكار) - بالجمع لا بالمفرد - من خصوبة وتنوّع وتعدد وعينية وفاعلية ودينامية. **فالفكرة هي سبب وشيء، بل هي حقيقة ونظام طبيعي كما سنرى في حينه** .

والأفراد هم صناع الأفكار . وأعني بالأفراد القادة والعلماء والفلاسفة والفنانين والمخترعين والرواد والمستكشفين . . . كل واحد من هؤلاء ينشر من حوله جوًّا من الأفكار يزيد يوماً بعد يوم ، ويظل يزيد إلى غير نهاية . أي انه لا يتوقف بموت صاحبه ، بل يزيد باستمرار بما يولّد من أفكار جديدة . العظماء هم مولّدو الأفكار ، أو قل هم مضخّات للأفكار . هذه ميزتهم ، وهي سرّ تفوّقهم . فعملية توليد الأفكار أمر لو تعلمون عظيم : وعندما تنطلق هذه **الأفكار** تنضم إلى أجيال سابقة من **الأفكار** فتثيرها وتتفاعل وإياها وتضغط عليها بشتى الضغوط ، وتتأثر بها وتؤثر فيها ، على أنحاء مختلفة وصور متباينة . وهكذا

تتفاعل الأفكار وتصطرع الأفكار بالأفكار ، وتتلاقح الأفكار بالأفكار ، فتنشأ أفكار جديدة ، وتتولد أفكار جديدة تكون هي بدورها علّة لنشوء أفكار جديدة .

أنا لا أتدخّل هنا في النزاع بين هيغل وماركس : أيهما أسبق ، الأفكار أم الواقع المادي ؟ هل الأفكار الحاصلة في الوعي هي مجرد انعكاسات للأشياء والأحداث الواقعية أم هي مستقلة عنها ؟ إن هذه المسألة لا تهمني الآن ، فلها مكان آخر (١) . فإن ما يهمني هنا حال الأفكار عندما تخرج من الذهن وتنضم إلى لداتها وأترابها من الأفكار الأخرى ، فتتفاعل وإياها وتنشأ عن ذلك تنظيمات وعلاقات جديدة ، وبالتالي أجيال جديدة من الأفكار لم تكن من قبل . فالأفكار عندما تنطلق مني لم تعد ملكاً لي ، بل لقد أصبحت ملكاً لعالمها ، تابعة له ، خاضعة لقوانينه ، وهو عالم له خصائصه ومقولاته وقوانينه ، التي تبلغ من القوة والجبروت بحيث تسحقني وتستتبعني وتجعلني فريسة لها ، رغم انها قد صدرت عني ، كالقذيفة ترتدّ على صاحبها فتقضي عليه .

هناك حاجة ماسة إلى الاحساس بالأفكار وتفاعلات الأفكار ، وديالكتيك الأفكار ، فالأفكار تتمتع بقوّة ذاتية هائلة لا حدود لها . انها لا تخنقها المقاومة ولا ترديها الخصومة ، بل انها لتسكين تحت الضغط زمناً ما ، ثم لا تلبث أن تنفجر . انها تفعل فعلها ببطء دائماً ، صديقة كانت أم عدوة . فلئن عارضها فريق وحمل عليها آخر ، فإن هذا لا يحول دون تأثيرها في أصدقائها وفي أعدائها ، بل في أشد الناس هجوماً عليها . وعندما تنتشر فمن الصعب جدًّا - إن لم يكن من المستحيل - إخمادها أو القضاء عليها . وهي في سيرها كثيراً ما تُحارَب وتلاحَق ، ولكنها لا تُقهَر إلّا بأسلحة من نوعها ، أي بأفكار أقوى منها . . .

وهكذا فالأفكار تغزو، وغزوها أشدّ فتكاً من الرصاص، لأنها تدخل الآذان بلا استئذان ، وتخترق الحدود والسدود ، وتفرض على الأشخاص والمجتمعات حصاراً غير مرئي ، أقوى وأقسى من الحصار العسكري والاقتصادي . إن الفرد عندما تغزوه فكرة جديدة لها بريق بالنسبة إليه ، فإن ثورة حقيقية تنشب في

---

(١) سنخصص لهذه المسألة ومسائل أخرى مشابهة لها كتابنا : (العلم في طريق المثالية) ونأمل أن نفرغ منه في مستقبل قريب .

رأسه ، ولا مفرّ له حينذاك من أن يتطلّع إلى آفاق جديدة ، ويتحوّل إلى مفاهيم وشعارات وعقائد جديدة ، ويهيم بقيم وأهداف ومُثل جديدة ، فإذا به بين عشية وضحاها يُغيِّر ولاءه ، ويحدث تبديلاً شاملاً في علاقاته الشخصية والاجتماعية والسياسية ، ويصبح شخصاً آخر غيره بالأمس . ويتضح ذلك جلياً في الأخوين نشآ في بيت واحد ، وتلقيا تربية واحدة ، فانتمى أحدهما إلى حزب ما ، وانتمى الثاني إلى حزب آخر . لقد أصبحت تفصل بينهما أبعاد شاسعة وحدود غير مرئية دونها الحدود الجغرافية والسياسية . فأصبح الالتقاء صعباً والتفاهم أمراً دونه خرط القتاد .



لماذا نتجاهل سيطرة بعض الأفكار ، والقوة الهائلة التي تتمتع بها ؟ هناك أفكار تثيرني وأخرى لا تحرّك بي ساكناً . هناك من الكتب ما اندم على الوقت الذي أضعته في قراءتها ، لكن هناك كتباً أخرى تجعل نفسي تموج كموج البحر تلاطمت أثباجه . فتُجهدني الهزات المتتابعة التي تأخذني أخذاً عنيفاً ولا تفلتني أياماً متعاقبة ، ورغم ما ألقاه فيها من أرق وقلق ونصب وعذاب وغوائل الحيرة ، فإن عزيمتي على قراءتها تزداد قوة وشراسة مضاء . لقد أضنتني . ورغم ذلك فقد أعيد قراءتها مثنى وثلاث ورباع . ما معنى هذا ؟ والغريب ان الأفكار التي تثيرني وتأخذ بتلابيبي قد تزيدني جوعاً إلى جوعي ، وحرماناً إلى ما أعاني من حرمان ، ومع ذلك فإني أمضي فيها لا ألوي على شيء . قد أموت في ا لطريق ، وقد تتعرّض عائلتي للخطر ، وقد يثنيني الكثيرون عن هذا « الهوس » ، ومع ذلك فإني لا أنصت إلى أحد [1] ! قد أقرأ كتاباً فأشعر بنشاط لم أعهده من قبل ، بل قد أشعر بتغيير في كياني كله يقلب حياتي رأساً على عقب . اني أشعر اني وعاء بلا قعر ولا جوانب ، وعاء لا يمتلىء ولن يمتلىء من الأفكار . دائماً أطلب المزيد . ان الناس يتفاوتون في ذلك كتفاوتهم في الصحة والمال والسعادة والحرمان . . . من هو أفلاطون ؟ هل هو اللحم والعظم أم هو ذلك الصانع العظيم لأفكار عظيمة ؟ لقد مضى أفلاطون ـ اللحم والعظم ، ولكن أفلاطون ـ الأفكار لا يزال بيننا ،

---

(١) غني عن البيان اني لا أعني هنا شخصي على التعيين ، وإنما اتخذني مثلاً .

وإلاّ فكيف أفسّر استمرار تأثيره في نفسي ؟ كذلك مضى برتراند رسل - اللحم والعظم منذ وقت قريب ، ولكن مؤلفات برتراند رسل، لكن برتراند رسل - الأفكار لا أزال أعقد الحوار معه وأناقشه وأستفتيه في كثير من القضايا العويصة . لقد أدخلني في آفاقه ، وحل لي معضلات ، وعبر بي إلى مشاهد ورؤ ى تفوق حد الوصف ، وكلما قرأته أخرج منه بجديد . أجل الانسان هو أفكار من هو آينشتين ؟ انه أفكار آينشتين . وما هي أفكار آينشتين ؟ انها البؤ رة التي اصطرعت فيها جميع الأفكار الكبيرة في عصره فأنتجت صيغة جديدة من الأفكار ومعادلات جديدة . انه لقاء بين أفكار ، بل مجابهة أفكار لأفكار ، وتحدي أفكار لأفكار . انه جيل كامل من الأفكار . لذلك لا يمكن دراسة آينشتين إلاّ بدراسة جهاز كامل من الأفكار ونظام واسع من الأفكار ، بحيث لا يجوز النظر إليه منعزلاً ، بل يجب النظر إليه من حيث أفكاره الخاصة وعلاقتها بغيرها من الأفكار ، ووظيفتها في جملة البناء الفكري العام . وهكذا ، فالحديث عن آينشتين حديث ذو شجون . انه حديث عن حركة ضخمة هائلة من الأفكار العلمية والفلسفية والسياسية والتاريخية . . . فآينشتين هو كل هذا وأكثر من هذا . انه موكب من الأفكار ترتجّ له النفس ، ويرتجّ له الكون . انه زحمة من المواقف والمشاهد والرؤ ى والموحيات والايقاعات . . . انه حشد كوني يزحم أقطار النفس وأقطار الحس وأقطار الخيال . . . انه يشبه في صخبه وتدفقه بهذه المشاهد والرؤ ى والموحيات والايقاعات جيشان البحر المتدافع بالأمواج المتلاحقة ، ما تكاد الموجة تصل إلى قرارها حتى تبدو الموجة التالية ملاحقة لها ، متشابكة معها ، فتذوب في هذا الجيشان الزاخر المتدفق الذي لا يقف عند حد . . .

أفكار في أفكار ، من فوقها أفكار ومن تحتها أفكار ، حتى لكأننا نغوص في عالم من الأفكار . هل أنا واهم ، رجعي ، بورجوازي ، متصوّف ، مثالي إلى آخر المعزوفة ؟ هكذا يقول الماركسيون . ليكن . إن إلصاق التهم بالآخرين لا يحل مشكلة . انه فرار منها . كلما قرأت ماركس أو لينين أشعر اني أمام رجل عملاق ، أمام إشعاع ساطع يمنعني من الرؤ ية مدة طويلة بحيث اني لا أستطيع استئناف القراءة من جديد إلاّ بعد فترة من الراحة ، هناك شيء اخترقني بلا شك، وذهب إلى حيث لا أدري مني ،يلتمس لنفسه مكاناً في مجاهل لا تتسع لها

السموات والأرض ، واتسعتْ لها أنا المخلوق الحقير الذي يتناثر امثالي كالتراب على ظهر كوكب واحد من كواكب السموات والأرض ! ما معنى كل هذا ؟ لا أدري . قد أكون حجر شطرنج في لعبة أكبر مني ، قد أكون دمية في ملحمة على نطاق كوني . من أنا ؟ لستُ أدري ، لستُ أدري . أسرار كثيرة تلفّ وجودنا وتكتنف حياتنا من كل جانب ، ولكن الإلف والعادة تحيل السرّ وضوحاً ، بل نبراساً من الوضوح والجلاء . وهكذا يستحيل الحجاب المانع من الرؤية ، منفذاً إليها ، والظلام شعاعاً من النور !!! أسرار في أسرار . وسر الأسرار أن أحداً لا يشعر بهذه الأسرار .

إن الحاجة إلى الأفكار كالحاجة إلى الطعام والشراب . كلاهما يغذي : أحدهما يغذي مخزوننا من اللحم والعظم والآخر يغذي مخزوننا من الأفكار والمعاني . إن الفكرة قد تكون بمنزلة قطرة الماء للعطشان ، أو كاللقمة في فم جائع ، أو كحبة الدواء للمريض ، بل قد تكون كسم زعاف يقتل إنساناً في تمام صحته . بعض الأفكار يلهب الانسان ويفعل فيه فعل البركان ، وبعضها يكون عليه برداً وسلاماً . هناك أشخاص أتمنى لو أبقى معهم الدهر كله ، وآخرون أودّ لو أن بيني وبينهم بُعدَ السموات والأرض . هل لقبح هؤلاء وجمال أولئك ؟ كلا . بل لفقر هؤلاء بمجموعة تهمني من الأفكار وغزارة أولئك بها . حتى الجمال إذا لم يكن مصحوباً ببعض المعاني ، أي بالأفكار ، فانه يكون ممجوجاً ثقيل الظل . وهكذا ينقلب الجمال قبحاً . لقد كان سقراط أقبح أهل أثينا ، ومع ذلك فقد تعلق به جيل كامل من شباب أثينا . حتى أن ركناً كبيراً من أركان الأرستقراطية في هذه المدينة ، وهو أفلاطون الذي كان يعد نفسه لمناصب هامة فيها ، قد هجر المال والجاه والحكم وتبع سقراط . وما أمر الجاحظ عنا ببعيد ، فكلاهما قبيح ، وكلاهما كان صانع أفكار ، وهذا حسبه ليلتف الناس من حوله ويكون لهم أسوة وقدوة وإماماً . لقد كان كل منهما ولا سيما الأول ، مركزاً لإشعاع قوي أضفى على الدمامة رواءً لا يوصف ، فانثالت عليهما معان تُحفظ وتحتذى كما لو كانت قوانين أخلاقية أو أوامر دينية . لماذا ؟ لأنها تنصبّ على القوى العقلية والروحية ، فتربي الأخلاق والمشاعر وتنشىء العقول ، والأفهام ، وتهب صاحبها

طاقة مبدعة خلاقة ، وبالتالي تجعل منه نظاماً جديداً من الأفكار وعلاقات الأفكار .

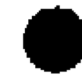


الأفكار لا تموت بموت أصحابها ، بل هي تبقى بعدهم زمناً يطول أو يقصر . وما يقرر بقاءها أو عدمه معركة تنازع البقاء فيما بينها . هناك معارك بين الأفكار كما بين الأشخاص ، وهناك المنتصر والمهزوم .

هناك أفكار سابقة لعصرها ، وأخرى متخلفة عنه ، وأخرى معاصرة له ، ولا يبقى إلا الصالح للبقاء . ولا تهزم الأفكار بسهولة ، والأفكار عندما تهزم لا تفقد تأثيرها دفعة واحدة .

إن أي إصلاح لا يحصل بدون أفكار . وكذلك النهضات والثورات . ويتوقف نجاح المصلح أو الثائر على ما يضخّ من أفكار وعلى قدرة هذه الأفكار على جذب شتى الأنصار إليها وافتتانهم بها وتفاعلهم وإياها . ولكل ذلك صيغه وقوانينه ومعادلاته .

والأفكار أداتها اللغة . فالمفكر الجيد يهتم بصقل العبارة اهتمامه بصقل الفكرة ، أو هذا ما ينبغي أن يكون . فليت شعري ! فكيف تؤدي الألفاظ أغراضها إذا لم يحسن صاحبها اختيارها ؟ إذا لم يعرضها في حلة قشيبة ؟ الألفاظ هي أردية الأفكار ، تجمل بجمالها وتقبح بقبحها . لا يجوز بذل الأفكار عارية إلا لضرورة حازبة ، بل يجب أن ترفل بزينتها ما استطاع صاحبها إلى ذلك سبيلاً ، كيلا يُثقل ضميره بآثام جسام في حق روح الوضوح المقدسة . ومع ذلك فان كثيراً من المفكرين ليسوا لسوء الحظ على درجة واحدة من العناية بالألفاظ والتأنق بها ، لا لمجرد التأنق ، بل لتحقيق الأغراض المطلوبة منها . إن الأمر على ما يبدو لا يعدو أن يكون موهبة خاصة ، والمواهب ـ بحكم التعريف ـ توهب لأشخاص دون غيرهم .



أفننكر بعد كل هذا حقيقة الأفكار وفاعلية الأفكار ، والطاقة المختزنة في الأفكار ، بصرف النظر عن كل مطلب اقتصادي أو جنسي أو . . . ؟ نعم ، يمكننا بشيء من التمحّل ، الحذلقة والافتعال والتحليل والتنقير والبهلوانية الجدلية أن نجد أساساً اقتصادياً لما لا علاقة له مع الاقتصاد ، وأساساً جنسياً لما لا شأن له

بالجنس ، وأصلاً مناخياً لما لا دخل للمناخ فيه ، ومنزعاً اجتماعياً لا صلة له بالاجتماع . . . لا حدود لقدرة العقل على ابتكار أمثال هذه الأسس ، ولا حدود لقدرة العقل على نفي أي شيء وإثبات أي شيء . وهل الفلسفة في أحد معانيها إلا تعبير عن هذه القدرة الفذة ؟ ولنأخذ الماركسية ، مثلاً ، فرغم ادعاء الماركسية ، أنها علم فهي لا تزال فلسفة . ان القول بأن الماركسية علم فيه جهل بالعلم وسوء فهم لطبيعته ووظيفته . فالعلم إنما يقتصر عمله على وصف الظواهر (طبيعية كانت أو اقتصادية أو اجتماعية . . .) واكتشاف شبكة العلاقات القائمة بينها للوصول إلى القانون الكلي الذي يحكمها جميعاً . انه لا يقول شيئاً لصالح الماركسية أو الرأسمالية . انه لا يحدد ولا يقترح أي أهداف إنسانية ، وإنما هو ذاته مشروط بالأهداف المحددة سلفاً . ولو كانت الماركسية علماً لما حصل أي خلاف بشأنها . العلم يقطع كل خلاف . الماركسية عقيدة ، إيمان وفلسفة . لقد آمن ماركس أولاً بالشيوعية ثم سعى بعد ذلك إلى إثبات إيمانه . إننا هنا أمام رؤيا لا أمام معرفة علمية . هذا ردّ عام دون الدخول في التفاصيل . المهم أن العقل قادر على إثبات أي شيء مهما كان غريباً ، مستهجناً ، بعيداً عن التصديق ، هذا وجه من وجوه عبقرية الانسان ، وعظمة الانسان ، ومرونة العقل الانساني ، وقدرته الهائلة على تزوير الأشياء وتغيير معالم الأشياء وتوجيهها لأغراض ومآرب دون أخرى . هذا فضلاً عن أن هناك نزعة أبدية في الفلسفة إلى رد الواقع إلى أحد عناصره والنظر إلى العناصر الأخرى على أنها متعلقة به ، تابعة له ، تستمد حقيقتها من حقيقته . هذا هو الروح المذهبي تتجلى له أشياء أكثر من غيرها ، فيسلط عليها من الأضواء بمقدار ما يحجب غيرها . وللروح المذهبي مضارّه كما له منافعه . فأهم مضاره أنه لا يرى من الحقيقة إلا جانباً واحداً يلح على أهميته وحده دون الجوانب الأخرى . وأهم منافعه أنه يلفت النظر إلى جانب كان مجهولاً من قبل . فباكتشافه لهذا الجانب وتحليله له وتغلغله فيه وسبر أغواره لا بد أن يصل إلى نتائج إيجابية هامة تؤدي خدمة كبيرة للعلم . وبدراستنا لمختلف المذاهب والآراء المتعارضة نُسقط أشياء ونستبقي أشياء ، ونزيد وننقص ، ونقارن ونستقرىء . . . وبذلك تكتمل الدراسة وتستتم ، وتغتني المعرفة ويتقدم العلم . لقد وضعنا أيدينا على القانون الكلي الذي تذوب فيه

الخلافات المذهبية والاعتبارات الشخصية والآراء المتعارضة ، ووصلنا إلى الصيغة الثابتة الواحدة التي لا خلاف فيها ولا جدال حولها .



وزبدة القول ، أن الأفكار شحنات من الطاقة تفعل بذاتها . وأهم خاصية لهذه الشحنات تختلف بها عن أنواع الطاقة المعروفة ، إنها تنمو وتزيد بالاحتكاك [1] . كما أنها أيضاً شحنات غير كمية ولا تخضع للكم والعمليات الكمية ؛ أو هذا ما يبدو لي الآن على الأقل . إنها شحنات كيفية تختلف عن الشحنات المعهودة في عالم الفيزياء . ولها ضغوط وتفاعلات وتوترات و . . . غير تلك التي تعرفها . إن إضافة فكرة إلى فكرة ليست أبداً إضافة عددية ، إنها إضافة كيفية ديالكتيكية تحدث تغييراً شاملاً فيها حولها وفي البناء الفكري كله . ليس هناك حتى الآن جهاز يستطيع قياس إضافات الأفكار ، وضغوط الأفكار ، وسيول الأفكار ، وشحنات الأفكار ، وما ذلك إلا لأنها لا تخضع لقانون العدد . إن رسام الدماغ الكهربائي électro — encéphalographe ليس جهازاً لقياس الأفكار ، وإنما هو يقيس التغيرات الكهربائية التي تحصل في الدماغ مصاحبة لبعض التغيرات العصبية والنفسية . إنه بعيد عن مملكة الأفكار . فبينه وبين الأفكار برزخ لا يمكن عبوره . وإلّا فهل يستطيع هذا الجهاز أن يقيس التغيرات والتبدلات التي حدثت في كياني عند قراءتي لكتاب (معنى النسبية) لآلبرت آينشتين مثلاً ؟ لقد تمكن آينشتين في هذا الكتاب أن يصلني به ، أن ينفث فيّ روحه وكيانه ومعنى وجوده . لقد نفث فيّ أفكاره . لقد سرق وقتي ، وسرق انتباهي ، وسرق مشاعري ، وأحسست كأني أشاركه قراءة الكتاب . لقد وجدت نفسي وأنا أقرأه حيال رجل حي غير عادي ، بكل ما في الحياة من حركة وجيشان ودينامية ، لا حيال سطور على الورق . قليلة هي الكتب التي تحدث فيّ مثل هذا التأثير . لقد أحسست سر العبقرية تتجسد في كل صفحة ، بل ربما في كل كلمة من هذا الكتاب . فأي جهاز يمكنه تسجيل مثل هذه المشاعر والأحاسيس ؟ أي جهاز يمكنه أن يفرق بين كتب الكبار وكتب الأقزام ؟ الكتب

---

(١) أو ليست الحياة شيئاً من هذا القبيل ؟

المضغوطة بالأفكار والكتب المضغوطة بالأوراق ؟ هل يستويان ؟

هذه الأفكار ، هذه الشحنات ، هذه النبضات ، هذه الطاقات ، لها عالمها الخاص الفريد . وهذا العالم يختلف تمركزاً وشدة وكثافة من مكان إلى آخر . ولكنه في مراكز الاشعاع على أشده . فهو ينتصب في كل مكان تستفحل فيه الحضارة ويستبحر العمران . والغريب في أمر هذا العالم أنه يزيد ولا ينقص أبداً . ان البئر تنضب ، ولكن الأفكار لا تنضب . نعم ، الماء يجف ، والأفكار تجف ، ولكن الماء يجف بكثرة النزح ، وأما الأفكار فتزيد بكثرة النزح . ولجفافها عوامل أخرى غير النزح أو لا شأن لها بالنزح .



فإذا اتفقنا على وجود عالم الأفكار ، لا بالمعنى الميتافيزيقي أو المجازي أو المثالي ، بل بالمعنى الحسي العياني الذي يفترض الضغط والتوتر والتدافع والصراع والتفاعل ، والتوازن والاختلال ، والتجاذب والتنافر ، والاستقرار وعدم الاستقرار ، والانتشار والتلاقح والتوالد . . . أقول إذا اتفقنا على وجود هذا العالم ، وعرفنا أن له قوانينه ومواسمه وعلاقاته وصيغه وأبعاده كما لعالم الأشياء سواء بسواء ، عندئذ يكون من السهل التفاهم على نقاط مشتركة بين المؤمنين بالفكر العربي الاسلامي والمنكرين له . هناك تضيق مسافة الخُلف بين الفريقين . فإذا رأينا هذا العالم ينتصب في الجزيرة العربية في القرن السابع للميلاد ويرتفع بهامته إلى السماء بعد أن لم يكن منتصباً ، وإذا تحققنا من هذا الانتصاب واستقصينا أحواله ، وقارنّاه بعوالم أخرى انتصبت قبل ذلك في بلاد اليونان وستنتصب بعد ذلك في عصر النهضة بأوربا ثم بأمريكا ، وإذا علمنا أن لانتصابه علاقات مباشرة مع تقدم العلم والمعرفة ، وإذا ثبت لنا أن هذه العوالم هي فيما بينها أشبه من الماء بالماء ، عندئذ يكون من السخف والمكابرة رفض بعض هذه العوالم وقبول البعض ، لاعتبارات سياسية ، وقومية ، ودينية . فإما أن تُقبل جميعاً أو ترفض جميعاً . هنالك يقل تحكّم العامل الذاتي ، ويبقى على العوامل الموضوعية وحدها أن تبتّ في أمر وجود ـ أو عدم وجود ـ الفكر العربي ، أو الفكر الهندي ، أو الفكر الاوربي ، أو أي فكر آخر يكون محلاً للنزاع والجدل . فبالأفكار إنما ترتفع الأمم وتسمو وتحلّق وتنتشر في الأرجاء والآفاق ، وويل لمن قلّ

زاده من الأفكار وشحنات الأفكار ونبضات الأفكار . . .

طوفان من هذه الأفكار ، من هذه الشحنات ، من هذه النبضات من هذه الطاقات الهائلة ، اكتسح الجزيرة العربية في أواخر القرن السادس للميلاد وأوائل القرن السابع . لقد تغيّر كل شيء في بادية العرب . فالاسلام ليس ظاهرة عابرة في تاريخهم . الأجسام ظلت هي الأجسام . ولكن الأفكار قد تغيرت . تغيرت المطامح ، تغيرت الآمال ، تغيرت المفاهيم ، تغيرت المثل ، تغيرت القيم والأهداف والغايات . لم يبق شيء دون تغيير إلا الأجسام والأتربة والحجارة ، وما عدا ذلك فقد مضى . لقد بدأ عصر جديد . . .

والخلاصة ان العرب بعد الاسلام ليسوا هم العرب قبل الاسلام . وهذا ما سنفصل القول فيه في حينه .



ها هي ذي أمامنا مجموعة من الأفكار . من صنع هذه الأفكار ؟ كل منا ينسبها إلى قومه وعشيرته . هناك جدول كبير من الماء . فهذا الفريق يقول إن هذا الماء قد تفجّر في أرضي ، وذاك يقول بل هو نبع في أرضي أنا . والحق أن كلاًّ منهما له نصيب في هذا الماء . إلا أنه لما كانت الينابيع الظاهرة على أرض أحدهما أكثر منها على الأرض الأخرى فانه ينسب الجدول كله أو جله إلى أرضه ، مع أن الينابيع لا تكون ظاهرة دائماً . فإذا مسحنا أرض الجانبين ونقّبنا في الوادي كله ، فربما اكتشفنا أن الينابيع الخفية في أرض أحدهما أكثر عدداً أو أغزر ماءً منها في الأرض الأخرى التي تتفجر فيها بعض الينابيع الظاهرة المكشوفة . فلولا هذا المسح ، ولولا هذا التنقيب لظل كل منهما متشبثاً برأيه . لقد وضعت عملية المسح والتنقيب حداً للنزاع . هذا إذا كانا متكافئين في القوة ، وويل للضعيف ولو كانت جميع الينابيع تتفجر في أرضه ، فهي لن تغني عنه من صاحب الحَوْل والطَّوْل شيئاً .

المشككون في الفكر العربي والحضارة الاسلامية ، والمنجزات العربية الاسلامية ، لا يرون إلا اليونان وجهود اليونان في تكوين الحضارة الانسانية ، وجاءت السياسة والقوة والمال وهيبة الغرب لتعزز هذه الشكوك . فكلما قلنا لهم ان هذه الحضارة من صنع العرب والمسلمين كما هي من صنع اليونان والرومان

والاوربيين جعلوا أصابعهم في آذانهم وقالوا : لا ، بل هي من صنع الغرب والحضارة الغربية وحدها . فإذا جئناهم بوثائق جديدة وأسانيد جديدة ومخطوطات جديدة ـ وهذا ما يقوم به علماؤ نا ومفكرونا ، بل يسهم فيه علماؤ هم أيضاً ـ شككوا في ذلك كله وانتحلوا له شتى الأعذار والذرائع ولجّوا في طغيانهم يعمهون . نعم فيهم المنصفون وفيهم الصادقون ، ولكنّهم قلة لا يزالون عاجزين عن التصدي للتيار السائد وخلق تيار معاكس ، رغم تقدم الدراسات الاستشراقية يوماً بعد يوم . هناك حاجة شديدة لعملية مسح وتنقيب تعطي ما لله لله وما لقيصر لقيصر ، ويومئذ يفرح المؤمنون . وانه ليسعدني كثيراً أن أضم جهودي المتواضعة إلى جهود المخلصين الخيّرين للقيام بعملية من هذا القبيل تضع حداً للعربدة الغربية المدعومة بالامبريالية والصهيونية العالمية والتمزق العربي الذي يغذي ـ من حيث يدري أو لا يدري ـ هذه العربدة ويعطيها كل يوم دفعة جديدة ومبررات جديدة وحقوقاً جديدة ، وأبعاداً وآفاقاً جديدة . . . يجب علينا جميعاً أن نتصدى لهذه الحملة الصليبية الشرسة بلا هوادة . إن إغلاق الموضوع وصعوبة مسالكه لا ينبغي أن يحملا الباحثين على الاحجام عنه ، أو تهيّب الكتابة ، فيه تجنباً للنصب وتفادياً للتعب . إذْ مهمة العلماء العرب هي أولاً وقبل كل شيء تذليل الصعاب ومعالجة المشاكل على قدر ما تتسع له طاقاتهم ، ومواجهة الهجمة الاستعمارية العنيدة التي دأبها التزييف والتشكيك ، وليست مهمتهم أبداً السير دائماً في طريق معبّد ومسلك رحب فسيح . هناك صعوبات كثيرة ستعترضنا في مراحل الطريق ، ولكن الصعاب ـ كقمم الجبال الشماء ـ لم توجد لنتقيها بل لنرتقيها . والمعضلات إنما خُلقت لتقوية العضلات لا للركون إلى الملذات . فكلما زادت القمم علواً وسمواً زاد تشوق الانسان إلى بلوغ السنام . فصعوبة هذا العمل ليست حجة على من يحاوله وإنما هي حجة له . وسألقي بدلوي بين الدلاء وليلق كل منا بدلوه ، لأن الحق ملك مشاع للجميع ، فلا يجوز أن يحتكره فرد واحد . وهو شبيه بحجر كريم من الماس له وجوه كثيرة ، لكل وجه منها شعاع خاص . وهو في الوقت نفسه كبير الحجم عظيم القدر لا يستطيع إنسان واحد أن يراه كله في آن واحد ، ولا أن يلم به بنظرة واحدة .

يجب أن نكشف عن الينابيع الثرة الغزيرة في تراثنا . لقد كانت دائماً ينابيع

متجددة لا يغور ماؤها ولا ينضب معينها . فينابيع الماء تنقص باستمرار النزح والاستسقاء وكثرة الواردين ، لكن ينابيع الأفكار تزداد تفجراً بكثرة النزح وتزداد انثيالاً ، فلا تلبث الأفكار أن تتولد عنها أفكار جديدة ، وهذه الأفكار يتولد عنها بدورها أفكار جديدة أخرى ، وهكذا دواليك ، ما دام هناك مفكرون وقادة وعلماء وفلاسفة عرب مسلمون يضخّون بالأفكار . والأفكار تولد الأفكار (١) ، بينما الماء لا يولّد الماء . ولأجدادنا وشيوخنا عبارة مشهورة ذات مغزى كبير في هذا الباب ، وهي « العلم ينبت بين اثنين » . انه الحوار وما أدراك ما الحوار منبتاً للأفكار ومولداً للأفكار !

لقد جاء محمد عليه السلام بفيض زاخر من الأفكار وأنشأ به عالماً ضخماً يموج بالأفكار . انه لم يكن وحيداً . بل لقد استطاع أن ينجب مدرسة كاملة من القادة والرجال والعظماء . فالاسلام كما سنرى كشّاف للمواهب التي برزت إلى السطح جملة واحدة بمجيء الاسلام وانبثاق عصر الاسلام . هكذا تفجر الثورات في الأمم . طوفان من الأفكار غمر الجزيرة العربية والمنطقة المحيطة بها كلها ثم انساح إلى بعيد بعيد . فإذا كان الماء يغيض بكثرة النزح فان نزح الأفكار يزيدها كما قلنا مداً وتدفقاً . فالطوفان الواحد من الأفكار نشأت عنه طوفانات ، وكل طوفان نشأت عنه طوفانات ، على قانون مقرر ونظام مرسوم سنرى ديالكتيه ونصوصه وقوانينه. وظلت هذه العملية مستمرة طوال عصور الازدهار العربي الاسلامي ، بل لم تتوقف حتى في عصور الانحطاط ، وان بدأت تضعف وتترنح لعوامل سنقف عليها في حينه لا دخل للنزح بأيّ منها في قليل ولا كثير .

فإذا فحصنا هذه الأفكار فكرة فكرة ، وتتبعناها من لدن نشأتها ومنذ أن كانت جنيناً حتى أصبحت جيلاً كاملاً ، والجيل أجيالاً ، وعرفنا قوانين ذلك كله . وإذا فعلنا ذلك أيضاً بالنسبة إلى الفكر اليوناني والفكر الاوربي . . . هنالك نُلقم المزيفين والمشككين والمرجفين والشعوبيين ، لا حجراً واحدة بل أحجاراً كثيرة ، ونردّ كيدهم إلى نحورهم ، ونقول لهم موتوا بغيظكم ، فالفكر العربي الاسلامي فكر فذّ عملاق . وسيعلم الذين أنكروا هذا الفكر واستخفّوا رجاله

---

(١) أو ليست الحياة شيئاً من هذا القبيل ؟

أيّ منقلب ينقلبون !

وها اني أضع هذه الفصول الأربعة ، بكل ما يحيط بها من قصور وتقصير ، بين أيدي القراء ليحكموا لها أو عليها . واستميحهم العذر عما سيجدونه فيها أحياناً من شرود واستطراد . فلم يكن من دأبي أبداً أن أقف نبضات الفكر وسبحاته وشطحاته ، بل لقد تركت الأمور تجري على سجيتها خوفاً من أن يفلت مني بعض ما أحب أن يتكشّف منها .اني لم أدخر وسعاً في سبيل التبسيط والوضوح الكامل . لذلك لم أسلم من التكرار بين الحين والآخر . أحب وضوح الفكرة ونصاعتها حتى لا تلتبس في ذهن القارىء بشوائب أخرى تمنعه من الرؤية الواضحة السليمة ، وفي سبيل ذلك قد أعمد إلى التكرار ، ولكنه تكرار لا يعيد الفكرة ذاتها بل يركّز في كل مرة على جوانب منها لم تكن ظاهرة من قبل . بل لقد أصبح ذلك لي إلفاً وعادة . وعلى كل حال هذه بضاعتي ، وأرجو ألا تكون بضاعة مزجاة .

وأخيراً أتمنى لهذا الكتاب أن يتيح للقارىء وسيلة سهلة يحقق بها أمله في دراسة الفكر العربي الاسلامي دراسة إن لم تكن موسعة شاملة فإنها تقدم له الجهاز العلمي الذي تتطلبه مثل هذه الدراسة . وعلى الرغم من قلة صفحات الكتاب فإن قراءته تستلزم عزماً لا يلين ومثابرة على تعمق الفكر ، ومستوى ثقافياً يضارع مستوى القبول في الجامعات أو أعلى من ذلك بقليل . واني لوطيد الأمل أن يثير هذا الكتاب حوافز كثيرة تضع حدًّا للإذلال الفكري الذي فُرض علينا وفرضناه على أنفسنا ، فنكون منذ الآن منتجين للأفكار بعد أن كنا مستهلكين لها . وهذا يفترض وجود شعور واضح بالهوية وحرص شديد على الإيمان بالذات ، والتقليل من الخنوع لعملية الاستهلاك الشائنة .كما يتطلّب أيضاً الانسجام مع ماضينا وتقاليدنا وتطوير القدرة على التطلّع إلى الوراء وإلى الأمام على السواء . وليكن تحركنا في كلا الاتجاهين تحركاً ثورياً يفتح أبواباً ويشق نهجاً ويفجر طاقات جديدة . لا يفهم تراث العرب غير أبناء العرب ، ولا مصلحة لغيرنا في فهم فكرنا وحضارتنا . ومهما ادعى الآخرون الحرص علينا فإنما على مصالحهم يحرصون ، وبقرة حلوباً إيانا إنما يريدون . ولا أمل لنا إلّا بالاعتماد على أنفسنا ، ومن ثم ننطلق إلى العالم الفسيح . ومن هنا فنحن في حاجة إلى اكتشاف أنفسنا أولاً

وتوضيحها وقبولها لنتمكن من اكتشاف العالم من حولنا والاشتراك في خضم الأحداث اشتراكاً إيجابيّاً فعّالاً . كما لا بد لنا في هذه المرحلة المصيرية من حياتنا من العمل على إيجاد أفراد مبدعين موهوبين يُضخّون بالأفكار أينما كانوا ، والبحث عن الوسائل الكفيلة بمساعدتهم وتقريبهم بعضهم من بعض ، وتعزيز قدراتهم على ضخ أفكار جديدة واكتشاف علاقات جديدة ، وتشجيعهم على تغذية الحوافز الخلّاقة بدلاً من خنق مواهبهم باسم الوضع الراهن . وعندها فقط يصبح في الامكان الافادة من الطاقات الخلاقة التي تزخر بالفكر والقيم في بلادنا والتي كانت حتى الآن مهدورة معطلة وبذلك يتسنى لنا احداث تغييرات شاملة في مؤسساتنا وأجهزتنا الدستورية والتنظيمية والتعليمية تؤذن ببزوغ فجر جديد وانبثاق عصر جديد.

ومن يعش يره . . .

الفصل الأول

وحدة الأجناس والأقوام البشرية

إن تفسير وقائع التاريخ وظواهر الاجتماع والحضارة ، وإصدار الأحكام عليها ، عملية دقيقة جدّاً لا تتأتى إلّا بالمعاناة الطويلة والمران الشديد ، ولا بدّ فيها من صدق العزيمة والصبر والأناة ، فضلاً عما تتطلبه من سعة في الأفق ، وعمق في التفكير ، ودأب على البحث والنظر . إذ كثيراً ما يُفسد الرأي إما لسوء فهمٍ أو مشايعة وهمٍ ، أو لتعمد في تزييف الحقائق ومجانبة الصواب . فيتسرّب الضعف إلى العقول ويتأصل فيها بمرور الأيام ، حتى ليكون من الصعب محو آثاره أو دفع غوائله . فالضلالة إذا ما رسخت احتاجت إلى جهود طويلة مضنية لتُنتزع من الأذهان ، والحق إذا ما اختلط بالباطل وامتزج باللحم والدم أصبح من العسير التفريق بينهما واستبانة هوية كل واحد منهما . فإن من أصعب الأمور كشف القناع عن وجه الصواب الذي غشيته الغواشي ورانت عليه الأوهام . ولذلك فكيما تكون الأحكام علمية رصينة جادة يجب ألّا تتصف بالسذاجة والتسرع وقصر النظر ، وان يكون رائدها الحق الذي لا شبهة فيه ، وأن تكون مبنية على التجربة والملاحظة ، وألّا تشوبها شائبة من عاطفة أو هوى ، ولا يكون فيها جموح أو جنوح أو تعسف . . . وإلّا انقلب الحكمُ تحكماً .

ولذلك يُحمد قصد من ينصفونِ في أحكامهم ، ويصدعون بالحق الذي تبين لهم فإنما العاقل من أنصف غيره من نفسه ، واجتنب الهوى والخلط في صياغة رأيه .

ولشد ما يضرّ بالعلم عدم الرجوع إلى الوقائع في إصدار الأحكام ، والإغراق في التأملات العامة والصيغ الجوفاء التي لا تغني من الحق شيئاً لقلّة بضاعتها وضعف مؤ ونتها . وحسب المرء أن يلقي عليها نظرة متفحصة لينكشف له أمرها ويتبين ما فيها من زيف واعتباط . ففي بعض الكتب نجد مثلاً « ان

الروح اليونانية تمتاز بالذاتية » و « ان الروح الاسلامية تنكر الذاتية وتفني الذات في كائن يعلو على جميع الذوات الأخرى» . ونجد في كتاب آخر « ان العقلية العربية عقلية مفرّقة تقتنص الطرائف ، ومجال إبداعها الأفكار القصيرة والملاحظات العابرة ، على حين ان العقلية الاوربية هي عقلية ربط وتنسيق وتفكير منهجي ويحث منظم » . كذلك نجد في بعض الكتب الأخرى أمثال هذه العبارات : « ان الشرق يسوده الشعور المباشر ، بينما يسود اليونان حرية الفرد ، والرومان العموم المجرد أو الدولة ، والجرمان وحدة الفردي والكلي » . « إن الشرق تهيمن عليه فكرة اللامتناهي ، وأما الحضارة اليونانية الرومانية فتسود فيها فكرة المتناهي . كما يسيطر على العصر المسيحي التركيب المؤلف من المتناهي واللامتناهي » . « إن التاريخ القديم يقوم على فكرة المصير ، ويقوم العصر المسيحي على فكرة الطبيعة » . « في العنصر الزنجي نقص بيولوجي وإبداعي جعله دون تاريخ ودون تقاليد ثقافية خاصة به » . « إن الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا » . ونقرأ أيضاً في بعض كتب فلسفة التاريخ ان مبدأ العالم القديم هو الاحساس ، بينما مبدأ العالم الحديث هو العقل ، وان الشعوب تتميز بغلبة إحدى الملكات أو الصفات : فالصينيون يتميزون بالعقل ، والهنود بالخيال ، والمصريون بالوجدان النافذ ، والعبرانيون بالارادة. بل حتى فلسفات التاريخ التي تستخدم معاني أو شبه مقولات مادية ، والتي يفترض فيها أن تبني أحكامها على الوقائع المادية وحدها ، لم تنجُ هي أيضاً من أمثال هذه الصيغ ، كما هو شأن الفلسفة الماركسية في التاريخ . إذ هي تقول إن العصر القديم يقوم على اقتصاد الرق ، والعصر الوسيط على اقتصاد الاقطاع ، والعصر الحديث على اقتصاد رأس المال . وسيقوم اقتصاد العصر المقبل على اشتراكية وسائل الانتاج . . .

ومن هذا القبيل أيضاً تلك الفلسفات القائمة على العنصرية في نظرتها إلى الأجناس البشرية . فهي تنظر إلى المجتمعات الجغرافية واللغوية للشعوب على أنها أجناس نقية دائمة مستمرة ، ثم تقسمها إلى « أجناس منحطة لا حقّ لها في الوجود ، وأخرى راقية لها حق السيادة على ما دونها من الأجناس والشعوب . غير أنه من مهازل التاريخ ألا تنعقد السيادة لأصحابها الطبيعيين ، فإذا باوباش

الشعوب وحثالات الأجناس والأقوام ، وفي غفلة من الزمن ، يتربعون في القمة ، وإذا بأصحاب الحق الطبيعي يرزحون في القيود والأغلال . فها هنا خطأ وقع فيه التاريخ لا بد من تصحيحه في الحال ، وإلا فعلى الحضارة العفاء ! فما أكثر مهازل التاريخ ، وما أفدح أخطاء القدر !!! » [1] .

ومن هذا القبيل كذلك تصنيف لينيه Linné للشعوب ، وهو أول تصنيف يدعي لنفسه صفة العلم . فهو يربط بين الصفات الجسمية للأجناس البشرية ، وبين خواصها النفسية . إذ يعزو لينيه إلى الآسيويين - دون أي أساس علمي رغم أنه يدعي لنفسه صفة العالم - القسوة والسويداء والعناد والبخل ، كما ينسب إلى الافريقيين الخبث والمكيدة والكسل واللامبالاة ، بينما يدخر للأوربيين سرعة البديهة والدهاء ، أي الملكات العقلية العليا ! [2]

وأذكر في هذه المناسبة ما كتب في القرن التاسع عشر (عندما راج سوق اللغة والقول بأنها أهم مصدر لتفهم روح الشعب وعقله) عن روح الشعوب الساميّة عامة ، وعن العرب خاصة ، وما دار من نقاش عنيف على الاستنتاجات التي تم الوصول إليها . ولعلنا نذكر أرنست رينان وحكمه القاسي على الشعوب الساميّة بناء على دراسة معاني كلمات متقطعة ، واستناداً إلى مأثورات أدبية أو دينية . فيرد عليه نولدكه وغيره بأنه لا يحق لامرىء أن يحكم على مميزات شعب من دراسة لغته فقط . ويكتب عالم الماني بحثاً ضافياً عن لفظة Interessent و Interesse يخلص فيه إلى القول بأن اللغات الساميّة عاجزة عن نقل الصورة العقلية الروحية التي ينطوي عليها هذا اللفظ الاوربي إلى لفظ ساميّ ، وما ذلك إلا لأن هذه الصورة مفقودة عند الساميّين لا نظير لها في أذهانهم . ويقول آخر : ان العربية تنفرد بكلمة (شمت) وان (الشماتة) صورة عربية يصعب نقلها إلى اللغات الاوربية . وإذن فالعرب وحدهم يشمتون ، وأما الاوربيون فلا يشمتون لعدم وجود هذه الكلمة في لغاتهم . فالشماتة هي إذن من اختصاص العرب وحدهم !!! وهكذا نرى كيف تؤدي الاستنتاجات اللغوية بالمؤرخ إلى مزالق

---

(١) Gaston Bouthoul : Traité de Sociologie I, 253

(٢) Mikhail Nestourkh : Les races humaines, P. 106

محفوفة بالخطر .



والآن ، ما نصيب هذه الأقوال وأمثالها من الصحة ، وهل لها أي سند علمي ؟ هذا ما سنبحثه في الصفحات القادمة .

إن أكثر الأحكام تحكماً وأدلها على قصر النظر والامعان في الهوى والبعد عن الروح العلمي والموضوعية الجادة ، إنما هي تلك النظريات المبتسرة التي تضع حدوداً تكوينية وجبليّة بين الأجناس البشرية ، فتزعم أن طرازاً معيناً من التفكير والسلوك والمواقف والحياة رهن بأمة من الأمم ، أو جنس من الأجناس ، أو سلالة من السلالات . وأكثر هذه النظريات شيوعاً تلك التي تقسم الشعوب والأجناس بقسمين : ساميَّة وآريَّة . فالجنس الساميّ غير صالح ـ بزعمها ـ للابتكار العلمي والفني والفلسفي ، وإنما هذا الابتكار حكر على الجنس الآريّ وحده لا ينازعه فيه منازع . ومعنى ذلك أن العرب ـ وهم طليعة الشعوب الساميَّة بحسب أسطورة تفوق الجنس الآري ـ شعب جدبٌ عقيم خديج لم ينتج شيئاً في العلم والفكر ، وليس له أي إشعاع حضاري خلّاق . ولئن كان له اثارة من فضل فإنما يرجع إلى ما هبَّ عليه من نفحات الأعاجم الآريين ، وإلى ما اختلط فيه من دماء هؤلاء الأعاجم الذين اعتنقوا الاسلام أو اتصلوا به نوعاً من الاتصال .

إن أصحاب هذه النظريات ينطلقون من مواقف وايديولوجيات ذاتية ، متشنجة أحياناً ، قذف بها العلم إلى قرار سحيق منذ زمن ، كما سنرى بعد قليل . فهم ـ مأخوذين بفتنة التفرقة السطحية بين الشعوب ـ ليسوا بقادرين على أن يتصوروا أن تظهر عبقرية مفكر إسلامي أو فيلسوف عربي دون أن يمتّ ، بسبب أو بآخر ، إلى أصول أجنبية غير عربية . ومن ثم راحوا ينبشون في مجاهل الماضي عن ميراث وهمي أو نسب بعيد في الروم واليونان والعجم لشعراء ومفكرين وفلاسفة وعلماء لا يعرف التاريخ لهم منبتاً في غير بيئتهم العربية الاسلامية .

وفي أخذة الفتنة انضم إلى هذه الجوقة بعض العقول العربية الجامعية التي إنما ينحصر دورها في نقل ما رثّ وتعفّن من الفكر الاستشراقي واللاهوتي

الغربي ، والتبشير ببعض القيم المنحلّة من الثقافة الغربية ، والدعوة إليها باسم العلم الموضوعي ،متجاهلة تحديات هذا العلم ذاته وزحفه السريع في كل مكان ليفضح أكاذيب الأدعياء والمبطلين وزيف ما يبشرون به من نظريات ظاهرها العلم وباطنها التخريب والتجهيل .

لقد غاب عن أصحاب هذه الدعوات المرجفة ما لا يجوز أن يغيب عن أي مثقف واع يعتبر بشهادة التاريخ الثابتة ، وهي أن النظريات العلمية والفلسفية لم تكن في يوم من الأيام حكراً على الروم واليونان والعجم.فقد أسهم مفكروالاسلام وعلماء العرب بنصيبهم الكبير في هذه النظريات وصاغوها من ذوب عقولهم ونبضات قلوبهم . ولا غرو في ذلك . فإنما هم ـ كما سيتضح في تضاعيف هذا الكتاب ـ عطاء بيئتهم العربية الاسلامية بكل خِصبها وثرائها ، وما تلقت من روافد التراث الفكري القديم ـ اليوناني وغير اليوناني ـ وهضمته بعقليتها المتميزة ، وتمثلته بمنطق تفكيرها وروح عقيدتها .



ولندع الآن العموميات التي لا تروي ظمأ ولا تشفي غليلاً ، ولندخل في التفاصيل التي قد تضع الأمور في نصابها الصحيح فنقول :

إن تقسيم الناس إلى آريينّ وساميينّ هو من صنع علماء تاريخ اللغات في القرن التاسع عشر الذي شهد ظهور عدد كبير من النظريات العنصرية . فكلمة (آريّ) Arien كلمة سنسكريتية مشتقة من كلمة (آريا) ومعناها (شريف ، عريق) . فالآريون ، أي الأشراف ، شعب مشكوك في أمره كثيراً . انه شعب مختلق اختلف العلماء في أصله ، فيرى بعض الباحثين أن الآريين نشأوا في بلاد الدانوب بأوربا ثم هاجروا إلى آسيا عندما ضاقت بهم الأرض ، فنزلوا فارس بالقرب من تبريز ، ومن ثم انحدروا إلى بلاد الهند .

ويرى باحثون آخرون رأياً أكثر شيوعاً وانتشاراً بين دعاة التفرقة العنصرية ، وخلاصته أن الجنس الآريّ نشأ في آسيا قرب بحر قزوين ، ثم زحفت أفواج ضخمة منه إلى بلاد الهند في أزمنة غير واضحة (يحصرها البعض في حدود القرن الثاني عشر قبل الميلاد ، بينما يرجع بها البعض الآخر إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد) ، وهي تحمل معها ديانة الڤيدا أوحضارة رعاء الابل ،

كما زحفت أفواج أخرى من هذا الجنس المزعوم إلى أوربا . هؤلاء هم أسلاف الاوربيين الحاليين .

وقد كشفت الفيلولوجيا المقارنة أوجه شبه كثيرة بين السنسكريتية لغة هذه الأقوام ، وبين اللغات الاوربية الكبرى (اليونانية واللاتينية والجرمانية والسلافية والانكليزية السكسونية) . وبشيء من العجلة والاعتساف والحذق « الأكاديمي » ربط فريق من العلماء بين الشعوب التي تتكلم هذه اللغات برباط النسب والقرابة ، ورجعوا بهذه الأنساب جميعاً إلى أصل واحد [١] .

فالشعب الآريّ بحسب هذه النظرية إنما هو الدوحة التي تفرعت عليها الأمم الأوربية وبعض الأمم الآسيوية ممن ترجع لغاتهم إلى اللغة الأم : السنسكريتية . وقد أطلق على هذه الأمم جميعاً اسم (الأسرة الهندية ـ الاوربية) ثم جاء فون كلابروث J. Von Klaproth فدعا إلى استبدال كلمة (هندية ـ أوربية) بكلمة (هندية ـ جرمانية) [٢] .

وفي عام ١٨٤٥ بلغت هذه النظرية غاية مداها على يد الكونت دي غوبينو الذي عرض لها عرضاً وافياً من كتابة (مبحث في تفاوت الأجناس البشرية) . وخلاصة رأيه أن العامل الأساسي في حركة التاريخ ونمو الحضارات وقيام الدول والكيانات السياسية الكبرى إنما يكمن في الاستعداءات العنصرية لبعض الأجناس البشرية دون البعض الآخر . فهذه الأجناس متفاوتة جبلياً - congénitalement في الموهبة والقيمة والاستعداد للابداع الحضاري ، ولا سبيل إلى تبدل طباعها الفطرية إلا بالاختلاط والتناسل فيما بينها وبين الشعوب الأخرى . فعبقرية الجنس لا تتأثر إلا قليلاً جداً بالاقليم والبيئة والزمان . إن من السخف الظن ان جميع الناس متساوون في المواهب والابداع والخلق ، فلا ينفرد بهذه الصفات الأخيرة إلا الأجناس البيضاء وحدها . فإنما هي (أي الصفات) وقف عليها ، وحق منحتها إياه الطبيعة من دون سائر الأمم والشعوب . ويحتل الآريّون الشماليون Nordiques مكان الصدارة بين هذه الأجناس المختارة .

---

(١) Frank H. Hankins : La race dans la civilisation P 32

(٢) المصدر السابق .

واستقصى الكونت دي غوبينو الحضارات الرئيسة في التاريخ فوجد أنها إنما تنحصر في عشر حضارات فقط ، وأثبت على طريقته المتعسفة الخاصة أنها جميعاً حضارات آريّة ، إلا واحدة هي الحضارة الأشورية التي قال انها تدين بالضرورة للفرس ، وهم شعب آريّ . ولله درّ شلوش M. Schlauch حين لاحظ بمنتهى سداد الرأي أن الكونت دي غوبينو في تعداده للحضارات قد أغفل الحضارتين اليهودية والعربية (١) .

وهكذا ، فان الكونت دي غوبينو لا يكتفي بالقول بوجود فوارق جوهرية بين السلالات والأجناس البشرية ، بل هو يعمق هذه الفوارق ويضفي عليها أهمية خاصة ، فيجعل من الجنس الآريّ نوعاً سيكولوجياً قائماً بذاته يضارع النوع البيولوجي في توكيد الاختلاف بين الأقوام والأجناس من حيث توليد الأفكار والقدرة على الخلق والابداع .

بل لقد وجد أيضاً من ينسب التفوق إلى الجنس المنغولي أو الجنس الزنجي . ففي مرحلة التوسع العسكري لليابان مثلاً بادر الايديولوجيون في هذه الدولة إلى وضع نظرية شاملة في (تفوق الجنس النيبوني Race supérieure nippone خلاصتها أن العرق الياباني تقع عليه مسؤولية تاريخية كبيرة لأنه يحمل رسالة تمدين الشعوب ونشر الحضارة بينها (٢) .

●

في هذه الأجواء نضجت النظرية الساميّة ، نسبة إلى سام (بن نوح) الجد الأكبر للشعوب الساميّة فيما تقول التوراة التي ترجع أنساب البشر إلى أبناء نوح الثلاثة : سام وحام ويافث . فإلى سام ينتسب الجنس الساميّ واللغات الساميّة . وأول من أطلق هذه التسمية مستوحياً شجرة أنساب البشر كما أوردتها التوراة وأول من أذاعها بين العلماء عالم نمساوي بحاثة مختص بتاريخ الأمم القديمة اسمه أوغست لودويك شلوتسر A. L. Schloezer وذلك سنة ١٧٨١ فشاعت منذ ذلك الحين ، ولا سيما عندما استعملها المستشرق الالماني آيشهورن - Ei

(١) Margaret Schlauch : La Vérité sur l'aryanisme P. 49

(٢) Nestourth, P. 102, note 1

hhorn وأدخلها في مؤلفاته وبحوثه . واستخدمها غيره من العلماء الالمان والانكليز والفرنسيس ، حتى لقد أصبحت عند العلماء والباحثين في موضوع اللغات عَلَماً على مجموعة من اللغات الشرقية ثم على الشعوب التي تتكلم هذه اللغات [1] . بل لقد ظهر أن الصلة بين هذه اللغات أوضح وأمتن وأوثق منها بين طائفة اللغات التي يطلق عليها اسم (اللغات الهندية ـ الاوربية) أو (الهندية ـ الجرمانية) . ولئن كان شلوتسر أول من أطلق كلمة (اللغات الساميّة) على مجموعة معينة من اللغات الشرقية وتبعه في ذلك آيشهورن ، فإن مستشرقي القرن السابع عشر من أمثال هوتنغر Hottinger وبوخارت Bochartوشولتنس Schul-tens ولودولف Ludolfوغيرهم قد تنبهوا قبلهما للوشائج التي تربط بروابط متينة بين تلك اللغات ، وأشاروا إليها ، ونوّهوا بصلة القربى والنّسب التي تجمع بينها . بل لا يقتصر الأمر على هؤلاء ، فقد سبقهم إلى هذه الملاحظة أيضاً علماء عاشوا قبلهم بمئات السنين . فقد تحدث عالم يهودي اسمه يهودا بن قريش Yehuda ben Koreich من فقهاء القرن العاشر ، عن صلة النّسب التي تجمع بين تلك اللغات وعن الخصائص اللغوية المشتركة بينها . كما ان لهذا العالم اليهودي ملاحظات قيمة تتعلق بالأسس القوية التي تشد هذه اللغات بعضها إلى البعض الآخر برباط متين [2] .

ويباهي رينان بأنه أول من نادى بأن الجنس الساميّ أدنى مرتبة من الجنس الآريّ ، وأقل منه درجة في سلم الشعوب . وما ذلك إلا لأنه جنس ناقص لم يستكمل جميع مقومات الوجود الطبيعي [3] . فهناك تفاوت تام بين الجنسين من حيث المرتبة الحضارية والمواهب العقلية والاستعدادات البيولوجية ليس من الممكن تجاهله أو القضاء عليه لأنه في أصل الفطرة والتكوين .

وقد تأثر برينان بعض معاصريه ومن جاء بعده لوثوقهم بمعرفته ورسوخ قدمه في اللغات الساميّة ، وأضافوا مثله خصائص بيولوجية ، وبالتالي أبعاداً نفسية عقلية ، إلى الفوارق اللغوية الصرف . فان ليون غوتييه مثلاً ـ على رغم

---

(١) د . جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام ١ / ٢٢٣ .

(٢) انظر اللسان العربي ، المجلد السابع ١ / ٣٢ ـ ٣٣ .

(٣) E. Renan : Histoire générale et système comparé des langues sémitiques, 3 —16

نحرزه من آراء أستاذه ـ يَصدُر عن نفس الروح أيضاً ، وذلك عندما يقول في كتابه (مدخل إلى دراسة الفلسفة الاسلامية) إن العقلية السامية ـ وبالتالي العقلية العربية ـ عقلية مفرقة séparatiste في مقابلة ما يسميه بالعقلية المجمّعة أو الموحّدة fusioniste التي تنفرد بها الشعوب الآريّة.وهو يؤكد ايضاً أن الفكر الآريّ عقلاني rationaliste تعليلي explicative، وان الفكر الساميّ غيبي antirationaliste اعجوبي miraculeuse أي يتعلق بالخوارق والمعجزات والأعاجيب في نظرته إلى مظاهر الطبيعة وحوادث التاريخ والمجتمع (١) .

وإلى قريب من هذا يذهب ألبير فوييه في كتابه (تاريخ الفلسفة) . فهو يقول ان الفكرة السائدة لدى الآريين إنما هي فكرة الجوهر substance فالله في تصورهم جوهر العالم ، والعالم هو مجموع الصور التي يتجلى الله فيها . وهذا ما يفسر نزعتهم إلى وحدة الوجود . والخلق عندهم يحدث بطريق الفيض والانبثاق الطبيعي . وأما الساميّون فان الفكرة السائدة عندهم هي فكرة العلة cause المستقلة عن معلولها ، أي عن العالم ، والمفارقة لجميع الحوادث . ومن هنا تصورهم لله على أنه ملك الملوك ورب الأرباب . فهو القاهر فوق عباده ، المهيمن ، العزيز الجبار المتكبر ، بيده الملك وهو على كل شيء قدير . لا يُسأل عما يفعل ، وهم يُسألون . ولذلك تختلف عملية الخلق لدى الآريّين عنها لدى الساميّين . فهؤلاء لا يتصورون الخلق بطريق الفيض والانبثاق الطبيعي الضروري الذي يسد الفجوة بين الله والعالم ويملؤها بالأوساط كما يفعل الآريّون . كلا . فبين الله والعالم ـ في نظر الساميّين ـ هوة كبيرة لا سبيل إلى عبورها . كما ان الله قد خلق العالم ولا حاجة به إليه ، وهو إنما خلقه بإرادته الحرة المطلقة التي لا علة لها إلا ذاته الكريمة ، وهو على أن يذهب به إذ يشاء قدير (٢) .

ويسير على خطى هؤلاء أيضاً مؤلف آخر اسمه لابي Lapie في كتاب له عنوانه (الحضارات التونسية) . فهو في هذا الكتاب يقارن بين الروح العربية والروح اليهودية بعبارات عامة غامضة فضفاضة لا تُغني من الحق شيئاً . إذ

---

(١) L. Gauthier : Introd. à l'étude de la philosophie musulmane. chap. Premier

(٢) Albert Fouillé : Histoire de la philosophie, P. 25 — 26

لقد تصرفنا قليلاً في تصوير رأيه ولكننا لم نخرج عن روح مذهبه .

يقول : « إن النفس اليهودية منساقة بفطرتها إلى المستقبل ، والنفس العربية منساقة بفطرتها إلى الماضي ، فهما متنافرتان . والنفس الاوربية تختلف عنهما »[1] . ويقول في نفس المعنى أيضاً : « ان الروح العربية المتجهة إلى الماضي هي التي تكفي لتعريفنا جميع السمات الأخرى للنفس العربية . أما اليهود فلا يعترفون بالماضي وينسون الحاضر لانشغالهم بالمستقبل . والمستقبل هو مركز الدائرة الذي تتجه إليه جميع ميول الاسرائيلي »[2]

وهكذا انصرف العربي عن حاضره وتعلق بأطلال الماضي ، وبكى الآثار والأطلال . انه لا يصلح للعمل المنتج والابتكار المفيد النافع !

وقد ألف المتعصبون للنظرية العنصرية كتباً عدة في موضوعات شتى تعالج الجسم والروح عند كل من الساميّين والآريّين ، وعنوا عناية خاصة بدراسة الحياة الروحية ومظاهرها عند الجنسين ، فتناولوا النواحي القانونية والأحوال التشريعية المختلفة عند الساميّين والآريّين ، وقارنوا بين النظم المتباينة عندهما ، كما عالجوا مختلف النواحي الأخرى من الحياة العملية الخاصة والعامة ، حتى أن بعضهم وضع كتاباً في تحريم لحم الخنزير عند الساميّين ، مع أنه من اللحوم الشهية المباحة عند الآريّين ، وعد ذلك من مميزات الجنس !!!

قد يُلتمس العذر لأمثال هذه الآراء ، لأن معظمها يرجع إلى القرن الماضي وبداية هذا القرن ، حيث كانت السطحية والتفاهة والضحالة غالبة على العلوم الانسانية الناشئة . لكن أي عذر يلتمس لآراء من هذا القبيل تصدر في الربع الأخير من القرن العشرين ؟ فهذا جان لافين John laffin يصدر منذ بضعة أعوام فقط كتاباً بعنوان (نظرة إلى العقل العربي)[3] فهذا الكتاب مثال للمغالطة والتحامل على الفكر العربي وتشويهه لما فيه من تضليل للقارىء الاوربي الذي يريد الوقوف على هذا الفكر ودراسته عن كثب ، في هذه المرحلة الدقيقة من التغيرات والتحولات المصيرية التي تشهدها منطقتنا . انه نموذج للتعصب المقنّع بموضوعية كاذبة خداعة تستدرج الاغرار والبسطاء لشحنهم بأفكار موجهة

(١) نقلاً عن مصطفى عبد الرازق: تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية ، صفحة ٢١ .

(٢) نقلاً عن د . علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ١ / ٢٥ - ٢٦ .

(٣) The Arab mind considered, Ancrd for understanding P. 168 sq

وانظر له أيضاً : The Dagger of Islam وقد ظهر بعده وهو أمعن في المغالطة من سابقه

مسمومة تؤذي الفكر العربي وتضر بسمعته .فالمؤلف ـ لتغطية حملته على العرب، وكيما يتسم كتابه بسمة الموضوعية والنزاهة يخدع بها القارىء الاوربي والامريكي العادي الذي يكون في العادة خالي الذهن في قضايا العرب والاسلام ـ قد أقرّ بعظمة الحضارة العربية في عصور الازدهار ، وأثنى على تسامح العرب في الاندلس ، وأشاد بالنتائج الثقافية والاجتماعية والاقتصادية الهامة التي حققوها في أوربا ، وقدرتهم الفائقة على توحيد أقاليم شاسعة تمتد من حدود الصين شرقاً حتى فرنسا غرباً ، وتكوين مجتمع واحد من ثقافات كانت من قبل متصارعة متنافرة ، وأعني بها ثقافات البحر الأبيض المتوسط والشرق الأدنى والأوسط . وهكذا « كان العرب أعظم ثقافة من شعوب أوربا الغربية وكانت لديهم قدرات الاغريق والرومان » .

وبقفزة عبر العصور تنقلنا من ماضي العرب إلى حاضرهم تنقلب الأحكام المتزنة إلى أحكام متسرعة أو تحكمات شديدة القسوة على العربَ والحضارة العربية . فأول صفة يحرص المؤلف على إلصاقها بالعرب هي صفة العنف . وترجع جذور هذه الصفة في رأيه إلى طائفةُ الحشاشين الذين كانوا يستخدمون القتل وسيلة للضغط السياسي ! كما يسمّي الفلسطينيين بالارهابيين . ويتحدث طويلاً عن « الفظائع » التي اقترفها العرب في حق الجنود الفرنسيين الذين وقعوا أسرى في أيديهم في شمال افريقيا ، كما يندد « بالتعذيب » الذي تعرض له الأسرى الاسرائيليون على أيدي المصريين في حرب تشرين أول (أكتوبر) سنة ١٩٧٣ . وهكذا فالعنف والقسوة ينمّان عن طبع وحشي متخلف له جذور عميقة في الذات العربية !

عجيب أمر هؤلاء الاوربيين والامريكيين ! لقد نسوا الفظائع التي اقترفها الاستعمار الفرنسي والانكليزي والايطالي في سوريا ولبنان وشمال افريقيا وسائر البلاد الأخرى التي ابتليت به ، وهي فظائع تقشعرّ لها الأبدان . ماذا أقول ؟ ان ظاهرة الاستعمار هي في ذاتها انتهاك للكرامة الانسانية وإذلال لها وإهدار للقيم التي تمثلها يفوق كثيراً أي عملية تعذيب جزئية قام بها فرد انتهبت أرضه ، وشُرد من وطنه ، واغتُصبت زوجته وبناته وقُتل أولاده على مشهد منه ! ما لهؤلاء القوم الذين صنعوا أعظم حضارة في التاريخ لا يدركون هذه البديهيات ؟ وهؤلاء

الذين ينددون بما يسمونه (الارهاب) الفلسطيني : هل يريدون من العرب أن يستكينوا ويقفوا مكتوفي الأيدي أمام عدوان اسرائيل ؟ أنا لا أفهم كيف يستجيزون أن يسموا الدفاع عن النفس إرهاباً ، وطرد اللص الذي سطا على الدار عدواناً . أم تراهم يتمثلون قول المسيح : « من ضربك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر » ؟ حقاً لقد انقلبت الموازين واختلت المقاييس في هذه الحضارة التي أحرص على تسميتها (حضارة التوحش) أو (الوحشية المتحضرة) . فأصبحت اللصوصية تمديناً ، والخنوع تهذيباً . وقد بلغ سخف المؤلف أقصاه عندما قال إن الدعوة إلى إبادة إسرائيل امتداد لحرب النبي مع اليهود ! ! أما إبادة إسرائيل للعرب الفلسطينيين وتشريدهم من أرضهم وديارهم فلا تدل على شيء في نظره ، أم لعلها رسالة حضارية كتلك التي جاء بها الرجل الأبيض إلى الزنوج والهنود الحمر في افريقيا وأمريكا وإلى الجنس الأصفر في فيتنام ! ويخلص المؤلف إلى القول بأن من الخطأ تطبيق القيم الغربية على العالم العربي . ولا غرو في ذلك ، فهي (أي القيم الغربية) قيم وداعة وحب وسلام ووئام ، أما دفاع العربي عن نفسه وعرضه وأرضه ، أما إخراج اللص الذي اعتدى على الدار ، فأمر يستعصي فهمه على باحث انكليزي يكتب في أواخر القرن العشرين !!

يا للعار ! ليت المؤلف اكتفى بالقول انه لا يفهم ، ولكنه ينسب عدم الفهم إلى أبناء جلدته الغربيين أيضاً !

فهل صحيح أنهم لا يفهمون ؟ هل معادلة الدفاع عن النفس والعِرض والأرض وطرد اللصوص والسفاكين والمفترين على التاريخ والحضارة والانسانية ، وردهم على أعقابهم ـ أقول هل هذه المعادلة أكثر صعوبة وتعقيداً من معادلات نظرية النسبية والميكانيكا الموجية ، والعقول الالكترونية ؟ أم هو منطق القوة يصيب صاحبه بالحَوَل ، فيرى الأشياء رؤ ية مزدوجة ، ويصدر عليها أحكاماً مزدوجة متشنجة من هذا القبيل ؟

هل انقلبت معايير الأشياء أم على قلوب أقفالها ؟

هذا غيض من فيض الأحكام المتعسفة البعيدة عن روح العلم والتي يطول بنا المقام لو أردنا استيفاءها هنا جميعاً . فحسبنا الآن هذه النماذج منها .

وهذه الأحكام يمكن نقدها وتوجيه المطاعن إليها سواء :

(١) من حيث المنهج والطريقة . (٢) أو من حيث المضمون والوقائع .

أولاً ـ كشف المغالط المنهجية في هذه الأحكام . ـ ان جميع النظريات التي من هذا القبيل تشترك في خطأ فادح هو أنها تصدر أحكاماً ذات قيمة ثانوية ، وتعلق أهمية مطلقة على ظروف استثنائية محدودة العدد ، وتعمم إلى غير نهاية ، بعض الحالات الفردية ، وتبرز بعض الملامح على حساب البعض الآخر ، بعملية اختيار عشوائية ، فتقبل ما يروق لها وترد ما لا يروق لها . انها تستعمل كلمات مطاطة فضفاضة لها أكثر من معنى : إنها تخلط بين المستويات وتقفز بينها بحركة متموجة سريعة يجد المرء غير المدرب صعوبة بالغة في تعقبها وتتبع سيرها . فهي أشبه بحركة الساحر الرشيق يستخرج من فمه عشرات المناديل أو يقلب أعيان الأشياء . وأهم من كل ذلك أنها تخلط بين الأحكام التقويمية والأحكام التقريرية (أحكام القيمة وأحكام الواقع) . كل ذلك لتبرير حق الأقوى ، بالتقليل من شأن المستضعَف الذي لا تتوشج بينه وبين الاوربي واشجة قرابة أو نسب ، وحرمانه بسبب ذلك من مزايا الابداع والابتكار والتفكير الخلاق ، وحصر هذه المزايا جميعاً في الجنس الاوربي وحده . فبالتفكير على هذا النحو يقع المرء في المغالطات السوفسطائية التي تقوم على قلب الحقائق وتزوير الوقائع ، وجعل الأمر العارض أمراً ذاتياً ، والصفة التابعة للشيء جوهراً له . ان مثل هذه التوكيدات جميعاً ليس لها أي قيمة علمية ، وما ذلك إلا لأنها نسبية جداً ، ولأنها ذاتية شخصية تعبر عن وجهة نظر أصحابها فقط ، أي هي مجرد أحكام تقويمية ليس لها صفة الموضوعية بوجه من الوجوه . فإنما هي شطحات لا تتوفر فيها الملاحظة الدقيقة ولا يمكن التحقق منها على وجه علمي صحيح . ولذلك فهي غير صالحة للاستخدام العلمي . ومما يؤسف له ان معظم ما لدينا حتى الآن من دراسات وأبحاث في طبائع الشعوب والأمم هو من هذا القبيل .

ان هذه الطريقة الخطابية لا يجدر بالصحف والاحاديث اليومية أن تنزلق إليها وتتردى فيها ، فكيف بالثقات من رجال العلم والحصافة . إنها طريقة خطرة جداً على وضوح الفكر وسلامة البحث الدقيق ، وبالتالي عقبة تعوق تقدم علوم الانسان .

إن أول ما ينبغي على رجل العلم هو أن يبني أحكامه على حقائق موضوعية

ثابتة محددة ، وأن يحترز من الصيغ العامة والشطحات التي تفتقر إلى الدقة والوضوح ، ولا سيما عندما يتصدى لدراسة طبائع الشعوب وأخلاقها ونفسياتها ، إن صح أن للشعوب طبائع وأخلاقاً ونفسيات تميزها بعضها عن بعض . فإذا قيل لنا مثلاً ان هذا الشعب أو ذاك يتصف بالسرقة أو الغدر أو الغش أو الكبرياء أو القسوة أو الأنانية أو البخل . . . أو على عكس ذلك انه شعب أمين يرعى العهد ، رقيق القلب ، شيمته التواضع والكرم ، يحترم ملكية الآخرين ويحب الغرباء . . .فكل هذه صيغ فضفاضة لا تعني شيئاً إذْ لا تتوفر فيها المقارنات والاحصاءات والملاحظات الدقيقة ، ولا يمكن التحقق منها بسهولة ويسر . ولذلك فلا تصلح للاستخدام العلمي .

ومن المؤسف حقاً أن جل ما لدينا حتى الآن من نظريات فيما يسمى بطبائع الشعوب إنما هي نظريات من هذا القبيل يعوزها الكثير من الروح العلمي . إذ إن عدداً لا يستهان به من المفكرين والفلاسفة قد عالجوا هذا الموضوع بسذاجة غريبة ، ولم يدركوا ما تنطوي عليه أبحاثهم من انزلاق ووعورة.فكتب أحدهم يقول [1] : « ان عيوب الانكليزي تنبع من صفاته الحسنة . فاستقلاله يعرضه للأنانية ، واعتداده بذاته ينزع به إلى حياة العزلة ، وروح الأصالة فيه تدفع به إلى التطرف ، وإيجابيته تحفزه على تقديس القوة وازدراء الضعف » . وأما الالماني فانه « رغم ما يتصف به من وحشية طبيعية فهو مستعد للشفقة ، غير انه خال من النزعة الفطرية لحب المجتمع ، وهي النزعة التي ينفرد بها الفرنسي . انه يميل غالباً إلى أن يكتفي بذاته ، وهو يندفع إلى أي عمل يراه ذا أهمية خاصة ، أو إلى أي مبدأ خلقي أو فلسفي أو ديني يهيمن على تفكيره » .

فليت شعري ! كيف يمكن التحقق من أمثال هذه العبارات العامة والصيغ المجردة ؟ فحين يقول فوييه ان الانكليزي « عرضة للأنانية نتيجة لشعوره بالاستقلال » فهل الانكليزي وحده هو كذلك حقاً ؟ أم أن هذه الصفة العامة تنطبق على كل انسان يحس باستقلال ذاته ويربأ بها عن مخالطة الآخرين ، سواء

---

(١) هو الفيلسوف الفرنسي الفريد فوييه الذي تصدى لتحديد الصفات المميزة للشعوب الأوربية في كتابه
Esquisses psychologiques de peuples européens

كان انكليزياً أم غير انكليزي ؟ وحين يقول ان الالماني « يميل » إلى كذا وكذا ، فما حقيقة هذا الميل ؟ وما درجته ؟ وهل يختص به الالماني وحده دون سائر عباد الله الآخرين لا يشاركه فيه أحد ؟ ان مثل هذه التوكيدات لا يقتصر أمرها على أنها إنما تعبر عن وجهة نظر ذاتية ، بل انه ليعوزها فضلاً عن ذلك الكثير من المشاهدات والوقائع والمقارنات والبيانات الاحصائية وغير ذلك من وسائل التوثيق والاسناد. وإلا فما قيمة الرأي لا تثبته الوقائع ولا تدعمه الحجج والأسانيد ، فكان جمحة خيال أو سانحة خاطر ؟

وقد حذا حذو الفلاسفة بعض علماء الجغرافيا البشرية ، فأصدر أحكاماً مبتسرة متسرعة على سكان بعض المناطق التي درسها ، فوصف شعباً بالكبرياء والانَفَة والحَمِيَّة ، وآخر بالضغينة والقسوة ، وثالثاً بالبشاشة والكرم واللطف الخ . . . فعلى أي أساس أصدر هذه الأحكام ؟ إذا كان الأساس هو الملاحظة الشخصية - كما زعم بعضهم - فما هي القواعد التي اتُبعت في هذه الملاحظة ؟ وإذا كان مستنده أقوال من خالطه من الأفراد والجماعات فما باله لم يُخضع هذه الأقوال للمقارنات والاحصاءات والدراسات الميدانية وغير ذلك من وسائل التمحيص العلمي ؟

فإذا انتقلنا إلى علماء التاريخ فلن نجدهم أسعد حالاً من الفلاسفة وعلماء الجغرافيا : شطحات من الخيال ، وصف شاعري لطبائع الشعوب دونما تحرٍ للدقة أو مناقشةٍ للوثائق والتزام بالروح العلمي الصحيح . فمنهم من يجنح إلى تأصيل روح الشر الكامنة عند بعض الشعوب بالرجوع إلى قصة قابيل وهابيل . ومنهم من يسم شعباً بالتوحش وسفك الدماء لا مستند له سوى بعض حوادث القتل الفردية التي وقعت في ظروف خاصة يحدث مثلها في كل مكان . ومنهم . . . ومنهم . . . ومنهم . . .

ومما يزيد في تهافت هذه « النظريات » أخيراً - ان صح أنها نظريات حقاً - انها إنما تعتمد في أساسها على حكم تقويمي عام يجعل بعض الأجناس البشرية أدنى من بعض. فضلاً عن أن هذا الحكم إنما يستند إلى تقدير شخصي كيفي (نوعي) للشعوب لا معنى له في موازين العلم الكمي الموضوعي . انه حكم مُبْهم يفتقر إلى الوضوح وتحديد المراد . فعندما يقال ان الجنس الساميّ « أدنى » من الجنس الآري ، أو أن هذا الأخير « أعلا » من ذاك ، فقد كان ينبغي أن يقال على

الأقل إنه « أدنى » أو « أعلا » في مسألة كذا وكذا ، لا إطلاقاً : وذلك لأن من هو « أدنى » في أمر قد يكون هو نفسه « أعلا » في أمر آخر .

هذا هو في مجمله النقد الذي يمكن توجيهه للنظريات العنصرية من حيث المنهج والطريقة ، لقد انهارت هذه النظريات وأسقط في يد العلماء والباحثين الذين يقولون بها . فقد كان أولى بهؤلاء وأولئك أن يلتزموا في هذا المجال - كشأنهم في المجالات الأخرى - روح النقد ويناقشوا الوثائق التي بين أيديهم أو يتحرّوا الصحيح منها ويردّوا الزائف ، حتى لا يركبوا رؤوسهم ويطلقوا الأحكام جزافاً ، لا وازع من علم ولا رادع من ضمير !

ثانياً - تهافت هذه النظريات مضموناً ومدى التضليل فيها . - الآن وقد فرغنا - أو كدنا - من نقد منهج التفكير عند القائلين بتفاوت الشعوب وامتياز بعضها على بعض ، فلنحاول نقد مضمون تفكير هؤلاء ، وكشف ما فيه من زيف وتضليل .

ان دراسة الأجناس والسلالات البشرية races هي موضوع فصل خاص علم الانسان anthropologie يسمى علم الأجناس البشرية raciologie ومن مهام هذا العلم تصنيف الأجناس البشرية وتعيين مراحل تطورها ، والعوامل البيولوجية والاقتصادية والاجتماعية المؤثرة فيها .

ان علم الانسان الحقيقي ينظر الى الأجناس والسلالات البشرية على انها أغصان وفروع من دوحة أصلية واحدة نشأت في أعقاب تطور طيل معقد . وفي دراسة هذه الأجناس والسلالات يعتمد العلماء قبل كل شيء على علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وعلم الأجنّة وعلم الحفريات . وهناك علوم أخرى تأتي في المرتبة الثانية ، هي علم خصائص الشعوب ethnographie وعلم الآثار وعلم التاريخ وعلم الألسن . وهناك أخيراً علم النفس وعلم الاجتماع وعلم النفس الاجتماعي بفروعها المختلفة .

وسنحاول الآن أن ندرس ونحلل مختلف الأجناس البشرية ، انطلاقاً من الحقائق والمعطيات التي جاء بها علم الانسان .

تنقسم الأجناس البشرية بحسب معظم علماء الانسان وأكثرهم تجرداً بثلاثة اقسام كبرى هي الجنس المنغولي (الأصفر) والجنس الأوربي (الأبيض)

والجنس الزنجي (الأسود) [1] . وتتشعب هذه الأجناس الكبرى بدورها إلى أجناس أصغر تتفرع هي أيضاً فروعاً انتربولوجية أصغر فأصغر . ولوجود جماعات مختلطة (انتقالية) كثيرة في انحاء مختلفة من العالم ، فيمكن النظر الى الانسانية في الوقت الحاضر على انها حشد كبير هائل من النماذج الانتروبولوجية والأجناس والسلالات يتألف منها مع ذلك كل واحد متجانس من الوجهة البيولوجية . وهذا ما يفسر لنا بوضوح كيف أن الشعب الواحد نجد فيه نماذج من أجناس مختلفة ، وكيف أن الجنس الواحد نجده موزعاً في شعوب مختلفة . فالأمم والشعوب انما هي في نهاية المطاف مزيج مختلط من الأجناس والأقوام والألوان .

ان الاختلاف بين الشعوب انما هو اختلاف مورفولوجي بحت ينحصر في الأشكال الخارجية للابدان التي هي وليدة الأحوال الجغرافية والمناخية . ومهما اختلفت هذه الأشكال فانها لا تمس الاستعدادات النفسية والمواهب العقلية . فرغم اختلاف اللون والشكل فان اليد التي كانت أولى وسائل الحضارة لا تتفوق في جنس بشري على آخر . فيد الانسان لا يقتصر أمرها على انها أداة للعمل ، بل هي نتيجة له أيضاً . فطوال عصور التطور التي لم تتوقف في يوم من الأيام طرأت على اليد تبدلات متلاحقة تبعاً لما كانت تقوم به من حركات ظلت تزداد دقة دهراً بعد دهر . وبطريق الوراثة انتقلت الخصائص التشريحية ـ الفسيولوجية التي نتجت عن هذه التبدلات من السلف الى الخلف ، وترسخت في الأبناء والأحفاد والأسباط وسائر الأعقاب والذريات . وحاول علماء الأجناس العنصريون ان يجدوا ضالتهم المنشودة في تركيب الدم . ولكن هيهات ! وكم خاب سعيهم إذ وجدوا ان تركيب الدم واحد هو أيضاً في جميع الأجناس البشرية . فرغم تقدم وسائل البحث في هذا الميدان لم يعثر العلماء على أثر يدل على وجود فرق بين الشعوب في هذا السبيل [2] . وانتقل العلماء العنصريون بعد ذلك إلى الزاوية الجبهية angle frontal ، وهي ذات دلالة كبيرة على درجة التطور ـ لعلهم يجدون فيها متنفساً لاحقادهم . وكم صُعقوا عندما اكتشفوا ان هذه الزاوية لا تختلف

---

(١) ان التعابير الثلاثة (جنس أصفر وأبيض وأسود) قد اقترحها لأول مرة جورج كوفييه G. Cuvier وذلك سنة ١٨١٠ وقد اصبحت هذه التعابير اليوم عتيقة بالية نوعاً .

(٢) Nestourkh : Les races humaines p . 55.

لدى الجنس الأوربي المتأله عنها لدى الجنس المنغولي والجنس الزنجي [1] . هذا من حيث تكوين الجمجمة ، أما من حيث تكوين الدماغ فان جميع الأجناس البشرية تستوي في ان لها دماغاً مكيفاً تكيفاً جيداً للعمل . فجميعها قد نضجت نضوجاً تاماً لدى جميع الأجناس البشرية بلا استثناء ، فنمت نمواً كبيراً وتنوعت فيهاالمراكز التي تسيطر على كل اصبع على حدة ، بينما نحن لا نجد هذا التنوع في دماغ الشمبانزي مثلاً [2] . والمعقل الأخير الذي عقد عليه ارهاط العنصرية آمالاً كباراً هو حجم الدماغ ووزنه . هناك فروق حقاً في هذا المضمار ولكنها لا تتعدى الفروق القائمة بين ابناء الجنس الواحد والقومية الواحدة [3] . لقد زعموا ان وزن الدماغ يختلف بمئات الغرامات من جنس إلى آخر . لكن الثابت اليوم ان وزن الدماغ لا دخل له هو أيضاً في الوظائف العقلية . فان دماغ أناتول فرانس مثلاً يزن (١٠١٧) غراماً فقط بينما دماغ تورغنيف Tourguénev يزن الضعف تقريباً (٢٠١٢) غراماً . ولم يمنع هذا الفرق الكبير بينهما ان كليهما يتربع في قمة الأدب العالمي ، وكليهما حقق لهذا الأدب أمجاداً لا تحصى [4] . ولا يقتصر الأمر على هذا ، فكثيراً ما يتبجح دعاة العنصرية بأن مستوى الحضارة إنما يرتبط بحجم الدماغ . لكن الرد على هذا الافتراء قد جاءنا من مصر القديمة : فتبعاً للبحاثة الانتربولوجي الالماني شميد Schmidt كان متوسط قحف الدماغ لدى المصريين القدماء (١٣٩٤) سم^{٣} في الرجال تقريباً و (١٢٥٧) سم^{٣} في النساء . فدماغهم اذن كان صغير الحجم وبالتالي فقد كانوا من هذه الناحية يندرجون في عداد الشعوب الهمجية المجاورة لهم . وكلنا نعرف جميعاً من هم المصريون القدماء ، وأي حضارة عملاقة كانت لهم ! وهذا ما يثبت وجهة النظر العلمية الحديثة التي تنفي وجود أي علاقة بين حجم الدماغ (أو شكل الجمجمة) وبين مستوى الحضارة [5] .

ان هذه المساواة البيولوجية والتكوينية بين الشعوب تقضي على أوهام العنصريين وسائر دعاة التفرقة الذين يتشدقون بان الزنوج والمنغوليين لا يزالون في

(١) المصدر السابق صفحة ٥٠ .

(٢) المصدر السابق صفحة ٥٤ .

(٣) RogerGaraudy: La théorie naturaliste de la connaissance . p . 179 .

(٤) Nestourkh : Les races humaines . p . 57

(٥) المصدر السابق صفحة ١٠٢ .

مراحل من التطور تخطاها « السادة » البيض الأوربيون منذ زمان طويل .

فالأجناس انما هي في حقيقة امرها نتيجة أفاعيل وعوامل وظروف جغرافية ومُناخية طرأت على التركيب الفيزيائي للانسان ، وظلت تتفاعل طوال عصور ما قبل التاريخ ، وعن هذا التفاعل نشأت الأجناس الثلاثة الكبرى التي ذكرنا .

فلا صحة اذن للقول بان الوضع العقلي للفرد تابع للجنس الذي ينتمي اليه . انه لعمري قولٌ هراءٌ متهافتٌ ليس له أي قيمة علمية . انه دعوى عنصرية فاشية متعصبة مارستها معظّم دول أوربا الغربية منذ ثوراتها الصناعية حتى الحرب العالمية الثانية . أجل ، لا صحة للقول بأن تقدم أوربا وتأخر غيرها اليوم انما مرجعها أسباب بيولوجية صرف وان هناك امماً قابلة للتقدم بالطبع والفطرة ، وأخرى محكوم عليها بالتخلف بالطبع والفطرة أيضاً ، وان الانسان الآريّ الأبيض بالتالي هو قمة المجموعة البشرية ، فليس سواه من يستطيع ممارسة التقدم وتحقيق أغراضه وغاياته . وقد بدأ تكذيب هذه الدعاوى عندما أصبحت اليابان في عداد الدول الصناعية المتقدمة . هنالك اتضح بطلان دعاوى العنصريين . وتلاحقت الدلائل والشواهد تتلى بعد ذلك لتثبت حقيقة المساواة بين الأمم والشعوب .

فلئن اختلف الناس بعضهم عن بعض في مستوى الذكاء فهذا الاختلاف لا ينطبق إلا على مستوى الأفراد لا على مستوى الجماعات : فلا معنى أبداً للقول ان جميع الناس في البلاد العربية يختلفون عن جميع الناس في البلاد الفرنسية أو الانكليزية أو الأمريكية ، وبالتالي انهم من طينة أخرى غير طينة العرب . فمن الممكن ان يتفوق لبناني أو سوري أو عراقي أو مصري . . . على فرنسي أو انكليزي أو أمريكي في الذكاء ، والعكس ، غير انه لا يمكن القول أبداً ان جميع الاوربيين أذكى من جميع العرب . وكما سنرى ، فان الفروق الفردية تتلاشى عند الانتقال الى مستوى البحث في الفروق الاجتماعية .

وان جيلنا الحاضر يشهد بعض الفصول الختامية ـ نظرياً فقط ، لا ممارسةً وتطبيقاً، لأن الاستعمار هو الاستعمار ، ولن يتخلّى أبداً عن مواقعه لمجرد حفنة من النظريات العلمية لا تعنيه في قليل ولا كثير ـ أقول ان جيلنا الحاضر يشهد الفصول الختامية لانحدار الأسس العلمية للدعاوى العنصرية ، حيث تتعرض

للاشمئزاز جميع الجيوب التي ما زالت تمارس ايديولوجيا التفرقة العنصرية.فجميع شعوب العالم قادرون على ابداع قيم ثقافية وحضارية ، وان مقدار أسهامهم في الفكر العالمي والثقافة العالمية لا يحدده لون الجلد أو شكل الجمجمة أو وزن الدماغ ، وانما تحدده خصائص تطورهم التاريخي .

فالفلسفة العنصرية فلسفة مدمرة تتخذ من العلم قناعاً لأغراضها الشريرة . انها فكرة هجومية توسعية تضرب جذورها في المذاهب الاستشراقية التي أمدّت الفكر الامبريالي بروافدها المتعددة . وإذا عرفنا ان الاستشراق كان في الأصل من أجل تزوير حقيقة الأمة العربية ، أدركنا خطورة هذه الفكرة في عملية التزوير الكبرى للتاريخ العربي ولمكانة العرب بين الشعوب .

أجل ، ان الفكر الاستشراقي كان رائده في الأساس اثبات مقولة عنصرية وقحة مؤداها ان الغرب متفوق بطبيعته ، وان الشرق ـ ممثلاً بالعرب ـ منحط متخلف بطبيعته أيضاً . فكل تفوق فانما مصدره الجنس الأوربي الأبيض ، ففيه قوى خلاقة فعالة تميزه من بقية الأجناس هي سر تفوقه ووصوله إلى أعلى الدرجات في التاريخ والحضارة ، وهو وحده جدير بفهم جهود المبدعين من ذويه ، وقادر على جمع القيم وتقديرها والافادة منها . وفي ذلك دعوة مقنّعة إلى تقبل الاستعمار على أساس انه في حقيقة أمره ظاهرة حضارية أو رسالة إنسانية ، انما يتوخى الغرب منها تمدين شعوب الشرق والتخفيف من توحشهم ومن وطأة التخلف الكامن فيهم بحكم الطبع والفطرة !!! .



هذا ، واذا كنا نقول بالمساواة البيولوجية والفسيولوجية بين الأمم والشعوب فليس معنى ذلك اننا ننكر اختلاف الأشكال المورفولوجية من شعب إلى آخر ، كيف لا ونحن نرى هذا الاختلاف كل يوم رأى العين . إلا ان هذا لا دخل له إطلاقاً في المواهب النفسية والملكات العقلية . ان علم الأجناس البشرية يقوم على وقائع مادية ظاهرة مقررة ، كشكل الجمجمة والأنف ولون البشرة . . . فهذه الفروق التي هي وليدة ظروف جغرافية طارئة لا تدل على وجود عقلية خاصة بالساميين أو بالأوربيين ، أو بالزنوج أو الصُفر ، ذات حدود ورسوم مقررة . هذا فضلاً عن أن الأشكال المورفولوجية للأجناس والأقوام ليست ثابتة

آبدية ، بل هي قابلة لشتى التحولات والتغيرات لأنها نتيجة فعل البيئة الطبيعية والظروف الاقليمية .

ثم كيف تنسجم دعوى الاستعماريين بان لهم رسالة حضارية ازاء الشعوب التي يستظهرون عليها ، وبالتالي ان من الممكن تطويرها والتأثير فيها بفعل هذه الرسالة التي أخذوا على عاتقهم القيام بها ـ أقول كيف تنسجم هذه الدعوى مع دعواهم انه من غير الممكن التأثير في خواص الجنس ، لأن الصفات الفطرية البيولوجية للجنس هي وراء كل تقدم أو كل تأخر لهذا الشعب أو ذاك؟ وهكذا يتحول ـ على أيدي دعاة التفرقة العنصرية ـ ذلك التفاوت الاقتصادي والاجتماعي بين الشعوب ، وهو تفاوت مفتعل له أسباب خارجية صرف ـ إلى تفاوت نفسي عقلي ، له ـ بزعمهم ـ اسبابه الداخلية وجذوره في أصل الفطرة والتكوين . وبهذه البيلجة biologisation المتعسفة للأوضاع الاقتصادية والاجتماعية ، وبإرجاع الأساس النفسي إلى الأساس الحيوي ، انتهى العنصريون إلى التوحيد بين مقولتين مُتغايرتين لا صلة بينها ، هما مقولة الجنس ومقولة الأمة ، أو بين البيولوجيا والسياسة . وهذا في حقيقة أمره خطأ فادح ، إذ ان مفهوم (الجنس) مفهوم بيولوجي ، على حين ان مفهوم (الأمة) مفهوم سياسي اجتماعي تاريخي . وهكذا يكون التفوق أو الانحطاط السياسيان صفتين فطريتين في الشعوب لا يجدي فيها تدخل الانسان . وبذلك يشوهون ما هو سياسي فيجعلونه نتيجة حتمية للبيولوجي ، ويوحدون بين البيولوجي والنفسي (أو العقلي)، ويفصلون هذا النفسي عن الظروف المادية للحياة الاجتماعية والاقتصادية . وهكذا يزيفون الملامح النفسية العقلية للأمم برؤيتها معزولة مستقلة عن اسبابها المادية وظروفها الموضوعية . فالعنصريون إذ يقيمون حاجزاً نفسياً بين الشعوب ينظرون إلى الأجناس البيضاء على انها فئة مختارة من الناس ذات مواهب وقدرات خارقة نادرة لا تتوفر لغيرها . فيتجاهلون بذلك الظروف والعوامل الموضوعية العارضة ليثبتوا ان الفروق النفسية والعقلية هي فروق جِبِلِّيَّة وراثية وبالتالي ثابتة لا سبيل إلى تغييرها . فالحق للممتاز والمختار والأقوى ، والواجب على جميع الشعوب ان تذعن له وتستكين .

نحن لا ننكر ان الطبيعة لم تُسوِّ بين الناس في المواهب والقدرات . ولكن

هذا التفاوت موجود عند جميع الأمم والشعوب ، وليس مقصوراً على الأجناس غير البيضاء وحدها . أما ما تعاني منه هذه الأجناس الأخيرة من تخلف وضعف فانما هو نتيجة الظروف الموضوعية الطارئة ، كما سنرى مفصلاً ، فاذا تغيرت هذه الظروف انتقلت الأمم من حال إلى حال . فكم من أمة هبطت من العلياء ، وكم من شعب ارتفع إلى القمة ! والشواهد على ذلك تملأ صفحات التاريخ . فلو كانت الصفات النفسية (والعقلية) وليدة الصفات البيولوجية لظلت شعوب القمم في عليائها ، ولبقيت شعوب الحضيض تتسكع بين الوحل والطين ، إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين ، ولما رأينا غير الجنس الأبيض بطلاً مغواراً في جميع عصور التاريخ !!! وهذا ما لا يقول به عاقل . فالرجل الأوربي الأبيض حديث العهد جداً بالتفوق كما يعرف ذلك كل أحد .

ومما يثبت أيضاً انه لا وجه للربط بين العوامل البيولوجية والعوامل النفسية ، بين علم الحياة وعلم السياسة ، وبين الجنس race والحضارة - أقول مما يثبت ذلك ، تاريخ الجرمان . ففي العصر الذهبي لروما لم يكن أجداد الالمان الحاليين سوى برابرة . وعندما ارتقت ظروف حياتهم فيما بعد ، ومع احتفاظهم بخواصهم الجنسية raciales فقد حققوا مستوى عالياً من الحضارة . ومعنى ذلك ان الحضارة لا تتوقف على الصفات الجنسية ، ولا شأن لها بها اطلاقاً ، انما هي تتوقف على العوامل الاقتصادية والاجتماعية والظروف التاريخية التي تؤثر فيها وتحيط بها ، في مسيرتها من طور الوحشية إلى طور البربرية ، إلى طور الحضارة .

ولكن ما بال العنصريين يُصرّون على الكذب والافتراء ؟ أفلا يعلمون هذه الحقائق الواضحة أم لعلّي انا أول من نادى بها ورفع عقيرتها ؟

انهم يعرفونها بلا شك . فلنفضحهم في كل مناسبة ولنكشف باطلهم لاظهار حقنا . ولن أتوانى عن كشف زيفهم باستمرار لنرى بربرية القرن العشرين التي يمثلون ، فلعل تلك النفوس التي انهكها الضياع وضعف الثقة بالذات من أبنائنا ان تعود إلى الحظيرة وتسترد هذه الثقة فتستأنف عطاءها الخيّر واسهامها الفعال . ان نظرية تفوق الاجناس «العليا» على الأجناس « الدنيا » ، نظرية الحق الطبيعي لبعض الشعوب في السيطرة على بعضها الآخر ، وهي الذريعة التاريخية لشن الحروب واستمرار العدوان . انها الواجهة الايديولوجية لتغطية السياسة العدوانية الامبريالية

هذه الحضارة « المتوحشة » !

هذا ، والعنصرية انما تستند ـ فيما تستند اليه من ذرائع ـ إلى مقياس لغوي أكثر منه جنسياً بيولوجياً . اذ يرى العنصريون ان اللغة هي التعبير الصادق عن روح الجنس أو العرق أو السلالة . ولذلك فقد قسموا اللغات بقسمين اثنين لا ثالث لهما : هما اللغات الساميّة واللغات الآريّة ، كما ألمحنا أعلاه دون ان نتوسع أو نخوض في التفاصيل . الأولى هي لغات الشعوب المنحطة ، والثانية هي لغات الشعوب الراقية ـ وهذا بطبيعة الحال من مفترياتهم . والآريّون أنفسهم متفاوتون في صفاء دمائهم ، ولكن أصفى أنواعهم الذين لا تشوبهم أي شائبة ساميّة « منحطة » انما هم أصحاب الشعر الأشقر والقامة الضخمة ، والبشرة البيضاء ، والعيون الزرقاء. ولا تتحقق هذه الصفات في قوم كما تتحقق في سكان شمال أوربا Nordiques .

ان هذا الكلام كله هراء في هراء ، وإلاّ لبدت الصفات الجسمية للجنس الآرّي عند جميع الشعوب التي تتكلم اللغات الهندية ـ الأوربية ، وقد اسلفنا القول فيها ، فالأكراد وكثير من الجماعات البشرية التي تتكلم لغات هندية ـ أوربية ، ذوو لون أسمر وعيون داكنة وشعر أسود . كما ان القسم الأكبر من أوربا الجنوبية ينتمي إلى المجموعة اللغوية الآريّة ، لكن غالبية السكان في هذه المناطق لا يختلفون عن الأكراد في لون البشرة والشعر والعيون ، ولا يشبهون بوجه من الوجوه اسلافهم الآريينّ الأسطوريين . وأما الفنلنديون والأستونيون الذين يصنّفون من حيث طول القامة ولون الشعر والعينين في عداد الاوربيين الشماليين الخُلّص ، وبالتالي في طليعة الشعوب الآريّة ، فانهم انما يتكلمون لغات ليس لها أدنى شبه باللغات الآريّة .

فليت شعري ! علام يدل كل ذلك ؟ أفلا يدل على تهافت الأسطورة التي تقول بوجود لغة هندية ـ أوربية أو آريّة أولى كان يتحدث بها شعب محظوظ مختار له مزايا خارقة يباهي بها سائر الأعراق والأقوام ؟ وبسقوط هذه الأسطورة تسقط كل ذريعة للتفرقة بين الأجناس والشعوب ، واضفاء صفة التفوق والشرف على جنس واحد بعينه فقط يكون بدْعاً من الشعوب .

ان الشعوب التي تتكلم لغة واحدة ليست بالضرورة متجانسة في تركيبها العرقي ، بل هي تنطوي على عدد كبير من النماذج البشرية . ففي المانيا مثلاً هناك ما

لا يقل عن ستة من هذه النماذج .

ان زنوج افريقيا يتكلمون لغات متعددة مع انهم ينتمون إلى جنس واحد كما يقول علماء الأجناس . وكذلك الهنود الآريّون ، وكذلك أيضاً السويسريون . ان اللغة الانكليزية تنتشر في اقطار متعددة غير انكلترا ، وكذلك الأسبانية والبرتغالية . ولئن دل هذا على شيء فانما يدل على ان الجماعات العرقية الواحدة قد تتكلم لغات عدة إذا كانت موزعة في اقطار مختلفة ، كما ان اللغة الواحدة قد تتحدث بها شعوب متعددة متفرقة في أماكن مختلفة من العالم إذا غادرت موطنها الجغرافي الأول وانشأت وحدات سياسية جديدة في الخارج ، لأسباب واعتبارات مختلفة . ثم تذوب هذه الوحدات في وحدات سياسيةأكبر منها ، فتنقرض لغاتها الأصلية وتتبنّى لغات الوحدات والبلاد التي استوطنتها .

وهكذا فلا سبيل إلى جعل الانساب اللغوية أنساباً بيولوجية ، إذ لا ارتباط بين الجنس واللغة ، فاللغة تنتقل من شعب إلى آخر بعوامل متعددة لا شأن لها بالبيولوجيا. انها انما تنتشر بالهجرات والفتوحات والغزو الثقافي والفكري والتربية والتعليم ، بل بالمبادلات التجارية والمساعدات الاقتصادية ، من غير ان يكون ثمة مبرر للانتقال من وحدة اللسان إلى وحدة الأرومة ، ولاشتقاق الأصل البيولوجي من المشاركة اللغوية . فشتان بين الاثنين ، ولا سيما في الأماكن التي تقع على طرق التجارة والقوافل ، ويكثر فيها الاحتكاك والاختلاط . وكذلك يسهل انتشار اللغة في الأماكن التي تقل فيها الحدود الطبيعية أو تتلاشى . ففي مناطق رحبة شاسعة كمناطق السهول الآسيوية الأوربية التي يقال انها كانت تتكلم اللغات الهندية ـ الاوربية وكانت مسرحاً للقبائل الآريّة ، وحيث لا توجد عقبات طبيعية تعوق التنقل ، يصبح من السهل انتشار لغة واحدة في مساحة كبيرة من الأرض بين أقوام وأجناس لا تربط بينهم أي رابطة نسب أو قرابة .

ومعنى هذا ان اللغة مقولة اجتماعية وظاهرة حضارية ، بينما الجنس مقولة بيولوجية صرف لها قوانينها الخاصة المستقلة عن التاريخ والحضارة . وإذا كان أمر اللغة كذلك فهي لا تعبر اذن عن روح عرقي خفي ، وان كانت تعبر عن روح هذه الأمة أو تلك . انها تحمل خواص المجتمع (لا البيولوجيا) وتعبر عن أهدافه

وآماله ، وترتبط بنموه ودرجة وعيه ونضجه . فهي تولد وتعيش وتموت طوال عصور التاريخ ، وفي سياق تطور الحضارة ، ولا شأن لها أبداً بالجنس والصفات العرقية والبيولوجية التي تسير بحسب قوانينها الخاصة وعلى وتيرتها الخاصة ونبضها الخاص .

والخلاصة ، لا يجوز الانتقال من اللغات الى الناس الذين يتكلمون هذه اللغات . فلا يوجد جنس ساميّ ، بل هناك مجموعة من اللغات اصطُلح على تسميتها باللغات الساميّة . كما لا يوجد جنس آريّ ، بل هناك مجموعة من اللغات اصطلح على تسميتها باللغات الآريّة . هناك انفصال كامل بين اللغة والجنس ، بين اللسان والبيولوجيا ، بين اللوغوس logosوالبيوسbios . وكل محاولة للربط بينهما انما هي عمل غير علمي يقصد به المغالطة والتمويه لتوكيد وجهات نظر عنصرية معينة وتثبيت أوضاع سياسية خاصة تابعة لها .



هناك اختلاط شامل بين الأمم والشعوب منذ كان الانسان . فالجنس الواحد نجده موزعاً في شعوب كثيرة كما اسلفنا ، والشعب الواحد نراه متناثراً في أجناس متعددة . وهكذا اختلطت الشعوب والأجناس والأنساب والدماء والسمات والصفات منذ عصور لا تعيها ذاكرة التاريخ ، حتى لقد أصبحت فكرة النقاء العنصري اسطورة علمية أو اختراعاً أكاديمياً اذا جاز التعبير ، ظاهره خدمة العلم والأغراض العلمية ، وباطنه تفرقة عنصرية بين الأمم والشعوب ، أملاها الجشع والطمع وابتزاز القوي للضعيف .

ان الاختلاط بين الأجناس والأقوام والأعراق والأصلاب والذريات ، فضلاً عن انه عنصر تقتضيه ضرورات التعايش التاريخية ليتسنّى لهم البقاء في اقطار اضطُروا إلى النزوح اليها ، فهو كذلك امر تتطلبه الحقائق البيولوجية أيضاً ، وذلك لتستمد السلالات والأجناس والأعراق دماءً جديدة وتدب فيها باستمرار انسام جديدة تساعدها على استئناف حياتها بقوة ونشاط . ومعنى ذلك ، انه حيث يمتنع الاختلاط والاحتكاك تستحكم العزلة الموحشة وتتسع الهوة بين الشعب المعزول والشعوب الأخرى ، وبالتالي يحكم على نفسه بالتخلف والتحجر والجمود في مكانه ، هذا إذا لم ينكص إلى الوراء . ولنا في قبائل

الاسكيمو وسكان استراليا الاصليين وبعض جزر الهند الشرقية خير دليل على ما نقول وأعظم شاهد . فالنقاء البيولوجي عند هذه الشعوب وأمثاله من أهم أسباب تخلفها . والحق انه لا يوجد شعوب نقية بالمعنى الدقيق للكلمة ، فحتى هذه الشعوب بدأت تفقد نقاءها العرقي في القرون الخمسة الأخيرة ، بسبب التوسع الاستعماري واعمال الاستكشاف التي يقوم بها الرواد والرحالة والهواة والبعثات العلمية ، ولتقدم وسائل المواصلات التي قضت على الحدود والحواجز الطبيعية بين الأمم والشعوب ، وأتاحت لهم فرص الاختلاط والتمازج . وهكذا كلما زاد الاختلاط بين الأمم والشعوب وامتزجت الدماء والأنساب ، تجددت ظروف الحياة البيولوجية والاجتماعية معاً ، وبالتالي ازدادت فرص الوعي والنضج . ولا غرو في ذلك فالاختلاط من سمات الشعوب التي بدأت تعي ذاتها وتدرك معنى وجودها وتنفض عنها غبار الأجيال والعصور . فالنقاء العرقي عنوان التخلف ، والاختلاط أول امارات التقدم . لقد انقلب السحر على الساحر ، فبعد ان كان النقاء عند أصحابه العنصريين صفة مرغوباً فيها أصبح على يد العلماء علامة شؤم وعَرَضاً لمرض وبيل عضال !

واللغات كالأقوام . فكما انه لا وجود لأمة تستطيع أن تفاخر بأنها نقية خالصة لم تتسرب اليها دماء أمم أخرى غيرها ، كذلك ليس بين اللغات لغة واحدة تستطيع ان تباهي بأنها صافية نقية صريحة لم تتأثر بغيرها من اللغات والألسنة . فان قضية صفاء لغة من اللغات وخلوها من الدخيل ، قضية لا يمكن ان يقول بها رجل على درجة من العلم باللغات مهما تكن يسيرة . ولولا اتصال اللغات بعضها ببعض ، واختلاط الألسنة وتأثر بعضها ببعض لظلت وجوه التعبير في أكثر بقاع العالم قاصرة عن استيعاب الاعداد والخواطر والأحاسيس والمعاني ، كما هو شأن اللغات البدائية اليوم .



والخلاصة ، لا وجود على وجه الأرض لأمة ذات علم وحضارة وتتسم بدور بارز في التاريخ والاجتماع دون ان تكون من الأمم التي توشجت العلائق بينها وبين غيرها من الأمم والشعوب . فالاغريق الذين يُتخذون ـ وبحق ـ مثالاً يُحتذى في قوة الابداع والابتكار لم يكونوا شعباً تجمعه وحدة الجنس والدم ، بل

لقد كانوا أقواماً مختلطي الأصول والأجناس والأعراق والأنساب . فمن الصعب جداً اثبات السلالة الاغريقية الخالصة لجميع الفلاسفة الذين نبغوا في آسيا الصغرى وجزر الارخبيل وصقلية وتراقيا ومقدونيا واتيكا والاسكندرية . فالأمة اليونانية القديمة كانت في حقيقة أمرها تشتمل على شتى الأجناس والأعراق والدماء من غير الاغريق الأصليين . ثم لو كان الاغريق جنساً متميزاً مختاراً فما بال هذا الجنس لم يكن كذلك دائماً وأبداً ؟ فهو لم ينبغ إلا في مرحلة معينة قصيرة جداً من مراحل التاريخ انطفأت شعلته بعدها إلى غير رجعة . فقد عاش الأغارقة بعد عصورهم الذهبية قروناً طويلة ولا يزالون، دون ان يُنجبوا شاعراً ملهماً كهوميروس ، أو مؤرخاً عظيماً كتوكيديدس ، أو حاكماً مقتدراً كبريكليس ، أو فيلسوفاً فذاً من طراز أفلاطون أو معدن أرسطو ، بل حتى دون ذلك بكثير . فليت شعري ! أي فرق عسانا نجده اليوم بين الشعب اليوناني وسائر شعوب البلقان ؟ تُرى ، هل مما يقلل من عظمة اليونان ان يكونوا متحدّرين من شعوب شتى وأجناس مختلفة ؟ كذلك هل يغضّ من قدر الفرنسيس أن كثيراً ممن انجزوا الأعمال الكبيرة فيهم لم يكونوا فرنسيين أقحاحاً بل كانوا من أجناس مختلفة ، كالنورمانديين والكلتيين والأكيتيين وغيرهم ممن بنوا عظمة فرنسا وكانوا مناط الالهام والعطاء فيها ؟ ان فرنسا مدينة بجزء كبير من تاريخها وآدابها وعلومها وفنونها لمن كانوا غرباء عنها . فنابليون من أصل كورسيكي ، ورونسار الشاعر مَجَري ، وبول ڤاليري ايطالي ، وكذلك دي بروي de Broglie صاحب الميكانيكا الموجية ايطالي هو أيضاً ، وهنري هين الشاعر الماني ، ومدام كوري بولونية . . . وكذلك معظم علماء امريكا اليوم ليسوا من أصل أمريكي ، بل لقد لجأوا إليها حديثاً في اعقاب الحرب العالمية الثانية هرباً من جو الحرب الخانق في بلادهم ، أو طلباً للرزق في موجة هجرة الأدمغة التي تفجرت طاقاتها لا في مواطنها الأصلية بل في موطنها الجديد : الولايات المتحدة الأمريكية، وهذا لا يعيب أمريكا في شيء ، بل هو فخر لها . فالفضل انما يعود اليها لأنها اجتذبت البذور الصالحة فقدمت لها الماء والغذاء ، وتعهدتها بالسقيا والرعاية بعد ان كادت تذروها الرياح في منابتها الأصلية ، فاهتزت في موطنها الجديد وربت ، وانبتت من كل زوج بهيج .

لهذه الأسباب جميعاً رؤ ي التخلي عن القول بوجود جنس آري متميّز هو

نسيج وحده بين الأجناس والأقوام والشعوب فبضاعة الآرية إنما هي بضاعة مزجاة ، والأخذ بها إنما هو أخذ بمبدأ قد تخلّى عنه أصحابه لافتضاح أمره وثبوت عقمه وفقدانه كل رصيد وبريق .



وكما سقطت الايديولوجية الآرية ، انهارت شقيقتها الساميّة . وأسباب هذا السقوط متشابهة ، لأن أسباب النشأة متشابهة هي أيضاً . فكلتاهما تنبع من الايديولوجية العنصرية ، وكلتاهما دعوة لتصنيف الشعوب والتمييز بينها على أسس غير علمية . فإن دعاة التفرقة العنصرية حتى لو سلموا بوحدة الأصل المشترك للانسانية جمعاء ، فإنهم يؤكدون ان هناك أجناسا عليا كان تطورها سريعاً ، وأخرى سفلى متخلّفة ميئوس منها ، الأولى انطلقت من عقالها بقوتها الذاتية وبفضل ما تتمتع به من إمكانيات وطاقات ، والأخرى صدر عليها حكم التاريخ لتكون خاضعة لغيرها ، فلا أمل في إنهاضها من كبوتها وإقالة عثرتها . إن الأجناس العليا قليلة العدد ، وهم وحدهم الذين خلقوا الحضارة المادية والروحية . وأما الأجناس الدنيا فإنما هم غثاء كغُثاء السّيْل ، فليُسخّروا للأجناس العليا ، وحسبهم أن يكونوا أدوات طيّعة وأيدي عاملة في خدمة السادة البيض الذين أعطاهم التاريخ وحدهم حق التوجيه والسيطرة على الشعوب . فالتاريخ لا مُعَقّب لحكمه ولا رادَّ لقضائه . جفّت الأقلام وطُويت الصحف ، وليس في الامكان أبدع مما كان !

ومع أن الأسباب والدواعي التي أدّت إلى تهافت النظرية الآرية لا تختلف كثيراً عن تلك التي أدت إلى سقوط الفلسفة الساميّة ، لأن المنطلقات واحدة ، والأهداف واحدة ، والايديولوجية واحدة ، فقد آثرنا أن نبحث الفلسفة الأخيرة على حدة لأسباب منهجية صرف تتم بها الموازاة وتكتمل الصورة ، فتبرز معالمها بدقة ووضوح .

لاحظ المعنيون باللغات التي يحشرها علماء الساميّات في مجموعة اللغات الساميّة أوجه شبه ظاهرة بين البابلية والآشورية والكلدانية والكنعانية والعبرانية والسريانية والآرامية والتدمرية والنبطية والمؤابية والأوغاريتية والحبشية والأمهرية والهررية واللهجات العربية الجنوبية والعدنانية المضرية

(القرشية الفصحى) . فالقرابة واضحة بين هذه اللغات جميعاً ، بل هي أوضح وأمتن وأوثق منها بين مجموعة اللغات التي تسمى باللغات الهندية ـ الاوربية . فقفز بعض علماء الأجناس من هذه القرابة اللغوية إلى القول بوجود قرابة بيولوجية بين الأقوام والشعوب التي تتكلم هذه اللغات جميعاً ، فأطلقوا على هذه الشعوب مجتمعة اسم (الشعوب الساميّة) .

والأصل في هذه التسمية شجرة الأنساب التي وردت في التوراة ، والتي تنطلق من سام بن نوح أبي البشر بعد الطوفان . وهذه الشجرة لا تعتمد على دعائم علمية مقرّرة صحيحة ، وإنما تقوم على بواعث عاطفية وسياسية يُغذّيها حبّ اليهود وبُغضهم لمن عرفوا من الشعوب ، وعلى الأقوال التي كان يتداولها الناس في ذلك الزمان في النّسب والأنساب وتوزيع البشر . وهكذا حشرت التوراة فيمن يُسمّون بالساميين شعوباً لا يمكن عدُّها بين الشعوب الساميّة ، فأدخلت العيلاميين واللوديين في جملة أبناء سام مثلاً ، بينما أخرجت الكنعانيين منهم ، مع ان الكنعانية قريبة من العبرانية ، وهذه قريبة من اللغات السامية عند أصحاب النظرية السامية [1] . ويؤكد بروكلمان إن العبرانيين قد تعمّدوا اقصاء الكنعانيين من جدول انساب سام بسبب العداء الذي كان مستحكماً بينهم وبين الكنعانيين ، والذي يتكشف لنا في قصص الحروب الطاحنة بين الفريقين ، وهي حروب دُوِّنت أخبارها في أسفار التوراة ، فحملهم عداؤهم هذا للكنعانيين وحقدهم عليهم على التنصُّل منهم وعلى التبرؤ من الحاق نسبهم بشجرة أنساب سام بن نوح ، مع انهم كانوا يعلمون حق العلم ما بينهم وبين الكنعانيين من صلات القربى والنّسب واللسان [2] . ولذلك فإن العلماء الذين يأخذون بالنظرية السامية من أمثال شلوتسر الذي سلف ذكره لم يتقيّدوا بما جاء في التوراة من إدراج عيلام وأشور في المجموعة الساميّة ، كما لم يجاروا نسّابي التوراة في إلحاق الكنعانيين بالكوشيين أبناء حام ، ولا في جعل نمرود ابناً لكوش بن حام ، ولا في أمور أخرى كثيرة لا مجال هنا للخوض فيها [3] . وقد فعلوا ذلك لأسباب

(١) د . جواد علي : تاريخ العرب قبل الاسلام ، ٨/٧ .
(٢) المصدر السابق .
(٣) المصدر السابق ٢٨٨/٢ .

واعتبارات لغوية وتاريخية ، فخالفوا ما جاء في التوراة حكايةً عن قصص قديم في الأنساب . لقد أدركوا ان التوراة ليست المرجع الصالح لتقرير هذه الأصول ، فأخذوا عليها مآخذ عدّة ، وخطّأوها في أشياء كثيرة ، وأضافوا إليها أسماء شعوب لم ترد أسماؤهم في التوراة ، وأخرجوا منها آخرين ليسوا في نظرهم من الساميين . وما كان أحرى بهؤلاء العلماء ألاّ يتّخذوا من التوراة مستنداً تاريخياً لهم ويقحموا أنفسهم في حكايات وأساطير جرت على ألسنة النسّابين فبادر مدوّنو العهد القديم إلى جمعها ، وقدموها للناس على انها حقائق تاريخية مقرّرة لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها .

وكما انه ليس في استطاعتنا أن نقول بدقة من هي الشعوب الساميّة دون غيرها ، بحيث نتمكن من تعريف الساميّ تعريفاً جامعاً مانعاً ، كذلك ليس من المستطاع معرفة مهد الساميّين وموطنهم الأول . فالآراء في ذلك كثيرة متعارضة تتفاوت قوة وضعفاً ، بل ان الرأي الذي قد لا يخلو من بعض القوة في هذا الباب قد لا يخلو هو أيضاً من بعض الضعف الذي إنما وُلد مع الرأي واقترن به اقتران الموت بالحياة . فهناك من يقول أن مهد الساميّين هو جزيرة العرب ، ومنهم من يقول بل هذا المهد إنما هو جزيرة الفرات ، ويذهب بعضهم إلى أنه بادية الشام ، ويزعم آخرون أنه أرمينية ، بل هناك من يؤكد أن موطن الساميّين الأوائل إنما هو بلاد الحبشة !! ومن العلماء من لا يريد أن يقطع في هذه المسألة برأي حاسم ، فيتوقف على طريقة « الله أعلم » . وهكذا لم يتوصل أحد حتى الآن إلى معرفة أرض سام بن نوح ، هذا مع فرض وجود شخصية تاريخية تدعى سام بن نوح . . . بن آدم . فليس هناك إذن سوى تكهنات ورجم بالظنون لا مستند لها إلا بعض الأقاصيص والحكايا أوردها رواة مجهولون لا يعرف التاريخ من أمرهم شيئاً ، وكان يجدر بالعلماء أن يربأوا بأنفسهم عن الخوض فيها .

وأخيراً ، إذا صحّ وجود الساميّين في مرحلة من مراحل التاريخ القديم ، فكيف يمكن استمرارهم محتفظين بنقائهم حتى عهدنا هذا ، والشعوب لا تفتأ يختلط بعضها ببعض ، ويندمج بعضها في بعض ، وينفصل بعضها عن بعض . فلا وجود لأمة نقية خالصة بريئة من دماء غيرها من الأمم والشعوب . بل ان الشعوب التي تعدّ ساميّة نجد بينها من التمايز والتباين في الملامح والسمات ما

يجعل إطلاق لفظ (الساميّة) عليها بالمعنى العلمي الحديث نوعاً من الاسراف والافتعال واللغو في القول ، كما أننا نرى تبايناً في صميم الشعب الواحد من هذه الشعوب في الملامح والمظاهر الجسمية . وفي هذا التمايز والتباين ، الدليل القاطع على وجود اختلاط وامتزاج في الدماء قديم قدم الانسان نفسه .

واللغات كالأقوام . فما ذكرناه عن اللغات الآريّة يسري أيضاً على اللغات الساميّة سواء بسواء . فليس بين اللغات التي تعرف بالساميّة لغة واحدة يمكنها أن تفاخر بأنها سامية صافية وأنها لم تتأثر قط باللغات الأخرى التي تنتمي إلى مجموعات لغوية غير ساميّة كاللغات التي يُطلق عليها اسم (اللغات الآريّة) والمعروفة أيضاً باسم (اللغات الهندية ـ الاوربية) . فقضية صفاء لغة من اللغات وخلوها من الألفاظ والكلمات الدخيلة قضية لا يقول بها رجل له قدم راسخة في علم اللغات . وإذا كانت اللغات الآريّة قد تأثرت باللغات الأخرى بسبب اختلاط الشعوب واتصال ألسنتها بعضها ببعض نتيجة لذلك الاختلاط ، فمن الطبيعي أن تكون اللغات الساميّة ـ أو تلك التي جرى العرف على تسميتها كذلك ـ قد أثّر بعضها في بعض ، وأخذ بعضها من بعض . فلا صفاء في اللغات كما لا صفاء في الأقوام . هذا فضلاً عن أن أحداً لم يذكر أنه توصل إلى تشخيص لغة سام أو تمكن من تحديد اللغة التي تحدث بها مع أبيه نوح أو مع أبنائه الذين نسلوا هذه السلالات السامية من بعده ، هذا إذا صح وجود شخصيات تاريخية حقيقية أسماؤها نوح وسام وحام ويافث . وأخيرا فان اللغةالسامية، حتى لو وُجدت ، فقد كانت بطبيعة الحال لغة محكية زالت من الوجود بزوال الناطقين بها دون أن تترك أثراً ، كما ان القول بها لا يحل أي مشكلة ، بل يضيف إلى صعوباتنا صعوبة جديدة . وما يطلق عليه اليوم اسم (اللغات الساميّة) إنما هي محصول سلسلة طويلة من التطورات والتقلبات لا تحصى ، اجتازتها منذ عصور موغلة في القدم ، كما انها أيضاً نتيجة لغات ولهجات منقرضة لا نعرف من أمرها شيئاً .

ولئن دل كل ذلك على شيء فإنما يدل على مدى التخبط الذي يقع فيه أولئك الذين يتكلمون باسم العلم وينطلقون من محرابه ، عندما يريدون أن يجمعوا قسراً وعلى نحو ظاهر الافتعال بين الحقيقة والأسطورة ، بين الواقع الثابت والخيال المجنّح . فان أسطورة انحدار الساميّين من صلب رجل اسمه سام بن

نوح لا يصح أن تكون أساساً لنظرية علمية رصينة . أجل ان الأسطورة لا يجوز الأخذ بها في مجال البحث العلمي ، فما دخلت الأسطورة على علم إلا أفسدته . فحريّ بالعلم أن يبني أحكامه على وقائع صحيحة مقررة وعلى حقائق موضوعية ثابتة ، وان يحمي حَرَمَه من القصص والأساطير ، فالقصص والأساطير لا ينتج عنها إلا قصص وأساطير قد تُغذي الخيال الشعبي وترضي جموحه وطموحه ونزواته ، ولكن هيهات أن يؤسَّس عليها علم يتصدى لاكتشاف قوانين العالم وإماطة اللثام عما يكتنفه من أسرار وألغاز . هذه بديهيات معروفة لا يجهلها رجل العلم ولكنه قد يتجاهلها أحياناً .

ومن العجيب أن هذا التعبير الأثري (ساميّ) الذي استنتجه الباحثون مما جاء في (سفر التكوين) من أسفار العهد القديم قد انتشر بين علماء الغرب انتشاراً واسعاً ، وسرى إلى مؤرخي العرب وكتّابهم بطريق العدوى الاقتباسية المعتادة . لقد تقبلوه بقبول حسن لا لشيء إلا لأنه من صادرات الفكر الاوربي . فحسبه أن يكون مختوماً بعبارة « صُنع في أوربا » أو وليدتها « أمريكا » حتى يهلل له الكثيرون دون تمحيص أو نقاش . فإذا كانت الكتب القديمة قد أخذت به فإنما فعلت ذلك بحكم الضرورة إذ لم تجد إطاراً لتفكير أصحابها إلا في التوراة والقَصص الذي جاء فيها عن سام وعن لغات البشر ، وعن بابل ولغاتها ، وعن الطوفان وما شاكل ذلك ـ أما نحن فما مبرر استعمالنا لهذا التعبير وقد أغنانا العلم عنه وعن كثير من أمثاله ؟

وعلى كل حال ، ان القول بوجود فوارق عقلية ونفسية خاصة بين الأجناس والأقوام والشعوب يقتضي القول بوجود أجناس وأقوام وشعوب صافية خالصة ذات دماء نقية لم تمتزج بها دماء غريبة ، وبوجود لغات صافية نقية خالية من الدخيل ، وبوجود عزلة تامة تفصل هذه الأجناس والأقوام والشعوب واللغات بعضها عن بعض ، لأن العزلة التامة هي التي تحفظ السلالة واللغة والمدارك ، وكل ذلك محال ، لأن البشرية لم تعرف العزلة منذ وجد الانسان ، ولأن الشعوب لم تبْن حولها أسواراً مرتفعة تحول بينها وبين الاختلاط بغيرها . فالشواهد التاريخية والبحوث العلمية جميعاً تؤكد العكس وتثبت أن الاختلاط والامتزاج بين الأفراد

والجماعات سُنّة الحياة والتاريخ والحضارة . فما يقال عن تمايز الشعوب في العقليات والمشاعر والأذواق تمايزاً فطرياً إنما هو حديث خرافة أوحت به العواطف والأهواء والمصالح . . . أما ما نشاهد من اختلاف في أساليب الفكر وفي فهم الأمور فليس مرده إلى الدم بل إلى البيئات الطبيعية والاجتماعية والثقافية . فليست هناك فروق عقلية ونفسية واضحة بين السلالات والأجناس التي تعطَى فرصاً متكافئة ، إنما تكون الفروق بين الجماعات التي تُحرم من هذه الفرص كما سنرى بعد قليل . فليس العامل الحاسم في تطور الشعوب تركيب الأجسام والأبدان وأشكالها وألوانها ، بل العامل الحاسم إنما هو الاستعدادات الفردية والظروف الاجتماعية والثقافية ، والأجواء والمناخات التي تمكّنها من تحقيق وجودها وإبراز استعداداتها على الوجه الأكمل ، وممارسة حقها في الحرية والتعليم والعيش الطيب الهنيء الكريم . فما أكثر الأكاذيب وحملات التخرّص والافتراء في مواسم التحدي ويقظات الشعوب يُستدرج إليها الأغرار وضعفاء العقول ، لاسكات أصوات تريد أن ترتفع ، وكبت دوافع تتطلع إلى القمم ، وإشاعة التخاذل والاستكانة في نفوس هبّت من رقدتها وبدأت تنفض عنها غبار الأجيال .

ليس في التاريخ شعوب مختارة وأخرى منبوذة بحكم الطبع والفطرة ، وإنما هي فرص أتيحت لبعض الشعوب دون بعض ، فاستقوت الأولى واستضعفت الثانية . والحضارة لا تدين لشعب دون آخر . إنها نتيجة جهود مشتركة أسهم فيها أفراد وقبائل وشعوب لا تقع تحت حصر ، تضافرت جميعاً لخدمة أغراض التقدم وخلق قيم ومثل تساعد الانسان على تحقيق ذاته وتأخذ بيده في صراعه مع الطبيعة وتنازع البقاء . فجميع الأجناس والأقوام والأعراق قد ارفدت هذا العمل الجبار برفدها وأمدّته بعطائها ، وألقت بنصيبها المقدور في تياره الزاخر العظيم .

أجل ، ليس في التاريخ شعوب لها صفات خارقة وأخرى محرومة من المواهب والطاقات ، وإنما الشعوب تتدرج وتتطور ، وتعلو وتهبط ، وتتقلب في مسار التاريخ وعلى مدار الزمن ، بما يتهيأ لها من فرص الحياة وما يحيط بها من ظروف وأحوال من التجاور المكاني والتماسّ الحضاري ، وما يُطرح فيها من مشاكل ومعضلات ، وما يُلحّ عليها من حاجات وضرورات مادية وروحية ، وما

ينشأ فيها من مواقف ويتفجر من طاقات . وبحسب قدرة هذه الشعوب على رد التحدي أو دفع الغائلة والتكيف بالظروف والأحوال تكيفاً ملائماً أو غير ملائم ، تتحدد درجاتها وأقدارها ومراتبها في سلم التطور . فكل أولئك يؤثر في مسارها ، فيرفع هذا الشعب إلى القمة ، ويهبط بذاك إلى الحضيض ، ويطبع هذا الشعب أو ذاك بمزاج نفسي خاص وتكوين عقلي معين يبقى ما بقيت هذه الظروف والأحوال ، ويتغير بتغيرها ، ويزول بزوالها . فتبعاً للملابسات التاريخية وظروف الحياة الاقتصادية والثقافية ، وأوضاع المجتمع والحضارة في شعب من الشعوب أو أمة من الأمم ، يتقلب هذا الشعب أو تلك الأمة في مدارج مختلفة من الرقي والانحطاط ، وتبرز عنده (أو عندها) ميول ورغبات وحاجات ومطالب ومطامح أو آمال أو تنعدم ، وتتفجّر فيه (أو فيها) طاقات ومواهب أو تجفّ وتذبل . . . كل ذلك يجري والشعب لم يفقد شيئاً من ملامحه البدنية وطابعه الجسمي وتكوينه البيولوجي المتميز . ولا أدل على ضعف شأن العوامل الجسمية (شكل الجمجمة ، لون البشرة . . .) في هذا السبيل من أن اليونان القدماء مثلاً لا يختلفون من الناحية الجسدية عن اليونان المحدثين ولكن هناك فروقاً شاسعة بين اليونانيين ، يونان الأمس ويونان اليوم ، حتى لكأن هؤلاء ليسوا أحفاد أولئك . إنهم شعب لا يجمعهم بأسلافهم الأولين إلا الاسم المشترك والملامح الجسمية والرقعة الجغرافية (بل حتى هذه قد تقلصت كثيراً) و . . . أما ما عدا ذلك فقد تبدد وتلاشى كأن لم يكن بالأمس . لقد ذهبت أثينا إلى الأبد ، أثينا العلم ، وأثينا الفلسفة ، وأثينا الاشعاع . . . أما أثينا الحجارة ، أثينا الجزر والجبال والمناظر الخلابة ، فلا تزال كما هي لم يمسها أي سوء . واحسرتاه على أثينا اليوم . فالناس غير الناس ، والمجتمع غير المجتمع ، والمُثل غير المُثل . لقد أصبحت أعداداً من البشر يصخبون ويروحون ويغدون على هامش التاريخ بعد أن كانوا صناعاً للتاريخ ، ومجداً من أمجاد العقل ، ومدرسة في العلم والفكر والحضارة !

إيه أثينا ! ماذا دهاك ؟ كيف أصبحت أطلالاً وخرائب ينعق فيها البوم ؟ ما بال الناس قد تولّوا عنك وانفضّوا من حولك ؟

لقد ذهبت أثينا كأن لم تكن . . . تُرى هل تعود ؟



وبعد، إن العامل الحاسم المؤثر في سير التاريخ والعلم والحضارة لا ينحصر في الظواهر البدنية ، وبطريق الأوْلى ، في الانتماءات العرقية والسلالية . كلا . انه يتخطى هذه الظواهر المحسوسة إلى معان غير محسوسة ، تمتطي هذه الظواهر وتتلبسها وتنثال بها . ليس التكوين الجسمي هو المسؤول عن الرقي الفكري ، إنما المسؤول عن ذلك ما يرافق هذا التكوين من إعداد وتربية ، وما يتجمع له من تجارب وخبرات ، وما يشغله من مبادىء ومُثل وغايات ، وما يراوده من آمال وأحلام وتطلعات ، وما يتخذه من مواقف أو يضطلع به من التزامات وتبعات ، وما ينشئه مع الأفراد والجماعات والأشياء من روابط وعلاقات ، وما يتحلى به من قدرات ومواهب تمكّنه من فهم العالم والسيطرة عليه وقهره وتغييره ، بدلاً من الرضوخ له والوقوف أمامه مقهوراً مسحوقاً . فكل هذه المعاني هي التي تصوغ شخصية الفرد ، وتجعله إنسانياً حقاً وصدقاً بعد أن كان شيئياً ، وتنقله من دنيا التراب إلى آفاق الفكر ، وتقفز به من عالم الأعيان إلى عالم الأذهان . فليست العبرة بالأجسام والألوان والأشكال ، وإنما العبرة بالأفكار التي تحرك هذه الأجسام وتتكشف بهذه الألوان والأشكال، بالمثل التي تثيرها والأهداف التي تسعى إليها . فالأجسام هي الأجسام في كل زمان ومكان . الأجسام مطايا الأفكار ، وبالأفكار إنما يتعين وجود الانسان ويصبح له معنى وغاية . وبعد أن كان وحلاً وطنياً في قرار الأرض ، أو مُضغة في أفواه الآكلين ، أو علفاً للحيوان أو سماداً للنبات ، أو هشيماً تذروه الرياح ، غدا فكراً يرود أرجاء العالم ويصلح مسيرة الأشياء ، ويسخر كل شيء لمصالحه وأغراض وجوده . لقد أصبح له معنى بعد أن لم يكن له أي معنى . أرأيت إلى هذا الحدث العظيم !!!



والأفكار لا تورّث ، وإنما هي أمور اكتسابية صرف . فمهما كان الشعب عريقاً في أفكاره وثقافته ومهما كان رصيده من المفاهيم والتصورات كبيراً ، فان شيئاً من ذلك لا ينتقل من السلف إلى الخلف إلا باستئناف عملية الاكتساب من جديد ، فلا ينتقل من الآباء إلى الأبناء وذرياتهم إلا ما حصلوه بأنفسهم بالكسب

والكد والتربية والتعليم ، وإلاّ ظلّوا بمعزل عنه مهما كان نصيب آبائهم وأجدادهم منه . والعكس صحيح أيضاً : فمهما كان الشعب محروماً من هذا الميراث الطويل ، ومهما باعد الاستعمار بينه وبين حقه الطبيعي في تلقي المعرفة من مناهلها والتقاطها من جميع مظانّها ، فانه ما إن ترتفع عنه هذه الحواجز وتزول الحجب ، ويملك زمام أمره ويكون سيد مصيره ، حتى يلحق بالركب ويستدرك ما فات . وهكذا فالعلم لا يُتوارث ، كما ان الجهل لا يُتوارث أيضاً . فما يُتوارث حقاً إنما ينحصر في عالم الأجسام ، وبتعبير أصح في حبيبات مادية دقيقة جداً في غاية التعقيد والتنظيم لا يخلو منها انسان بما هو إنسان ، أبيض كان أو أصفر أو أسود ، إنها المفتاح الذي يفتح له مغاليق كل شيء ، انها إجازة المرور إلى آفاق رحبة لا حدود لها ذات أسوار منيعة على كل موجود إلا الانسان، بصرف النظر عن جنسه ولونه وشكله . . .

وبمعنى ما، يمكننا أن نقول أن هناك نوعين من الوراثة : وراثة بيولوجية ووراثة اجتماعية . الأولى تنتقل من الوالد إلى ولده من بعده انتقالاً آلياً مباشراً لا يتطلب من الطرفين أي جهد واع ، وأما الثانية فلا بد فيها من الجهد العقلي المستمر وتركيز الوعي والانتباه . ولا يكون ذلك إلا بالتربية والتعليم والاقتباس والتحصيل . الأولى تتوقف على البيولوجيا ، ومن ثم فهي ميسّرة لكل أحد من غير نظر إلى الجنس أو اللون أو الشكل . . . وأما الثانية فتتوقف على المجتمع ، ومن ثم فهي تختلف من مجتمع إلى آخر . وهكذا فالشيء الذي يُتوارث بيولوجياً ليس هو التصورات والمفاهيم والمواقف وأنماط المعرفة والسلوك وما إلى ذلك مما لا سبيل إليه إلا بالتعليم والتثقيف والاكتساب والتحصيل . . كلا، وإنما هو آلية النشاط الوراثي والعصبي الذي يقوم بدور الأساس الفسيولوجي لعملية المعرفة . . .

أجل إن نتائج المعرفة لا تورّث بيولوجياً ، وإنما طريقها الوراثة الاجتماعية ، إذ يرث الانسان ـ بحكم انتمائه إلى مجتمع معيّن ـ خبرة الأجيال السالفة ، بالتربية والتعليم بعد الاحاطة بلغة هذا المجتمع ، إنها إنما تُكتسب بالاتصال المباشر بالأشخاص الذين عانوها والاطلاع على كتبهم وآثارهم . فكل ما يملكه الانسان بالوراثة ـ أيّ إنسان ، وإلى أيّ جنس بشري انتمى ـ إنما هو

الحد الأدنى من السلوك الفطري الغريزي الثابت ، ولكنه يملك في مقابلة ذلك مقدرة هائلة على التعلم والاكتساب يستطيع بها وبمساعدة الكبار أن يكيف محيطه ويتكيف به . إن هذا الحد الأدنى إذا أحسن استغلاله يكفي وحده لامتلاك ناصية العلم وتذليله لحاجاته وضرورات وجوده على هذه الأرض . فلا حدود لما يمكن أنّ يتلقى أو ينهل ما دام قد تأمّن له الحد الأدنى البيولوجي وما دام قد استحوذ عليه ، وبالتالي ما دام انه انسان ـ إلى أيّ جنس انتمى هذا الانسان ـ على أن يتأمن له إلى جانب ذلك الحد الأدنى الاجتماعي ، بأن تتاح له أولاً الظروف والامكانيات والفرص المتكافئة المتاحة لغيره ، دونما اعتبار للجنس أو اللون أو الشكل . . . وبعبارة أخرى ، ان جزءاً يسيراً جداً من أنماط السلوك ـ وهي التي تمكّن الانسان من قضاء حاجاته الضرورية ، والتي بالتالي تعطيه مفتاح هذا العالم ـ موروث ، ولكن القسم الأكبر الباقي من سلوكه ، مكتسب ومتعلّم بالمخالطة والتقليد والاقتباس والتربية والقدوة و . . . وان اعتماد الانسان في سلوكه على الاكتساب والتعلم هو سر تفوقه على سائر المخلوقات وتمكّنه من السيطرة على هذا العالم وما فيه من قوى تؤثر فيه وتتأثر به ، حتى لقد اتخذ سبيله إلى الفضاء سرباً ، ليبني لنفسه هناك مجداً جديداً لم تتسع له الأرض على رحبها ، هذه الأرض التي تخطتها أحلامه ورؤاه ، فتطلع إلى الكواكب والنجوم !



وهكذا تنشأ فوارق الجنس والسلالة من فوارق الفرصة والبيئة . لذلك كان من العسير أن يقال ان عامل الجنس هو العامل الحاسم في التاريخ . فكل الجماعات الانسانية تقف على قدم المساواة التامة من حيث العناصر البيولوجية ، التي تدخل في تكوين هذا العامل ، ولا يبدأ الاختلاف إلا حيث تنتصب الحواجز المصطنعة ويُحال بين الانسان وبلوغ أهدافه ، وهذا لا يعني بطبيعة الحال ان كل الجماعات الانسانية قد أسهمت بأنصبة متكافئة واحدة في نمو الحضارة ، إذ كيف السبيل إلى ذلك والفرص المتاحة ليست واحدة بل تختلف باختلاف الحوادث والمصادفات التاريخية والظروف الاجتماعية والاقتصادية والمواهب الفردية والحواجز الجغرافية والطبيعية .

لا يستبعد البعض أنه ربما كانت توجد في الأصل اختلافات وراثية في

الذكاء بين بعض الجماعات الجنسية الأصلية الصغيرة التي كان ينقسم إليها الانسان القديم . إننا حتى لو سلّمنا بهذا الاحتمال الضعيف الذي أثاره أحدهم دون مستند علمي ، فان اتصال تلك الجماعات بجماعات بشرية أخرى ودخولها معها في علاقات جنسية جديدة ، مشروعة كانت أو غير مشروعة ، وتنافسها فيما بينها في معركة تنازع البقاء ، يضاف إلى ذلك قانون الانتخاب الطبيعي وبقاء الأصلح الذي كان يعمل آنذاك بحرية أكبر كثيراً منها اليوم - ان كل أولئك ظل يغربل الرصيد الوراثي لتلك الجماعات ويمزجه برصيد جماعات أخرى ، ويقلّبه في الأصلاب والأرحام ، ويصرّفه ويعيد تقليبه وتصريفه منذ أقدم العصور بلا كلل أو ملل ، حتى اختلطت الأوراق وامتزجت الأمشاج والخصائص . بحيث أنه إذا كان في أي جماعة منكودة سيئة الحظ نقص بيولوجي باطن من شأنه أن يجعلها أقل من سواها، فان هذا النقص - ان صح وجوده - قمين أن يزول ويختفي بعد هذه العمليات الطويلة المعقدة من المزج والمشج والمخض ، والتنقيح والتصحيح ، والجمع والتفريق ، وما إلى ذلك من العمليات التي تؤثر في صميم الرصيد الوراثي للأقوام والأجناس والشعوب ، وتُقارب بينها ، وتصهرها معاً في بوتقة واحدة أو تكاد .

فالامتزاج بين الشعوب والأمم ضرورة بيولوجية كما هو أيضاً ضرورة حضارية . فالحضارة إنما تغنى وتتسع بما يصب فيها من تجارب وخبرات بشرية مختلفة ، وبالامتزاج البطيء بين الأقوام والأجناس والجماعات في مراكز تتعدد فيها الاتجاهات والمواقف ، وتلتقي فيها تيارات ومدارس وفلسفات وايديولوجيات متباينة . في هذه المراكز - وفي هذه المراكز وحدها - يسرع التاريخ وتتقدم المعرفة ، وينضج الوعي ويكمل الشعور ويستبحر العمران وتستفحل الحضارة ، وما عداها ركود وخمود وجمود . فالامتزاج بين الشعوب له نفس التأثير المجدد للشباب الذي ينتج عن تزاوج البروتوزوا ، حيث يستقوي كائنان حيان بعد فسادهما وعجزهما عن الاستمرار في الحياة ، فيتجددان ويعود إليهما الخصب والامراع بتبادل مادة النواة .

ولكن إذا كان الأمر كذلك فكيف تُرانا نُقوّم النظرية المضادة التي ينادي بها غوبينو ونيتشه وتشمبرلن وآخرون ، ومؤداها أن التزاوج بين الشعوب متميزة

بعضها عن بعض وتفصل بينها فوارق حضارية كبيرة ، من شأنه أن يفضي إلى إفساد الأخلاق وانحلال الحضارة ؟ والحق أن هؤلاء المفكرين اللامعين ينظرون إلى الأمور نظرة مقلوبة ، بمعنى أن الفساد الذي يتحدثون عنه هو الذي أدى إلى هذا التزاوج لا العكس . فان انحلال روما قد ظهر قبل غزو البرابرة بزمن طويل كان فيه الشعب الروماني قد تفسخ وتمزق ، مما هيأ الفرصة لغزو البرابرة . وتضرب جذور ذلك الانحلال في الترف المخنّث أولاً وانهاك قوى السلالة الرومانية القديمة ثانياً ، فكان التزاوج مع البرابرة الجرمان ـ إذا صح أنهم كانوا برابرة ـ ثمرة استنزاف الجنس ، لا علة له . لقد التمسوا في هذا التزاوج إصلاح السلالة دون إصلاح الأسباب التي أدت إلى فسادها، فهل يصلح العطار ما أفسد الدهر ؟



جاء على العلوم الاجتماعية حين من الدهر كانت تفرق فيه بين نوعين من العقليات : العقلية البدائية والعقلية المتمدنة ، العقلية اللامنطقية (أو السابقة للمرحلة المنطقية) والعقلية المنطقية ، وهي تفرقة تُعدّ امتداداً للتفرقة العنصرية ، تسير في خط واحد معها وتلتقي وإياها في كثير من مراحل الطريق . وليڤي بريل هو زعيم هذه التفرقة وفارسها المغوار . فقد أقام طويلاً بين الشعوب البدائية يدرس حياتهم ويتفهم أحوالهم وعاداتهم ، وينقّب في نظمهم وتصرفاتهم ، ليسبر أغوارها وينفذ إلى أعماقها . فجمع عدداً من الحالات انتزعها من القبائل البدائية التي تعيش في الوقت الحاضر ، ولا سيما زنوج افريقيا الوسطى والجزر الأوقيانية . ثم قارنها بعضها ببعض وحاول أن يستخلص الصفات النفسية المشتركة بينها ، للوصول إلى معرفة الأشكال والصور التي تتخذها المقولات المنطقية في أذهان البدائيين ، والوقوف على الملامح الأساسية المميزة لأخلاقهم وأدواتهم ونظرتهم إلى الأشياء والعالم .

والنتيجة التي خلُص إليها ليڤي بريل لأول وهلة ، هي ان هناك طرازين من التفكير متباينين غاية التباين هما طراز التفكير البدائي وطراز التفكير الراقي ، وان هناك حاجزاً منيعاً بينهما فلا مجال للقاء . فلقد قُدّ البدائيون من طينة غير طينتنا وتحدّروا من سلالة غير سلالتنا ومن نوع غير نوعنا . لقد عزا إليهم هذا الباحث

طرقاً من التفكير تغاير في طبيعتها جنس التفكير لدى الشعوب الراقية المتمدنة . كيف لا والحياة العقلية عند الجماعات البدائية مليئة بأوجه التناقض والاضطراب ، وسلوكهم لا يستند إلى أي تفكير منطقي سليم متزن ، حتى لقد وصفهم بأن عقليتهم عقلية غير منطقية ، أو قل هي سابقة للمرحلة المنطقية mentalité prélogique بمعنى ان عقلية الرجل البدائي لا ينحصر الخلاف بينها وبين عقلية الرجل المتمدن في انه مجرد خلاف في الكم والدرجة ـ أي يمكن تلافيه واصلاحه بالتربية والتعليم و . . . . ـ كلا ، بل هو أيضاً خلاف في النوع والكُنه والطبيعة ، فلا سبيل إلى إصلاحه ، ولا أمل في التخفيف من وطأته ، لأنه في أصل الفطرة والجبِلّة والتكوين [1] .

لكن ليڤي بريل لم يتمسك بهذه الآراء طوال حياته ، بل لقد تخلى عنها شيئاً فشيئاً في كتاباته الأخيرة [2] ومات ليڤي بريل في أواسط عام ١٩٣٩ والجميع يعتقدون انه لا يزال على موقفه المتعنت السابق [3] حتى كان عام ١٩٤٩ اذ نشر موريس لينهارت مذكرات ليڤي بريل الأخيرة التي بدأت من ٢٠ / ١ / ١٩٣٨ وانتهت في ١٣ / ٢ / ١٩٣٩ بعنوان : — Les Carnets de Lucien Lévy Bruhl ففي هذه المذكرات يتراجع ليڤي بريل عن موقفه السابق تراجعاً سافراً ليأخذ بالرأي الذي يتفق مع العقل السليم والمنطق القويم .

يقول في هذه (المذكرات) : « فلنصحح دونما مواربة ما كنت اعتقد عام ١٩١٠ انه عين الصواب . لا . لا وجود لعقلية بدائية تتميز من [العقليات] الأخرى بصفتين هما وقف عليها [وهما انها عقلية صوفية . وانها لا تزال تتسكع في مرحلة ما قبل المرحلة المنطقية] . نعم هناك عقلية صوفية أكثر بروزاً لدى البدائيين منها لدى جماعاتنا نحن معاشر المتحضرين ، ومن الممكن ملاحظتها عندهم على وجه أكثر يسراً . ولكن هذه العقلية لا يخلو منها أحد من بني الانسان » [4] . كما يتخلى ليڤي بريل في هذه (المذكرات) أيضاً عن القول بعقلية

---

(١) انظر كتابنا : قبل ان يتفلسف الانسان صفحة ٣٨ .

(٢) انظر مثلا : Bulletin de la Société française de philos.1929 , p. 109.

(٣) يستثنى من ذلك رسالة ارسلها إلى صديقه جان ماريتان يتخلى فيها عن موقفه القديم . انظر كتابنا المذكور صفحة ٣٩ .

(٤) صفحة ١٣١ .

ما قبل المرحلة المنطقية ، فيقول : « ان البناء المنطقي للفكر هو هو في الجماعات البشرية المعروفة كافة . . . فلنقلع منذ الآن عن الحديث عن عقلية ما قبل المرحلة المنطقية »[1] .

فاذا كان الحال كذلك ، وإذا كانت العقلية البدائية لا تختلف في جوهرها عن عقليتنا نحن ، فما عساها ان تكون علة التناقض والاضطراب في عقلية الشعوب البدائية ، وهما اللذان كانا وراء قول ليڤي بريل بعقل بدائي مخالف في جوهره للعقل المنطقي الراقي ؟

ليس في الأمر تناقض أو اضطراب ، وإلاّ لحقّ القولُ على البدائيين ولخرجوا من زمرة الانسانية وكانوا نوعاً آخر غير بني البشر . فكل ما بيننا وبينهم من خلاف انما يكمن في انهم لا يحسنون في كثير من الأحيان استعمال عقولهم ، فيقعون في اخطاء يقع فيها البدائيون وغير البدائيين على السواء . انهم لا يُخضعون عملية التفكير لرقابة التجربة ، كما انهم ينطلقون من مقدمات رعناء غير مُحكمة لا توحي بالثقة . ومن هنا خبطهم واغاليطهم . فاذا كانت عمليات التفكير لا رادع لها من تجربة أو واقع ، اختلط فيها الوهم بالواقع وتلاشت الحدود بينهما . وإذا كانت المقدمات فاسدة غير موثوق بها فمن الطبيعي ان تكون النتائج فاسدة غير موثوق بها هي أيضاً . فالفساد لا يُنتج إلا فساداً مثله . أي أن البدائيين انما يعانون من نقص في التجربة ، لا من عجز في التفكير . فالتفكير عندهم سليم ، لكن منطلقاته مشكوك فيها اذ لم تنضجها الخبرة ولم يصقلها التجريب . وهذا ما يقع لنا نحن معاشر المتمدنين كل يوم .

وصفوة القول ان عملية الاستنتاج عند الشعوب البدائية صحيحة لا غبار عليها ـ وهذا بيت القصيد ـ وان كانت النتيجة فاسدة لفساد المقدمات . فما بُني على الفساد فاسد ضرورةً كما يقول المناطقة .

من ذلك مثلاً انهم يقومون باعمال سحرية معينة للتأثير في الأشياء والأشخاص عن بُعد . فمن الوجهة المنطقية الصرف ليس من الخطأ ان يعزو البدائيون موت أحد رؤ سائهم إلى فعل ساحر اقترف جريمته الشنعاء بتلاوة الرُّقى

---

(١) صفحة ٦٢ .

والتعاويذ من مكان بعيد ، ثم يستنتجوا من ذلك ضرورة اقامة الحد عليه . فما داموا يؤمنون بفعل السحر وقدرته على الفعل والتأثير ، وما دام الساحر هو القاتل ، فلا حرج عليهم بعد ذلك ـ من الوجهة المنطقية على الأقل ـ ان يستنتجوا ما استنتجوا . الاستنتاج هنا صحيح لا شائبة فيه منطقياً كما قلنا ، ولكن المقدمتين اللتين انطلق منهما هذا الاستنتاج (وهما : السحر مؤثر ، والساحر هو القاتل) فاسدتان تجريبياً. ومن أخطائهم التجريبية ـ لا المنطقية ـ أيضاً ان أحدهم إذا كان يرفض ان يستولي الآخرون على صورته ، او ان تقع في أيديهم قصاصة من ثوبه أو ضفيرة من شعره ، فذلك نتيجة منطقية لاعتقاده الراسخ ان هذه الأشياء انما هي جزء لا يتجزأ منه ، فأي أذى يلحق بها لا بد ان يلحق به هو أيضاً . ولما كانوا يؤمنون بالحياة الآخرة ، ويعتقدون ان الموت انما هو نوع من الحياة ، انه انتقال من برزخ إلى برزخ ، فلا تثريب عليهم ـ منطقياً على الأقل ـ ان يُقدّموا بين يدي مليكهم وقد فارق الحياة ، اهم متاعه لينتفع به في مقامه الجديد ، وان يدفنوا معه جميع خدمه وعبيده الذين سيعيدون له على جناح السرعة بناء قصره هناك وسيتولون تأثيثه وتنظيمه .

ولا يقل البدائيون عنا ايماناً بمبدأ العلية (السببية) ، ولكنهم لا يحسنون تطبيقه ، لا لعجز في تفكيرهم ، بل لنقص في خبراتهم وتجاربهم . وأكبر شاهد على سلامة ايمانهم بهذا المبدأ صناعة الأفخاخ والأسلحة النارية لديهم (كالكلاليب والسهام والبنادل والمقاليع . . .) . فهذه الصناعة لا سبيل لهم اليها لولا ايمانهم الوطيد بوجود علاقة ما بين السبب والمسبّب ، بين الفخ والفريسة ، بين السهم المصنوع بحيث يصيب مقتلاً في الحيوان وبين الحيوان المقتول الخ . فنحن ههنا بإزاء منطق عملي سليم للسيطرة على عالمهم لا مجال للشك فيه ، ولكن السحر الذي غرقوا فيه قد افسد عليهم أمرهم [1] .

ان التفكير البدائي تفكير سهل جذاب يغري الكثيرين ببساطته وقلة تعقيده ، بل قل هو عنوان البساطة ، انه يتوخى البساطة في كل شيء ولا يدخر وسعاً لتحقيقها والوصول اليها . فهو يمثل التجربة الانسانية في أبسط صورها

(١) انظر كتابنا السالف صفحة ٤٠ ـ ٤١ .

وأيسر طرقها وأكثرها فطرية وطهراً وسذاجة ونصاعة . وقد أظهرت بحوث لويس ويبر L. Weber ان هذا التفكير ينزع في جوهره الى مبدأ الاقتصاد في الجهد ، أي إلى بذل أقل مجهود ممكن لتحقيق اهدافه وغاياته . فمما لا شك فيه انه لأهْوَن على المرء ان يعتقد فضائل تلاوة الرُّقَى والتعاويذ ويأخذ بالتمائم والطِّلَسْمات ، ويدين بالتأثير عن بُعد بواسطة السحر والنفْث في العُقد ـ أقول ان ذلك أهون عليه من أن يصنع علماً صحيحاً يتطلب منه نصيباً كبيراً من الدأب والمعاناة والعمل المتواصل ، ويستدعي تعاون فريق كبير من الباحثين والعلماء ، وتضافر جهودهم المشتركة . ففي السحر تحطيم للحواجز وتذليل للصعوبات وتحقيق للأماني والأحلام بأقل جهد وأرخص ثمن . فيه خداع للنفس واضفاء هالة من القوة المستعارة عليها ، وإشعار لها بالسكينة والصحة والعافية !

هذا وليست العقلية البدائية مقصورة على الجماعات البدائية وحدها . ففي المجتمعات التي توصف عادة بانها مجتمعات متحضرة راقية ـ ناهيك بمجتمعاتنا نحن معاشر المنتمين الى العالم الثالث ـ عدد لا يستهان به من الناس لهم عقلية بدائية . فالمجتمع الواحد ، كما يقول غوستاف لوبون بحق ، لا تجانس فيه أبداً من الوجهة المنطقية العقلية ، بل هو يشتمل على جميع المراحل التي مرت بها الانسانية ، في عصورها المختلفة ، وفيه نماذج من جميع العقليات وأنماط التفكير(١) . ولست أقصد مجتمع العالم الثالث فقط، بل مجتمع العالم الأوّل، العالم المشع المتحضر ، عالم أمريكا وانكلترة وفرنسا . . . ان الرجل المتحضر يعيش في الغالب حياتين : حياته الرسمية الظاهرة التي يعرفها الناس عنه ، وحياته الدفينة الخاصة التي لا يطلع عليها سواه والتي هي ادنى إلى حياة البدائيين . وفي ذلك يقول اخيل أوى Achille Ouy : « ان كثيراً من معاصرينا لهم أدمغة الأطفال تعلوها كلمات الخبراء ورجال الاختصاص (٢) » ففي المجتمع الواحد طبقات متفاوتة من النمو النفسي والنضج العقلي والوعي اليقظ بعضها فوق بعض . هذا ما اسفرت عنه الدراسات الفولكلورية الحديثة . بل ان

---

(١) نقلاً عن Gaston Bouthoul : Traité de sociologie. I, 445.

(٢) نقلاً عن المصدر السابق .

هذه الطبقية موجودة في الفرد الواحد أيضاً . ذلك بأن نمونا العقلي ليس متكافئاً دائماً مع قوانا النفسية الأخرى ، وانما هناك اختلاف وفوضى في التوزيع غير العادل لقوانا وطاقاتنا قَلَّ أن ينجو منها انسان . ولا أدري ما إذا كان ذلك من اسباب سعادتنا أو مصدراً لكثير من مآسينا .

ليس هناك عقلية تخلو من حد أدنى من المرونة والاستعداد للتقدم والوصول إلى أعلا الذرى . كما ان أشكال التفكير البدائي موجودة في الغالب على وجه الكُمون على الأقل، في أكثر المجتمعات تقدماً ورقياً واستبحاراً في العلم والفكر . فان عدداً كبيراً من الأشخاص المتمدنين تبقى فيهم ـ حتى في سن النضج ورغم ما يتلقونه من تربية وتعليم ـ نزعة دفينة لذيذة إلى السخف والاعتقاد بالسحر والخرافة . فالذهنية الوضعية المتعقلة تحقق للرجل المتمدن ضرباً من التوازن العقلي في أصفى حالاته وأكثرها إشراقاً ، ولكن هذا التوازن غير دائم ـ فضلاً عن انه غير طبيعي أيضاً ـ يهدده باستمرار ما في الحياة العملية من فواجع واحزان ومآس وخطوب ، بل من مغريات ومسرّات تخلُّ به وتفجر فيه بالتالي ينابيع التصوف وتُهيئه للرؤى والأحلام ، وتلقي الفتوحات الإلهية والفيوضات الربانية . . . فراراً من هذا التوازن الثقيل الذي لا يطيقه كل أحد . فالانسان ـ أيّ انسان ـ عرضة دائماً لموجات وتقلبات وتصاريف لا ضابط لها ومن الصعب على كثير من الناس ان يتحكّموا فيها ، إلاّ مَنْ رحم ربُّك ، وقليل ما هم !

ان عالم السحر عالم جميل حقاً ، عالم تدغدغه الرؤى والأحلام . انه عالم لا يعرف المستحيل ، ولا يقف في وجهه شيء لا يؤسى كَلْمُه ، ولا يُرتَق فتقُه ، ولا يُلأم صَدْعُه . افنعجب بعد ذلك ان يفرَّ اليه جماعة من الناس ضاقت بهم سبل الحياة ، وطاردتهم قوى الطبيعة الغاشمة ، فآووا إلى كهفهم الهادىء المطمئن ، وحققوا بالاسرار والقوى الخارقة ، ما لم يستطيعوا تحقيقه بقوى الطبيعة وقوانينها ؟ لقد رجعوا القهقرى وعاجوا الى عالم زاهٍ من الأشباح والأرواح ليس للأشياء فيه ثبوت واستقرار ، بل يختلط الواقع فيه بالخيال وتضيع فيه معالم الأشياء . ان العقل ليس هو نقطة البداية في حياة الانسان ، انه نهاية المطاف . ولذلك لا استقرار له في الانسان ولا رسوخ ، وما أسرع ما يفرُّ من قفصه الذهبي الجاف إلى الفلاة والفضاء الواسع ليجدد نشاطه ويشفي غليله بماء عذب فيه ر ـ

ودفق .



قد يؤخذ على البدائيين انهم عموماً أقل قدرة على الانتباه من نظرائهم المتمدنين . ولكن هذا الفارق بيننا وبين البدائيين لا تخلو منه الشعوب المتحضرة أيضاً . انه في معظمه وليد التربية وثمرة من ثمراتها . وان من أكبر واجبات علماء التربية وعلماء النفس في الوقت الحاضر ان تتضافر جهودهم ومساعيهم لتحقيق الوسائل الكفيلة بتقوية الانتباه في الأطفال والشبان وتعويدهم عليه بالدربة وضبط النفس والاستقواء عليها . فمن مَلَكَ نفسه مَلَكَ العالم ، وانقادت له الأشياء .

ان التصديق بوجود ما يسمّى بالعقلية البدائية التي لها عملياتها العقلية الخاصة المغايرة في طبيعتها لجنس العمليات العقلية عند الأمم المتمدينة ـ أقول ان التصديق بذلك أمر لا يعود على العلوم الاجتماعية بأي فائدة ، بل يزيد في تعقيدها ويخلق صعوبات جديدة أمامها . فالعلوم الاجتماعية تندفع في شعاب محفوفة بالمخاطر إذا وضعت حدوداً وحواجز بين عقليات الأمم والشعوب . ان القول بوجود مثل هذه الحواجز فرضية خاملة لا تتطلب من صاحبها أي جهد أو معاناة . وكأني به ينظر إلى الجزر المتناثرة في المحيط على أشكال مختلفة وصور متباينة فيخال باديَ الرأي انها عوالم وأكوان لا رابط بينها ، ولا جامع يجمع شملها ويلم شعثها . انه ينسى انها قمم جبال عالية تقع سفوحها في قاع محيط واحد وترسو على أرض واحدة . . . وبدلاً من ان يقول بعقل انساني واحد له بنية منطقية واحدة وتكوين راحد ، فانه قد تعجل الحكم وقال بعقول متعددة لكل منها بنيته المنطقية الخاصة . ان هذه الفرضية لا تكلف صاحبها شيئاً ، فهي نظرة سطحية مكسال لا تمحيص فيها ولا تحقيق ، تكتفي من الأشياء بظواهرها . انها تخرب ولا تعمّر ، وتهدم ولا تبني ، وتزرع في القلوب الشكوك والأحقاد ، دون ان يجني العلم من ذلك شيئاً . فنحن الى التوفيق أحوج منا إلى التفريق ، وما أغنانا عن الشحناء والبغضاء في عالم انهكه الصراع والشقاق فتطلع الى الحب ليتنسّم عبيره ويستروح في حماه . . .

فالفكر الانساني شديد التنوع ، كثير التشعب ، بالغ التعقيد ، متعدد

الجهات والألوا ن . لكنه مهما تعددت شعابه واختلفت اتجاهاته وتباينت طرقه ومسالكه فانه في الجنس الأبيض هو نفسه في الجنس الأصفر ، وهو نفسه أيضاً في الجنس الأسود . انه يصدر عن حوض واحد ، ويُسقى بماء واحد . فاذا لمح الدارسون في هذه الوحدة عناصر افتراق وتباين فانها ليست من التشتت والتفتت بحيث تغيب فيها آيات الوحدة . فان عناصر الافتراق التي تطفو على سطح الفكر الانساني اشبه بالأشياء التي تطفو على سطح البحر . ان أحداً لا يستطيع ان يقول ان هذا الثبج الطافي وهذا الزبد الراغي ، وهذا الحطام المتماوج ، وهذا الهدير الصاخب ، وهذه السفن الماخرة . . . ليست أشياء هذا الخضم العظيم الواحد ، أو ليست معالم ثابتة أو متحركة له .

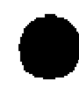
ان التفكير البدائي هو ظاهرة اجتماعية تاريخية طبيعية . انه تفكير مرحلي لا يبقى على حاله ، بل هو قابل للتطور دائماً إلى انماط أرقى من التفكير ، وذلك عند سنوح الفرصة ونضج الظروف الملائمة .فطبائع الشعوب لا تبقى على وتيرة واحدة على مر العصور والدهور ، وإنما هي تتغير وتتبدل وتطرأ عليها أحوال تحددها خصائص تطورها التاريخي . ومن يتوهم الاستقرار في طبائع الأمم والشعوب هو كمن يظن ان لأمواج البحر ثباتاً ودواماً . وبعبارة أخرى ، لا يجوز ان ننظر الى الخصائص المميزة لتفكير شعب من الشعوب في مرحلة معينة من تاريخه فنجعل منها طبيعة عرقية ثابتة لا تتغير ولا تتطور ، ونعممها على تفكيره في مختلف مراحله التاريخية ، متجاهلين ظروف الواقع الموضوعي . فخصائص التفكير لكل شعب ولكل أمة انما ترتبط بظروف الواقع الموضوعي لحياة هذا الشعب أو تلك الأمة . انها حصيلة عملية تاريخية مستمرة تجري في اطار حركة تطور المجتمع في الزمان والمكان تطوراً تحدده أوضاع وحالات مستقلة عن الذات المفكرة الواعية وان كانت تؤثر فيها وتتفاعل واياها . فالتعميم في مثل هذه الأحوال خطأ فادح ما دامت حياة الأمم والشعوب دائبة الحركة والتغير ، وليست ثابتة جامدة تبقى على حالها في كل مرحلة من مراحل تطورها التاريخي .

ان التخلف ليس له جنسية أو وطن أو دين . انه يختار ضحيته حيث يستطيع ذلك ، كالميكروب يفتك بجميع الأجسام التي يتاح له الفتك بها ، لا فرق في ذلك بين غني وفقير وصعلوك وأمير . وانها لكذبة كبرى ان نتصور للتخلف لوناً أو ديناً أو وطناً . فجميع الأجناس والأقوام والأعراق عرضة له في بعض مراحل حياتهم . هذا ما يقرره المنهج التاريخي في

دراسة الشعوب . فالقصور الذي يُنسب الى البدائيين انما هو قصور تاريخي مرحلي ، وليس شيئاً ثابتاً في جِبِلَّة القوم وأصل تكوينهم وصميم وجودهم .

ولو صح ان العقلية البدائية متخلفة بفطرتها عاجزة عن اللحاق بركب الحضارة ، غير قابلة للتطور الى انماط ارقى من التفكير ، فليت شعري كيف استطاع اسلاف الاوربيين الحاليين الذين كان لهم في عصور ما قبل التاريخ حضارة أدنى الى حضارة زنوج افريقيا ، أو إلى حضارة الأوقيانيين في القرن الماضي ـ أقول كيف استطاعوا ان ينتقلوا من عقلية إلى أخرى ، وان ينقلبوا عبر العصور من طور الهمجية الى طور المدنية ؟ أجل ، كيف تمكن الأخلاف المباشرون للأسلاف المتوحشين ان يصلوا الى قمة الحضارة الحديثة ، ويحققوا في ميدان العلم والأدب والفلسفة والفن أمجاداً وانتصارات لا عهد للانسانية بها من قبل ؟

ان الأمثلة نادرة جداً ـ هذا اذا لم نقل انها منعدمة ـ حتى الآن على شعوب بدائية لم يمكن تحضيرها . نحن لا ننكر ان يكون فيها أفراد أمْحَلَت عقولهم واجدبت اذهانهم ، حتى لقد فقدت كل قدرة على التفكير وكل تطلع إلى الأفضل . ولكن هؤلاء ظاهرة عامة في كل المجتمعات ، ولا سيما المجتمعات الراقية التي لا تخلو هي أيضاً من عدد لا يستهان به من هؤلاء الأغبياء الذين لا يكادون يفقهون قولاً . انهم كالانعام ، بل هم أضل سبيلاً ! واني لأُهيب بمن يشك في ذلك ان يزور مستشفيات الأمراض العقلية في كبريات العواصم العالمية . وهناك سيرى العجب العجاب . وأنا به زعيم !



ان تقسيم الأمم وفق سلم عقلي تتفاوت فيه مراتبها واقدارها هو عمل غير أخلاقي مشين . انه الأكذوبة الكبرى . فأنا لا اعرف أمة لا تستطيع إنجاب النوابغ والأفذاذ ، ولكنني أعرف امماً كثيرة لا تتيح لهؤلاء فرصة العمل والظهور . ثمة عبقريات كثيرة برزت في المجتمعات المتطورة ، ثم أجدبت وانطفأت عند رجوعها الى مواطنها الأصلية في العالم الثالث . لا بد للعبقرية من مناخ ومن جو اجتماعي وشروط موضوعية وعينية ، تساعد على الخلق والابداع . فقد ظهرت منذ البداية ، وفي كل المجتمعات ، مستويات مختلفة من الرجال

والنساء ، وانواع مختلفة من الفرص . فالأقوام الذين استقروا على الشواطىء المائية تكونت لهم فرص تختلف عن فُرص أبناء عمومتهم الذين أوغلوا في القفار أو سكنوا الغيران والكهوف . وكانت كل ميزة تقدمها الطبيعة ، تخلق في الأفراد حاجات خاصة . وانقرضت هذه الحاجات أو بعضها بمرور الزمن : وفي هذا لعمري تفسير لبعض الفنون الانسانية التي وصلت الينا من عصور سحيقة موغلة في القدم . فقد استطاع الانسان الأول صنع أشياء نعجز نحن اليوم عن صنعها ، وواجهته اخطار لا يمكن تصورها في الوقت الحاضر .

أجل ، ليس هناك شعوب متخلفة بالفطرة والغريزة ، وأخرى متقدمة بالفطرة والغريزة ، وان كان هناك أفراد متخلفون بالفطرة والغريزة في الجانبين معاً على السواء . فالانسان هو الانسان في كل زمان ومكان ، لأن نشاط المراكز العليا في الدماغ هو في جوهره واحد في جميع الأجناس البشرية ، وانما البيئات والفُرص المتاحة تفرق بين الشعوب . وقد لاحظ دارون هذه الحقيقة الناصعة منذ وقت مبكر ، وقبل ان تُستكمل الدراسات الخاصة بها بزمن طويل . وفي ذلك يقول : « يُصنَّف الفوجيون Fuégiens في عداد اشد البرابرة فجاجة . ومع هذا لقد ادهشني، وأنا على متن السفينة بيغل Beagle،ان أرى كيف ان ثلاثة نفروا من هذا الجنس كانوا قد عاشوا بضعة أعوام في انكلترة ، وكانوا يتكلمون الانكليزية قليلاً ، يشبهوننا في معظم الصفات والملكات العقلية (١) » .

ولم يفسر دارون انحطاط المستوى الحضاري لسكان أرض النار (الفوجيين) هؤلاء بخراصهم النفسية العرقية ، بل لقد التمس تفسير هذه الظاهرة في العوامل الاجتماعية والاقتصادية . فلولا انهم اقاموا في هذه الأرض القاحلة الجرداء البعيدة عن مراكز الحضارةوالعمران ،والتي ربما الجأهم اليها بعض القبائل الغازية ، لكانوا احسن حالاً منهم اليوم (٢) والنتيجة التي ينتهي اليها دارون من خلال أبحاثه وبعد مقارنات كثيرة ، هي انه كلما أوغلنا في التاريخ وجدنا ان جميع الأجناس البشرية تتشابه في الذكاء والقدرة على الخلق

---

(١) نقلاً عن : Nestourkh : Les races humaines, p. 106

(٢) المصدر السابق صفحة ١١٧ .

والابتكار [1] .

و..ا هو رأي المدرسة الانكليزية عموماً ، اذ يذهب رجال هذه المدرسة (تايلور ، لوبوك ، فريزر الخ .) إلى ان العقل الانساني واحد لدى جميع الأجناس والأقوام والشعوب . فالكل يشتركون فيه على حد سواء ، وله عندهم منطق واحد ، ومقولات واحدة ، لا فضل في هذا لأبيض على اسود ، ولا لأوربي على منغولي . فان فريزر ـ عميد هذه المدرسة ـ قد انكبَّ في شتى كتبه التي اصبحت كلاسيكية وأهمها (الغصن الذهبي) على دراسة مختلف نظم الحياة البدائية ، الدينية والاجتماعية والسياسية (خرافات ، سحر ، طلّسمات ، آراء في السلطة والملكية . . .) واستقصى الصور والأشكال التي تتخذها هذه النظم عند مختلف الاقدام والأجناس ، ثم قارنها بعضها ببعض وبما يشبهها عند الشعوب البدائية وعند انصاف البدائيين الموجودين في الوقت الحاضر ، وقارن ذلك كله أيضاً بما يشبهها لدى الشعوب القديمة وتلك التي توغل في عصور ما قبل التاريخ . فاكتشف أوجهاً من الشبه عظيمة بين هذه الشعوب جميعاً ، جعلته يحجم عن القول بوجود فروق جِبِلّية congénitales بين الشعوب ، ويعلن على رؤوس الأشهاد ان هذه المشابهات انما هي نتيجة منطقية لوحدة العمليات العقلية لدى جميع هذه الأقوام والأجناس ، رغم تباينهم واختلاف الوانهم. واشكالهم وتباعد أوطانهم . بل هو يؤكد أيضاً ان الخرافات والسحر والتعاويذ السائدة بين البدائيين لا تمسّ بنية التفكير الأساسية عندهم ولا تطعن في سلامتها ـ وما ذلك إلا لأن طرق التفكير وبنية العقل الانساني وقيامه بوظائفه هي هي في كل زمان ومكان . فما يتغير انما هي تجارب الناس واشكال الحياة في المجتمع . وبعبارة أخرى ان مقولات الفكر ووظائفه تظل هي هي عند جميع الأمم والشعوب ، أما ما يتغير ويتبدل بتبدل الزمان والمكان واختلاف الظروف والأحوال فانما هو مضمون الفكر وحده ، المادة هي التي تتغير ، وأما الصورة فتبقى على حالها منيعة صلبة .

●

---

(١) المصدر السابق .

في المؤتمر الدولي لعلم الانسان الذي انعقد بكوبنهاغن في صيف عام ١٩٣٨ حاول بعض العلماء الألمان الرجعيين ان يثبت في التقارير التي تقدم بها إلى المؤتمر وجود ملامح نفسية عرقية موروثة . وقد ذهب هذا البعض في دفاعه عن التفرقة العنصرية إلى حد القول بانه إذا كان سكان استراليا الأصليون على وشك الانقراض التام فما ذلك إلاّ بسبب تكوينهم النفسي العرقي الرديء . ويؤيد رأيه هذا بالماوريس Maoris ـ سكان زيلاندة الجديدة ـ الذين لم ينقرضوا لأنهم أوربيون !! بل انهم علاوة على ذلك قد تمثلوا الحضارة الأوربية ، واصابوا في ذلك نجاحاً كبيراً . ولكن سائر اعضاء المؤتمر اشمأزوا من ذلك وردوا على زملائهم ردوداً مختلفة ، فانكروا وجود تكوين نفسي متميز لكل جنس من الأجناس البشرية ، واثبتوا ان المستوى الحضاري (اي ظروف البيئة المتاحة) هو الذي يحدد عقلية الناس ويعطيها مضمونها ومادتها (١) .

فعندما تكون ظروف الحياة الاجتماعية ظروفاً ملائمة في قطر من الأقطار تتفتح براعم الحضارة بين أبنائه مادياً وروحياً . فالتكوين النفسي للأفراد وطابعهم القومي ، وسلوكهم في الحياة ، واستجاباتهم وردود افعالهم ازاء الناس والأشياء ، ونظم الحكم ـ كل أولئك انما يتشكل ويتبلور بعامل البيئة والمحيط ، وهو العامل الحاكم في هذا المضمار .

وهناك ـ علاوة على جميع ما ذكرنا ـ دراسة كان قد قام بها عالم روسي مشهور هو ميكلوخو ـ ماكلاي Mikloukho — Maklaï للذكاء الفطري عند قبائل أوقيانيا « المتوحشة » . فقد عاش هذا العالم سنين طويلة بين رجال قبيلة البابو Papous وعقد مع افرادها علاقات صداقة ومودة متينة ، فخلص الى هذه النتيجة : وهي ان التكوين النفسي لهؤلاء الأقوام لا يقل نضجاً عنه لدى الأوربيين . ويصف ميكلوخو ـ ماكلاي البابو بانهم يتمتعون باحساس مرهف وذوق جمالي رفيع . فهم ينحتون بكثير من الاستعداد الفني دُمىً تمثل اسلافهم القدماء ، ويصنعون زخارف أوفت على الغاية في الجمال (٢) . وينتهي من ذلك

---

(١) انظر .Nestourkh p. 108

(٢) المصدر السابق صفحة ١١٠ .

إلى القول بان البابو قادرون على الوصول إلى مستوى من التطور الثقافي لا حدود له . فهم من هذه الناحية لا يقلّون عن الأوربيين أيضاً .

ان دراسة ميكلوخو ـ ماكلاي ودراسات أخرى كثيرة سبقتها وأعقبتها فضحت جميعاً الروح غير العلمي والنية السيئة لدعاة التفرقة العنصرية الذين يهرفون بما لا يعرفون ، ويسخرون النظريات العلمية لأغراضهم الدنيئة المنحطة ، ويتشدقون صباح مساء بأن الملونين عاجزون بطبيعتهم عن استيعاب منجزات الحضارة الاوربية العتيدة استيعاباً ناضجاً واعياً . فقد نذر هذا العالم الروسي الكبير حياته كلها ـ وما أقصرها للأسف ! ـ للدفاع عن مبدأ المساواة البيولوجية بين الأجناس البشرية . جميع الأجناس في نظره يمكنها ـ عند توفر مجموعة من الظروف الخارجية الصرف ـ تحقيق أعظم المنجزات العلمية والحضارية ، مهما كانت منزلتهم منخفضة في سلم الحضارة .

وقد سبق ميكلو خو ـ ماكلاي رعيل كبير من العلماء الروس البارزين ، منهم تشرنيشفسكي Tchernychvski وستشنوف Sétchénov وغيرهما . فجميعهم قد رفضوا التفرقة العنصرية وتأثير الانتماء العرقي في تقدم الشعوب . وقد بنوا آراءهم ونظرياتهم على أبحاث ودراسات علمية مضنية قاموا بها على الجهاز العصبي والمخ . ويؤكد إيڤان ستشنوف السالف الذكر « ان آلية التفكير لدى الانسان بما هو إنسان ، وكذلك ردود فعله العاطفية ، لم تتغير في جوهرها طوال عصور التاريخ . كيف لا وهي لا ترتبط بالجنس ولا بالبيئة الجغرافية ولا بالمستوى الحضاري » [١] .

إن أشد الناس تعصباً للنظرية العنصرية لا يجحدون نهضة اليابان العظيمة وتعدد مواهب أبنائها في جميع الحقول والميادين . وهي دولة آسيوية انتبذت في أقصى الشرق مجموعة من الجزر القلقة ، فوطّأتها بالعلم والتكنولوجيا وشذّبتها ، وخططتها بلاداً عامرة ومساكن طيبة ، ومراتع واسعة ، وجعلتها مهاداً لأحدث حضارة صناعية يحسب لها الغرب اليوم ألف حساب .

والصين ، وما أدراك ما الصين ! ها هي ذي أمريكا تخطب ودها . لقد

---

(١) نقلاً عن المصدر السابق صفحة ١١٠ ـ ١١١ .

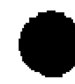
خرج المارد الأصفر من القمقم ينازع الرجل الأبيض حقه في البقاء !

كذلك لا أحد ينكر مهما بلغ به التعصب العنصري ـ أن عدداً ضئيلاً جداً من الزنوج الأذكياء يفوقون عدداً كبيراً جداً من الأوربيين البيض العاديين . أما آسيا فحدّث عنها ولا حرج . فهناك رجال دولة أسيويون وافريقيون وصلوا إلى أعلا المقامات : كالمهاتماغاندي ، وجواهر لال نهرو ، وأحمد سوكارنو ، وكوامي نيكروما ، وليوبولد سنغور وغيرهم من كبار الرجال ، وحسبنا أن ننوه بباتريس لومومبا الذي ضحى بحياته في سبيل تحرير بلاده . ان عدداً كبيراً من الزنوج قد وصلوا إلى قمة الابتكار العقلي والفني ، نذكر منهم على سبيل المثال العالِم الكبير وليم دي بوا W. Du — Bois والمغنّي العظيم بول روبنسون بطل السلام ، والمصور والفنان الاسترالي البير نامات جيرا A. Namatjira .

لقد حطم العلم أسطورة (الغريزة العرقية) التي تثير الضغائن وتستفز المشاعر وتوغر الصدور . . . لقد انصبّت جميع القنوات في مجرى وحدة العقل والنفس والشعور بين جميع الأقوام والأجناس . وها هي ذي كرامة الانسان التي أثخنتها الجروح ، وأثقلتها القروح ، وأدمتها الكلوم ، تخرج من المعركة مرفوعة الرأس ناصعة الجبين . . . فالانسان أخو الانسان ، أحب أم كره . هذا هو المغزى الكبير الذي يتمخض عنه العلم في الوقت الحاضر .

ولكن هل يسمع ذلك رجال السياسة والعسكريون، أم إن على قلوبهم أكنّةً أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقراً ؟

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي



والآن ، هل لم يبق في قوس العلم منزع أم في القوس منازع أخرى أيضاً ؟

هل انتهت ـ نظرياً على الأقل ـ قضية التفرقة العنصرية في صراعها مع العلم أم هناك فصول أخرى من القصة أيضاً ؟

وبعبارة أخرى ، هل ما أسلفنا هو كل ما في جعبة العلم في صراعه مع أسطورة تفوّق الجنس الأبيض أم لا يزال هناك شواهد غير ما ذكرنا ؟

ان تقدم العلم عملية لا تنتهي ، فما ذكرناه إنما هو غيض من فيض . وهاك بعض الشواهد الأخرى التي تضيف بعض الجديد والتي تصب دائماً في قناة

المساواة بين الأجناس والأقوام والشعوب .

هناك عاملان اثنان لا بد من تفاعلهما معاً لتحقيق أي مدى من التقدم والازدهار وأي حركة بنّاءة في التاريخ ، وأعني بهما الذكاء الوقّاد والفرصة المؤاتية ، ولا قيمة لأحدهما دون الآخر . فلنبحث كلّاً منهما على حدة .

١ - ان التفكير والذكاء هما عنوان تفوّق الانسان على الطبيعة الجامدة وهما مبرر وجوده . فكل تقدم في العلم والحضارة إنما تصنعه الصفوة المختارة والقلة المفكرة الذكية التي هي مناط التاريخ وسره المكنون . لذلك لا يجود بها الزمان إلا بمقادير شحيحة جداً لأسباب لا تزال مجهولة . في هذه الصفوة المختارة تتجسد آمال البلاد وفلسفتها ومُثلها ، وبها انما يتخطى التاريخ ذاته ويحقق قفزاته المذهلة . إنها أداة التطور والدينامية ، وبها تتم جميع التحولات المفاجئة وتندلع الثورات وتصنع المعجزات . فالأبطال والرواد والقادة والفلاسفة ، والأفذاذ في أي ميدان من ميادين العلم والفن والأدب ، والمخترعون والمستكشفون وأصحاب القرائح ، وكل من شب عن الطوق وارتفع فوق مستوى الجماهير وتصدى للمسؤوليات الكبيرة واتخاذ القرارات الحاسمة والمواقف الصعبة ، وكل من تفجر لسانه بالحكمة واتسع قلبه ووجدانه وانثالت عليه المعاني . . . هؤلاء النادرون إنما يقع عليهم العبء الأكبر في صنع التاريخ وتوجيه الأحداث . انهم العقول المدبرة التي إنما تخطط وتبرمج وترسم ، وتضع المبادىء والمناهج والأصول ، وعلى الجماهير بعد ذلك استكمال ما بدأه هؤلاء ومتابعة الطريق الذي شقوه لهم وجني القطوف والثمار . يالسخرية التاريخ : الزارع يموت ولا يبقى إلا الحاصدون الكسالى ، كالشمعة تحترق لتضيء الآخرين ! كم من رجل عظيم أضاء للانسانية طرقاً كانت مظلمة ثم مضى في قوافل النسيان التي يفترسها الليل . . . المجهولون الذين تركوا في أيدي الانسانية آثارهم ثم غابوا هم قوافل بدون وجوه ولا ملامح ، وان أحداً لا يكاد يعرفهم بله ان يقرّ لهم بفضل . انهم أضواء خافتة على المغيب تمر لتؤدي دورها ثم تغرق في المحيط العظيم . لقد غابوا جميعاً ، فلم يبق إلا التافهون ، إلا المقلدون ؛ إلا الببغاوات يغدون ويروحون كأنهم صناع العالم . ان هؤلاء ينتمون إلى مدرسة كبيرة ، كبيرة جداً ، ضاعت من بين أوراقها بطاقات الهوية والانتماء ، وأُلغيت من قاموسها كلمات الحصانة

والشخصية المستقلة التي تعي ذاتها ووجودها . . . حسبهم أن يعيشواكالسائحة بأعين مغمضة وفراغ قاتل . هذه سنة من سنن الطبيعة ، لا أفهم لها معنى . انها ضريبة الفكر ، وما أبهظها من ضريبة ! إنها مجده ومأساته في وقت واحد عجيب أمر هذا الفكر يقتل ذاته لاحياء غيره !

نحن لا نلقي العبء كله على القلة وحدها ، ولكننا إنما نبين موقعها القيادي في صنع الأحداث . فالدهماء قوة ، ولكنها قوة طائشة غير واعية لا تدرك ما يجري حولها ولا ترى ما يرتسم في الأفق البعيد . ان لها مطامح تنحصر في المطعوم والمشروب والمنكوح ، وليكن بعد ذلك الطوفان . وكم استخفها الحكام وبذلوا لها الوعود والأماني، فأطاعتهم وأسلمت لهم قيادها كالنعاج يسوقها الراعي حيث يشاء . انها لا تعرف ماذا تريد ولا تحسن التعبير عما تريد . وكم غرر بها المغررون ونطق باسمها الناطقون . وكم نسيت الصفعة واللكمة أو تناستها ، لِفُتات من الطعام يسير ولِعَرَضٍ من الدنيا قليل !

هنا تبرز الصفوة المختارة لتقوم بالمهمات الجسام . هنا تكمن أهمية القلة النادرة التي لا تجود بها الطبيعة إلا بحساب دقيق جداً . بينما تلقي ذات اليمين وذات الشمال بأعداد لا حصر لها من التافهين والعاطلين والفارغين الذين لا أرى لوجودهم من معنى إلا أن يعيشوا عالة على الصفوة المختارة التي تمنحهم الدفء والرفد وأسباب الحياة ، ثم تهوي كما يهوي الآخرون في لجة سحيقة لا قرار لها . فالأمم إنما تقاس من هذه الناحية لا بعدد السكان ، بل بعدد العقول والأدمغة التي تخطط وتبرمج ، وترود وتستطلع ، وتسبر وتستقصي وتحلل وتدقق ، لتؤمّن للسكان العيش الهنيء والرفد الشريف والرزق الحلال . وكم عقّها العاقون وائتمر بها المؤتمرون ليقتلوها ويخنقوا أنفاسها . وكم سقطت صريعة مبادئها ومُثلها بعد أن أضاءت الظلمات واجترحت المعجزات . انها - يا للمهزلة ! - الصفوة الذبيحة تخرّ في الطريق ليلتهم الوحوش أشلاءها وينهشوا عظامها ، ثم يغطّوا بعد ذلك في نوم عميق تدغدغهم الأحلام الجميلة والرؤى السعيدة !

وصفوة القول : إننا مدينون دائماً لتفكير فرد من الأفراد حبته الطبيعة مواهب خارقة . فالموهوبون هم عدة الأمة ورصيدها وثروتها وعنوان مجدها . والأمة الذكية الواعية هي الأمة التي تحرص على اكتشاف الموهوبين من أبنائها

وتفسح المجال لهم لكي يحققوا ذواتهم ويفجّروا طاقاتهم ويصلوا إلى مراكز القيادة والتوجيه ، فيُقيلوا عثرتها ، ويصححوا مسيرتها ، ويجنبوها مزالق الطريق ووعورة المسالك ، ويدفعوا عنها غوائل الزمان .

إن البيت الصالح ، والمدرسة الجيدة هما البوتقتان الأساسيتان اللتان تنصهر فيهما هذه المعادن الثمينة ، ثم يأتي المجتمع الصحي السليم ليتعهد السبيكة ويجنبها الأخباث والأرجاس والأوضار والشوائب . وستتدفق عليه الثروات بعد ذلك عاجلاً أم آجلاً ، وستدرّ عليه اللذات العلى . فليتق الله في هذه المعادن ، وحذار حذار ان يفرّط فيها أو يبخسها حقها .

ان اعتماد الانسان في سلوكه على الاكتساب والتعلم سواء في البيت أو المدرسة أو المجتمع هو سر تفوقه على المخلوقات جميعاً وتمكّنه من السيطرة على هذا الكون وما فيه من قوى وأفاعيل تؤثّر فيه وتحدد نمط سلوكه وتفتق مواهبه لتوجيه هذه القوى والأفاعيل وجهة تخضد شوكتها وتُسخّرها لمصالحه وأهدافه ، وكل ذلك في حركة ديالكتيكية متصلة من التأثير والتأثر ، والفعل والانفعال ، والأخذ والعطاء لا يسبر غورها ولا يُدرك كنهها .

إن التفوق العقلي الذي يتمتع به بعض الأفراد ثروة لا تقدّر بثمن . فإذا ما أتيحت لهم فرصة سانحة فقدحصل الكمال. هذا التفوق، هل هو مزية لبعض الشعوب على بعض أم هو حظ مشاع بين جميعها ؟ هل من الممكن وضع خريطة يتسنى لنا بها تتبع تركيزه في بعض المناطق دون بعضها الآخر ؟ هل يمكن وضع سلم ذكائي للأمم والشعوب ؟ كل الدلائل تجيب بالنفي . ولكن العنصريين لم يقتنعوا ولن يقتنعوا ولو جئناهم بكل آية . إنها لا تعمي الأبصار ، ولكن تعمي القلوب التي في الصدور . فقد حاول العنصريون عبثاً وضع خريطة لتوزيع الذكاء يجده المرء فيها كثيفاً في دول غرب أوربا وشمالها ، ثم يقل ويقل بعد ذلك في خطين يتجه أحدهما شرقاً والآخر جنوباً ، باستثناء بعض الجيوب الأخرى التي وصل إليها الأوربيون بحكم استعمارهم لها أو استيطانهم إياها ، حيث يتركز الذكاء من جديد في بؤر ضيقة وخطوط متعرجة تزيد وتنقص وتطول وتقصر تبعاً لكثافة الوجود الأوربي أو ضحالته .

إن خريطة ، من هذا القبيل ـ فضلاً عن أنها غير أخلاقية ، إذ يمليها

الاستعلاء وحب السيطرة وابتزاز الشعوب ـ فهي أيضاً خريطة غير علمية . فالأسرة الانسانية أسرة واحدة ، والفوارق بينها إنما هي فوارق فرص وظروف تتاح هنا ولا تتاح هناك ، وتسخو بها الطبيعة لفريق وتشحّ بها عن فريق . . . وما عدا ذلك فأشكال وأطوال وألوان ، وأسماء وعناوين وألقاب ، ونحو ذلك مما لا يدخل في إنسانة الانسان . فالانسان هو الانسان في كل زمان ومكان . وقد تقدمت شواهدكثيرةعلى ذلك ، وسنقدم المزيد أيضا . فالعلم لم تفرغ جعبته بعد ولن تفرغ ، ما دام هناك إنسان يفكر ، وعقل ينبض ، وسر يتكشّف وتتبدد الحجب من حوله .



فقد جاءت اختبارات الذكاء بدلائل جديدة تثبت هي أيضاً أن جميع الأمم والشعوب متشابهة في استعداداتها العقلية وتوزيع المواهب والقدرات فيها ، بل هي متساوية في الذكاء والغباء ، متساوية في العبقرية والبلاهة ، متساوية في الأوساط الذين يتراوحون بين ذلك . وعندما نقول ان جميع الشعوب متساوية في الذكاء فاننا لا نعني بطبيعة الحال أن كل فرد فيها فذ في ذكائه ، وإنما نعني أن نسبة عدد الأذكياء في هذا الشعب هي كنسبته في أي شعب آخر . أي لا تخلو أمة من الأمم من عدد معين من الرجال الأذكياء منها ، وهؤلاء الأذكياء يزيد عددهم كلما زاد عدد السكان . وليس الذكاء وحده مما تتساوى فيه الأمم والشعوب ، فيزيد بزيادة عدد السكان ويقل بقلتهم ، بل الغباء يجري توزيعه بهذه النسبة أيضاً . فكما لا يخلو شعب من الشعوب من عدد قليل جداً من الرجال الأذكياء هم صفوته المختارة ، كذلك لا يخلو من عدد قليل جداً من الأغبياء هم غثاؤه وحثالته . ومعنى ذلك أن الأذكيا قلة ضئيلة في المجتمع ، كما ان الأغبياء قلة ضئيلة أيضاً . فالذكاء نادر الوجود لسوء الحظ ، والغباء نادر الوجود لحسن الحظ . كلاهما استثناء ، وكلاهما خروج على طبيعة الأشياء وأكثر الناس (حوالى ٦٥ ٪) أوساط موزعون بين هذين القطبين . أي أن القسم الأكبر من الناس في المجتمع متوسطون في الذكاء ، ونسبتهم هي حوالى الثلثين تقريباً ، وأما الثلث الباقي فنصف أفراده فوق المتوسط ، والنصف الآخر دون المتوسط . وهناك تفاوت في درجة هذا الذكاء المتفوق ، كما هناك تفاوت أيضاً في درجة الغباء . فهناك العباقرة

في أعلا القمة ، وهناك البُله في أسفل السلم ، وما دونهما فأوساط في أوساط . وهكذا فإذا كان الذكاء نادراً في الطبيعة فان العبقرية أكثر ندرة ، كما ان الغباء إذا كان نادراً في الطبيعة فان البلاهة أشد ندرة . هذا قانون إحصائي عام . وككل القوانين الاحصائية يُشترط لصدقه الأعداد الكبيرة . فهو في الولايات الامريكية المتحدة أو الاتحاد السوفياتي أصدق منه في سويسرا مثلاً . لِمَ تسير الأمور على هذا النحو ؟ لا أدري . ففي الطبيعة طلاسم وألغاز لا قبل لنا حتى الآن بفهمها . وعلينا قبل أن نصرف الجهد والفكر في فلسفة هذه الطلاسم والألغاز ونغوص في حكمتها وميتافيزيقاها، ان نحاول الاستفادة منها أولاً ونسخرها لأغراض الحياة بقدر ما تتسع له طاقاتنا ، فنقلل الأعباء التي يفرضها علينا وجود الأغبياء ـ إذ لا أمل في التقليل من عددهم فضلاً عن شفائهم [(1)] ـ ونتيح للأذكياء شتى الفرص والامكانيات التي تفجّر طاقاتهم وتكشف مواهبهم دون أن نفكر في زيادة عددهم ، فذلك دونه خرط القتاد . حسبنا أن نبرزهم إلى السطح ونقدم لهم الفُرص المطلوبة وهم سيتولون الباقي بأنفسهم . كما نقدم فرصاً متكافئة لأوساط الناس ونحسن توجيههم ونوفر لهم البيئة الصالحة والمناخ الملائم . ثم ليخوضوا بأنفسهم معركة تنازع البقاء . . .

ولا شأن لنا بعد ذلك فيما وراء هذا التوزيع الاحصائي وحكمته ومقاصده . فإنما العبرة في مغزاه وفي الدرس الذي يمكن أن يلقنه لنا . وأما المقاصد والغايات فإنها لا تهمنا هنا في قليل ولا كثير ، هذا إذا صح وجود المقاصد والغايات . وهذا التوزيع يثبت لنا مرة أخرى أن النقص في الذكاء ليس مكتوباً على الأقوام البدائية والشعوب المتخلفة ، كما ان الزيادة فيه ليست امتيازاً للشعوب البيضاء وحدها . فكلاهما حظ مشاع بين الأمم يستوي فيه البدائيون وغير البدائيين ، وتشترك فيه الشعوب البيضاء والشعوب الملونة بحظوظ متساوية دقيقة . فان أكثر الأمم رقياًوأشدها استبحاراً في العلم والحضارة لها نصيبها المقرر من المتخلفين عقلياً ، كما أن أكثرها تخلفاً لها حظها الثابت من القادة والمفكرين .

---

(1) هناك محاولات جادة تجري على قدم وساق في ميدان الهندسة الوراثية لتصحيح ما اعوج من الطبيعة الانسانية سواء من الناحية الجسمية أو العقلية . وقد بدأت التجارب ـ كالعادة ـ على الحيوان . ويعلق العلماء على هذه التجارب آمالاً كبيرة لتطبيقها على الانسان .

فلا فضل لشعب على آخر ـ بعد أن أصبح الرصيد العقلي واحداً وتأمّن رأس المال للجميع ـ إلاّ بالفرصة المؤاتية والمُناخ الملائم . بهما يبرز الذكاء وتتكشف المواهب وتقل مضارّ التخلف إلى حدها الأدنى . بانعدامهما يخمد الذكاء وتنطفىء شعلته ، وتكثر أعباء التخلف وتتفاقم شروره وويلاته . فالغباء والتخلف العقلي إذا أحسن توجيهه وتوفرت له البيئة الصالحة أصبح أداةمنتجة، بعد أن كان عبئاً على المجتمع الذي يعرف كيف يستغل كل طاقة - مهما قل شأنها ـ من طاقات أبنائه ، عقلية كانت أم عضلية ، فلا يهدر شيئاً منها ، إذ يستعيض ببعض وجوهها عن بعض ، ويسدّ ببعض مسدّ بعض . هكذا يبني الشعوب من صحّت عزيمته حقاً على عملية بناء الشعوب ، فاتجه إليها بكُنه الهمة وأقصى الجهد ، ولم يدخر في سبيلها علماً أو مالاً ..

٢ ـ قلنا في فقرة سابقة أن هناك عاملين اثنين لتحقيق أي مدى من التقدم ، وهما الذكاء والفرصة . وقد تحدثنا عن العامل الأول ، فلنبحث الآن العامل الثاني . فالمسألة إذن ليست مسألة عقلية بدائية أو جنس ملوّن يختلف عن الجنس الأبيض اختلافاً جذرياً ، وإنما المسألة كما رأينا مراراً مسألة فرصة ، مسألة بيئة وحضارة . فالشعوب ـ جميع الشعوب ـ قد تحدّر بعضها من بعض ، ونشأ بعضها من بعض ، واختلط بعضها ببعض . لكن الظروف والفرص والملابسات التاريخية والاجتماعية والاقتصادية ، هي التي فرقت بين الأخوة والأشقاء ، فارتفعت ببعضها إلى أسمى المقامات ، وتدهورت ببعضها الآخر إلى أسفل الدركات . هذا هو العامل الثاني الموضوعي الخارجي الذي لابد منه لتحقيق أي مدى من التقدم ، في مقابلة العامل الداخلي الذاتي الأول ، عامل الذكاء . فإذا كان هذا الأخير موزعاً بالقسط توزيعاً إحصائياً دقيقاً بين جميع الأمم والشعوب كما رأينا ، فان توزيع عامل البيئة توزيع جائر مجحف ليس فيه إثارة من عدل . انه تجسيد للظلم والاستغلال والجشع كما أسلفنا . هناك بؤر غنية قليلة جداً في العالم مركّزة في مناطق محددة من أوربا وأمريكا واستراليا وبعض المستعمرات التابعة لها كجنوب افريقيا مثلاً . وأما سائر مناطق العالم فإنما هي بقرة حلوب للبؤر السابقة تستنزفها وتمتص دماءها وهي تبذل لها الوعود والأماني . انها تعطيها باللسان ما تسلبه منها بالسّنان ، وتنهب خيراتها وتضنّ عليها بخبراتها . فإذا ما ثارت النعاج

و تمردت ، كشّرت الوحوش الد رية عن أنيابها . فهي إذا جدّ الجدّ لا تألو في هذه النعاج إلاًّ ولا ذمة ، ولا تتساهل مطلقاً في حق القوي على الضعيف ، والغني على الفقير ،والجزار على البقرة . . . وكما ان المال يجرّ المال ، فان الفقر يجرّ الفقر أيضاً ، والتخلف يجرّ التخلف . ومن دواعي التخلف والفقر الفرقة والمشاحنات الداخلية تغذيها الاطماع الخارجية ، غثاء كغثاء السيل تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى . . .

وهكذا اتسعت مسافة الخُلف بين الفريقين وتباعدت ، فنما الذكاء في فريق وأهدر في فريق . وعلى الرغم من ظروف القهر والفقر والحرمان التي تعيش فيها شعوب العالم الثالث ، فقد بدأت هذه الشعوب تستيقظ ، واستطاعت أن تخرج إلى السطح بعض الأفذاذ القلائل الذين هم معقد آمالها ومناط رجائها . منهم من وصل إلى تولي بعض القيادات فيها ، ومنهم من ينتظر ، ومنهم من لا يزال يتعثر في القاع . ومن حين إلى آخر نجد وجوهاً جديدة تطفو على السطح بعد عمليات شاقة ومخاض عسير .

ولئن دل كل أولئك على شيء فإنما يدل على أن المنهج التاريخي وحده يقدم لنا التفسير الحقيقي للتخلف الذي توصم به الشعوب البدائية والشعوب الملونة وسائر شعوب العالم الثالث . فهذا التخلف إنما هو تعبير عن حالة اجتماعية وتاريخية خارجية عارضة . انه حصيلة ظروف موضوعية قاسية أرهقت هذه الشعوب بالأعباء والمطالب حتى لكادت تشلّ قواها ، أو لعلها شلتها بالفعل . انه مرحلة مؤقتة في نمو المجتمع ومسيرته التاريخية ، انه نتيجة للابتزاز والانتهاب والاستنزاف المبيّت والمخطّط له في الدوائر الاستعمارية،انه من عمل مراكز الاشعاع وهي تهزم النور وتنشر الظلام . . . وبكلمة أكثر صراحة ، انه في جزء كبير منه من عمل حضارة التوحش أو الوحشية الحضارية . وبعبارة أخرى ، ليس التفكير المتخلف في هذه الأحوال ظاهرة بيولوجية تتسم بها بعض الأجناس البشرية دون بعض ، وإنما هو ظاهرة اجتماعية يسري عليها ما يسري على الظواهر الاجتماعية الأخرى من صفات الآنيَّة والمرحلية والتاريخية وإمكانية أن تضعف وتتلاشى إذا تغيرت الظروف الموضوعية والشهية الاستعمارية والضغوط الخارجية .

فليس من الممكن أبداً فصل عقلية الجماعة عن وضعها الجغرافي والاقتصادي والاجتماعي والسياسي والحضاري . . . فعقلية الجماعة هي دائماً تابعة لظروفها الموضوعية الخارجية وتعبير صادق عنها ومرآة عاكسة لها . ان الجماعات تتساوى في الذكاء ولكنها لا تتساوى في تكافؤ فرص الحياة ، وهنا تكمن مأساتها . فالفرصة السانحة هي المجال الطبيعي لممارسة الذكاء،انها قطرة الماء التي تكفل الحياة للنبتة الصالحة ، وإلاّ جفّ نسغها وكانت حطاماً تأكله النار أو هشيماً تذروه الرياح . فابتزاز الشعوب وانتهاب ثرواتهم وكبت حرياتهم ، وقمع كل انتفاضة فيهم ، وحرمانهم من التعليم والاستشفاء وسائر حقوقهم الطبيعية ـ كل أولئك يشلّ قواهم ويصيبهم بالجدب والمَحْل والقحط ، ويجعلهم قوماً بوراً . وبذلك تتسع الهوة بين الأمم المتقدمة والأمم المتخلفة ، الأمم التي تسخّر كل طاقات أبنائها لأغراض التطور والحياة فيها ، والأمم التي تُهمل هذه الطاقات وتظل في شغل شاغل عنها ، بل كثيراً ما تُحجّر عليها وتلقي بها في غيابت السجون ، لأنها غدت هاجساً قوياً يقلق الحكام والطغاة الذين ابتُليت بهم دول العالم الثالث ، إلا من رحم ربك وقليل ما هم !

وهكذا فان التفرقة بين عقلية بدائية وعقلية راقية ، بين جنس ساميّ وجنس آريّ ، بين شعوب بيضاء وشعوب ملوّنة ـ إن هذه التفرقة قد تلاشت اليوم وذهبت إلى غير رجعة ، ان لم يكن في الواقع فعلى الأقل في الكتب والمراجع الأكاديمية . انها خطوة إلى الأمام لا بأس بها . أجل لقد تلاشت هذه التفرقة أو كادت،وحلت محلها التفرقة بين بيئات محرومة من أسباب الحياة وأخرى مُتخَمة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان . فأسباب النكوص والركود إنما تكمن في النظام الاجتماعي والاقتصادي أكثر منها في النظام العقلي والمواهب الفطرية . فهناك تقابل شديد بين العقلية والنظام القائم ، فإذا صلح هذا النظام استيقظت الملكات الكامنة في مهاجعها تنتظر الفرصة ، فانطلقت الطاقات وتفجرت قوى الابداع . وبعبارة أخرى ، ان الطاقة العقلية لا تتردّى بالفطرة ، وإنما تخنُس وتستكين ، بل قل انها تُقهر بفعل الظروف الخارجية . لقد حُرمت من أسباب نموها التي هي حق طبيعي لها فهجعت أو توقفت عن النمو وعادت القهقرى . . . فالفقر والجهل والمرض ، والقمع والاستبداد والاستغلال

والابتزاز و . . . كل أولئك يفتك بالعقول بعد أن فتك بالأجسام ، ويخنق الأفكار بعد أن خنق الأنفاس ، ويقضي على جميع التطلعات والأهداف ومنافذ الحياة .

إن جيلاً واحداً فقط من الاهمال والبطش والتخريب والفوضى قمين أن يعود بالبلاد أجيالاً إلى الوراء ، ولو كانت قد بلغت أعلا الذرى أو وصلت إلى السحاب . فالهدم هو دائماً أهون من البناء ، بل ان ساعة هدم تقضي على جهود مئات السنين من البناء . فالحضارة ـ على حد تعبير ديكارت ـ « خلق متواصل » وعمل مستمر دائم . انها نتيجة الدأب المتلاحق ، والجهد المكثف ، والتصميم الأكيد ، والعزيمة الصادقة التي لا تلين . وأيّ توقف في هذه الحركة ، أيّ انقطاع في حلقة من حلقاتها يهدد العمل بكامله ، ويُعرّض البناء كله لخطر التصدع والسقوط .

لذلك كله ، لم يعد العلماء اليوم ـ إلا قلة متشنجة لها مُسوح العلماء اعماها الاستعلاء والغرور وحب التسلط ـ يعلقون أهمية تذكر على فكرة الانتماء إلى سلالة خاصة أو جنس بشري بعينه . فالصورة قد أصبح لها معنى آخر اليوم خرج بها عن حدود الاعتبارات العرقية . لقد خرجت من يد السياسيين إلى يد العلماء ، ولو نظرياً على الأقل . إذ العبرة عند العلماء اليوم هي بالانتماء إلى بيئة حضارية معينة تتفجر فيها المواهب والطاقات أو تذبل و تمحل . هذا الانتماء الجديد قد وضع حداً لجميع الانتماءات السابقة ، وصرف الأذهان إلى آفاق جديدة في البحث والنظر تبشر بأعظم النتائج .

فالبيئة بهذا المعنى البيولوجيا ، والحضارة أخت الوراثة . بل من العلماء من يقدم البيئة على البيولوجيا ، والحضارة على الوراثة ، أما الجنس والعرق فأمر غير « وارد » سواء عند علماء الوراثة أو عند علماء الاجتماع . وعلى كل حال ، ان الطبيعة الانسانية مادة خام تزخر بالطاقات والامكانيات الكامنة التي تنتظر الشرارة لكي تبرز وتتحقق . والمجتمع هو الذي يطلق هذه الشرارة وهو الذي يُمسكها ان تنطلق.بيده الأمر من قبل ومن بعد . انه يصوغ المادة الخام ويوجهها بحسب مقتضيات الأحوال فيها ، بل قد يحيد بها عن هذه المقتضيات أحياناً إذا بلغ فعله في المادة الخام أقصاه . حتى أن الأخوة الأشقاء بل التوائم

الذين إنّما هم نُسخ متماثلة من الاستعدادات الوراثية الواحدة قد يختلفون إذا اختلفت البيئات التي يعيشون فيها . والتوائم الخمسة لآل ديون Dionne أكبر شاهد على ذلك (١) . فقد أثبتت التجربة أن وحدة المورثات Gènes في التوائم التي خرجت من بويضة واحدة ، وبالتالي تلك التي يفترض أن تكون ذات استعدادات واحدة (٢) ، عقلية وجسمية ـ لا تستلزم بالضرورة أن تسفر اختبارات الذكاء التي تجري على أفرادها عن نتائج واحدة إذا وضعت في ظروف بيئية مختلفة ، بينما وحدة الظروف البيئية تستلزم ذلك ، كما أثبتت التجربة أيضاً (٣) .

بل هناك ما هو خطر من كل ذلك وأكثر ثورية . فلا تظنّنّ أن القوس قد نفدت منازعها ، ان العلم لم يفرغ جعبته ولن يفرغها ما دامت السموات والأرض . فلا يزال في القوس ألف منزع ومنزع . ذلك بأن المورث الواحد ليس له تعبير واحد ، بل يتخذ تعبيرات متنوعة شتى تختلف باختلاف الظروف والملابسات التي تحيط بالفرد ، كما أن التعبير الواحد قد يُستثار بأكثر من عامل واحد (٤) .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى ، إن تصوّر الفرد وحدةً استاتيكية قد مضى عهده وحل محله اليوم تصوره عمليةً تاريخية دينامية ، بمعنى ان الفرد بعد ان كان يُنظر إليه على انه كيان ثابت مستقر له طبيعته الخاصة يُعبَّر عنه (بالأنا) تارةً ، و (بالشخصية) تارة أخرى ، قد أصبح يُنظر إليه اليوم على انه مجرّد دَوْر اجتماعي rôle sociale . ذلك بأن الجوانب المحسوسة لما يُسمى (بالأنا) إنما تظهر في الأدوار التي يقوم بها هذا الفرد (الأنا) . فبالأدوار ، وبالعلاقات القائمة بين مختلف الأدوار إنما تتكشف أشكال الوعي وتتجسّد على أحسن وجه . لذلك رؤي من الأفضل اتخاذ الدور معلماً هاماً من معالم الوعي وتقديمه على فكرة (الشخصية) أو (الأنا) . فإن (الشخصية) أو (الأنا) معنيان مجردان يكتنفهما

---

(١) انظر Gœston Bouthoul : Traité de sociologie I, 445

(٢) انظر W.C. Boyd: Génétique et races humaines, p. 102 — 107

(٣) O. Klinberg : race et psychologie, P. 18

(٤) W. C. Boyd : Génétique, P. 91

كثير من الغموض الميتافيزيقي ، بل يوغلان في الميتافيزيقا وعلوم الأسرار بمجرد ان نمعن النظر فيهما. بل ان الدور سابق للأنا ، يظهر قبله بزمن ليس بالقصير . فليست الأدوار هي التي تصدر عن (الأنا) ، بل العكس هو الصحيح : فإنما (الأنا) هو الذي يصدر عن الأدوار (١) . ويعلق أستاذنا جورج غورفيتش رحمه الله (٢) على هذا التحوّل الكبير في النظر إلى الفرد قائلاً : إن هذه الفكرة الجديدة تُظهر للملأ ما في علم الطباع caractérologie من بطلان وزيف . وذلك لإهمال هذا العلم التنوع الكبير في المظاهر التي يمكن للفرد الواحد أن يتخذها تبعاً للأدوار التي يؤديها في جماعات مختلفة ومواقف متباينة . فأصحاب المزاج الغضبي والانفعالي واليَلغَمي ، وأصحاب التفكير المحافظ المتزمّت ، وأصحاب التفكير الحر المنطلق ـ جميع هؤلاء تتغيّر طباعهم وفقاً للأدوار التي تُسنَد إليهم ، كما ان الشخص الواحد يمكنه هو نفسه أن يقوم في مجتمع من المجتمعات بدور غير الدور الذي يقوم به في مجتمع آخر .

ويضرب غورفيتش مثلاً آخر : ان نفس الأفراد ونفس الجماعات يمكنهم تبعاً للظروف الاجتماعية والسياسية المختلفة ان يضطلعوا بأدوار متباينة جدًّا ، هذا إذا لم تكن متعارضة . فالثوريون قد ينقلبون محافظين ، إما لأن الثورة قد انتصرت أو لأن أفراداً آخرين أو جماعات أخرى أكثر منهم تقدمية قد تجاوزوهم وخلّفوهم وراءهم ظهرياً . فإنما نحن هنا بإزاء تبدل أساسي في طبيعة الأدوار الاجتماعية التي تجري في صميم المجتمع الواحد . وهذا ما تنبه إليه بمنتهى سداد الرأي كارل ماركس في نظريته الخاصة بالتبدل التاريخي لدور شتى طبقات المجتمع ، ولا سيما الطبقة البورجوازية الصغيرة (٣)

ولعل ذلك يتضح أيضاً في المثل التالي : في كل مجتمع عام ، في كل جمعية ، في كل مؤسسة ، في كل منظمة ، في كل هيئة ، في كل رابطة ـ توجد أدوار متميزة يتطلع إلى القيام بها عدد من الأعضاء أو التكتلات . إن الوصول إلى هذه الأدوار انتصار للذين وصلوا ، ولكنه هزيمة للذين خُذلوا . فالتعارض هنا

---

(١) J. L. Moreno : Fondéments de la sociométrie, P. 29

(٢) Georges Gurvitch : La vocation actuelle de la sociologie P. 68 — 69

(٣) المصدر السابق صفحة ٦٩

بين الأدوار التي نجح أصحابها في تأديتها والأدوار التي أخفق أصحابها فيها تصبح له أهمية كبيرة ، إذ ليس كل من يتصدى لإحدى المسؤوليات التي يطمح إليها ينجح دائماً في القيام بالأدوار المطلوبة ويصل بالفعل إلى المركز الذي يعتقد انه كفءله . وهذا ما يكون سبباً في حدوث الأمراض العصبية وعُقد النقص ، فضلاً عن الخسائر المادية والمعنوية الأخرى [1] .

والخلاصة « لا وجود لطبيعة إنسانية [لها صيغتها المستقلة الثابتة] غير تلك التي يصنعها حافز حضاري عتيد يؤثر في الجزء الجامد من الكائن [الانساني] » ، على حد قول مارفي Murphy ومارفي وينوكومب[2] Murphy et Newcomb وبعبارة أخرى، ليست العبرة بالمورِّث ، (لأن الشعوب متشابهة إحصائياً من حيث نسبة توزيع القوى العقلية) إنما العبرة بالتعبيرالذي ينبثق عن هذا المورث . وكذلك ليست العبرة بالفرد ، (لأن الفرد لا حقيقة له مستقلة عن العلاقات والأوضاع والملابسات والأحوال التي بها يتقوم وجوده ، فضلاً عن أن هذه الحقيقة زئبقية ، إذا صح التعبير ، متموجة ، صيرورية تاريخية لا تثبت على طبيعة واحدة) ، إنما العبرة بذلك الدور الذي يضطلع به الفرد ويكشف وجهاً من وجوه وجوده . وليس التعبير والدور نتيجتين للوراثة ، فضلاً عن أن يكونا نتيجتين للجنس أو اللون أو السلالة ، وإنما هما نتيجة لدينامية الوقائع والمواقف والقيم التي تواجهها كل حالة بعينها .

هل معنى ذلك ان البيئة أقوى تأثيراً من الوراثة ؟ وإلاّ فأيهما أشد تأثيراً من الآخر ؟ إذا توخينا الدقة قلنا إن النزاع بين العلماء في مدى تأثير كل من الوراثة والبيئة قد مضى عهده فليست هناك وراثة على حدة أو بيئةعلى حدة ، بل هناك تفاعل عميق بينهما تضيع فيه معالم كل منهما ، هناك كلٌّ أكبر من مجموع جُزْئَيْه ، ونحن لم نفصلهما ونبحث كلاًّ منهما على حدة إلاّ لأغراض منهجية صرف يقتضيها التحليل العلمي ولتتبع المسار التاريخي الذي تحركت فيه هذه المسألة من لدن نشأتها حتى الآن على وجه الايجاز . أجل ليست هناك وراثة يمكن أنتنفصل

---

(١) المصدر السابق .

(٢) نقلاً عن Roger Girod : Attitudes collectives et relations humaines P. 24

عن البيئة . هناك صيرورة واحدة لها جوانب متعدّدة ومظاهر مختلفة يُعبَّر عنها بكلمة (وراثة) تارة ، و (طبع) حيناً ، و (فطرة) حيناً آخر ، كما يُعبَّر عنها بكلمة (بيئة) حيناً ، و (مجتمع) طوراً ، و (حضارة) أو (ثقافة) تارة أخرى . فنحن إنما نُسلِّط الضوء على أشياء ونترك أخرى في الظل لتسهيل عملية الرؤ ية وإبراز ما يراد إبرازه على نحو صارخ وطمس ما يراد طمسه ، لضرورة حازبة وحاجة في نفس يعقوب . والا ما لكل واحد ، ولا حقيقة للاشتات .

الكل متشابك بالكل ، متداخل فيه ، متكامل به مندمج فيه ، ومن العبث - إحداث أي شرخ فيه أو فصم عراه دون أن يفقد وجوده . ولما كان لهذا التداخل منطقه الخاص وديالكتيكه الفريد ، وإذْ كان لهذا التشابك أشكاله وأوصافه وضغوطه ، وبما ان هذا التكامل له درجاته ومستوياته ومقاماته ، فقد طلع علينا علماء الاجتماع الأمريكان بكلمة جديدة أريد بها استيعاب فكرتي الوراثة والبيئة معاً وتخطِّيهما ، كلمة تنبض بهما وتستغرقهما دون التفريط في إحداهما أو التضحية بها على حساب الأخرى . هذه الكلمة الجديدة هي كلمة (موقف Attitude ، « والموقف هو الحالة التي يكون عليها الشخص وهو بإزاء موضوع ما ، بازاء فكرة ما ، بازاء موجود ما ، في ظرف مادي محسوس [(1)] » . إن الموقف يتكوّن دائماً لا وفقاً لمقولة الجنس أو اللون أو السلالة أو الوراثة أو البيئة أو المجتمع ، بل تبعاً لنظام الاسناد السائد Système préétabli de référence وهو النظام الذي وضعته الجماعة كلها وترجع إليه في نظرتها إلى الأشياء وتقويمها للأحكام وأنماط السلوك والذي ينتمي إلى حضارتها هي وطراز تفكيرها [(2)] . وبعبارة أخرى ، ان المواقف التي تتخذها جماعة من الجماعات أو فرد من الأفراد من مسألة ما ، لا يمكن تفسيرها إلا بالنسبة إلى دلالة هذه المسألة في هذه المواقف ، وهذه الدلالة تختلف باختلاف البنية الاجمالية العامة للحضارة المعتبرة وتتوقف عليها [(3)] .

وهكذا يتلاقى علم الحياة وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم خصائص

---

(١) المصدر السابق صفحة ٢٩ . انظر أيضاً : Jean Maisonneuve : Psychologie sociale P. 10 sq

(٢) انظر : Girod P . 50

(٣) المصدر السابق .

الشعوب والأجناس البشرية ومنطق الحضارات - أقول تتلاقى هذه العلوم جميعاً ، بعد طول افتراق وشتات ، لتُبطل مزاعم الثنوية وأصحاب الفرقة وذوي الأغراض والأهواء ، وتُظهر للملأ أن الألوان وان تعددت ، والأنساب وإن اختلفت ، والأقطار وإن تناءت ، والأقاليم وإن تباينت والشقة وإن بعدت ، فالفكر مشترك ، والمنطق واحد ، والانسان هو الانسان ، في كل زمان ومكان .

تطبيق هذه النتائج
على الفكر العربي الاسلامي

هذه هي في رأينا أهم الحقائق والمعطيات التي إنما كان ينبغي أخذها بالحسبان قبل التصدي لدراسة الفكر العربي الاسلامي وإصدار الأحكام الجائرة عليه . بذلك فقط يتسنى للباحثين والعلماء دراسته دراسة موضوعية رصينة ومواجهة الحملات العنصرية الحاقدة التي تُشنّ عليه . فمن أسهل الأشياء على الانسان أن يهرف بما لا يعرف ، لكن من أصعب الأشياء أن يكون لكلامه معنى إيجابي يمكن استخلاصه منه . ليست العبرة بإصدار الأحكام ، وإنما العبرة أن تتسم هذه الأحكام بالتجرد والموضوعية ، وان تكون مبنية على معطيات وحقائق ملزمة . فلا شأن للساميّة والآريّة في تكوين الفكر العربي ، ولا مدخل للجنس أو اللون أو السلالة في تفتح مواهبه أو ذبولها ونضوب معينها .

نحن لا ننكر بطبيعة الحال أن كثيرين من مفكري الاسلام قد تحدّروا من أصل غير عربي ، ولكن المسألة لا تُحل أبداً بمثل هذه البساطة ، ولا يصح مناقشتها على هذا المستوى من السطحية والضّحالة ، اللهم ما لم يكن ذلك تغطية لأغراض وأهواء معروفة . انها أعقد من ذلك بكثير . فهناك أعماق كان من الواجب التنقيب فيها ، وهناك آفاق وأبعاد كان من الضروري إدراكها والوصول إليها ، وهناك دراسات وأبحاث كان لا بد من القيام بها - إذا أريد للأحكام التي أطلقت على الفكر العربي الاسلامي أن يكون لها معنى . فكون بعض مفكري الاسلام من أصل غير عربي لا يضير الفكر العربي في شيء ولا يقدح في إمكانياته وطاقاته،فلقد رأينا تهافت أسطورة تفوق بعض الأجناس على بعضها الآخر بحكم الطبع والفطرة ، كما رأينا أيضاً كيف حطم العلم أصنام الوراثة والطبع (أو

الفطرة) والبيئة والمجتمع ، وأقام على أنقاضها مفاهيم جديدة ومقولات جديدة (دور ، تعبير ، دلالة ، موقف ، نظام الاسناد الخ . . .) إن المقولات البيولوجية (فطرة ، طبع ، وراثة ، عرق ، سلالة ، لون . . .) قد اجتذبت إليها العقول والأذهان فترة من الوقت كانت العلوم الاجتماعية فيها تحبو في طفولتها . أما وان هذه العلوم اليوم قد استقام عودها وانتصبت قامتها فلا معنى لتجاهلها بعد الآن ، ولا فائدة في استمرار التعامل بعملة قديمة فقدت قيمتها . فتهافت عليها هواة جمع التحف والآثار . أجل لقد مضى عهد المقولات البيولوجية وفقدت ما كان لها من إغراء وفتنة ، فلا يتشبث بها بعد اليوم إلا أحد اثنين : عالم منشق متعصب يتعامى عن الحقيقة ليبلغ حاجة في صدره ، أو دعيّ جاهل يعلم ظاهراً من العلم .

فليس بضائر الفارابي ان يكون من أصل تركي ، وابن سينا والغزالي من أصل فارسي ، وابن الصائغ من أصل افرنجي . . . ما داموا قد نشأوا في الاسلام وتكلموا العربية . كما ان إثبات الأعجمية لأصولهم لن يضيف إليهم مجداً جديداً بعدما أقاموا لأنفسهم في مجتمعهم الجديد صرحاً شامخاً من الذكر والفخر . إن دماء هؤلاء وأمثالهم وان لم تكن عربية فان عقولهم قد تكونت تكويناً عربياً إسلامياً . وهذا التكوين العقلي أهم لأمثالهم من التكوين الجسمي والأصول البيولوجية التي انحدروا منها . لقد كانوا يمثلون عصر تطور إنساني عام تحت تيار جارف من لغة القرآن وتعاليم الاسلام .

إن الفارابي والرازي وابن سينا والغزالي وابن باجة وغيرهم وان تحدّروا من أصول شتى وجنسيات مختلفة فانهم جميعاً عرب باللغة المنطوقة والفرص المتاحة والهوية الحضارية والشخصية الثقافية ، ما داموا قد نشأوا في جو الاسلام وعاشوا في مناخه وقيمه وتكلموا لغته ، وأفادوا من الفرص والامكانيات التي أتاحها لهم . لقد كانوا عرباً بالاحساس والعقل والروح والمصير والآمال والآلام، وكانوا رسلاً للثقافة العربية والفكر العربي والحضارة العربية . ماذا أقول ؟ إن الاسلام نفسه وليد العبقرية العربية ويدين بأعظم منجزاته للعبقرية العربية . وبرغم ما تسرب إليه من العناصر الأجنبية وكل ما خضع له من التيارات والروافد الخارجية ـ هدّامة كانت أو بنّاءة ـ فانه يظل أثراً فذاً من آثار

العبقرية العربية وإشراقة فياضة من أعظم إشراقاتها . ولا أدري أي مصير كان سينتظر الاسلام لولا أن تبنّاه العرب ودانوا به واستشهدوا في سبيله ، واضطلعوا بأعبائه ومسؤ ولياته ، وتولوا نشره في الآفاق ، وجعلوا منه ديناً عالمياً ومملكة عالمية بسرعة مذهلة لم يعرف التاريخ لها مثيلاً من قبل ومن بعد .

يضاف إلى ذلك ان الاسلام ليس ديناً فقط ، ليس مجرد علاقة بين العبد والرب ، انه دين وحضارة .

دين ارتفع بمشاعر بنيه إلى أجواز السماء ، وحلّق بهم إلى سدة العرش وجنّة الخلد وملك لا يبلى .

وحضارة لم تعترض سبيل العلم والفكر ، بل لقد أيدته وشجعت عليه وكانت مركزاً هاماً من مراكز إشعاعه . ولم تحارب الفلسفة ، بل لقد جدّت في طلبها وابحث عنها في جميع مظانها ، واتسع صدرها لشتى الآراء والمذاهب والملل والنّحل حتى انه لا يمكن لمن يتحدث عن الرقي الانساني ونهضة العلم والفكر ألاّ يذكر الاسلام ديناً وحضارة ، وألاّ يشيد بالقيم والمثل التي دعا إليها والتي كانت من أسباب توسعه وانتشاره بين أقوام وجدوا فيه الملجأ والحمى والملاذ .

إن كلمة (عرب) التي تكاد تقترن دائماً بكلمة (إسلام) لا تعني فقط أولئك الذين تحدّروا من أصل عربي فقط ، إنها تشمل أيضاً جميع الذين خضعوا للسيادة العربية أو شاركوا فيها واستعملوا اللغة العربية للكتابة والتعبير ، سواء دانوا بالاسلام أو لم يدينوا به وناصبوه العداء . فجوهر العروبة ليس جغرافياً أو عرقياً بيولوجياً وإنما هو اجتماعي وثقافي . العروبة لغة وتراث وتاريخ طويل ، وليست طائفة أو عقيدة أو طقوساً وشعائر . العروبة ليست العبرة فيها بالمضمون العرقي واللغوي ، إنما العبرة فيها بالمضمون الحضاري . ليست العروبة انتساباً إلى جنس بعينه ، وإنما هي اشتراك في تجارب تاريخية وعقلية وروحية واحدة ، إنما هي اشتراك في آمال وآلام وهموم واحدة ، في أفراح وأتراح واحدة . نحن لا ننكر الفروق بين الجماعات والأعراق التي دخلت الاسلام ، ولكننا نضع هذه الفروق في إطارها العلمي الصحيح ونردها إلى حجمها الطبيعي المعقول . لقد كان التعدد ميزة أثرت حياة هذه الجماعات التي تعربت واغنت قسماتها المشتركة ، بالتناصر بدلاً من التناحر ، وبالتعاون بدلاً من الشقاق . فاللغة أداة للتفاعل

القومي والحضاري ، وبوتقة للانصهار . . . إنها ليست مجرد أداة للتوصيل أو التبليغ ، ولكنها غذاء للقلوب والعقول والأوراح ، إنها كما يقول الفيلسوف الالماني فشته : « تُلازم الانسان في حياته ، وتمتد إلى أعماق كيانه ، وتبلغ إلى أخفى رغباته وخطراته ، وتجعل من الأمة الناطقة بها كلاً متراصّاً خاضعاً لقوانين واحدة ، لأنها الرابطة الوحيدة الحقيقية بين عالم الاعيان وعالم الأذهان » . فَلِلُّغة آداب ، وهذه الآداب هي التي ينتج عنها أخلاق الأمة وعاداتها وتقاليدها وما نسميه (تكوينها النفسي) . فلكل لسان آداب تتولد عنها سمات تؤلف وتجمع دون أن تقضي على ميزات التعدد والتنوع . فقد جمعت العربية أقواماً مختلفي الأجناس والأديان والعقائد والأفكار ، فصهرتهم في بوتقتها حتى صاروا جميعاً عرباً بالقومية والثقافة والحضارة والولاء . فهي لم تكن وسيلة تعبير وكفى ، بل لقد كانت أيضاً وسيلة تفكير . فقوالب التفكير عند من يتكلم العربية هي غير قوالب التفكير عند من يتكلم الفارسية أو الانكليزية مثلاً . ومن هنا استحالت الترجمة الكاملة من لغة إلى أخرى ، ما لم تكن هذه الترجمة تقريبية . ولذلك فان هدم اللغة العربية فيه تقويض لمفاهيم الاسلام ـ لأن العربية هي لغة القرآن ـ وفيه أيضاً تقويض للتاريخ العربي والتراث العربي ـ لأن العربية هي لغة هذا التراث وهذا التاريخ ـ وفيه أخيراً تقويض للقوام العربي ـ لأن العربي لاقوام له بغيرلغته العربية ـ وبالتالي فان هدم اللغة العربية فيه تقويض للفكر العربي أساساً ومضموناً . وهكذا فزوال هذه اللغة يجرد العربي من كل شيء ولا يُبقي له قواماً يميزه من سائر الأقوام ولا يعصمه أن يذوب في غمار الأمم فلا تبقى له باقية . . .

والخلاصة لقد كانت اللغة العربية أداة توحيد في المشاعر والآمال والآلام والغايات . فبرغم الخلافات والانقسامات والتباين في الآراء والمذاهب والمعتقدات ، فقد كانت هناك حياة مشتركة ، وإرادة مشتركة ، ووعي مشترك ، ووحدة في الهدف والأمل والمصير .

●

فليس الذي يُكوِّن الأمة إذن ويربط أجزاءها ويوحد شعورها وما تناثر من عقدها ويوجهها إلى غايتها هو هبوطها من سلالة واحدة أو من أصل قومي واحد ، وإنما الذي يفعل ذلك إلى مدى بعيد هو تكلمها بلسان واحد . فلو

وضعت أخوين شقيقين يتكلم كل واحد منهما بلسان غير لسان الآخر في قطرين متباعدين ، وشاهدت ما بينهما من اختلاف نظر ، وتباين قصد ، وتباعد تفكير ، ثم عمدت إلى مصري وسوري ينطقان باللسان العربي ، ورأيت ما بينهما من اتحاد وتقارب، لو فعلت ذلك لرأيت العجب العجاب ، ولأدركت بالتجربة والمشاهدة الفرق العظيم بين الدم واللغة في توحيد الأمم وصهر الشعوب .

وكندا نموذج حي له دلالته في هذا المضمار ، فالناس في كندا يتكلمون لغتين اثنتين هما الفرنسية والانكليزية . ورغم أن كل ظروف العقل والمنطق والمصلحة تقضي بأن تظل كندا بلداً واحداً إلا أننا نجد الآن في أواخر القرن العشرين وفي عصر الوحدات والتكتلات الكبرى ، حركة انفصالية عنيفة تتزعمها مقاطعة كويبك الفرنسية . وهذا يثبت لنا مرة أخرى أن اللغة ليست مجرد وسيلة تخاطب وإنما هي كما ذكرنا وعاء الفكر ووعاء العاطفة والشعور . فالفرد في كويبك لا يتحدث بالفرنسية فقط ، إنه يفكر بالفرنسية ويشعر بالفرنسية ، حتى لقد صارت روابط كويبك الثقافية والعقلية والوجدانية بفرنسا عبر الاطلنطي أقوى جداً بعاصمة دولتها أوتاوا .

هذا ما تفعله اللغة ـ كل لغة ـ في حياة الأمم والشعوب ، وهذا ما فعلته في حياة العرب والمسلمين بل ان ما فعلته العربية أكبر مما فعلته أي لغة في التاريخ . فقد كانت عامل توحيد وربط بين شعوب وقوميات امتدّ إليها الاسلام كانت قبله متباعدة متنافرة . لقد كانت من أمضى الأسلحة التي حطمت الحواجز بين الأقوام والأجناس وساعدت على انتشار النفوذ العربي وتوكيد الهوية العربية فضلاً عن المشاركة الوجدانية والتأثير العقلي والديني . ولو لم يكن لها من أثر إلا تعريب منطقة بكاملها كانت خليطاً متبايناً من الألسنة واللغات فدحرتها جميعاً ـ أقول لو لم يكن لها إلا هذا الأثر فناهيك به شاهداً على عظمة هذه اللغة العملاقة التي تحولت بطرفة عين من لغة السيف والنخل والبعير إلى لغة القلم والعلم والفلسفة ، من لغة محلية ضيقة مقصورة على بضعة آلاف من الأميين إلى لغة عالمية تلهج بها الملايين ولا يعرف العالم المتحضر آنذاك أداة للتعبير غيرها ، وبكلمة واحدة ، انتقلت من لغة البداوة إلى لغة الحضارة . وبينما لم تصمد اللغة اللاتينية للهجات المحلية التي اشرأبت بأعناقها واستقلت عن اللغة الأم لتثمر اللغات الاوربية

الحديثة ، فان اللغة العربية قد امتصت جميع اللغات ـ لا اللّهجات وحدها ـ التي في المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط واحتلت مكان الصدارة فيها . أرأيت إلى هذه المعجزة!فجميع الذين دخلوا في الاسلام وأصبحت العربية لغتهم والولاء لحضارتها موقفهم ، ومناخها غذاء لهم ، هم عرب بصرف النظر عن الأصول العرقية والمواريث الحضارية لأسلافهم . فمن لم يكن عربياً فقد تعرب . لقد ربطتهم اللغة بعرى لا انفصام لها من المشاعر والآمال والأماني والمصير المشترك . لقد فتنتهم وكانت مهوى افئدتهم , حتى قال أحدهم عبارته المشهورة التي أصبحت قولاً مأثوراً « والله لأنْ أهجى بالعربية أحبُّ إليّ من أن أمدح بالفارسية » .

وصفوة القول أن العروبة ليست عِرقاًولا نسباً ، وإنما هي لغة وآداب وتاريخ وتكوين نفسي وحضارة وولاء ، وذلك كله إنما يُكتسب اكتساباً ، وليس أمره مرهوناً بالتوارث المحكوم بنقاء الدم وصفاء الأصل واتصال شجرة الأنساب . وقد نتج عن ذلك كله حضارة مزدهرة يانعة تزاوج فيها الدين والعلم والفلسفة والأدب وتولت قيادة العالم المتحضر قروناً طويلة .

إن اللغة العربية هي الحبل الذي يشدنا إلى الماضي ، وهي سبيلنا إلى المستقبل . انها الرباط بيننا وبين أجدادنا تربط أرواحنا بأرواحهم . انها وحدها اللسان الذي نفخر به ، وهي المعبر عما في القلب من عقائد ، وما في العقل من أفكار ، وما في النفس من آمال وآلام . إنها طوق النجاة لنا ، والحارس الأمين لتراثنا ومستقبلنا . عزّها عزّ لنا ، وذلّها ذل لنا . ان لها تاريخاً طويلاً يوغل في القدم ، ومع ذلك فهي لا تزال في شرخ شبابها ، لم يتضعضع لها ركن ، ولم يهن لها عظم . وقد صارعت كثيراً من اللغات فصرعتها جميعاً ، واستظهرت عليها جميعاً ، فأعْظِمْ بها وبالأمة التي أنجبتها والتي عانت كثيراً من الكوارث والمحن والبلايا أكثر من أي أمة أخرى في التاريخ ، وهذا سر بقائها شامخة دون الكثير من أعدائها . لقد استعصت على الذوبان في الأمم التي هي أعرق منها ، بل ان كثيراً من تلك الأمم قد ذابوا فيها ، ولا تزال أمامها فرص كبيرة لاستئناف حياتها من جديد والعودة إلى ماضي عهد مجيد : أمة ذات حضارة زاهرة ، وقيم سامية ، ومثل رفيعة ، وإمكانيات ضخمة هائلة للاشعاع الفكري والاسهام العلمي

والثقافي .

●

وهكذا فإذا لم يكن المفكرون الذين أنجبتهم بلاد الاسلام أو اجتذبتهم إليها فعملوا فيها وشاركوا في آمالها وآلامها ، واضطلعوا بمسؤوليات الحكم والبناء فيها ـ أقول إذا لم يكونوا من العرب الأقحاح فقد أثّروا في تطور العربية وتأثروا بها وتفاعلوا وإياها بواسطة لغة العرب وبلسان العرب . فهم ـ مهما كانت أعراقهم الأصلية ـ أبناء العربية وجنودها ، وأدوات التطور والبناء فيها : بها كانوا يفكرون ويبحثون ويؤلفون ، وإليها روحياً وعقلياً ينتمون . وإذا ذكرهم التاريخ فإنما يذكرهم لا بأنسابهم العرقية ، بل بثقافتهم العربية ، وهويتهم الاسلامية ، وانتمائهم الحضاري العربي الاسلامي .

لقد اقتحموا كل ميدان وخاضوا كل لُجّة ، وكانت لهم محاولات رائدة في كل مضمار دفعتهم إليها طبيعة التطور وحاجات التقدم ، وقد اتفقوا في أشياء كثيرة واختلفوا في أشياء كثيرة أيضاً ، إلا أن اتفاقهم واختلافهم لم يكونا أبداً محكومين بعوامل الجنس والسلالة ، بل بعوامل متعددة أهمها الاسلام الذي به يدينون ، واللغة التي بها يتفاهمون ويكتبون ويفكرون ، والبيئة التي في كنفها يعيشون وفي أجوائها يتنفسون ، والعصر الذي إليه ينتمون ، والمثل التي بها يؤمنون ، والآمال التي إلى تحقيقها يصبون ويطمحون ، والثقافات الغنية الوافدة التي بها ينمون ويغتذون ، وبعوامل أخرى مشابهة لا شأن لها بالدم والجنس والسلالة تفاعلت ونمط الحياة الجديدة ، وما يجيش فيها ويموج من استعدادات فطرية ومواهب عقلية وعبقريات فنية . . . فتأثرت بها جميعاً وأثرت فيها جميعاً وأعطتها هويتها العربية وشخصيتها الاسلامية وصيغتها الفريدة المتميزة .

لقد اندفعوا كالسيل في كل أفق ، يشدون في كل فن في تيار قوي جارف من لغة القرآن وتعاليم الاسلام ، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالعلم والأدب والفلسفة والدين ، فبرزت عبقريات سامقة ، وظهرت قرائح لا حصر لها ، تجلّت في مئات الشعراء والأدباء والأطباء والعلماء ، والفقهاء والفلاسفة والرياضيين ، والمفسرين والمؤرخين ، والجغرافيين والرحالة الخ . . . الذين استفاضت كتب التراجم بأسمائهم وبنبوغهم وآثارهم ، والذين يحلو للمصابين بعقدة العروبة

والاسلام أن يعودوا بهم إلى أصول عرقية أجنبية يحصرون الفضل ـ كل الفضل ـ فيها . فما هؤلاء الأفذاذ جميعاً سوى عطاء بيئتهم العربية الاسلامية بكل خصبها وغناها ، وما تلقّت من روافد التراث الفكري القديم ـ اليوناني وغير اليوناني ـ فنهضته بعقليتها المتميزة ، وتمثلته بمنطق تفكيرها وروح عقيدتها ومقتضيات تاريخها بل لعل معجزة العرب الكبرى ـ الذين إنما كانوا جنساً واحداً فقط من أجناس متعددة اعتنقت الاسلام كانت أكثر منهم عُدة وعدداً ـ انهم بدلاً من أن يذوبوا في هذا البحر المتلاطم من الأجناس والأقوام ، فقد فرضوا عليهم لغتهم ودينهم ، لا بمعنى الغرض العسكري المتسلط ، بل بمعنى الغزو الفكري الحضاري . لقد كان غزو أنظمة ومثل وقيم ومبادىء ، لا غزو إبادة وتخريب وتدمير ، كما فعلت روما قديماً ، وحفيدتها أوربا حديثاً ، وانه العمل لو تعلمون عظيم ! انه عمل خارق فذ لا مثيل له في تاريخ اللغات والأديان ، فانه لم يحدث قط ان شعباً صغيراً كالعرب غزا بدينه ولسانه ـ لا بالسيف بل بالفكر والقلم ـ أمماً كالأمم التي دانت بالاسلام ، ورقعة شاسعة لا حدود لها من الأرض كالرقعة التي انتشر فيها الاسلام انتشار النار في الهشيم . ولم يكن ذلك بطريق القسر والاكراه كما فعلت المسيحية بالعرب الذين ظلوا في اسبانيا بعد خروج المسلمين منها مثلاً ، بل بوحدة الحاكم والمحكوم ، والغالب والمغلوب ، والمشاركة التامة في المغانم والمغارم ، والحقوق والواجبات ، والمسؤولية والالتزام . لم يكن هناك استتباع من نوع استتباع فرنسا للجزائر قبل الاستقلال مثلاً ، وإنما كانت هناك هوية واحدة بين الغالب والمغلوب والحاكم والمحكوم ، سواء قَبل هذا الأخير الدخول في الاسلام أو لم يقبل ، ما دام عضواً فاعلاً في مجتمعه الجديد . وهي بدعة جديدة لم يعرفها العالم قبل العرب وتكاد تكون شيئاً غير مفهوم في هذه الأيام التي لا تزال تمارس فيها محاولات فاشلة للتنصير بحد السيف ، وما أمر الاستعمار الفرنسي مع مسلمي الجزائر في أواخر القرن الماضي وأوائل هذا القرن عنا ببعيد . وحسب العرب فخراً أنهم في صميم العصور الوسطى ، عصور الاضطهادات الدينية والتعصب الذميم ، لم يُكرهوا الناس حتى يكونوا مسلمين . بل لقد تركوا لهم حرية الدين والمعتقد دون أن يتدخلوا فيها أو يمارسوا أي ضغط بشأنها . نعم لقد كانت الحرب سجالاً بين السُّنة والشيعة ، ولكنها لم تكن حرباً دينية ، بل كانت

نزاعاً على السلطة والنفوذ . وهي في جميع الأحوال حرب بين المسلمين أنفسهم ، لا بينهم وبين أصحاب الديانات الأخرى لفرض الاسلام عليها . وعلى كل حال لقد جاء العرب ببدعة جديدة لا عهد للقرون الوسطى بها ، وهي التسامح مع أصحاب جميع الديانات . وقد اعترف بذلك أكثر الدارسين المنصفين من رجال الاستشراق . فالاسلام ذو مضمون تحريري لا يمكن لعين متأملة مخلصة أن تخطئه ، وإلا لما أسهم المسحوقون النصارى مثلاً في مصر والشام والمغرب والأندلس جنباً إلى جنب مع العرب المسلمين ، ووقفوا في وجه أبناء دينهم من حكام هذه البلاد الذين استرقوهم قبل الفتح الاسلامي وامتصوا دماءهم وعاثوا فيهم فساداً وتخريباً مستغلين وحدة الدين والعقيدة . وبذلك لم تكن أرض الخلافة تلك الامبراطورية الفسيحة الممتدة من الخليج إلى المحيط بقدر ما كانت تلك القيمةَ الانسانيةَ الحضاريةَ التي ظلت عبر القرون والدهور نموذجاً حياً للاشعاع العقلي والسمو الروحي والقيم الرفيعة ، وصيغة فريدة فذة للتعايش الانساني سبقت جميع صيغ التعايش المعروفة اليوم . وكل أولئك أمور غريبة يجد الاستعمار الاوربي صعوبة كبيرة في فهمها . لذلك يزوغ ويروغ ويفسر الأحداث العربية الاسلامية بالمفهوم الاستعماري الحديث وعلاقات القوة والضعف .



وعلى العموم لقد ترك الآباء للأبناء تراثاً ضخماً غنيا بالقيم الحضارية والمثل الانسانية . وهذا التراث عربي كله ، مهما كانت الأصول العرقية للرجال الذين اشتركوا فيه . وهو اسلامي كله ، مهما كانت دياناتهم وعباداتهم . فهو عربي من حيث أنه قد كُتب بالعربية ومن حيث أن بنيته اللغوية هي في الوقت ذاته بنية فكرية واجتماعية وسياسية ، وهي أيضاً بنية فيلولوجية وانطولوجية وسيكولوجية . وأما صيغته الاسلامية فهي مرتبطة بهذه البنية بجميع تشابكاتها وعلاقاتها الداخلية ارتباط تفاعل وتجاوب ومصير . فلا فصل بين الاسلام والعروبة في هذا التراث ، الاسلام بالمعنى الحضاري المنفتح ، لا بالمعنى الديني المتزمت الضيق ، والعروبة بمضمونها الثقافي والتاريخي والاجتماعي الخصب ، لا بمدلولها البيولوجي المحدود العقيم . لذلك لا يجوز النظر إلى أصحاب هذا التراث على أساس أن هذا عربي وهذا أعجمي ، وهذا مسلم وهذا كافر ، بل

على أساس أنهم جميعاً عرب مسلمون فكراً ومجتمعاً ومناخاً وتاريخاً وحضارة . وهكذا اتّحد الاسلام بالعروبة ، والدين باللغة ، اتحاد المعنى بالمبنى ، والجسم بالروح ، والمادة بالصورة ، فتفجرت الطاقات وبرزت العبقريات ، وتفتقت المواهب في جميع الحقول والميادين ، وظهر على مسرح الأحداث أبطال وأفذاذ يُعدّون من مفاخر التاريخ الانساني بعامة ، والعربي الاسلامي بخاصة . وسنُفَصّل ذلك كله في كتاباتنا القادمة تفصيلاً يُزيل كل شك ، ويدفع كل شبهة . ونرجو أن يكون ذلك في وقت قريب .

وعلى ذلك فان عبقريات الاسلام إنما تدين بتفتقها وإشراقها لا لاعتبارات عنصرية أو بيولوجية ضيقة ، وإنما هي تدين بذلك ، وتدين فقط ، لملابسات وظروف اجتماعية ثقافية حضارية عامة كانت متوفرة للعرب دون غيرهم في مرحلة معينة من مراحل تاريخهم . انها إنما تدين للحضارة الاسلامية التي قد نشأ فيها أصحاب هذه العبقريات وتفتّحت فيها براعمهم ، للمواقف التي اتخذوها من هذه الحضارة ، للقيم الباطنة التي تتضمّنها ، للمهمات التي وُسِّدت لهم فيها ، للأدوار التي كان عليهم القيام بها ، للمسؤوليات والتبعات التي اضطلعوا بها وهم يعيشون هذه الحضارة ، للدلالات التي كانت لها في نفوسهم ووجداناتهم ، للآمال التي سعوا إلى تحقيقها ، للدموع التي سالت من مآقيهم خوفاً عليها ، للأحزان والآلام والتضحيات التي عانوها وهم يضعون لبناتها ، للدماء التي سُفكت دفاعاً عنها ، للأرواح التي أُزهقت حفاظاً عليها ، للرسالة التي شعروا أنهم يؤدونها للعالم وهم يبشرون بها ويدعون إليها ، لارضاء الشعور بالانتماء إليها والولاء لها ، للمثل الأعلى الذي استهواهم فيها ومَلَك عليهم قلوبهم ومشاعرهم وهم يتفيأون ظلها ، بل ـ ماذا أقول ؟ ـ للضغائن والأحقاد التي اشتعلت في قلوب الذين ماتوا بغيظهم لنجاح حركتها وانتظام أمرها ، فما انفكوا منذئذ يُعملون معاولهم فيها ، فأتوا من فنون الرأي والفكر بكل جديد وطريف ، ما كان لهم أن يأتوا بمثله لولا عداؤهم للاسلام وخصومتهم له .

ان المثل والأفكار حين تغزو العقول والأذهان وتستولي على الوجدان والضمير ، وتهوي إليها القلوب والمشاعر ، وعندما يتوفر للناس القيادة القوية والتماسك والتنظيم الذي يضمن للعقول والأذهان حداً أدنى من حرية التحاكّ

والتجاوب والتفاعل ـ أقول ان المثل والأفكار حين تفعل ذلك تأخذ بتلابيب أصحابهاوتترك فيهم ـ بين عشية وضحاها ـ أثراً هو بالسحر أشبه . فإذا القوم غير القوم ، وإذا الناس غير الناس [1] ، لقد انقلب كل شيء رأساً على عقب ، فإذا بالمسار الفكري والموقف العقلي للأفراد والجماعات يتخذ منعطفاً جديداً ومنحىً لا عهد للقوم بمثله . لقد تغيرت نظرتهم إلى الكون والانسان والحياة والمصير ، وتبدلت موازين الأخلاق والسلوك عندهم ، وانقلبت المفاهيم والأحكام في رؤوسهم،وتولدت بينهم أفكار واتجاهات ومواقف وتيارات أخذ يصطرع بعضها ببعض ، ويناضل بعضها بعضاً ، وأسفرت هذه المعارك عن شتى المدارس الفكرية ، والمذاهب العقلية ، والنظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية . وعندما استتب الأمر للفكر ووصل إلى مستوى معين من الاستقرار النسبي أخذت الأمور تسير « على نار خفيفة » إذا صح التعبير ، وبقليل من المؤونة وبحكم قوة الاندفاع الذاتي ، وما زال الأمر كذلك حتى بدأت الجذوة تنطفىء وينضب المعين . ولكل ذلك سننه وقوانينه ومواسمه ، على أن نأخذ كلمة (قانون) هنا بالمعنى الواسع المرن ، لا بالمعنى الرياضي الذي نجده في الفيزياء والكيمياء ، إذ لا قوانين صارمة في شؤون الانسان والمجتمع . هذا ما حدث في بلاد اليونان القديمة ، وهذا ما حدث بعد الثورة الفرنسية في أوربا ، وهذا ما يحدث اليوم في الاتحاد السوفياتي وفي مراكز الاشعاع في الغرب . وهذا هو نفسه ما حدث في شبه الجزيرة العربية بعد مخاضها العظيم في أوائل القرن السابع للميلاد .

لذلك فان عرب ما قبل الاسلام ليسوا في نظري هم نفس العرب بعد أن غزا الاسلام مشاعرهم ووجداناتهم ، واتخذوا منه منهجاً وفكراً وعقيدة . لقد تبدل القوم غير القوم فأصبحوا وقد اعتنقوه شيئاً آخر لم يكونوه من قبل ، هذا مع أن هياكلهم وجميع مقوماتهم البيولوجية لم يطرأ عليها أي تغيير يذكر . لقد نفذ الدين الجديد إلى الأغوار العميقة التي يصنع منها الانسان وحيث جوهر الانسان وحقيقة الانسان . هنالك لا تجدي قوانين البيولوجيا ولا تغني عن أصحابها شيئاً ، مهما ابيضّ لون جلودهم أو اسودّ ، ومهما اتسعت أحجام جماجمهم أو

---

(١)وهذا هو موضوع (السيكوسوسيوديناميكا) الذي سنفصل القول فيه في كتابنا القادم .

ضاقت ، ومهما صفت دماؤهم أو اختلطت بغيرها من الدماء ، وسواء رجعوا بأنسابهم إلى ما يسمى بالجنس الساميّ أو الآريّ . لقد تغلغل الاسلام في أغوار ، ومسّ شغافاً ، ووصل إلى تخوم وأبعاد انتهى فيها فعل البيولوجيا منذ زمان طويل ـ هذا ان كان لها هنا أي فعل ـ وبدأ فعل السيكولوجيا ، فوُريتّ الزناد ، وتفجرت الطاقات ، وبدأت المسيرة . ولم يكن ذلك لمزية في العرب لم تتوفر لغيرهم من الأمم والشعوب ، وإلاّ وقعنا في عنصرية بغيضة طالما نددنا بها وأعلنّا النكير عليها ، فان ما حدث للعرب قد حدث هو نفسه للأمم الأخرى التي انصهرت في الدين الجديد . فهؤلاء وأولئك فئة جديدة من الناس ألهبتهم مُثل جديدة فأصبحوا قوماً آخرين . بل ان هذا ما يحدث كل يوم وفي كل بلد نشبت فيه ثورة ايديولوجية جديدة كثورة الاسلام . وما أمر الثورة الفرنسية والثورة البلشفية عنا ببعيد . وهكذا فليس الاسلام بِدْعاً من الأديان والمذاهب والدعوات. فالبشر إنما هم أوعية وقوالب متحركة بالمُثل والأفكار والمعاني . فترى بعضَها يفتنهم دون بعض ويجد هوى في نفوسهم حتى يؤرقهم ويأخذ بتلابيبهم، فهناك صرعى الأفكار كما هناك صرعى السيوف والرماح . فالأفكار هي قيم الشعوب ومناط الحكم لها أو عليها . فبالأفكار إنما تسمو الشعوب وتعرف أقدارها ، وبانعدامها إنما تنحط وتهوي .



يزعم ابن خلدون « ان حملة العلم في الاسلام أكثرهم من الأعاجم » . وهذا الحكم سطحي جداً وغير دقيق ، فضلاً عن أنه غير علمي ، ولعله منقوض بالاحصاء وبتتبع كتب تراجم أئمة المذاهب الاسلامية والعلوم اللسانية . ومن العجيب ان يصدر عن ابن خلدون حكم متسرع من هذا القبيل . فقد استُغل كثيراً وكان منطلَقاً لمواقف وحملات حاقدة متعددة اتخذت من رصيد الرجل وسمعته العلمية الكبيرة مظلة لها . حتى أن كثيراً من الباحثين العرب صدقوا هذه الأسطورة ونشروا الأراجيف من حولها . ان هذا القول مثل على النظرة العابرة غير المعمقة إلى الأشياء . فليس في الأمر أعاجم أو غير أعاجم ، وإنما هناك ظروف وأحوال قذفت إلى الصدارة العقلية بأعداد كثيرة من الأعاجم في بعض الأحيان ، وبأعداد أخرى كثيرة مماثلة لها أيضاً من العرب في بعض الأحيان

الأخرى ، هذا إذا أصررنا على استعمال كلمتي (أعاجم) و (عرب) والتفرقة بينهما ، وهو استعمال غير علمي كما أسلفنا مراراً . ومع ذلك فسنبقى على هذا الاستعمال مؤقتاً ونحن نودع هذا الفصل لنُظهر لأولئك الذين يحبون التفرقة بين العرب والأعاجم انها (أي التفرقة) حتى لو سلمنا بها ستكون حجة عليهم لا حجة لهم . ففي نطاق هذا التحفظ ، ومن خلال هذا الاحتراز نميز بين الفريقين فنقول : كانت هناك فترات ـ ولا سيما في أوقات الفتوحات الكبرى ـ كان يكثر فيها عدد العلماء الأعاجم ، لكن كانت هناك أيضاً فترات أخرى اتسمت بكثرة العلماء العرب . ولم يكن ذلك راجعاً إلى أسباب عنصرية تتصل بطبيعة العرب وطبيعة العجم ، وإنما هو يرجع إلى أسباب تاريخية وظروف موضوعية معروفة . ففي عصور الفتح الأولى ، وعندما كان العرب في إبّان قوتهم وعنفوان مجدهم ، صرفوا اهتمامهم إلى مغانم الفتح وجني ثماره وإلى تثبيت أقدامهم في البلاد التي دخلت في حوزتهم ، بالاشتغال بأعمال السلطان من إدارة الملك وقيادة الجند وجباية الأموال التي أخذت تتدفق على خزائن الدولة ، هذا فضلاً عن استغراقهم في الدعوة إلى الدين الجديد وحمل رسالته . وبرزت مواهبهم في هذه الميادين وزهدوا بغيرها ، وانجبوا فيها أفذاذاً كانوا في مستوى الأحداث،ومن قال ان أعمال السياسة والقيادة والدفاع عن الدين لا تتطلب جهداً كبيراً من النشاط الفكري،والتركيز العقلي؟وهكذا هجروا ـ أو هجرت أعداداً كبيرة منهم على الأقل ـ مجالات الحياة الأخرى ، من علم وفلسفة وفن الخ . . . كأنما ليس في الدنيا إلا مغانم الفتح وجباية الأموال وحماية البيضة . وهكذا نفذ الأعاجم أفواجاً إلى الميادين الخالية والمجاهل غير المطروقة ، ميادين العلم والفكر ، ومجاهل الثقافة والمعقولات ، لا سيما وقد كانوا مهيأين لذلك أكثر من العرب في بداية نهضتهم ، لعراقة أصولهم الحضارية ـ لا العرقية ـ ولانتماءاتهم الفكرية العميقة قبل الاسلام . يضاف إلى ذلك أن ممارستهم للأعمال العقلية ـ بعد هزيمتهم العسكرية على أيدي العرب ـ كانت متنفّسهم الوحيد لابراز مواهبهم وإظهار تفوقهم الحضاري في الدهر الخالي على هؤلاء الفاتحين الأغرار رعاء الابل الذين تطاولوا على مُلك كسرى وقيصر . فكأن لسان حالهم يقول : نعم ، لقد هزمتمونا عسكرياً ، فهيّا إلى الحرب العلمية ، والمعركة الحضارية ،

لنعلم أي الفريقين أحق بالبقاء !

هذا ما كان من أمر العرب أيام قوتهم . لكن عندما ضعفت شوكتهم وبدأت الأرض تميد من تحت أقدامهم ومقاليد الحكم تفلت من أيديهم لتنقل إلى الأعاجم ، لم يروا بُداً من الاشتغال بالعلم والاجتهاد فيه وملازمة أهله ، حتى بزوا الأعاجم وظهروا عليهم ، فبرزت عبقريات وقرائح عربية شدت في العلم والفكر وبلغت كل غاية . وعلى ذلك فإن كثرة العلماء والمفكرين الأعاجم عند انصراف العرب إلى أعمال الدولة والسلطان إنما تعود إلى ظروف وعوامل تاريخية نفسية واجتماعية لا شأن لها أبداً باللون والجنس وبكل ما يمتّ بصلة إلى أسطورة تفوق بعض الأجناس على بعض . وفي طليعة هذه الظروف والعوامل خلوّ الساحة أو ازدحامها ببعض الأعمال دون بعض والرغبة في التعويض عن فقدان السلطان بشرف العلم . فالشعور بالنقص عندما يقترن بالموهبة حافز على الكمال والمجد ، كما ان الحرمان إذا صادف عقلًا نيراً وفكراً ناضجاً حقق لصاحبه أقصى الأحلام وأعظم الآمال إلى أي جنس انتسب ، عربياً كان أم أعجمياً ، أبيض أم أسود .

وهذا ما يؤكده فن التحليل النفسي وعلم الاجتماع المعرفي . فالمعلوم أن معظم هؤلاء الأعاجم كانوا من الموالي أو من المتحدرين من موالٍ ، وبالتالي كانوا ممن يُنظر إليهم شزراً من قبل بعض المتعصبين من العرب الفاتحين الذين قوّضوا عروش الأعاجم ومزقوا مُلكهم ونالوا من عزتهم القومية وكبريائهم الوطنية ، فأورثوهم عُقد النقص والشعور بالتدنيّ . لذلك كان لزاماً عليهم أن يؤكدوا وجودهم للعرب الغزاة ، بالتفوق عليهم لا في المجال العسكري الذي فقدوا أسبابه ، بل في مجال الدين والأدب والعلم والفلسفة والفن و . . . وهو المجال الذي كانت له سوق رائجة آنذاك وكانت جميع ظروف الحضارة الناشئة عوامل مؤاتية له ، مساعدة على نموه واتساع نطاقه .

ذلكم هو الحل الذي يقدمه لنا فن التحليل النفسي . وهاكم حلًا آخر يكمله ويلقي أضواء أخرى على هذه المشكلة ويزيل كثيراً من جوانب الغموض فيها . فهناك من يتساءلون دائماً عن سبب تفوق اليهود في البلاد التي يستقرون فيها . وقد عالج كارل مانهيم أحد مؤسسي علم الاجتماع المعرفي هذا الموضوع

من زاوية علمه الجديد وأتى بعناصر جديدة يمكن الافادة منها كثيراً في فضح أسطورة تفوق الأعاجم في عصور الازدهار الاسلامي وتفنيد مزاعم القائلين بها .

يقول مانهايم : « ان المثَل التالي يُظهر لنا كيف أن طائفة من الناس يمكن أن تنمّي في أفرادها ـ بحكم وضعهم الخاص في المجتمع ـ ملكات دون غيرها . وهكذا فان الأقليات ـ كاليهود مثلاً ـ يجب عليها في سبيل الحفاظ على وجودها ألاّ تكفّ عن التفكير في السلوك الذي ينبغي عليها اتخاذه لتتكيف بالبيئة الاجتماعية التي تعيش فيها . فأبناء البلاد الأصليون يعيشون تلقائياً بحسب معايير مجتمعهم . وأما أبناء الأقليات فلا ينجحون في العيش في هذا المجتمع الابجهد فيه قسط كبير من التفكير ومن هنا طابعهم العقلي » [1] .

وهكذا ، فإذا بدا للسذج أن اليهود متفوقون على غيرهم ، فليس ذلك لمزية عنصرية فيهم ليس لغيرهم ، بل لأن التفكير إنما هو أداة البقاء الأساسية والوحيدة بالنسبة إليهم وإلى سائر الأقليات الأخرى التي لا يفتأ وجودها مهدَّداً باستمرار . ولذلك يظل تفكير أعضائها على وجه العموم مرهفاً متوتراً ، سيماه الحذر واليقظة وإدامة التأمل والنظر في أوضاعهم وظروف حياتهم . وأما الآخرون أصحاب البلاد فإن للبقاء عندهم وسائل وأدوات كثيرة لا يعدو التفكير أن يكون مجرد أداة واحدة منها . انه أداة من أدوات ، وأما بالنسبة إلى الأقليات فانه الأداة . أرأيت إلى الفرق بين الحالين ، بين أن يكون التفكير قوة بين قوى كثيرة ، وبين أن يكون القوة الوحيدة ؟

وقد حدث شيء من هذا القبيل للأعاجم وان اختلفت المعادلة بينهم وبين العرب . فإذا لم يكونوا أقلية عددية فقد كانوا أقليه سياسية ، بمعنى أن الحكم لم يكن بأيديهم وإنما كان بأيدي العرب الذين يمثلون الأقلية العددية والأكثرية السياسية . وعندما اندفع هؤلاء كالسيل في البلاد التي غَلبوا عليها ارتبطوا بالأرض الجديدة ارتباط أبناء البلاد تدعمهم في ذلك قوى مادية وروحية هائلة ، ولذلك لم يشعروا بالغربة والضياع بقدر شعور الموتورين الآخرين من أهل البلاد الذين أصيبوا في مجدهم وكبريائهم وشعورهم القومي . فالفرس وقد ثُلت

---

(١) نقلا عن Jacques Maquet : Sociologie de la connaissance, P . 51

عروشهم وغُزيت أوطانهم أصبحوا غرباء من عقر دارهم . فهم رغم كثرتهم ، قلّة . فحمّلهم الشعورُ بالغربة والضياع وحساسياتُ أبناء الأقليات على توكيد وجودهم الذي لا يمكن الحفاظ عليه إلا بجهد غير قليل من العمل العقلي والتوقد الذهني . ومن هنا تفوقهم في ميادين العلم والفلسفة والدين والاجتماع الخ . . . وهكذا نشط التفكير في فريق كبير منهم حتى لقد بدا للسذج والبسطاء أن الأعاجم كانوا هم دون العرب مراكز الاشعاع العقلي في بلاد الاسلام . وأما العرب الذين توطد سلطانهم واستتب لهم الأمر في بلاد الفرس فقد كان التفكير أحد مشاغلهم ووجهاً واحداً فقط من أوجه نشاطهم في سبيل البقاء . واستسلموا لهذا الغرور الكاذب حتى مادت الأرض من تحت أقدامهم. وليس معنى ذلك بطبيعة الحال أن العرب لم يسهموا في الحركة العقلية أو أنّ التفكير فيهم قد هجع واستنام . كلا . ففضلاً عن أن أعمال السلطان وتوطيد الحكم لا بد لها من حظ وافر من التفكير ، فانهم ما إن شعروا بالزلزال يكاد يطيح بهم حتى استفاقوا من غفلتهم وانصرفوا إلى العمل العقلي البحت . فمن الظلم والتجني حقاً أن يقال عن قوم كانوا عمالقة في ميدان الحكم والسلطان والادارة والقيادة ، فضلاً عن الفتح والدعوة ، انهم أقزام في الميادين الأخرى . فان الذي ينبغ في مجال ما لاستغراقه فيه ، في مقدوره أن ينبغ في مجال آخر لو استغرق فيه أيضاً . فالعرب لم يستطيعوا ان يجمعوا بين العمل العسكري والعمل العقلي في وقت واحد وبقبضة واحدة . ولعل ذلك راجع إلى أن التفكير العقلي الأصيل هو الذي يكون وليد بيئته وأوضاعه وخبراته ، ولا بد له من الرويّة والأناة ، وبالتالي لا بد له من وقت طويل وتجارب مريرة . ولذلك لم يكن العرب في عجلة من أمرهم في هذا الميدان بقدر عجلتهم في ميادين الفتح والسلطان وتثبيت أقدامهم فيها . ماذا أقول ؟ حتى هذه الميادين بما فيها من انتصارات وهزائم ونكسات وكر وفر قد ساعدت كثيراً على نمو التفكير النظري وكانت حاضناً مهماً له . لقد نما التفكير مع الأحداث أولاً ثم انفصل عنها بعد استكمال مقوماته . وهذا لعمري من أخص خصائص التفكير الأصيل ، لأنه وليد حاجات داخلية ولم يبدأ ترفاً مستورداً من خارج . وعلى كل حال ، ان الأعاجم لم يتفوقوا على العرب في الميادين العقلية لمزية آريّة فيهم ، كما ان العرب لم يتقاعسوا في هذه الميادين لآفة ساميّة فيهم ، ففي كلا الحالين كانت الظروف

الموضوعية تنعكس على المواقف الذاتية فتوجهها هذه الوجهة أو تلك ، تبعاً لمعادلة لم يستطع كل من الفريقين بمقتضاها أن يجمع بين أسباب التفوق كلها في وقت واحد : فلئن تفوق الأعاجم فكرياً فقد أخفقوا عسكرياً ، ولئن أخفق العرب ـ وبتعبير أدق قطاع كبير منهم ـ فكرياً فقد تفوقوا عسكرياً ، كأنما الجمع بين أسباب التفوق عند كل من الفريقين عملية مستعصية !

وليس معنى ذلك أن العرب لم يكن لهم أي إسهام في الحركة العقلية في فجر الاسلام ، بل لقد كان لهم نصيب وافر من هذه الحركة غير أنه كان مختلطاً بضباب كثيف من المشاعر الدينية والسياسية والأبهة العسكرية . ولم يَصْفُ ويتبلور ليتخذ مساراً عقلياً واضحاً نستطيع أن نسميه تفكيراً نظرياً حقيقاً بهذا الاسم إلّا بعد أن قطع أشواطاً في مراحل الطريق . ولسنا الآن في معرض تفصيل القول في ذلك ، فمجاله الواسع كتابنا القادم . لكن ما نريد توكيده هنا والإلحاح عليه هو ان العوامل التاريخية الطارئة ـ من نفسيَّة واجتماعية وسياسية واقتصادية،أي مجموعة الظروف الموضوعية ـ تكفي وحدها لتفسير ما يُعزى إلى الأعاجم من تفوق وامتياز ، وإلى العرب من تقصير وقصور ، وذلك دون إقحام العوامل البيولوجية والاعتبارات العرقية . فقد انصرف الأعاجم إلى العلم والدراسة بعد أن فقدوا الولاية والحكم . لقد استعاضوا عن رياسة الحرب والولاية برياسة العلم وشرفه . فكان ما كان من مكاثرتهم للعرب في هذه الرياسة وهذا الشرف في بعض مراحل الطريق فقط ، لا في جميع المراحل . لقد رأوا فراغاً كبيراً فازجوه بالدرس والتنقيب والبحث والنظر ، فجاء العرب من بعدهم وأكملوا ما بدأوه . فللأعاجم شرف الطليعة والريادة ، وللعرب شرف البحث واستمرار المسيرة والحفاظ على الشعلة متقدة متوهجةً . لقد عثر الأعاجم على رياسة خالدة فشروها برياسة وقتية ، وعثر العرب على ملك عضود فآثروه على ملكوت دائم . فكان هذا الحل ضرباً من ضروب الدفاع عن النفس عند فريق وتعويضاً له عن فردوس مفقود ومغانم ذهبت إلى غير رجعة ، كما كان هذا الحل نفسه أيضاً عند الفريق الآخر نوعاً من إرضاء غرور القوة والشعور بالاستعلاء والعظمة وأبهة السلطان . وحدث ذلك بحركة لا شعورية معقدة يأبى الفريقان فيها التفكك والزوال .

ورب معترض يقول : لقد رأينا الهزائم السياسية والعسكرية إذا حلت

ببلدٍ ما لا بد أن تشل حركة الفكر فيه فلاتكادتقوم له بعدهاقائمة، بحيث تنعدم فيه القابلية لحدوث أي تعويض نفسي كالذي ذكرنا . فما بال الفرس وقد أنهكتهم الهزائم على أيدي العرب ينجبون في العصر العباسي والعصور التالية عدداً من الرجال الأفذاذ قد لا نرى لهم مثيلاً في العصور الذهبية لفارس ؟ والرد على ذلك سهل بسيط : فالضربة التي لا تقصم الظهر لا تميت . هذا أولاً ، وثانياً تنفرد الفتوحات الاسلامية بمزية لم تعرفها الفتوحات الأخرى : فقد كانت للمغلوبين في جميع البلاد التي فتحها العرب حقوق متساوية مع الفاتحين إذا قبلوا الدخول في الاسلام ، بل حتى لو رفضوا الدخول فيه على أن يكونوا أعضاء مخلصين للمجتمع الجديد في إطار من الاحترام المتبادل ومعرفة كل فرد لحقوقه وواجباته .

وهكذا اختلط شعور الهزيمة عند الفرس بشعور الانتهاء للدولة المنتصرة التي أصبحوا جزءاً منها يسهم في رقيها وتقدمها كأبنائها الأصليين سواء بسواء . وهذا ما لم يحصل إلا في بلاد الاسلام وفي ظل حكم الاسلام حيث أن الشعور بالهزيمة لا يلغي نشوة النصر . فالمهزوم منتصر في بلاد الاسلام ، انه لم يخسر شيئاً بل لقد زادت مكاسبه ، أو على الأقل ان ما خسره من وجه قد نال عوضه من وجه آخر : فلئن انتهى المغلوبون فارسياً فقد انتفضوا من جديد عربياً وإسلامياً . وهذا قريب مما يسميه الماركسيون (الخط التاريخي) : فالتدمير الناتج عن الفتح إذا لم يكن كاملاً قد يكون شرطاً لتقدم لاحق . ولاسيما إذا انضم إليه عامل مساعد فقد عجل بهذا التقدم كثيراً ما ذكرناه من مساواة في الحقوق والواجبات بين الغالبين والمغلوبين في بلاد الاسلام . وهكذا بدأ الفرس بداية ثانية أكثر حرية وأكثر سرعة من البداية الأولى ، وذلك بفضل الإعصار التاريخي الناتج عن انهيار امبراطوريتهم على أيدي العرب . فهذا التقهقر الذي أعقب الاعصار بما انضم إليه من عوامل إسلامية مؤاتية ـ أدى إلى زوال عهد وإقبال عهد . فهو بإرغامه الفرس على إعادة اكتشاف ذاتهم قد مهد الطريق لتقدم لاحق قام بأكثر من إلغاء أثر التقهقر . فالتاريخ كما يقول ماركس يتقدم من « الجهة السيئة » في بعض الأحيان ، تلك هي طلقة الرحمة تلقتها فارس من أيدي العرب،وهؤلاء ـ على الأرض التي كانت فارس أنضجتها والتي كان انهيارهايتركهاحرة ـ وجدوا نقطة انطلاق تطور جديد .

ولنعد إلى عبارة ابن خلدون . فحتى لو سلّمنا أنه كان على حق في قوله أن حملة العلم في الاسلام أكثرهم من الأعاجم ، فليس في هذا القول ما يقدح بالعرب أو يضيف إلى الأعاجم مجداً جديداً ، إذا تذكرنا ذلك الخضم الهائل العظيم من الأمم والشعوب والأجناس والأقوام التي دخلت الاسلام . فمن الطبيعي أن يظل العرب الخلّص أقلية ضئيلة بالنسبة إلى الأعداد التي لا تحصى من الأعاجم والتي ما انفكت تتزايد وتتعاظم بدخول عناصر جديدة في دين الفاتحين . وقد شملت عملية التعرب هذه العناصر جميعاً ، وهي عملية لم تتوقف قط . أما العرب الأقحاح فلم يزد عددهم شيئاً يذكر بالقياس إلى المتعربين . ومع ذلك فقد أنجبوا أعداداً لا حصر لها من حَمَلَة العلم تفوق نسبتهم العددية في المحيط الأعجمي المتعرّب الكبير، بل إني لا أعتقد أن الفرق كبير بين علماء العَرَبَيْن ، العرب الأقحاح والعرب المتعربين ، من حيث عدد حَمَلَة العلم . فقد دفعت القلة العربية بأعداد هائلة من حملة العلم . فكان ينبغي بالتالي على العرب المتعربين (الأعاجم) أن يدفعوا بأعداد أكبر جداً مما فعلوا ليلحقوا بالأعداد العربية ولتبقى النسبة بين الفريقين ثابتة . ولكنهم لم يفعلوا . وحبذا لو يتوفر بعض الباحثين للقيام بمقارنات إحصائية لتحقيق هذه المسألة تحقيقاً علمياً دقيقاً يشفي صدور قوم مؤمنين بالعروبة فكرة وتاريخاً ومصيراً . وعندئذ تقطع جهيزة قول كل خطيب ! فالحدس هنا جهد ضائع وعبث لا يغني من العلم شيئاً .



يخلص معنا من كل ما تقدم أن حضارة العرب لم تقم على أكتاف الأعاجم وحدهم، فان من دخلوا في الاسلام من الفرس والروم والقبط والسريان وغيرهم إنما درسوا في مدرسة العرب ، وتعلموا لغتهم وثقافتهم وعاداتهم . كما أنها لم تقم على أكتاف العرب وحدهم ، فان العرب قد درسوا علوم الفرس والروم والقبط والسريان وغيرهم وتسربت إليهم ثقافاتهم وعاداتهم وتقاليدهم ، ونتج عن ذلك كله مزاج جديد لا هو بالعربي صرفاً ، ولا هو بالأعجمي محضاً ، وإنما هو كلاهما وأكثر منهما . بمعنى أن هذا المزاج ليس مجموعاً كمياً تحتفظ الأجزاء فيه بقيمها وأقدارها وأحجامها ودلالاتها ووظائفها ، وإنما هو مجموع نوعي جديد تفاعلت فيه الأجزاء والعناصر فأنتجت كلاً نسيج وحده لا ينتمي إلى هذا الفريق أكثر منه

إلى الفريق الآخر . فإذا كان ابن سينا والغزالي والرازي والبيروني و . . . أعاجم تعرّبوا ، فان الكندي والجاحظ وابن رشد وابن زهر وابن النفيس وابن خلدون و . . . عرب أقحاح لا يقلون عن الأولين منزلة وكرامة . وعلى الرغم من هذا التفاعل العميق بين الفريقين ، فقد ظلت الصيغة العربية محتفظة بقوامها ، بل لقد اغتنت وازدادت قوة وثراء . لذلك فالفريقان عرب بلغتهم ودينهم وتربيتهم وثقافتهم-ومن هنا يمكن القول أن العروبة ليست بالدم بقدر ما هي بخدمة لغة العرب وآداب العرب ودين العرب وعلوم العرب .

خاتمة ـ يخطىء من يظن أن الحضارة العربية إنما هي حضارة الأقوام والأجناس والشعوب التي اعتنقت الاسلام ، وان العرب كانوا حشواً مهملاً غريباً بين هؤلاء لا هوية له ولا عمل إلا الغزو والسطو وانتجاع الكلأ والظعن بإبلهم في القفر وورود مياهه القليلة المِلحة طلباً لما خض النتاج في رماله . فهم أشد الناس توحشاً ، ينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمفترس من الحيوان العجم . فهل هؤلاء أهل للقيام بأي إنجاز حضاري ؟ فإذا كان لهم من نصيب في الحضارة التي تحمل اسمهم فإنما ينحصر ـ بزعم أعداء هذه الحضارة ـ في هذا الغشاء الرقيق من اللغة التي كانت مجرد أداة للتعبير ، وهو شيء تافه لا يُعدّ إسهاماً ذا بال !!

إن هذا الكلام فاسد متهافت جملة وتفصيلاً لأسباب كثيرة أهمها التقليل من شأن اللغة في حياة الشعوب وبناء الحضارات . يلي ذلك ، النظرُ إلى العرب قبل الاسلام على أنهم هم أنفسهم عرب ما بعد الاسلام ، كأنما الاسلام شيء عارض تافه لا أهمية له في وثبة العرب واقتحامهم الآفاق ، وكأنما الأفكار بالتالي أمور ثانوية لا قيمة لها بالنسبة إلى هياكل الأجسام وألوان الأبدان وأحجام الجماجم . فكأنما قطرة دم خير من ومضة فكر ، وصبغة جسم أولى من نفثة وجدان ، وقطعة عظم أهم من انثيال معنى !

خاب فألهم وسفهت أحلامهم . فالانسان بفكره لا بعظْمه ، وبما ينبثق في عقله لا بما يصبغ بَشَرته ، وبما يدور في خاطره لا بما يجري في عروقه ، وبما ينطوي عليه دماغه من معان لا توزن بميزان ولا تُكال بمكيال ، لا بما يثقل الميزان ويملأ المكيال . الأبدان هي الأبدان في كل زمان ومكان ، ولكنها الأفكار تفرق بين

الأبدان . الأبدان مطايا الأفكار ، وما قيمة الأبدان بلا أفكار ، ولو أعجبك حسن الأبدان ؟ . . .

والأمم ، وما أدراك ما الأمم ! فهي ليست كومة من الأفراد ، ليست مجموعاً حسابياً ، ليست حصى بشرية ، انضم بعضها إلى بعض ، وتراكم بعضها فوق بعض . إنها نظام من العلاقات المتشابكة المعقدة المشحونة بالرموز والمعاني . إنها ليست حشداً كمياً من الأصول البشرية والعناصر الجنسية .

أجل إن جوهر الأمم ليس الكثافة العددية ، بل القيم الروحية والمثل الحضارية . وهذه القيم والمثل كفيلة بصهر الناس في بوتقة واحدة وإزالة جلّ ـ ان لم يكن كل ـ الشوائب العنصرية والزبد العرقي. فالأمة الواحدة كلّ عضوي متكامل ، له وحيه الخاص ويحيا صيرورته الخاصة وتجربته الخاصة على أنحاء ووجوه تتعدد كعدد أنفس بني آدم . وهو ينمو ـ لا كما تنمو البلوريات بضم أجزاء خارجية إلى جرمها الأصلي ـ وإنما هو ينمو بدينامية باطنة تتفجر من الينبوع الثّر الذاتي ، ينبوع الحياة الدافق ، ينبوعها الجياش الخصب الأصيل .

لقد جاء الاسلام وطرح مُثلاً جديدة وقيماً جديدة وايديولوجيات جديدة ، نشأ عنها تركيب جديد وكيان اجتماعي جديد . هذا الكيان انما هو حقيقة جديدة شاملة عليا تسمو على حقائق الأفراد أو العناصر التي يتألف منها . فقد تولّد عن هذه العناصر ـ وقد شُحنت بالدين الجديد ـ تفاعل جديد ونمط جديد من التفكير والسلوك والحياة ، لا هو بالفارسي ولا بالهندي ولا بالتركي ولا بالرومي . . . لقد ذاب الفرس والهنود والأتراك والروم في حقيقة شاملة أكبر احتوتهم جميعاً واغتنت بهم جميعاً ، كما اغتنوا هم بها وأخصبوا بلقاحها . هذه الحقيقة هي نسيج جديد سُداه الاسلام ولحمته العروبة ، وغذاؤه مواريث هذه الشعوب وذخائرها . انها المجتمع العربي الاسلامي وكفى ، المجتمع الذي انصهر فيه العرب حتى لقد كادوا ان يكونوا هم أولئك الأعاجم الذين دخلوا فيه أفواجاً ، وانصهر فيه الأعاجم حتى لقد كادوا ان يكونوا هم أولئك العرب الذين خرجوا من البادية واطلعوا على العالم برسالة جديدة ، وحضارة جديدة ، واشعاع جديد .

ولهذا المجتمع الجديد الذي وفد على حضارات مختلفة ، وتفاعلت فيه

تيارات مختلفة ، واصطرعت على أرضه مذاهب ومدارس مختلفة ـ أقول لهذا المجتمع وحده انما تدين شتى العبقريات والمواهب والطاقات التي تفجرت فيه ، دونما نظر الى اللون أو الجنس أو العرق . فلئن كان يشبه سائر المجتمعات من حيث الكثافة العددية ، والاشكال المورفولوجية والتكوين الجسمي والاستعدادات البيولوجية . . . فانه يختلف عنها من حيث نظام العلاقات والرموز والمعاني.بهذا الفهم الجديد للمجتمع العربي الاسلامي تنكشف لنا حقائق كثيرة كان يجللها الضباب ، وتتبدد شبهات وأوهام وقرت في النفوس ورسخت في العقول واستبدت بالأذهان حتى لبدا من الصعب اقتلاعها منها .

الاسلام نتاج العبقرية العربية ومعجزة من معجزاتها . كما ان العرب هم رسله وحواريوه ، بل شموعه ومشاعله . انهم قوته الدافعة ورأسه المفكر ، وأداته الفاعلة في مجال تغيير الأفكار وتعديل المفاهيم والنظم . إذا عزّ واعزّ وإذا ذلّ واذل . كما ان عزه عزٌ لهم وذله ذل لهم . فهو شحنة عربية وطاقة دينية وانتفاضة ثورية وقيمة حضارية وكثافة بشرية وتطلعات انسانية . وهذا المزاج ـ ولا اقول الخليط ـ الفريد يكمن وراء جميع التغيرات العميقة التي طرأت على المنطقة الممتدة من الخليج الى المحيط وعلى شبه جزيرة ايبيريا بين القرن السابع والقرن الرابع عشر للميلاد . فاذا لم نُوفِّ هذه الحقيقة التاريخية العظيمة قسطها من الدراسة وإذا لم ندرك قدرتها الهائلة على التأثير والفاعلية وتفجير الظروف والأوضاع ، لم نفهم شيئاً من المنجزات والأعمال والمآثر التي صدرت عنها ، وكانت النتائج التي سنصل اليها هزيلة شاحبة .

وما قدروا العرب والاسلام حق قدرهما . لقد نظروا اليهما دائماً من خارج فكان ما كان من تزييف وتشويه وتحامل في بعض دراسات بعض المستشرقين وتلاميذهم العرب اتباع كل ناعق ، وجلّها ـ ان لم يكن كلها ـ دراسات مبتورة مقطوعة الصلة بالحدث الكبير الذي كان ينبغي على كل دراسة جادة رصينة ان تتوجه اليه لتفسير الظواهر والوقائع المذهلة التي نتجت عنه تفسيراً علمياً صحيحاً لا تفسده الأغراض والأهواء والمصالح .

نعم ، لقد كان رائد الكثير من المستشرقين التزام المنهج العلمي في دراساتهم العربية الاسلامية . وهذا حق وواجب . ولكن التزام المنهج العلمي

شيء ، وتطبيق منهج علمي واحد على جميع الظواهر ـ فيزيائية كانت أم عضوية ، بيولوجية كان ام عقلية ، بلورية كانت أم حضارية ـ شيء آخر . فان ما يصلح في مستوى معين من الظواهر قد لا يصلح في مستوى آخر ، وإلا اختلطت الأوراق وانكرنا ما بين الظواهر المختلفة من فروق في التنظيم والتعقيد . فبترقي المستويات تترقى درجة التنظيم والتعقيد ، وبالتالي تدخل في المنهج طرائق جديدة ومعادلات جديدة يجب أن تأخذ كل ذلك بالحسبان . ان النظر إلى الظاهرة الفكرية على انها ظاهرة فيزيائية ، وتطبيق مناهج الفيزياء عليها ، فيه مسخ لهذه الظاهرة وتفتيت لها ، وتجريد لها من طبيعتها ونبضات الحياة فيها .

وعلى كل حال ، ان التفوق العقلي لا شأن له أبداً بخطوط الطول والعرض ، كما لا مدخل له في قضايا الجنس والشكل واللون ، فها هنا مقولتان لا علاقة بينهما ، احداهما حضارية والأخرى بيولوجية . انهما مستقلتان احداهما عن الأخرى غاية الاستقلال ، وبينهما برزخ لا يبغيان . وكل محاولة للربط بينهما جهد ضائع وعبث لا يأتي بخير .

لذلك فان مفكري الاسلام من الأعاجم لا يدينون بعبقرياتهم ومواهبهم وتفتح قرائحهم لعوامل سلالية عنصرية ، وانما هم يدينون لعوامل ثقافية حضارية اتاحها لهم الاسلام ، وجو الحياة في بلاد الاسلام . فاذا لم يكونوا عرباً في أصولهم البعيدة فقد اصبحوا عرباً بالتعرب والانتماء العربي الجديد . فقد استخدموا العربية أداة للتعبير اليومي ولغة للكتابة والتأليف ، كما خدموا اللغة العربية والفكرة العربية والأدب العربي وكانوا رواداً من رواد العربية في ظل الاسلام ومناخه الفذ الفريد .

إن الفرص التي قد اتاحها الاسلام لأبنائه وغير أبنائه ممن جاءوا يطلبون رفده ويعيشون في حماه في عصوره الذهبية ـ بل حتى في بعض عصور الانحطاط ـ كانت فرصاً نادرة رائعة حقاً لا نكاد نجد لها نظيراً إلا في بعض الشعوب المتقدمة في العصر الحديث ، حتى ان كل من عاش في هذا الجو ، وتنفس في رحابه ، واستظل بظله ، وصار قمة من قممه ، فانما يدين له ـ وله وحده ، لا لأصوله البشرية وشجرة انسابه ـ بما تفجر عنده من طاقات وما تفتق فيه من مواهب كان لا بد ان تهدر لولا انتماؤه الجديد وتنفسه في المناخ الجديد

وهذا لا ينطبق على المسلمين الملتزمين وحدهم ، أي الذين آمنوا بالقرآن ورسالة محمد ، وقاموا بجميع التكاليف الشرعية أو بعضها ، بل انه لينطبق أيضاً وبالمقدار نفسه على المسلمين غير الملتزمين ، أي أولئك الذين امنوا بحضارة الاسلام ونشأوا فيها وتفيأوا بفيئها وتغذّوا بلبانها ، دون ان يدخلوا في الاسلام الرسمي، بل حتى أولئك الذين خاصموا الاسلام وناصبوه العداء . وهكذا فالفلاسفة والعلماء والمفكرون النصارى واليهود والوثنيون والزنادقة والملاحدة الخ ـ ممن يعزو اليهم السطحيون وجميع أولئك الذين يبتعدون عن مواقع النظرة الموضوعية أو يروغون عن الحقيقة ، وينفدعون نحو رؤ ية مزيفة للاحداث العربية الاسلامية ـ جميع هؤلاء الذين تُعزى الى كثير منهم عظمة الفكر العربي لأن بهم نفحة آريّة مزعومة أو بركة رسولية مفتعلة أو رطانة أعجمية ظاهرة، ان جميع هؤلاء مهما تكن اصولهم وانتماءاتهم ، ليسوا سبباً من أسباب الحضارة العربية الاسلامية ، وانما هم نتاج لها،انهم براعم من براعمها وثمرات يانعة من ثمراتها . فهم بجملة ثقافاتهم ومؤلفاتهم ولغتهم يدينون للحضارة الجديدة الناشئة التي يرجع الفضل اليها في تفوُّق من تفوَّق منهم وبروز من برز . لقد اطلقت لهم حرية الفكر والعمل ،ودفعتبهم في أتون الأحداث ، وقالت لهم حققوا وجودكم ، وافتحوا صفحة جديدة من الايمان بالذات والتعبير عن الذات . ها قد وضعنا جداً للمعاناة والحَجْر والاذلال العقلي والسياسي الذي كان الحكم السابق قبلنا يمارسه في حقكم . الا فتولوا بأنفسكم قيادة أنفسكم ، ولننظرْ ما أنتم فاعلون . فحقكم علينا ان نقدم لكم العيش الكريم والفرص المتكافئة ، وحرية القول والفكر بلا تمييز ولا تفرقة بين الملل والنِّحل والمذاهب والأديان . فلا فضل لعربي على أعجمي ، ولا لمسلم على غير المسلم إلا بالعلم والفكر والاسهام المنتج الفعال . . . وحقنا عليكم ان تكونوا مواطنين صالحين واعضاء منتجين ، وان تكونوا مواطنين صالحين وأعضاء منتجين ، وان تكونوا لنا خير عون على اشرف مهمة . فحيٌّ على خير العمل . سدد الله خطانا وخطاكم وهدانا واياكم إلى سواء السبيل . . .

ومعنى ذلك ان أصحاب العبقريات في الاسلام ، سواء كانوا مسلمين ام

غير مسلمين ، انما يدينون بعبقرياتهم لا إلى تكوينهم النصراني أو اليهودي أو الوثني . . . الخ . بل الى الجذوة التي اتقدت مع الاسلام والتي في وهجها انما نشأوا وترعرعوا . لقد نضجوا ونبغوا وأنتجوا في رعاية الحكم العربي وفي ظل الامبراطورية الاسلامية ، وفي سماحة الدين الجديد ، والمناخ الذي اتاح لهم التنفس في أنسامه . هذا فضلاً عن انهم كتبوا ثمرات قرائحهم بلغة العرب ونشروها وأذاعوها بلسان العرب .و بذلك فهم ليسوا سوى عطاء البيئة الاسلامية ، ووجه ناضر متألق من وجوه الحضارة العربية والفكر الاسلامي . وإلا فليت شعري ! كيف عسانا نُعلل غدم ظهور هذا الحشد الهائل ، وهذه الجيوش الجرارة ، من الفلاسفة والعلماء والمفكرين الفرس والروم والترك والهنود والاسبان و . . قبل ان تطأ أقدام العرب بلادهم ويتم التفاعل بينهم وبين أفكار المسلمين الفاتحين ومثلهم وآمالهم وأمانيهم ؟ ما بال هذه الأزهار لم تتفتح براعمها إلا مع انسام ربيع الاسلام ؟ ما بال هذه القرائح لم تتفتق ، وهذه الطاقات لم تتفجر إلا بعد ان جاءتها شرارة الاسلام وهبّت عليها رياح الاسلام ووصلتها بمركز الاشعاع ـ الأم الذي تتولد فيه الطاقات وتُشحن فيه القوى ؟

أجل ، اني أعدّ جميع هؤلاء نتاجاً عربياً إسلامياً ولو لم يعتنق بعضهم الاسلام ، بل حتى لو ندد هذا البعضُ بالاسلام وخاصمه وكاد له واعلن الحرب عليه،اذ ليست العبرة باعتناق الاسلام بقدر ما هي باعتناق لغته والتنفس في جوه ، والتنقل في أرضه ، والتفاعل بينهم وبين أهله وعشيرته ، وتبادل الفكر والرأي معهم في وهجه وتحت سقفه وسمائه ، ومشاركتهم في المسؤوليات والأعباء والمغانم والمغارم في ظله ورحابه . فعظمتهم انما ترجع إذن لا إلى دياناتهم وانسابهم القديمة ـ وان كانت هذه قد لا تخلو من الفعل والتأثير ـ وانما ترجع إلى انتمائهم الجديد ، إلى المجتمع الذي أنجبهم ، والجو الذي غذاهم بانسامه ، والبيئة التي فيها وبها ومن أجلها انما عاشوا وازدهروا .

فأبو عمران موسى بن ميمون الأندلسي مثلاً ، الذي ظن اليهود انهم يضاهئون به أبا محمد علي بن حزم المفكر الاندلسي العظيم ، فسعوا حتى أقاموا له تمثالاً في قرطبة كما لابن حزم تمثال ـ ان موسى بن ميمون هذا عالِم عربي اسلامي قبل ان يكون يهودياً، وبالعربية لا بالعبرية انما كتب أكثر كتبه ، وفي بلاد

العروبة والاسلام انما نبغ وظهرت مواهبه . وعندما هاجر من الأندلس لم يذهب الى فرنسا وايطاليا، بل ذهب إلى فلسطين ومصر ، وهناك أصبح من أطباء صلاح الدين . لقد كان علماً من أعلام اليهود الذين نشأوا في دار الاسلام ، فأغنوا واغتنوا ، وأخذوا وأعطوا ، وكان من القلائل الذين نشروا الفكر الاسلامي والفلسفة الاسلامية في أوربا ، وان كان وهو يفعل ذلك انما يخدم دينه ويكتب لأبناء ملته ، ويخلّف لهم أعظم آثاره . وهكذا الحال في غيره من المفكرين غير المسلمين الذين عاشوا في بلاد الاسلام ، بل هكذا أيضاً حال الذين هاجموا الاسلام وأنكروا القرآن وسخروا من عقائد المسلمين ، كأبي بكر الرازي وابن الراوندي وغيرهما . لقد اتسع صدر العروبة والاسلام لهؤلاء جميعاً ، وأتاح لهم الجو والمناخ ليفكروا كما يشاؤون بحرية وسماحة ، كما اهاب بغيرهم ان يردوا عليهم ويناقشوهم ويقارعوهم الحجة بالحجة . لقد كان هؤلاء جميعاً عرباً باللغة والتعبير والفكر والاحساس واسلوب الحياة ، كما كانو امسلمين ـ شاؤوا أم أبوا ـ بالثقافة والحضارة ، فكانوا يعيشون جنباً إلى جنب مع أخوانهم المسلمين ويأخذون بنصيب وافر في شؤون الحكم والسلطان . ولا غرو في ذلك ، فقد كان الاسلام طوال عصور الازدهار والمنَعَة هو القيمة الانسانية الحضارية الوحيدة التي كانت نموذجاً حياً للتعايش والتكافل بين الديانات ، ومثالاً رائعاً للتسامح بين الطوائف والمذاهب والملل والنِّحل ، والمرتع الخصب للعقل والروح والخيال .

أوَ تعجبون بعد كل هذا ان تفتّحت الأزهار ، وانتشر العبير ، وسطعت النجوم ، وانطلقت مسيرة التاريخ على أيدي من كانوا في يوم من الأيام حفاةً عراة غُرْلاً ، فنشبت فيهم الأفكار لتنقلهم من رعي الابل وتأبير النّخل إلى سدانة الحضارة ، ولتستخلفهم في الأرض وتجعلهم الوارثين ؟؟!

لكن ما كان لجزيرة العرب التي برز منها أفذاذ الفاتحين والمشرعين ـ رغم قلة عدد سكانها ـ ان تنصرف الى العلم والفتح في وقت واحد . لذلك انصرف العرب ـ وهم اهل الدولة ـ الى سياسة المُلك ، وتولّى المتعربون سياسة العلم . فحسبهم انهم أعطوا الجذوة وقوة الدفع لاخوانهم الجدد وأتاحوا لهم الفُرص والظروف والامكانيات ، سواء دخلوا في دين الفاتحين أم تمسكوا باديانهم القديمة . وانه لعمل لو تعلمون عظيم ! فقد اهتبل الأعاجم

هذه الفرصة السانحة التي لم تتوفر لهم قبل الفتح ، وسخّروها لأغراض العلم والحضارة . وبذلك أعطوا لانتفاضة الفكر العربي الاسلامي غذاءً جديداً وزخماً في إثر زخم .

غير ان الأمور أخذت بعد ذلك تتجه وجهة جديدة . فان العرب وقد انكمشوا عن مراكز القيادة والحكم والسلطان ، وعندما جرت الرياح بما لا يشتهون ، أي عندما افلتت من أيديهم مقاليد السيادة السياسية ، تولوا مقاليد السيادة الفكرية ، فبرزت مواهبهم في ميادين الفلسفة والعلوم والفنون والمعارف والعقائد ، حتى لقد بلغوا في ذلك غاية المدى . ويتمثل ذلك في مئات الأطباء والفلكيين والرياضيين والفلاسفة والعلماء والفقهاء والمتكلمين والأصوليين ، وجميع فروع المعرفة الدينية والدنيوية الأخرى المتاحة لهم آنذاك ، حتى أصبحوا فيها بعد نواة الحركة العقلية والثقافية في العالم ومركزاً هاماً كبيراً من مراكز الاشعاع التي عرفها التاريخ في مسيرته الطويلة ، واحقابه المتوهجة الخلاقة .

وأخيراً ان الحضارة متاع مشاع يكسبه من قدر على الاحتفاظ به ، ثم يأتي عليه زمان لا يطيق حمله لبروز قوى جديدة تنازعه اياه ، فيتخلى عنه لمن هو اشد منه قوة وأحق بالبقاء ، حتى إذا خارت قوى هذا الأخير وعدت عليه عوادي الزمن تخلّى عنه لمن هو أصلح منه . وهكذا دواليك . فالأيام دول بين الناس ، والتاريخ أكبر شاهد على ذلك . انه لا يشهد ابداً لقوم دون قوم أو جنس دون جنس بالامتياز الذاتي والاختصاص بالقدرة على البقاء والاضطلاع دون سائر العالمين برسالة الحضارة لميزة طبيعية موروثة ، أو فضيلة عنصرية راسخة في صلب التكوين البيولوجي والفطرة الجبليّة .

لقد كان اليونان مجداً من أمجاد التاريخ ومركزاً لاشعاع كبير ، لا لمزية عنصرية أو بيولوجية موروثة اختصهم بها القدر ، بل لمكاسب عقلية وروحية حققوها لانفسهم بالعرق والدم والجهد المتواصل . وكذلك كان العرب ، فقد نشروا من حولهم أجواء فكرية كثيفة تولدت عنها أجواء أخرى وطاقات أخرى . وانبثق عن هذه الطاقات طاقات أخرى وأجواء أخرى عززت قدرة الفريقين اليونان والعرب على البقاء . ثم دار الزمن بهؤلاء وأولئك وجعلهم

أحاديث بعد ان كانوا أحداثاً ، والقى بهم في زوايا التاريخ بعد ان كانوا في القمم . فانما التاريخ لمن قدر على صنعه . فهو ليس حكراً على أحد بل هو للكل وبالكل ولا منطق عنده إلا منطق الكل . . .

الفصل الثاني

تفاعل الأفكار والحضارات

وهاك تعسفاً آخر هو بلا شك وليد التعسف العنصري السابق. ولا يقل عنه ظلماً وتحكماً ، يراد به بطبيعة الحال الاساءة إلى الفكر العربي الاسلامي والزراية به وإضعاف الثقة بما صدر ويصدر عنه من منجزات وأعمال .

فإن كثيراً من الدارسين للفكر العربي الاسلامي - ولا سيما في القرن الماضي ، بل في صميم هذا القرن أيضاً - ينعون عليه تعدد موارده وكثرة الأصول والمصادر التي استقى منها والتيارات التي نفذت إليه وتفاعلت فيه ، وبالتالي انهم لا يرون فيه إلاّ صورة للتأثيرات الأجنبية ، وانعكاساً للنفحات التي هبّت عليه من الأديرة والصوامع والبِيَع والمدارس الدينية والعقلية التي فاجأت العرب والمسلمين في غزواتهم وفتوحاتهم . فهؤلاء الدارسون ليسوا بقادرين على أن يتصوروا أن تظهر عبقرية عالم عربي أو فيلسوف إسلامي دون أن تمتّ بسبب أو بآخر إلى أصول أجنبية . فان لم يجدوا هذه الأصول تبرعوا بها ، فحمّلوا الأحداث فوق ما تحتمل واختلقوا الذرائع والمبررات يلوون بها أعناق الحجج والوقائع لتواطىء استنتاجاتهم وتدعم أقاويلهم . وما يزالون ينقلون إلى البؤرة ما كان في الحاشية ، ويسلطون الأضواء على الخرائب والأطلال ، حتى يستقيم لهم ما أرادوا ، أو هكذا يخيّل إليهم على الأقل . فإذا بالدمى تدب فيها الحياة ، وإذا بالعظام تُنشز وتُكسى لحماً ، وإذا بالأشباح والهياكل لها أذرع وسيقان تمشي على الأرض كسائر عباد الله . ولقد حدث ذلك كله بعصا ساحر وقدرة قادر ، وهو فنّ لا يحسنه إلا ذووه . لقد انتقل ما في الحواشي والزوايا إلى مركز الدائرة ، وتحوّل التافه من الحوادث

إلى مستودع يزخر بالطاقات الهائلة ، وإذا بالقزم عملاق . لقد سُلبت المواهب من أصحابها الشرعيين وأعطيت لمن لا يستحق ، فاستقام المعوجّ وانتصب الكسيح شاكي السلاح ، لقد وقعت المعجزة ، فسبحان محيي الموتى ومخرج من في القبور ! وما أسهل هذا الفن على حذاقه والمتمهرين فيه . لقد قزّموا كل ما يمتّ إلينا بصلة القربى والنّسب ليعملقوا جميع ما يصدر عنهم أو ينتمي إليهم . المهم في حساباتهم ومعادلاتهم أن يخنقوا فكراً قد انتفض واتخذ طريقه إلى المجد هو الفكر العربي الاسلامي ليبعثوا إلى الحياة عظاماً نَخِرة في الغيران والكهوف أو القفار والبطائح التي تمتّ إلى جغرافية أوربا أو تتصل بتاريخ أوربا . فأوربا هي أم العلم والحضارة ، وهي المبدأ والمطمح والغاية .

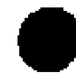
إن هذه الدعوات المرجفة التي دأبها التشكيك بالفكر العربي تنطلق دائماً من موقف الاستعلاء والصلف الذي تمليه القوة الغاشمة ، تقف وراءها حضارة متوحشة تدعمها جيوش جرارة لا تُبقي ولا تذر . انها حضارة عتيدة تعوزها مجموعة من القيم والمبادىء والمثل الانسانية لتردها إلى صوابها وتوقظ فيها الحس الخلقي النبيل . فان النزعة العنصرية التي أسلفنا القول فيها في الفصل السابق هي التي جنحت بالأوربيين إلى إعلان اختصاص الحضارة العربية الاسلامية بالنقل والاقتباس دون الابداع الذي هو حكر على حضارات الأمم الآريّة وحدها . فالحضارة العربية الاسلامية إنما هي حضارة منقولة مستوردة ، ولم تكن في يوم من الأيام حضارة خلاقة معطاء ، كيف لا والعرب الذين أعطوها اسمهم غير مهيأين للابداع . انهم قوم خداج عقام خلقوا للسخرة وخدمة الرجل الأبيض . أما ما قد نرى في الحضارة العربية والفكر الاسلامي من طرافة وابتكار فإنما مرجعه إلى العناصر الآريّة التي دانت بالاسلام وانتقلت إليها مقاليده . تلك هي الحجة الأبدية التي يسوقها العنصريون الأوربيون دائماً لتجريد الأمم التي لا تتوشج بينها وبينهم واشجة قرابة أو رابطة نسب من كل مزية تعطيها حق التفوق يوماً والقدرة على توجيه التاريخ وصنع الأحداث .

وسنحاول في هذا الفصل أن نبدد هذا الوهم الذي استحوذ على أذهان

الكثيرين ، وسنشير إلى الحجة الراجحة والحجة المرجوحة من أقوال دعاته . ولن نألو جهداً في إدحاض كل افتيات على الفكر العربي وكشف تخرصات المتخرصين وافتراءاتهم . وإذا كان الفصل السابق لم يشف صدور قوم رانت عليهم الشكوك فنرجو ان يضع هذا الفصل حداً لشكوكهم ، وإلاّ فالفصل التالي في انتظارهم . ومن لم يكن له ذلك مَقْنَعاً فحريّ بالفصل الرابع والأخير أن يكون له هذا المَقْنع . لكن هناك نفوساً لا يجدي معها كل نقاش تقليدي من هذا القبيل ، فلقد رسخت فيها آراء ورانت عليها غواش يجد المرء صعوبة كبيرة في تبديدها واقتلاع جذورها . لهذه الفئة ندخر السيكوسوسيوديناميكا التي نعلق عليها آمالاً كباراً في هذا السبيل ، لأن جمهور المشاهدين سيرون بأم العين ، وعلى المسرح الذي يقع على بضع خطوات منهم ، معركة كبيرة تنشب بين الأفكار ، فتعلو فيها أفكار وتهوي فيها أفكار ، وتتولد أفكار وتُزهق أفكار . وسنرى شروط عمل الأفكار وكيف تنبثق الأفكار من الأفكار وكيف تضمحل وتتلاشى . ان هذا الكتاب يخوض في عالم المجرد والمعقول إذا صح التعبير ، بمعنى أنه مبني على استنتاجات ومناقشات ومحاكمات عقلية مجردة تقوم على تجارب وملاحظات علمية . انه دراسة أكاديمية هادئة ـ أو قد لا تخلو أحياناً من بعض النزق والانفعال لأن التحامل على العرب والفكر العربي قد يصل أحياناً إلى حد الوقاحة ـ وكل هذا قد لا يُلزم الخصم إذا كان صعب المراس . ان افحامه بهذه الوسائل مطلب عسير . فإذا كان هذا الكتاب يظل مشدوداً إلى عالم المجردات والمعقولات بالمعنى الذي ذكرنا فإن الكتاب القادم سيكون مجاله عالم المحسوس العياني إذا صح التعبير أيضاً . وحده حق وواضح : ما ليس بحاجة إلى برهان ، ما هو مباشر وأكيد بذاته ، ما ينطق بذاته ويقنع بذاته ، ما يجر معه تأكيد وجوده ، ما هو واضح كالنهار . فقط الحسي والعياني واضح كالنهار ، فقط حيث يبدأ المحسوس تنتهي كل الشكوك والمنازعات ، المجرد غير حق . الحقيقة دوماً عيانية . هذا ما تنادي به الماركسية ، فليكن ، ان سر العلم المباشر هو الصفة الحسية . إلى هذا المستوى نأمل أن ترقى المعالجة السيكوسوسيودينامية للفكر العربي الإسلامي ، قطعاً المكابرة من ينكره ، وسداً لباب اللجاج على كل متشكك ظالم . ففي الكتاب القادم سنشهد معارك وملاحم أبطالها الأفكار ، وسنسمع قعقعة

السلاح ، وسنشم رائحة البارود، وقد تصل ألسنة اللهب إلى أجسامنا فتلسعها لسعات تضطرنا إلى الابتعاد عن الساحة وتجنب وطيس القتال. أو ليس كل أولئك من قبيل المحسوس ؟ هنالك سنشهد فصلاً من أعظم فصول التاريخ وأكثرها إثارة وتحدياً ، وهو كيف تولّد الفكر العربي والاسلامي ؟ كيف تحققت المعجزة الكبرى في أرض قفر وواد غير ذي زرع ؟ كيف خشع الجبل وتصدّع ؟ كيف اشّقق وخرج منه الماء ؟ لقد مر محمد عليه السلام على هذه الأرض مرور الغمامات على الفيافي والقفار ، فهطلت ومضت تاركة وراءها الخُضرة والنُضرة والسُقيا لقوم غراث جياع عطاش بائسين . ان الظلال الوارفة التي تفيأت بها المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط في عصور الازدهار الاسلامي والعربي ما هي إلا أكفّ أولئك الأفذاذ الذين تخرجوا في مدرسة محمد وطلعوا على العالم بأفكار محمد ومثل محمد وحضارة محمد . وكأني بالكثيرين يسْخَرون من هذه الأقوال ويتخذونها هزواً . لقد بدأت بزعمهم أدعو بدعاية الاسلام وخرجت على مبدأ الالتزام بالموضوعية الكاملة الذي تعهدت به منذ البداية . على رسلكم يا هؤلاء ! فاني لا أهذر ولا أهذي ، ولا أهرف بما لا أعرف ، ولا أتكلم على سبيل الدعاية أو الوعظ ، ولا أهيب بالخوارق ، لا سيما وأن محمداً نفسه كان أبعد الناس عن الخوارق . وكل ما يُنسب إليه في هذا السبيل فهو من وضع الوضّاعين وتلفيقهم ، ثم جاء الخيال الشعبي فأضاف إليه أطباقاً شهية !

وستذكرون ما أقول لكم : إنْ أقول إلا الحق ، والمستقبل على ما أقول شهيد . فان كنتم في شك من هذا فموعدنا الكتاب القادم ، وكل آتٍ قريب .



إن أي فرد في أي جماعة بشرية ، قادر على ان يمتصّ حضارة أي جماعة بشرية أخرى ، مهما سمت هذه الحضارة ومهما كان انتماؤه العرقي . كما ان أفراداً مختلفين من كافة المجموعات البشرية الكبرى قد أسهموا في إدخال إضافات هامة إلى الحضارة الانسانية في عصور مختلفة من عصور التاريخ . فجميع شعوب العالم قادرة على إبداع قيم ثقافية ومثل عقلية جديدة دونما

اعتبار للجنس أو اللون أوالشكل. إنهاتقف جميعاً على قدم المساواة من حيث القدرة على الابداع ، لا فضل لبعضها على البعض الآخر كما رأينا في الفصل السابق . فما يميز بين الشعوب إنما هي أحكام البيئة والفرصة والظروف العارضة ، وكلها عوامل خارجية صرف لا شأن لها بالعوامل البيولوجية والمورفولوجية .

وليس معنى ذلك بطبيعة الحال ان كل الجماعات قد أسهمت بنصيب متساو متكافىء في نمو الحضارة الانسانية . كلا . فلا شك أن بعضها قد أسهم أكثر من بعض ، لكن هذا التفاوت لا يعود إلى مزايا عرقية ، وإنما هو نتيجة للحوادث والمصادفات التاريخية والظروف الاجتماعية وعوامل الطقس والاقليم ، وليس هو أبداً وليد العوامل الداخلية للجماعات البشرية كما أسلفنا . فالفرد في أي نقطة من حياته ، وإلى أي جنس انتمى ، ليس إلا نتاجاً لتفاعل معقد جداً بين البيئة من جهة ، وبين إمكانياته الجسمية والسيكولوجية التي حددتها جراثيم وراثية من الجهة الأخرى انتقلت إليه من أبويه ، وكلاهما لا صلة له أبداً بالأصول العرقية والسلالات العنصرية . وبذلك يتمكن من مواجهة كل موقف حضاري والتفاعل وإياه وهو محتفظ بشخصيته وجميع مقومات وجوده . وإذا تتبعنا أي عنصر حضاري جديد وصلنا إلى حقيقة لا مجال للشك فيها وهي أننا مدينون دائماً لتفكير فرد واحد من أفراد القطيع . فكل ترقٍّ في الأفكار واستبحار في العلم والحضارة إنما يتحقق على يد مفكرين موهوبين نادرين كشذرات الذهب بين أطنان من التراب . وهؤلاء وان كانوا نتاج عصرهم وبيئتهم ومجتمعهم إلا أن مزيتهم الكبرى أنهم يضيفون إلى رصيد عصرهم وبيئتهم ـ باستمرار ـ عناصر جديدة مطبوعة بطابع شخصياتهم الفذة الخارقة تحمل ملامحها وتشف عما يجيش فيها من نوازع وآمال ومطامح لا تخفي على عين المحلل البصير .

●

هناك في الانسان ضربان من الانتقال : وراثي بيولوجي وتقني ثقافي . الأول مُلك للنوع فهو يحدث في الأصلاب والذراري بطريق التناسل بين أفراد النوع الواحد . وأما الضرب الثاني فهو مُلك لا للنوع بما هو نوع بل

لجماعة بشرية معينة تخضع لظروف معينة . فهو يحدث بحركة تقدم تراكمي عبر أجيال من البشر ليضيف إلى كل جماعة خبرات جديدة ومكتسبات تاريخية جديدة . والخاصية الأساسية لهذه المكتسبات هي الانتقال بطريق التعليم والقدوة والمثال والتجارة والهجرة والفتح . . . أي بطريق الاحتكاك المباشر . وهكذا فمكتسبات أي مجموعة لا تنتقل فقط إلى الأجيال التالية من هذه المجموعة وحدها كما يحدث في الانتقال الوراثي ، بل هي تنتقل أيضاً إلى مجموعات أخرى اتصلت بالمجموعة الأصلية ، ودخلت في تماسّ معها . إن ظاهرة الانتشار هذه التي تضفي نمطية نوعية على التطور التقني والثقافي ، عامل أساسي هام في تطور الانسان والفكر والحضارة ، بحيث أن التاريخ لا يعرف أي جماعة بشرية لا يشتمل كنزها الثقافي على استعارة من جماعة أخرى . لذلك كان من الخطأ الفادح أن نتخيل أن تنوع الثقافات يعبر عن عزلة مطلقة لكل جماعة : فكل التنقيبات الحديثة تميل إلى توكيد اتساع شبكات الاحتكاك الثقافي وتعقدها منذ أبعد العصور ، وتبين ما هنالك من وهم في فكرة جماعة تعيش دون أي رابط مع الخارج . فمهما اتصفت المراحل البدائية من التطور التاريخي بالتبعثر والتشتت والانفصال بحواجز العزلة البدائية لمختلف الجماعات ، فان كل ذلك يجب فهمه بمعنى نسبي مرن جداً ، يتسع ويضيق ويزيد وينقص تبعاً لدرجة تطور الجماعة وبعدها أو قربها من مراكز الاشعاع الحضاري . فهناك بين الجماعات البشرية عناصر متفاوتة القوة والسيولة تنطلق باستمرار خارج بيئاتها الأصلية لتنضم إلى الميراث القومي لكل جماعة من هذه الجماعات وتشجع عملية التبادل بينها وتنفث فيها دماً جديداً . فنظرية الحضارات المعزولة التي تتطور كل منها بذاتها دون مدد خارجي نظرية لا تصمد للنقد ، لان من شأنها تنحية كل إمكانية للتطور في التاريخ وتحطيم وحدة السيرورة التاريخية العالمية . ومن هنا الدور التاريخي للاحتكاك الثقافي ونقل الميراث التقني والهجرات والفتوحات لتسهيل عملية الخروج البطيء لنواة التاريخي من حضن الطبيعي وجعله مركزاً لسيرورة محيطية واسعة . فالمنظور الغالب عند مؤرخي الحضارات المحدثين اليوم هو ما يسمى بلقاء الحضارات وكونئة التاريخ . وبهذا اللقاء

فقط يمكنها الاستجابة لضرورات تطورها ، وإلا سقطت في « مقبرة الحضارات المنقرضة » . فضرورات التطور هي التي تجعل التاريخ الانساني يفيض ويجتاز باستمرار حدوده الطبيعية ذاتها. وهذا التطور يتحقق عبر سلسلة من محطات الاتصال تسمى نقاط التواصل التاريخي الذي يخلقه نقل الميراث التقني والثقافي من جيل إلى جيل وبذلك تتيح كل جماعة لغيرها اختصار بداياتها هي وتجنب الوقوع في أخطائها مرة أخرى . وبذلك يتخطى التطور ذاته ويسرع الخطى إلى الأمام . وإلاّ كان من الضروري الانطلاق من الصفر في كل مرة يراد فيها تحقيق بعض الأهداف . وحتى لو كانت العزلة بين الجماعات صحيحة في عصور موغلة في بطون ما قبل التاريخ ـ وهذا ما يقول به بعض مؤرخي الحضارات ـ فان تزايد المكتسبات الجديدة وشيوعها ودوامها ، كل أولئك لم يتأمن إلا منذ اليوم الذي بدأت فيه الحواجز تتحطم بالهجرات والحروب وانتقال السلع والبضائع بمقايضتها والاتّجار بها .

ومعنى ذلك أن الفروق النوعية بين الجماعات البشرية هي نتيجة ظروف البيئة الطبيعية للأرض (المناخ ، الموقع الجغرافي . . .) والحركة التاريخية (علاقات مع الجماعات المجاورة أو المعادية ، الهجرات والحوادث التاريخية . . .) ـ فالبيئة الجغرافية تعضدها باستمرار البيئة التاريخية . الأولى تقدم القاعدة الطبيعية لامكانية التحرك ، والثانية تتخطى ظروف هذه البيئة بما يتهيأ لها من تجارب ومكتسبات تاريخية من شأنها التعجيل أو الابطاء بعملية التطور في دائرة قومية معينة . فالتربة الأكثر خصوبة ليست دائماً هي الأكثر صلاحاً والأكثر سرعة للتطور الذي يفترض تدخل الانسان وسيطرته على الطبيعة . ان طبيعة سخية معطاء (زراعياً أو نفطياً) قد تكون وبالاً على صاحبها ، مانعة له من النمو والتطور إذا لم يعمد إلى استغلالها ويجعل نموه وتطوره ضرورة تاريخية خلاقة . إنها سلاح ذو حدين قد يقتل صاحبه وقد يقتل عدوه تبعاً لليد التي تمسك به . ان العالم الثالث عامة ، والعالم العربي خاصة يملك مساحات هائلة من التربة الخصبة والثروة السمكية ، وتقع في أراضيه كنوز العالم البترولية . وهذا السلاح بدلاً من أن يقتل الاستعمار والصهيونية العالمية فقد ارتد علينا ليظل مصلتاً فوق أعناقنا حتى لقد أصبح

مصدراً من مصادر بلائنا! ليست الخصوبة صفة للأرض بقدر ما هي صفة للفكر الذي يستغل هذه الأرض ويُسخرها لأغراضه وغاياته. بل ان الصخور والجزر والبراكين قد تكون حافزاً على التطور والابداع والانتشار إذا وُجد الفكر الذي يعرف كيف يشق طريقه فيها. وما مَثَل الجزر اليابانية عنا ببعيد. ليس البترول ثروة للبلاد العربية، انه ثروة أوربية وأمريكية، تستفيد من اليد العاملة العربية الرخيصة لاستخراجه من الأرض العربية. انه قيد في أعناقنا بدلاً من أن يكون عاملاً على انعتاقنا وتحررنا. انه عقبة في طريق تقدمنا بقدر ما هو أداة طيعة لتطور أعدائنا. أرأيت مأساة أكبر من مأساة صاحب الأرض يؤجر نفسه وأهله وعشيرته وبلده لمن ينكّل به ويسوقه العذاب والحرمان؟ ففي التاريخ مهازل تجعل الشبان شيباً! هذا هو الفرق بين البيئة الجغرافية والبيئة التاريخية.



وهكذا، فكل أمة هي - في أيديولوجيتها أو في تركيبها أو في تفكيرها - حصيلة تفاعل بين عدة ثقافات وعدة أعراق وعدة وحدات حضارية في بيئة جغرافية معينة. إنها نقطة تقاطع بين التاريخ والجغرافيا وجبهة صراع الأفكار مع الأحجار. والويل لمن يركن إلى الأحجار دون الأفكار. هنا يُصنع التاريخ. وهنا يُقبر التاريخ وتبور صناعة التاريخ. هنا يعمل الانسان على مكاثرة حاجاته وتنمية قدراته وتطوير أنماط حياته، وهنا يستسلم للرقاد العميق، والأمر موكول إليه أهو يريد البقاء أم يريد الفناء.

فكل تطور نوعي يحققه الانسان لا بد له من إرادة البقاء يرافقها تحويل واع للطبيعة بالعمل المنتج. وهذا التحويل خاضع للامكانيات التي تقدمها الطبيعة بنفسها، وهو إنما يبدأ بانحراف متدرج بطيء عن الأشكال القديمة وعن العلاقات الطبيعية والشروط الطبيعية القائمة فيها. ومما يعجل في سيرورته ويجعل له أثراً في التطور التقني والثقافي أنه يعمل في «وسط تاريخي» معين وفي درجة معينة من التطور. هنالك تجترح المعجزات. فهذه السيرورة لا تنفصل عن ظاهرات الجريان الاثني والثقافي المعقدة والكثيفة التي تساعد على إثرائها وتعميقها وتمدها بالنسغ والسقيا وتشيع فيها الخضرة والنضرة

والرواء . بذلك فقط تخرج الأمة من رقادها التاريخي وبذلك تدخل حقا أبواب التاريخ .

ولننتقل الآن من التعميم إلى التفصيل ، فنقول :

إن العناصر الخارجية ضرورة حتمية لا يستغني عنها أي تراث مهما سما وارتفع . انها تمتزج بالعناصر الذاتية لتكوّن وإياها صيغة جوهرية واحدة تختلف من تراث إلى آخر . وهذه العناصر الخارجية قد تتسرب بدون وعي الشعوب فلا سلطان لأحد عليها ، وقد تأتي بطريق الاقتباس الإرادي المباشر المقصود . فالاقتباس والنقل عملة متداولة بين الشعوب قاطبة لا يسع أياً منها أن يمنع تسربها إليه واختلاطها باللحم والعظم . فكل حضارة أبدعت ونقلت ، وأخذت وأعطت ، ولم توجد قط حضارة تفردت بالابداع أو وُسمت بالنقل أو خلت من كليهما . أنا لا أعرف حضارة أبدعت ولم تنقل ، أنا لا أعرف أيضاً حضارة نقلت ولم تبدع ، أنا لا أعرف أمة يوصف علماؤها ومفكروها وأرباب الرأي فيها بأنهم قدّوا جميعاً على منوال واحد من معدن الابداع الخالص . فالنقل -كما سنرى- ليس وباء وإنما هو غذاء ، والاستعارة ليست عاراً وإنما هي فخار ، على أن يؤخذا بمقدار ، ويتركا بمقدار ، لا على نحو ببغائي ، ودون تلبّث في قراءة أو تفهّم ، حيث يمضي المقلد في اتخاذ آراء وعادات ومواقف من هنا وهناك وهو يحسب انه بذلك قد بلغ الغاية والمراد .

ومعنى ذلك أن التأثيرات الحضارية والاستعارات الثقافية ، والأفكار والآراء والنظريات المتبادلة بين الأمم والشعوب إنما هي ظاهرة صحية طبيعية سليمة ، لا خطر فيها ولا خوف منها . وهي موضوع مألوف عالجته كتب الاجتماع ولا تزال تعالجه ، وبخاصة في كتب الانثروبولوجيا ، وهي لا تقتصر على عصر دون آخر وقوم دون آخرين ، غير أنها تكون كالقطر أحياناً ، ولكنها تكون كالغيث في عصور التغيرات الاجتماعية الكبيرة والثورات الشاملة .

هذا والنقل لا بد منه قبل كل إبداع ، فلا إبداع بلا نقل . ان الاغريق نقلوا قبل أن يبدعوا ، وعلماؤهم إنما نبغوا في بلاد ذات حضارات

مختلفة ، وتقلبوا في مهاد ثقافية متباينة . لقد تفتقت قرائحهم في آسيا الصغرى وجزر الأرخبيل وصقلية والاسكندرية وسوريا وتخوم العراق ، ولم تنحصر هذه القرائح في مكان واحد يصح أن يقال أنه موطن العنصر اليوناني الأصيل .

ولا يقتصر ذلك على اليونان ، بل انه لينطبق أيضاً وبنفس المقدار على مصر وفارس والهند والصين وغيرها من البلاد ذات الحضارات العريقة .

والحضارة الغربية ، وما أدراك ما الحضارة الغربية ، إنها هي أيضاً لم تولد من العدم ، ولكنها كسائر الحضارات الأخرى لها أصل ولها جذور . فإذا نظرنا نظرة فاحصة إلى كل ما لدى الغرب الذي أصبح معيار التقويم والتقدير ، وحللنا ما يشعّه على العالم من أفكار ومبادىء ونظم وعلوم وفنون وآداب وجدنا له جذوراً عميقة راسخة في حضارات كثيرة أخرى .

فالغرب قد صنعته ثلاثة عناصر :

دينياً وأخلاقياً ـ المسيحية والكاثوليكية على وجه الخصوص .

سياسياً وتشريعياً ـ روما وقوانينها .

عقلياً وفنياً ـ الاغريق .

فأما المسيحية فقد وُلدت في آسيا . إنها ميراث شرقي . وأما حضارة الاغريق والرومان فقد نشأت في حوض البحر الأبيض المتوسط وتأثرت كثيراً بشواطىء افريقيا وآسيا . فكل أولئك عناصر شرقية دخلت الغرب بمعناه الحديث من خارج .

وهكذا فالتاريخ الأوروبي تاريخ متشابك ، فيه الكثير من نقاط التداخل والتماس ، وليس معزولاً قائماً برأسه مستقلاً بذاته . وكلما تتبعنا هذا التشابك فإن استمرارية التاريخ تقودنا دوماً إلى الوراء متنقلة من أمة إلى أمة ومن عصر إلى عصر . فالرومان يُحيلوننا على اليونان ، واليونان على الفرس والمصريين . والمسيحية تُحيلنا على فلسطين وسائر أنحاء آسيا . ومن الواضح انه لا نهاية لمثل هذا العمل . والعبرة التي نستخلصها من كل ذلك هي ان الانسانية بأسرها أسرة واحدة وحياة واحدة تشمل مختلف الناس والشعوب ، وتشترك في كثير من الملامح والمعالم . انها أشبه بالبحر تبدو الأمم

والشعوب فيه كأنما هي موجات مختلفة تعلو وتهبط وتتداخل وتتشابك وتتكسر هنا وهناك على سواحله وشطآنه .

وهكذا تكون حضارة الغرب ذات جذور عميقة تضرب في آسيا وافريقيا ، فضلاً عن جذورها في أوروبا التي لا تعدو أن تكون رافداً من روافدها ومهداً من مهادها .

تلك هي الأصول البعيدة للحضارة الأوروبية . فإذا أضفنا إليها الأصول القريبة رأينا الاسلام وحضارة العرب وثقافة العرب وآداب العرب في طليعتها .

فالغرْب إنما يدين للشرق بدَيْن كبير . وبهذه المثابة فهو ربيبه ووليده وحفيده وسبطه ، ولا ضَيْر عليه في ذلك ما دام قد دمج العناصر المستوردة من الشرق في النواة الأصلية لنهضته حتى لقد صارت هذه العناصر جزءاً منه لا يتجزأ ، وخرج من ذلك كله بتركيبة جديدة مليئة بالعناصر الذاتية وفنون الابداع التي ليس لها نظير سابق في التاريخ . ومهما فاق الابن أباه أو التلميذ أستاذه فإنه يظلّ مديناً له ، لأنه بفضله إنما نما واشتدّ ساعده . ولولا انه ابنه الشرعي لما حمل ميراثه وتابع مسيرته . ويلٌ للابن العاق من غضبة الدهر ! ويلٌ للجاحد اللئيم من لعنة الأجيال !



وليس الغرب وحيداً في الاعتماد على غيره ، بل الغرب والشرق في ذلك سواء ، وإلّا ما كان شرق ولا غرب . فالعزلة الحضارية والجهل صنوان ، كلاهما تخلّف وكلاهما عدم . كلاهما حجاب يمنع وصول الضوء وكلاهما عقبة كأداء في طريق التطور والتقدم . ظلمات في ظلمات ، طبقات بعضها فوق بعض . لا وجود لحضارة قامت بذاتها واكتفت بذاتها مستغنية عن غيرها ، وإنما هي نتيجة تطور حضاري دائم وتفاعل بين حضارات أخرى تفاعلت هي بدورها وغيرها من الحضارات في الزمان والمكان . كما ان الجماعات المعزولة ـ إذا وجدت ـ محرومة من أي عمق تاريخي أو أي كثافة حضارية . فهذا العمق ، وهذه الكثافة لا يكونان إلّا للأمم الراقية المنفتحة على غيرها ، الآخذة بأسباب التقدم ، الأمم ذات الحضارات العريقة .

ذلك ان الحضارات تشبه الكائنات الحية من وجوه كثيرة ، وإن كان هذا التشبيه لا يخلو من بعض المزالق . فهي كالكائنات الحية لا تبقى على حالة واحدة ، وإنما هي تتغذّى وتنمو وتتطوّر وتتوالد في نظام دقيق محكم لا يتخلف . إنها بعيدة عن الاستقرار والتماسك ، لأنها في تحوّل دائم بتأثير عوامل داخلية كامنة فيها وأخرى تأتيها من خارج . وهذا التحوّل أمر طبيعي لا بد من حدوثه ولا سبيل إلى منعه ، كما لا سبيل إلى منع تطوّر الكائن الحي إلّا بأن يُخنق فيموت . وكذلك تُخنق الحضارات عندما تمنع عنها أسباب الحياة . والعزلة هي من أهم أسباب موت الحضارة . فالنمو الحضاري إنما يعتمد على الانفتاح على التجارب الحضارية الجديدة ، وكلما قلت هذه التجارب كان التقدم بطيئاً ، كما يشهد بذلك مؤرخو الحضارات الراكدة . فكلما ازدادت فرصة الحضارات للاستنشاق والتنفس والتعلم من الحضارات الأجنبية أصبحت هذه الحضارات دينامية متطوّرة ، وكلما ازدادت فرص الالتقاء بين الحضارات وتنفس بعضها في أجواء بعض ازدادت معها فرص الحياة والنمو والاكتساب والتعلّم . وهكذا تصبح الشعوب المنعزلة بدائية متخلفة لانعدام الشعوب المجاورة التي تستطيع أن تتعلم منها طرقاً جديدة وانماطاً في الحياة والسلوك جديدة . وهذا ما يفسر تأخر افريقيا وتخلفها عن حركة التاريخ التي كانت تدور فعلاً في بداية أطوارها حول البحر الأبيض المتوسط . فالصحراء الافريقية أقامت حاجزاً طبيعياً هائلاً بين افريقيا وبين هذه الدائرة الحضارية ، فمُنع الاحتكاك الذي يؤدي إلى الخلق والابداع . فالمجتمع المعزول هو مجتمع ثبوتي سكوني راكد ، والمجتمع المتصل بمجتمعات أخرى المحتك بها هو مجتمع متحرّك ، وبالتالي هو مجتمع التحوّل الاجتماعي التاريخي .

أجل ، لم يحدث قط ان ظل أي تقدم عمراني أو ازدهار في الحياة الاجتماعية أو الفكر الأخلاقي والسياسي في عزلة . وإذا توخينا الدقة قلنا ان بعد الشقة وجغرافية المكان لم يستطيعا يوماً الحؤول دون تقدم الانسان . فحتى الحواجز السياسية والطبيعية قد فشلت في منع امتزاج الأفكار والأعمال الفنية . لذلك لم يكن عجيباً في شيء أن يعلم الناس بعضهم بعضاً وان

يتلقى بعضهم من بعض عند أول اتصال يحدث بينهم .

فالأجواء الثقافية كالأجواء الطبيعية يؤثر بعضها في بعض ويتأثر بعضها ببعض شئنا أم أبينا ، ويشعر أهل كل مناخ بعوامل المناخات المحيطة بهم فينجذبون إليها ويبذلون غاية الوسع للاقتداء بها وتذليل جميع العقبات للوصول إليها . إنها مراكز إشعاع يكاد سنا برقه يأخذ بالأبصار فلا تملك النفوس لها دفعاً ، كالفراش يتهافت على الضوء وهو يحمل إليه الموت ، فكيف إذا كان يحمل إليه الحياة !

وبحكم تأثر الحضارات بعضها ببعض وأخذ بعضها من بعض ، فإننا نرى الأمم جميعاً دائنة ومدينة في آن واحد . فليست تنشأ الحضارات فجأة ومن العدم ، وإنما هي تنمو وتتسع بما يضاف إلى تراث الفكر الانساني من خبرات وتجارب ومكتسبات تزيد في رقيه وتقدمه .



لقد كان يُظن من قبل ان الشعوب الكبيرة في العالم القديم كمضر وبابل واشور وفارس واليونان وروما وحدات حضارية مستقلة كاملة كما هي وحدات سياسية ، لم تأخذ إلّا قدراً يسيراً من الحضارات الأخرى التي سبقتها أو عاصرتها ، أو لم تأخذ منها شيئاً على الاطلاق . وقد تبين الآن خطل هذا الرأي . فقد ثبت ان تلك الحضارات إنما كانت في الواقع امتزاجاً وتطوراً لخليط معقد من السمات أسهمت هذه الحضارات في تكوينها ، وان كل حضارة منها ترجع في أصولها إلى حضارة أقدم منها ، كما استعارت كل منها نصيباً وافراً من جارتها فأضافته إلى رصيدها وأغنت به وجودها . فمهما تناءت الأقطار والأمصار ـ حتى في الماضي السحيق حيث كانت في شبه عزلة تامة بعضها عن بعض وعن العالم لقلة المعمور من الأرض ولضعف وسائل الاتصال فيما بينها ـ فقد كانت تميل إلى الاندماج فيما يشبه الوحدة ، وهي ظاهرة يزداد دارسو تاريخ الحضارات ادراكاً لها يوماً بعد يوم . فالرشح الحضاري ، أو ما يمكن تسميته بالسيولة الحضارية ، أقوى من الحواجز الطبيعية والفوارق السياسية والاقتصادية وأطماع القادة والحكام . فضلاً عن انه عامل ضروري له أهمية كبيرة في حركة التاريخ وتطور الحضارة ، وإلّا

كان لا بُدّ من خلق جميع المفاهيم والمقولات والتصورات والمكتسبات واستئنافها من جديد عند قيام كل حضارة أو بروز كل جيل ، وعندئذ لا يمكن الافادة من الرصيد الكبير الذي تجمّع لدى الحضارات السابقة والأجيال المتعاقبة ، وهذا من شأنه أن يجعل المجتمع الانساني شبيهاً بالمجتمع الحيواني ويحرم الانسان من أعظم ميزة تفصله عن الحيوان ، وهي القدرة على التعلم والاكتساب . فالانسان لا بُدّ له وهو في عملية النشوء والتطور أن يحمي مكتسبات تاريخه القديم والتخلص من ثقله في وقت واحد ، لا بد أن يرث أشياء ويطرح أشياء ويضيف أشياء ، وترشح إليه من المجتمعات الخارجية أشياء ، ويستخدم المادة الفكرية التي بين يديه لتطوير حياته ومجتمعه وترقية وعيه وتفكيره . وكل ذلك يتحدّد بالظروف الموضوعية والتاريخية والحركات الداخلية المنبثقة من صميم حياة الجماعة وما يرافقها من تطلعات ومواقف . وفي عملية التطوير هذه يتكدس احتياطي كبير من المفاهيم والتصورات والمكتسبات والعلاقات ينمو ويتسع بقدر نمو المجتمع واستبحاره في الحضارة .

ومعنى ذلك ان كل مادة ثقافية أو إصلاح حضاري هو ثمرة لخطوات طويلة من المحاولة والخطأ بعضها داخلي وبعضها خارجي ، ونتيجة لجدل مستمر بين المجددين والمصلحين من جهة ، والمحافظين والجامدين من جهة أخرى . وطبيعي أن تكون الطائفة الثانية أوفر عدداً وأعزّ نفراً ، بينما الطائفة الأولى أكثر حماسة وأصدق عزيمة وأقوى دفعاً . انها الفكر المحرك والمخطط ، وما على القطيع الا أن يتبعها ويسير وراءها . انها القلم ، وهو (أي القطيع) المداد ، ولا يكتب التاريخ إلا بقلم ومداد . انها الأنامل وهو المادة الخام ، ولا يصنع التاريخ إلا بأنامل تتصرف بحرية في المادة الخام . . .

وبمضي الزمن تدول دولة الجديد ويصبح قديماً ، ولا تكاد الزوبعة تهدأ حتى تثور من جديد . وهكذا دواليك . فكل حضارة في مسيرتها الطويلة وحركة الامتداد والتوسع التي تنطلق بها قدماً ، تضيف إلى مضمونها الذي حققه ماضيها عناصر جديدة صنعتها بنفسها أو استعارتها من جيرانها ، ثم تُسْلم ذلك برمته إلى الأحفاد والأسباط الذين لا يبخلون عليه هم أيضاً بجهودهم وثمرات عقولهم . ولقد نجم عن ذلك تقدم هائل كانت طليعته

دائماً قلة مختارة واجهتها كثرة عددية لا حصر لها . وكثيراً ما سقط هؤلاء الأفراد القلائل شهداء أفكارهم ومشاريعهم التي اغتالتها جماعات عمياء استمرأت حياة الظلام فلم تتهيأ أبصارها لرؤية فيالق النور .



وكانت المدن دائماً هي المراكز التي ينطلق منها الاشعاع الحضاري . فكما كانت المدن مكاناً لتبادل السلع والبضائع ، كانت كذلك مكاناً لتبادل الآراء والأفكار وخبرات الحياة وتجاربها . وكان المسافرون والتجار يفدون إلى المدن من مسافات بعيدة يحملون معهم عاداتهم وأفكارهم وخلاصة تجاربهم . وقد أدى ذلك بطبيعة الحال إلى اختلاط الأفكار والآراء وتبادل الخبرات والتجارب . لكن هذا النوع من الانتشار كان محدوداً جداً وبطيئاً جداً في عصور ما قبل التاريخ ، ثم اشتد قليلاً في فجر العصور التاريخية ، وهو اليوم يسير حثيثاً . غير أنه كان هناك أيضاً نوع آخر من الانتشار أقوى من هذا وأكثر فاعلية ، وهو ذلك الذي كان يحدث بين منطقتين متجاورتين أو متصلتين بأي نوع من الاتصال ، وكانت إحداهما خطراً على الأخرى ، فتضطر حينئذ إلى إيجاد نوع من التوازن الحضاري معها حفاظاً على كيانها واستمراراً لوجودها .



وغني عن البيان أن العنصر الجديد (أو المادة الحضارية الجديدة) لا يقوم في فراغ . إنما هو ينضم إلى الموروثات القديمة وإلى الاحتياطي الكبير من المفاهيم والتصورات والأفكار والمواقف التي تراكمت على مر العصور وكر الدهور لتستخدم في حل المشاكل المتجددة ومعركة تنازع البقاء .

وعندما تعمد إحدى الحضارات إلى استعارة بعض المواد والعناصر من حضارة أخرى فهي إنما تستعير تلك العناصر المتصلة بحاجاتها الداخلية والمتفقة مع تطلعاتها وآمالها وبحيث تكون ملائمة لنموذجها الأمثل . فكل عنصر من عناصر الحضارة له وظائف ترتبط بحالة الفرد والجماعة وتتصل بمطامح وتطلعات داخلية مختلفة . والعنصر الناجح هو ذلك الذي يعمل ويفي بالأغراض التي استعير لتلبيتها فتقبله المجتمع واندمج في نسيج حضارته

وشبكة العلاقات الثقافية والروحية التي تلمّ شعثه وتجمع شمله وتتغلغل في وجوده كله . فإذا أخفق في اداء مهمته لفظه المجتمع واستعاض عنه بعنصر جديد آخر أكثر كفاءة وأحسن اداء .

وهكذا فكل عنصر ثقافي أو مادة حضارية تنتقل من حضارة إلى أخرى لا بد أن تتجرد من معظم معانيها وارتباطاتها وعلاقاتها التي كانت لها في موطنها الأصلي ليتقبلها الموطن الجديد ويضمها إلى موروثاته ، وهناك تتخذ معاني وارتباطات جديدة ، وتكتسب دلالات وعلاقات جديدة ، وتندمج في سياق جديد من الآمال والمطامح والغايات . وهذه العملية من أهم عمليات التمثيل الحضاري ، لأنه بهذا الطريق وحده يمكن جعل العناصر الجديدة مفهومة لدى أفراد المجتمع الذي سيتداولها منذ الآن كما يتداول أشياءه هو ومقتنياته . لقد انتظمت مع قيم المجتمع ومفاهيمه وأصبحت جزءاً منه وأداة من أدوات الفعل والتأثير فيه يستخدمها في حل مشاكله وتحقيق أهدافه . وهذه نتيجة حتمية لما يسمى في المنطق الحضاري بمرونة الحضارات وقدرتها على تحمل ما يحدث فيها من تبدلات وتغيرات وما تتعرض له من ضغوط دون أن تتمزق أو تنحل . إلا أن هذه المرونة لا تبقى حتى آخر الدهر بل لها أجل تقف عنده . فلا تزال الضغوط تتزايد عليها ولا تزال مقاومتها تضعف حتى تستهلك وينضب معينها . انها لا تصلح للبقاء بعد اليوم ، فتسقط وتتهاوى لترثها حضارة أخرى أصلب عوداً وأكثر شباباً وأقدر على البقاء . ثم يأتيها الأجل ، فتتقصّف وتتفتت كأن لم تُغْنَ بالأمس . وكل ذلك معروف مألوف عند دارسي الحضارات ومؤرخيها ، فلا داعي لتحقيقه بالأمثلة والشواهد وإلا طال بنا اللجاج (١) .

وهكذا فالحضارات وحدات متكاملة لكل منها شخصيتها الخاصة وكيانها المتميز : فهي لا تتلاقح فيما بينها إلا بمقدار وتبعاً لمنطق داخلي معين ، لا حسب مشيئات الأفراد وبدون نواميس قارّة ثابتة . ففي كل منها جانبان جانب مشترك بين جميع الحضارات وجانب قومي يخص حضارة بعينها وشعباً

---

(١) ومن أراد المزيد فلينظر مثلاً رالف لنتون : شجرة الحضارة ١ / ٧٣ ـ ٩٠ .

بذاته . ففي حالات التبادل الثقافي والتفاعل الروحي بين الأمم والشعوب إنما ينحصر التأثير والتأثر في الجانب المشترك فقط ، وأما الخصائص القومية فلا تنتقل إلا بشيء من الافتعال والقسر دون أن تؤتي ثمرها . وهكذا ، فالفلسفة اليونانية ، والعلم اليوناني والهندي و . . . تراث عقلي إنساني سريع السريان والانتقال . وأما أدب الملاحم والدراما اليونانيان مثلاً فهو أدب قومي بطيء السريان ، بل هو غير قابل للانتقال إلى الحضارات الأخرى ، ولا سيما الحضارات الشرقية البعيدة جهد البعد عن هواجس اليونان وهمومهم وآمالهم وآلامهم . انه أدب ينتمي فقط إلى الجوهر الباطن للحضارة اليونانية الغربية ، فلا ثمار له إلا في أرضه ، وبين أهله وعشيرته . الجانب الأول يؤتي أكله في بيئته وخارجها ، وأما الجانب الثاني ـ الجانب القومي ـ فينحصر الابداع فيه في الحدود الضيقة لبيئته وحدها ، دون سائر البيئات الأخرى (١) .

●

ولننتقل الآن إلى موضوع آخر يهمنا كثيرا هنا ، وهو موضوع النقل (أو الاقتباس) .

فالنقل على نوعين : سلبي وإيجابي .

الأول هو ذلك النوع الشائع من النقل الذي إنما يتخذ طلاءً لا غذاء ، وجلباباً لا لُباباً ، وتجملاً لا تكملاً . فهو لا يكاد يلامس الوعي حتى يرتد عنه دون أن يمتزج به ، كالكرة من المطاط يقذف بها على الأرض الصلبة فترتد عنها كالبرق الخاطف . فهو إنما يُعنى بالمظهر دون المخبر ، وتصرفه القشور عن الزهور . وبدلاً من أن يمدّ البلاد بالقادة والمفكرين وأصحاب الرأي والقريحة إذا به يقدم لها جيوشاً وفيالق من الكتبة والموظفين والمتحذلقين وحملة الشهادات وادعياء العلم والفكر ، وكثيرٌ ما هم ! وكما ان الزيت لا يتحد بالماء وان كان يختلط به ويتجاور معه ، فكذلك هذا النوع من النقل لا يتحد بكيان صاحبه بل يظل جسماً غريباً في النفوس ، فيقبع على الرؤوس كأنه

(١) انظر كتابنا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية ، صفحة ٣١٢ منشورات عويدات.

أحجار كريمة تفتن العيون دون العقول . انه شيء قبل ان يكون معنى ، ورواية للآثار أكثر منه دراية بالأفكار . وبذلك فهو يشل قدرة صاحبه على التطور الذاتي ويحطم ثقته بنفسه ، ويورثه الشعور بالتبعية والاكتفاء بمحاكاة القوي وتلقف أزيائه وانتحال شعاراته وقيمه ، مما يفقده الايمان بالذات والقوم والتراث والتاريخ . وينعكس ذلك كله في واقع الحياة انفصاماً في الشخصية ، وازدواجية في المجتمع ، وانفصالاً يكاد يكون تاماً بين الضمير والاداء ، بين القول والعمل ، بين الايمان والسلوك ، بين القيم والأخلاق والتصرفات . . . ان هذا النوع من النقل الذي يكتفي بالمظهر وحده ولا يلقي بالاً للمحتوى ، مدرسة للنفاق والكذب والسلب والاستغلال ، وبؤرة للفساد والانحراف ، وسبيل إلى التسلط والطغيان ، وثغرة كبيرة ينفذ منها الاحتلال العسكري والاحتواء الاقتصادي والحضاري .

لكن هناك نوعاً آخر من النقل هو النقل الايجابي ، وهو نقل منتج ، بقدر ما كان النوع الأول عقيماً خاملاً . انه يمتاز بتأثيراته الابداعية التي تتطبع على المشاعر الجمالية الاساسية وعلى القيم الثقافية . انه دليل عافية ونمو وصحو بقدر ما كان النوع السابق عرَضاً من أعراض المرض والجمود والغيبوبة . انه الغذاء الذي يصحب عمليات التطور ويُمدّها بالوقود والنشاط والقوة لتتمكن من مواصلة الكفاح والصمود في وجه العواصف والأعاصير وعوامل الفناء . انها معركة البقاء يتخاذل أمامها فريق ، وفريق يقبل التحدي والمواجهة . وبقدر ما كان النوع الأول محطماً للذات وباباً للنفاق والفساد ، يسرق الأزياء والشعارات والقيم ، فإن النوع الثاني يبني الذات ويؤكد الصدق والرجولة ويبتكر الأزياء والشعارات والقيم . انه حرب على الطغيان والاحتلال وسبيل إلى المجد والخلود . وإذا كان النوع الأول طفيلياً خاملاً مكسالاً جاء من الخارج فلم تقابله دوافع من معين الذات وينبوعها الصافي الأصيل ، فان النوع الثاني إنما تنبثق دوافعه من صميم هذه الذات لينمي فيها الوعي وحسّ الحق والخير والجمال . فشتان ثم شتان بين ما يتفجر من صميم الذات وما يُقحَم عليها من خارج .

والمدخل الوحيد إلى النوع الايجابي الفعال من النقل هو البدء أولاً من

بعض أصول الماضي وقيمه الراسخة ونبذ ما فيه من رواسب ضارة وأوشاب خبيثة . لا بد للبلاد جميعاً ان تخوض معركة بناء الذات وتجديدها مسوقةً بقيم وأفكار ومواريث لها في وعيها فاعليتها القوية وهالتها المقدسة . ثم تأتي بعد ذلك مرحلة التمثيل والاستعارة . فمن المستحيل على المجتمع النامي المتطور الذي حسم أمره وقرر تحقيق ذاته أن ينطلق من الصفر ، بل لا بد له لكي يبدأ الحركة من وراثة المنتجات الفكرية السابقة وتقبل منتجات الشعوب المتقدمة وهضمها ليبني مّنها عناصر جديدة تدفع عمليات الحياة فيه ، وتبقي على دفقها واستمرارها ، وتلبي حاجاتها التي تمكّن المجتمع في النمو والتطور والصمود في معركة البقاء ، وإلا سقط في مراحل الطريق صريع تقصيره وقصوره ، وتداعى عليه الأعداء والخصوم من كل حدب وصوب .

وهكذا ، فلكي يكون النقل منتجاً يجب أن يخضع لعملية انصهار وتفاعل تجري ضمن حركة الصراع الداخلي في المجتمع ، أي يجب أن يكون وليد العوامل الداخلية والقوى الفاعلة في هذا المجتمع ، منصهراً فيها ، متفاعلاً وإياها . أجل ، يجب أن يكون تعبيراً عن حركة التطور في هذا المجتمع وعن حاجات هذا التطور وأهدافه ومراميه ، وإلا كان مصطنَعاً زائفاً ، أو موقوتاً عابراً شأنه شأن النوع الزئبقي الأول من النقل ، أي النقل السلبي العقيم .

هذا النوع من النقل ، أي النقل المنتج ، هو وحده النقل المبدع الخلاق . انه وحده الذي يولّد أعمالاً عظيمة ويترك آثاراً خالدة . فجميع أعمال المبدعين والنابغين هي من هذا الطراز . انها ليست أبداً نتيجة تراكم كمي لنقول واقتباسات فسيفسائية انضم بعضها إلى بعض ، وإنما هي حصيلة تحول كيفي وتبدل نوعي طرأ على هذه النقول والاقتباسات وبث فيها روحاً جديداً ومعاني جديدة . هناك تبرق البوارق وتلمع اللوامع ، وهناك تدرّ اللذات العلى . .

إن هذا النقل لا تكمن أهميته في قيمته الذاتية بقدر ما تكمن في كونه المنبه-المفتاح الذي إنما يثير حركة الفكر ويحدث فيه على ما يبدو نوعاً من الوعي والاشراق يقلب أوضاعه ويعيد تنظيمه من جديد ، تمهيداً لقلب

أوضاع العالم وإعادة تنظيمه . فالفكر مفتاح تفسير العالم وأداة تغييره . ان تفجر الأفكار يكون في بعض الموهوبين مرهوناً بلمحة كأنها برق يومض إليه من خارج . إن هذه اللمحة تكون كالشرارة سبباً في حريق عظيم ! إن ملايين من السنين مضت والتفاح يسقط على الأرض ، بل ان نيوتن نفسه رأى التفاح مئات المرات يسقط على الأرض كما رآه الناس من قبله ، ومع ذلك فإن سقوط التفاحة لم يحدث في نفسه أثره الخلاق إلاّ مرة واحدة في حياته « أُحِيَ » إليه في أعقابها أن يربط بين سقوط التفاحة ودوران القمر حول الأرض ودوران الأرض حول الشمس ، وان ينظر إلى هذه الظواهر التي هي بحسب بادي الرأي ظواهر متفرقة لا علاقة بينها - ان ينظر إليها على أنها إنما ترتد إلى ظاهرة واحدة وتعبر عن ظاهرة واحدة هي ظاهرة الجاذبية . فليست العبرة بالأثر الخارجي ، وإنما العبرة بأن يصادف هذا الأثر تهيؤاً خاصاً في وعي الشخص فيقتنص هذا الأثر وتحدث المعجزة . تلك هي صعقة العبقرية وهذا هو مخاضها الذي لا يصفه لسان ولا يقوم به بيان . فهو لا يعرفه إلا ذووه ، لأنه من طور غير طور الادراك العادي . فمن ذاق عرف .

●

إن العرب هم وارثو الحضارات القديمة ، إذ لم يكونوا قبل الاسلام معزولين عن جيرانهم أصحاب الثقافات العريقة عزلة كاملة . فقد انفردت الصحراء العربية بين صحارى العالم أجمع بأنها أحيطت منذ القدم بأرقى حضارات العالم القديم . ففي الشمال ازدهرت حضارة ما بين النهرين وحضارات الاغريق والكنعانيين والآراميين وجزر بحر إيجه ، وفي الغرب ازدهرت حضارة المصريين القدماء ، وفي الشرق كانت الحضارة الفارسية ومن ورائها الحضارات الآسيوية الأخرى ، وفي الجنوب كانت حضارة اليمن .

وكانت القوافل العربية دائبة الحركة بين مراكز هذه الحضارات عند أطراف الصحراء ، تنقل البضائع والسلع إليها ، وكان لا بد أن تتحرك المعارف والثقافات مع السلع والبضائع ، وان تختلط هذه الثقافات وتتزاوج في حركة بطيئة ولكنها ثابتة مستمرة ، وان يؤدي كل ذلك إلى تصفية الأفكار

والمعارف وتقدمها تبعاً لهذا الاختلاط والتزاوج .

في هذا الجو جاء الاسلام . انه لم ينتشر في فراغ . فالأمم التي صادفها أو اتصل بها في حركة المد الكبير ، أو تلك التي اعتنقته ودانت به ، أمم عريقة عرفت حضارات شتى وثقافات متنوعة ، ومرت بتجارب روحية وخبرات مادية متعددة . وكان اختلاط العرب بهذه الأمم اختلاط قتال وحروب ومعارك أولاً ، ثم اختلاط حضارة وثقافة وأفكار بعد ذلك . ومن هنا كان التأثير والتأثر ، ومن هنا كان التفاعل والاخصاب ، وكان الأخذ والعطاء .

وبذلك فقد عرف العرب حضارة الهند ، وحكمة فارس ، وفلسفة اليونان ، وشريعة الرومان ، ورهبنة النصارى ، وعقائد اليهود ، ومذاهب الصوفية . واختلط المسلمون بأقوام تنوعت عقائدهم ، وتباينت مذاهبهم ، وتعددت أجناسهم ، وتشعبت آراؤهم . ورأوا ذلك العالم الزاخر بالصور والألوان والحضارات والأفكار ، وصادفوا مئات المفكرين والباحثين والمثقفين ، واتصلوا بأصناف من الأفراد والجماعات لا تدخل تحت حصر . وشاع التزاوج والاصهار بين الغالبين والمغلوبين ، وتفاعلت العادات والتقاليد والآراء والأفكار والمذاهب والمواقف والعلاقات . وجاءت وحدة الدين والمعتقد لتعطي هذا التفاعل صيغة فريدة . ونتج عن ذلك كله مزاج فكري واجتماعي وروحي جديد أعطى الحضارة العربية الاسلامية معناها ومبناها .

إن هذا المجتمع الناشىء المتطور الذي بدأ يتكون منذ منتصف القرن الأول للهجرة (السابع للميلاد) من بيئات شتى ، وثقافات مختلفة ، وألسنة متباينة ، أصبح مقراً لاتصال أصحاب المدارس العديدة وتلاقح الأفكار بينها ، بعد أن كانت قبله شبه مفصولة بعضها عن بعض ، لا يكاد بعضها يتأثر ببعض . نحن لا ننكر أن مراكز الاشعاع التي كانت فيها العلوم الموروثة عن القدماء قد أدركت نوعاً من التطور قبيل الاسلام ، ولكنه تطور بطيء جداً تنقصه حرارة التأثير والتأثر والأخذ والعطاء ، فوجد في المجتمع الجديد عنصر التركيز والتنشيط . فهذا المجتمع هو الذي ولّد الصلة ، وألهب المشاعر ، وأمدها بالزيت والوقود .

وغني عن البيان أن التقاء الحضارات وخلفياتها الثقافية في هذه البقعة من الأرض سيكون له أثر فعّال في تنقية الأفكار وبروز الفلسفات والمذاهب ، وفتح آفاق جديدة للمعرفة . وساعد على ذلك أن الاسلام لم يكن مغلقاً أمام الأفكار الجديدة التي نفذت إليه من الخارج ، وان قامت محاولات يائسة متعصبة حمقاء لسد جميع منافذه والحؤول بينه وبين قوى التطور والحضارة لم يكتب لها النجاح.وكذلك لم يكن المجتمع العربي الاسلامي مجتمعاً تحيط به القلاع والأسوار والسدود ، وإنما كان هو أيضاً مجتمعاً منفتحاً مُشْرع الأبواب ، واثقاً بنفسه وبالقوى الباطنة التي تحمي كيانه . فدخل كلّ شيء إلى ساحته عارياً ، واختار المسلمون ما اختاروا ولفظوا ما لفظوا ، ثم شادوا الصرح العظيم . وانطلق الفكر كسيل العرم يحطم القيود والسدود ليبني ذاته ويؤكد وجوده .

لقد كان مجتمعاً مفتوحاً لجميع الأجناس والأقوام والألوان واللغات ، بلا عائق من جنس أو لون أو لغة أو طبقة أو دين أو مصلحة أرضية أو نظرة اقليمية ضيقة . وهكذا صبت في بوتقة المجتمع الاسلامي خصائص الأجناس البشرية وكفاياتها ، وانصهرت في هذه البوتقة وتمازجت ، وأنشأت مركباً عضوياً فائقاً في فترة تعدّ قصيرة نسبياً . وصنعت هذه الكتلة العجيبة المتجانسة حضارة رائعة ضخمة تحوي خلاصة الطاقة البشرية في زمانها مجتمعةً ، على بعد الشقة فيما بين أقطارها وقلة وسائل الاتصال والتفاعل .

لقد انصهر في بوتقة المجتمع المسلم المتفوق هذا ، العربيّ والفارسيّ ، والشاميّ والمصريّ ، والافريقي والمغربي والاسباني والبرتغالي والأندونيسي والتركي والصيني والهندي ، والروماني والاغريقي . . . إلى آخر الغباء الأقوام والأجناس . ولقد اجتمعوا كلهم على قدم المساواة وبآصرة الحب وشعور الوحدة ،أو يكادون . فبذلوا جميعاً أقصى كفاياتهم ، وأبرزوا عمق خصائص أجناسهم ، وصبّوا خلاصة تجاربهم وخبراتهم الشخصية والقومية والتاريخية في بناء هذا المجتمع الفريد الذي ينتسبون إليه ويربط فيه بينهم لغة واحدة وعقيدة واحدة تحقق إنسانيتهم وتفجر طاقاتهم وتهديهم إلى سواء السبيل . فأخذوا وأعطوا ، وأغنوا واغتنوا ، واسترفدوا وأرفدوا ، وانشأوا لأنفسهم تراثاً ضخماً من العلم

والأدب والفلسفة والفن وجميع طرائق الحياة .

ولقد حدث ذلك في وقت مبكر جداً . فمنذ القرن الأول للهجرة بدأ لقاء العرب بالحضارات القديمة ، فاصطدموا بها اصطداماً فكرياً عنيفاً كاد يطيح بهم لولا قوة الشخصية الثابتة التي أورثهم إياها القرآن واستمدت كيانها من الدين الجديد والانتفاضة الجديدة ومما انصبّ في بوتقتها من نفائس الشعوب وذخائرها ، وبالتالي لولا انهم ينتمون إلى مجتمع صحي سليم . بل لقد أثمر هذا الاصطدام ثمراً طيباً كان من آثاره المباشرة حدوث انقلاب فكري وثقافي واجتماعي منقطع النظير يضاهي - ان لم يكن يفوق - الانقلاب الذي أحدثته النهضة في أوربا في العصر الحديث .

وهكذا ، فما كادت الفتوح الاسلامية تستقر في البلاد التي كانت تسود فيها الهلينية على أثر فتوح الاسكندر ، حتى أخذ الفكر العربي والاسلامي ينفتح على الفكر الانساني ،ويسيغ منه ما يزيده قوة وحياة ، وحتى بدأ التزاوج والتفاعل بين الأمم المغلوبة وبين الفاتحين الغالبين ، تزاوج الذوق العربي والفكر العربي وتفاعله بأذواق وأفكار بلغت شأواً بعيداً من التقدم والحضارة ، فنتج عن ذلك بواكير حضارة راقية أخذت شكلها النهائي المتكامل في العصر العباسي أولاً وفيه آتت أكلها وأعطت ثمارها ، ثم في العصر الأندلسي بعد ذلك .

وكان لقاء فكان إخصاب !

لقاء بين فكر مبتدىء ناشىء أخذ يعي وجوده ويتلمس الطريق إلى الشمس والنجوم ، وبين فكر اكتمل نموه وبلغ غاية تطوره .

بين عقلية طالعة اجتذبها البريق وأخذ منها كل مأخذ ، وبين عقلية ناضجة انتهت من تحقيق ذاتها ووجودها أعظم تحقيق .

وكان الاخصاب الذي أسفر عنه هذا اللقاء فذاً رائعاً لا يُسبر غوره ولا ينضب معينه ولا يقطع مدده ولا تُدرك أبعاده ، بل تراه يغدق ويزداد تدفقاً كلما تقاذفته العصور واستطال به الزمن . فهو يتجدد باستمرار وينمو ثم ينمو ويتعاظم ، ولا يزيده ذلك إلا قوة وعطاءً . وحسبنا للدلالة على ما فيه من قوة وحيوية وطاقة ان حضارتنا اليوم بكل شموها وأبعادها وآثارها الخارقة حتى لقد بلغت حد الاعجاز ، إنما هي من نتاج هذا الاخصاب وثمرة من ثماره .

ان الدولة الجديدة لم تأخذ إلا لكي تعطي ، إنها لم تقبل التراث الفكري اليوناني وغير اليوناني ، إلاّ لكي تهضمه بعقليتها الجديدة وتتمثله بمنطق تفكيرها وروح عقيدتها ويكل أصالة تاريخها وخصبه ، وترده بعد ذلك أضعافاً مضاعفة . فقد أقبل العرب والمسلمون على علوم اليونان والهنود وأصحاب الديانات القديمة يغترفون منها ما كان في وسعهم أن يغترفوا ، لكن تلك العناصر التي التهموها قد تحولت على أيديهم لتكون غذاء جديداً ، حتى ليتعذر على المرء في كثير من الأحيان أن يقف على أصولها إلا بنصيب كبير من التمحّل والتحذلق والافتعال ، وبإجراء ما يشبه (التحليل الكيماوي) عليها كما يفعل المشككون دائماً إمعاناً في الاسترابة فيها وعدم الثقة بأصحابها . لقد أعياهم أمرها فمزقوها كل ممزق لعلهم يعثرون بين هذه المزق على حطام يشبه أن يكون يونانياً أو هندياً أو فارسياً ، وعلى رواسب وبقايا مسيحية أو يهودية أو أي شيء آخر . أما أن تكون عربية إسلامية فهذا مما لا يطاق ولا يمكن تصوره أبداً . أجل لقد طرأت تحولات كبيرة على هذه العناصر الأجنبية حتى ضاعت معالمها وتبددت خصائصها القديمة ، واندمجت في الفكر الاسلامي فأصبحت جزءاً منه ، انها تنتمي إلى النوع الثاني من النقل (أو الاقتباس) ، وهو النقل المنتج ، لكن (المحللين الكيماويين) للأفكار يريدون ليطفئوا جذوة الفكر الاسلامي ويقتلوا تلقائيته ، فعمدوا إلى هذه العمليات ليجعلوا من النقل المنتج نقلاً سلبياً عقيماً لا خير فيه ولا في أصحابه .

إن المفكرين المسلمين والعرب وهم يستوعبون المذاهب القديمة ويستعينون بها في عملية البناء ، لم يسيروا على مبدأ عبادة القديم لقدمه - وان شذ منهم من شذّ بطبيعة الحال - وإنما كان رائدهم في ذلك ، البحث عن الحقيقة لذاتها دون اعتبار للجنس أو المذهب أو الدين . وهم يرددون في ذلك ، القول المأثور : « الحكمة ضالة المؤمن ، أينما وجدها التقطها » . و « لا تعرف الحق بالرجال ، أعرف الحق تعرف أهله » . لقد أخذوا ما أخذوا دون الشعور بأي ارتباط بهذا الشعب أو ذاك . انهم طلاب حقيقة ، وهذا حسبهم ، بل هو شرف كبير لهم . انهم لم يَقْدِموا على النقل والاقتباس للتجمل والزينة ، وليباهوا الناس بكثرة الأحجار الكريمة والاساور والعقود والخلاخيل ، بل لبناء الذات واستدراك ما فات واستكمال أسباب الحياة . وقد تحقق لهم ما أرادوا ، وإلا للبثوا في القيعان

يتسكعون، يقدّمون رجلاً ويؤخرون أخرى إلى يوم يبعثون . لقد شادوا صرحاً عظيماً سنرى في كل فصل من هذا الكتاب والكتب التي ستتوالى بعده جناحاً جديداً فيه ومشاهد جديدة ووجوهاً جديدة متناثرة هنا وهناك لم نرها من قبل. بالدم والعرق رفعوا قواعده ، وبالارادة والايمان بالذات وضعوا لبناته، وبالدأب والثبات أكملوا بناءه وطاولوا به العصور والدهور !

وهكذا شارك الجميع في دعم هذه الحياة العقلية والروحية للعرب والمسلمين في مختلف صورها وشتى أشكالها التي إنما وجدت بذورها الأولى ونواتها الأصلية في أرض الجزيرة العربية والتطورات العميقة التي طرأت عليها والتي ستكشفها لنا التفاعلات السيكوسوسيودينامية وترينا براعم الفكر العربي تتفتح الواحد منها بعد الآخر ، بحيث نرى بأم أعيننا حركة هذا الفكر ونسمع هديره بملء آذاننا ، ويستولي جيشانه على حسّنا ووعينا وجميع المشاعر المتفتحة فينا ، فلا ينكره بعد ذلك منكر ولا يجحده مكابر ، إلا أن يكون سوفسطائياً أو لا أدرياً يعبث بالألفاظ والمعاني وينكر المحسوس والمعقول . فكفى هذا الفكر ما عانى من عقوق الأبناء وجحود الأباعد والأغراب .



وكان التحاكّ والتفاعل بين هذه الأقوام والأجناس والأمم التي ربطت بينها وحدة التاريخ والأرض واللغة والعقيدة والأمل والألم ـ رغم ما كان بينها من خلاف وشقاق وتباين ـ مما يفسح المجال لكثير من التفكير النظري وتبادل الرأي واقتراح الحلول والمواقف . وكان التنازع الدائم على السلطة والسيادة السياسية بين الجماعات المختلفة عنصراً عملياً هاماً زاد في التشجيع على التفاعل الفكري واليقظة العقلية والانفتاح على العلم والعالم . لقد أدرك العرب في وقت متقدم جداً أن انغلاق الشعوب والحضارات عامل انحطاط وتقهقر ومدعاة للنكوص والردّة ، وأما الانفتاح فهو عامل تقدم وحيوية ومظهر صحة وعافية . لذلك لم يعتزلوا العالم ولم يتقوقعوا يجترّون وحدتهم ووحشتهم ، بل لقد اقبلوا على الشعوب يستزيدون منها العلم والعرفان ، وبخاصة إذا تذكرنا أنهم لم يكونوا أخلاء من أي تفتح عقلي ، عزلاً من أي ميراث خضاري ، إذ كانت نواة التفكير فيهم قد تكونت ـ وسنبحث ذلك بتفصيل وإسهاب فيما بعد ـ كما كانت بين

أيديهم نظرية كونية شاملة أمدّهم بها القرآن ، فكانت بمثابة العمود الفقري لكل تفكير عقلي واجتهاد ديني. لقد فتحت الحضارة العربية نوافذها للنور يأتيها رغداً من كل مكان ، ولا عليها بعد ذلك ان يتهمها في تفكيرها المتهمون ، ويقدح فيها القادحون .

إن تفتح الشعوب الاسلامية بعضها على بعض كان من شأنه تقوية حس المشاركة فيما بينها وتعزيز أسباب التفاعل والاخصاب فيها . وأما تفتحها على العالم الخارجي الذي لا يشاركها الأرض والدين واللغة والتاريخ فكان من شأنه إثراءها وتنويع خبراتها وتوسيع آفاقها وتعزيز إيمانها بالجد في طلب المعرفة في جميع مظانها وتعقبها أنّى كانت وحيثما وُجدت ، ففي ذلك عزها ومجدها وسر خلودها .



إن هذا الانفتاح الذي كان عنوان مجد العرب اتُّخذ ذريعة للتشكيك والاتهام . لقد كان مطعناً ينفذ منه بعض النقاد إلى صميم الفكر العربي وقدس اقداسه ، لتجريحه وتجريمه واتهامه بالسطو على آثار الآخرين وسرقة مجهوداتهم . انه بزعمهم فكر لا هوية له ولا معالم : انه يخلو من كل مبادرة شخصية وإبداع خلاق ، فيقلد كل كاتب ، ويدور في كل فلك ، ويقتاس بكل مؤلف ، وينسج على كل منوال ، ويتسكع على كل مائدة . . . وهكذا نسمع يوماً بعد يوم أحكاماً سطحية مبتسرة من هذا القبيل يتبرع بها بعض الباحثين ممن شغله الشاغل تلمس الاشباه والنظائر الخارجية والسطحية بين الدوائر الفكرية المختلفة ، والافضاء من ذلك كله إلى الحكم بأن كل قضية فكرية صدرت عن المسلمين فيها وقدة ذكاء أو لمعة عبقرية ، فإنما هي أثر من آثار الفكر الأجنبي (يوناني أو مسيحي أو يهودي أو فارسي أو هندي . . .) ونعمة سابغة من نعمائه . وبذلك لم يكن الفكر العربي الاسلامي سوى استعارة خارجية صرف ، وفسيفساء منقولة من هنا وهناك ، بلا علم ولا هدى ولا كتاب منير .

إن هؤلاء الباحثين الذين يقودون حملات التشهير والتخرص والافتراء لا يروق لهم أن تظهر عبقرية عربية إسلامية دون أن تمتّ بوشيجة من الوشائج إلى أصول أجنبية ، ومن ثَمّ راحوا ينقّبون في غياهب التاريخ وبين الأطلال المظلمة عن لقاء عارض أو نسب عنكبوتي وهمي لفلاسفة ومفكرين وعلماء عرب مسلمين

لا يعرف التاريخ لهم منبتاً غير بيئتهم العربية الاسلامية . فهذا جده الأكبر (أو جدته الكبرى) فارسي أو رومي ، وذاك تشرّف بلقاء راهب نصراني . . . . وعندئذ فقط سرى إليه لهيب العبقرية ! وما أهونها من عبقرية تثيرها جماعة من البله العاطلين . وكم كان حقيقاً بهم أن يبثوا هذه العبقرية بين أبناء جلدتهم بدلاً من أن ينثروها على الأغراب ، إذا كانوا بعصاهم السحرية هذه قادرين على إحياء الموتى ! وكذلك لو كان الأصل الفارسي أو الرومي كافياً لانجاب العبقريات والمواهب فما باله لم ينجبها إلا بعد اللقاء العربي الاسلامي ؟

والذين يوجهون للعرب المسلمين مثل هذه المطاعن تغلب عليهم ـ هذا إذا أحسنّا الظن بهم ولم ننظر إلى خلفياتهم السياسية والعنصرية ـ روح التحليل الشديد ، وليس لهم إلمام كاف بالعلوم الانسانية على اختلافها ، وهم اما أن يكونوا متخصصين جداً أو سطحيين جداً ، ولمبدأ العليّة (السببة) من أذهانهم قوة طاغية وسلطان لا يُقهر ، حتى في الشؤون الانسانية والعقلية التي لا تخضع للتفسير العلّي إلا في حدود ضيقة جداً . فالفكر العربي الاسلامي في أذهانهم إنما هو مجموع التأثيرات اليونانية والهندية والفارسية والنصرانية واليهودية . . . الخ بلا زيادة ولا نقصان . فهؤلاء الحاسبون جميعاً يسلكون في تفكيرهم سلوكاً يوحي بأنه من العار على الأمة أن ينهل مفكروها من ينابيع الأمم الأخرى أو أن يفيدوا من خبراتها وتجاربها .

لذلك كان من الواجب علينا أن نتوفر على دراسة ظاهرة الاستعارة والاقتباس في الفكر العربي وإعادة وضعها في المنظور العام للتطور التاريخي لنرى نصيبها من الصحة فنقول :

ان مثل هذا الخطل في الرأي لا بد أن يقع عندما يراد دراسة فرع ما من فروع المعرفة بهذا الفرع ذاته دون الاستعانة بالفروع الأخرى التي قد تلقي عليه بعض الضوء . فتاريخ الفلسفة لا يُدرس عادة إلاّ في إطار تاريخ الفلسفة ، مع أنه كان من الواجب في نظرنا إشراك كثير من العلوم الانسانية والاستفادة منها وسماع صوتها عند التصدي لدراسة هذا الفرع دراسة علمية ممحصة ، وتسليط أضوائها عليه ، وإلا فالعقم مكتوب له ولكل دراسة يتيمة تظل منحصرة في قوقعة واحدة لا تتعداها . فكلما اتسعت دائرة العلوم التي نشركها في دراسته كانت

النتيجة أتم وأشمل وأدعى للثقة والارتياح .وأكثر مايصدق هذا المبدأ في ميدان العلوم الانسانية ، وذلك لكثرة مآخذها وشدة تعقيدها وتشابك خيوطها .

ولما كان أكثر الدارسين للفكر العربي والثقافة الاسلامية هم من المستشرقين المتخصصين الذين لا يحسن أحدهم إلا نوعاً واحداً من الدراسة ، فانهم لم يستطيعوا أن يفسروا تلك الانتفاضة الجبارة للفكر العربي إلا بأن يردوها إلى مصادر ومؤثرات أجنبية ، وذلك جرياً على عادة رينان ومدرسته التي تفرق بين الشعوب على أساس الجنس والسلالة . ورغم الخطأ الذي وقع فيه رينان عندما وضع حدوداً تكوينية بين الشعوب ، فان هذا الرجل الفذ كان أول من شعر بضرورة إشراك علم غريب على الفلسفة وتاريخها ، في دراسة الفلسفة وتاريخها وهو علم اللغات الساميّة الذي طبقه على دراسة الفكر العربي والفلسفة العربية ، ووصل إلى نتائج إذا كنا لا نُقرّه عليها فانه على كل حال قد فتح أبواباً جديدة في المعرفة كانت موصدة من قبل . وجاء بعده رعيل من العلماء الأعلام الذين صححوا مسيرته ولا يزالون يأتون كل يوم بجديد .

وما أكثر الحاسبين الذين تصدوا لدراسة الفكر العربي ، وما أكثر الأخطاء التي قد وقعوا فيها . فكانوا كلما صادفوا مشابهة عارضة بين الفكر العربي والأفكار الأخرى فسروها بأن الثقافة الاسلامية لا بد أنها متأثرة بالثقافة ـ الأم ، الثقافة الآريّة بطبيعة الحال ، وبالتالي بالأفكار اليونانية والفلسفة اليونانية ، أو على الأقل الفلسفة الهندية والفارسية ، بحيث أفضت بهم هذه الطريقة إلى النظر إلى العقليات والثقافات والحضارات غير الآريّة نظرتهم إلى عصابات من اللصوص !

إن هذه الطريقة العجيبة التي لا همّ لها إلا اقتناص الأشباه والنظائر والتنقيب عن الآثار الأجنبية في تضاعيف البناء الفكري وإحصاؤها واحداً واحداً مثنى وثلاث ورباع دفعاً للخطأ في الحساب ، وتفسير الظواهر الاجتماعية والثقافية بإجراء التحليل « الكيماوي » عليها ـ أقول ان هذه الطريقة شديدة الاغراء حقاً ، ولكنها في الوقت ذاته كثيرة المزالق محفوفة بالأشواك . لقد كان هناك مسوّغ للأخذ بها في القرن الماضي وبدايات هذا القرن ، أما أن تظل متسلطة على بعض الأذهان ويظل لها دعاتها في عصر الفضاء ، فهذا تخلف عن الركب فادح ، وإخلال بتوازن المعرفة العلمية كبير ، تلك المعرفة التي كان ينبغي

أن تسير بخطى واحدة ثابتة في جميع الاتجاهات ، لا أن تتعثر إلى الوراء من جانب ، وتنطلق مسرعة تشق الريح من جانبها الآخر ، دون أن تهتم بالتنسيق بين الخطو وتوحيد المسار .

والحق ، ان التزام التفسير العليّ في التاريخ ، ومحاولة رد جميع الحوادث والظواهر إلى علل ومعلولات ، وأسباب ومسببات ، وتقطيع المسببات مزقاً على قَدّ الأسباب بلا زيادة ولا نقصان ، والنظر إلى العقل على أنه شيء سلبي رديف لسائر الأشياء الموجودة في الطبيعة الجامدة ، على أنه ظاهرة ملحقة ،لا فاعلية لها بذاتها ـ ان التزام هذا التفسير والتقيدبحذافيره ، فيهإهدار لكرامة العقل فضلا عن أنه يعود بأوخم العواقب على الفكر الذي نعمد إلى تفسيره . ان مبدأ العليّة قد أخذ العلماء يعيدون النظر فيه منذ وقت غير قصير في ميدان العلوم الطبيعية التي تعدّ نموذجاً للتفسير العليّ ، فما ظنك بالعلوم الانسانية وشؤون الفكر التي تعنو على كل عليّة ولا تخضع لقانون الأسباب والمسببات إلا بشق النفس وبكثير من القسر والافتعال والصناعة .

وفي رأينا ، انه لتفسير التاريخ تفسيراً علمياً صحيحاً يستوعب الظاهرة الانسانية بكل ما فيها من نبض وتلقائية واستقلال وحرية وتفرد ، لا بد من إدخال مقولة جديدة نعتقد أنها تراعي العوامل الذاتية والموضوعية لهذه الظاهرة ولا تفرّط في أيّ منها ، ألا وهي مقولة (الانتفاضة). إن هذه المقولة هي الأصل والمعاد. إنها المبدأ والغاية والواسطة بينهما : بها إنما يبدأ التاريخ ، وبها إنما يمضي ويسير ، وبها إنما ينجز أعماله ويحقق أهدافه وغاياته ، وبانطفائها يقف ويتلاشى . لا شيء قبلها إلا العماء والفوضى ، أما بعدها فإشعاع ونور . ان هذه الانتفاضة تعبر عن المعنى العميق للذات ، كما تفسّر نقاط التحول الكبرى في حياة الأمم والشعوب ، دون أن تهمل في الوقت ذاته ضغط الظروف الموضوعية التي تحيط بها والعوامل الخارجية التي تهيء لها . انها عصا التاريخ وأداته الفعّالة وسره المكنون ، كما هي الشحنة التي تفجر طاقات الأفراد والجماعات وتسمو بالانسان إلى قمة تحقيق الذات . وبكلمة موجزة : انها التفسير الحقيقي للانسان والتاريخ والحضارة . وسيتضح لنا ذلك كله عندما نتصدى للحديث عن انتفاضة شبه جزيرة العرب على يد نبي العرب وقائدهم الذي قذف بهم في الآفاق وطاول بهم الزمن ،

وغزا بهم العقول والقلوب ، واستولى على المشاعر والأذهان .

ان تفسير التاريخ بقانون الاسباب والمسببات وحده ، والاكتفاء بطريقة التحليل (الكيماوي) للأفكار دون ادخال مقولة (الانتفاضة)،فيه جناية كبيرة على التاريخ والفكر والحضارة ، وتشويه لحقيقة الانسان وبتر لذاته وتقطيع لأوصاله . فأنا أومن بالانسان ، ولا أومن بغير الانسان ، وكل ما عداه فانما هو من صنعه وجبروته .



ولقد كان من النتائج الضارة لتعليل التاريخ تعليلاً سببياً بحتاً ، وتحليل الأفكار بما يشبه التحليل الكيماوي ، جحود الفكر اليوناني وانكار العبقرية اليونانية . فلعلنا نذكر جميعاً كيف ان النقد الحديث المتشدد الذي يُشقق الشعر hypercritique قد عمد منذ وقت ليس بالقصير إلى رفض ما يسمى(بالمعجزة اليونانية) لا لشيء إلا لأنه ـ بالتشدد في البحث والتنقيب واقتناص الأشباه والنظائر ـ قد أمكن الوصول إلى بعض أوجه التلاقي بين الفلسفة اليونانية والفكر اليوناني وبين بعض انماط التفكير القديمة الأخرى من مصرية وهندية وبابلية والخ . ان اصحاب هذه الطريقة ينكرون ـ أو يكادون ـ ما للفكر المبدع ، ما للفيلسوف العظيم ، ما للقائد البطل ، ما للفنان المطبوع الملهم ـ ما لهؤلاء العمالقة من طرافة وجدَّة وشخصية وقدرة فذة على الخلق والابتكار،و بالتالي على اجتراح المعجزات ، وبذلك يجردون الفكر اليوناني فيعصوره الذهبية من كل مزية خاصة ، ولا يحسبون حساباً للانتفاضات التي تحصل للشعوب وتتفجر في بعض المراحل المشرقة من تاريخها . فلو كان الأمر كذلك ، أي لو كان الفكر مجرد رديف للأشياء، مجردآلةعاكسة لهامنفعلةعنها محكومة بها،لوكان يعمل لابدافع من ذاته وبحكم تلقائيته الواعية الحرة المستقلة ، بل بالعوامل الخارجية الصرف ، لو كان العقل مجرد استجابة سلبية للأشياء ولو لم تكن له فاعليته الخاصة والقدرة على الاختيار والحسم وترجيح أحد الامكانات على ما لا حصر له من الامكانات الأخرى التي يقدمها الواقع الأصمّ ، ترجيحاً قد يؤذي مصالحه (أي مصالح الفكر وصاحبه الانسان) الآنية العاجلة للوصول إلى أغراض وغايات آجلة بعيدة لا تتضح نتائجها ، بل قد يكون من شأنها الاطاحة به وتهديد وجوده كله ، لو لم

يكن التاريخ قصة تفوق الانسان على ذاته وعلى واقعه وعلى العوامل والقوى الخارجية جميعاً ، لو لم يقع في التاريخ انتفاضات وثورات تقلب موازين القوى وتعصف بالأوضاع القائمة وتُخل بالمعادلات الثابتة ، لو كان التاريخ مجرد استمرار للحياة والموت،والحب والبغض ، والنكاح والطلاق ، والأمن والخوف،والكر والفر ، والانتصار والهزيمة ، لو كان التاريخ مجرد حركات وأنفاس كما هو الحال عند الحيوان (١) ـ لو كان الأمر كذلك اذن لما كان هناك تاريخ ، بل لكان هناك فقط مجرد تعاقب وسيرورة لاشتات من الأحداث التي لا معنى لها ولا طائل تحتها . وبعبارة أخرى ، لو كان كل ما يحدث مجرد إضافة كمية إلى ما كان موجوداً من قبل ، اذن لكان القرن العشرون قبل الميلاد والقرن العشرون بعد الميلاد قريباً من قريب !!!

ان (المعجزة اليونانية) صحيحة لا غبار عليها في نظرنا، مهما قال كيماويو الأفكار ، ومهما قال المنقّبون والمنقِّرون . . . فكيما تتحقق انتفاضة رائعة ، وكيما تقوم حضارة زاهرة ، كيما يبرز عبقري فذ تواكبه شُلّة من العباقرة الأفذاذ وجيل من العمالقة والعظماء يتابعون مسيرته ، لا بد من معجزة . . . وهي معجزة لا تكتنفها هالة من اللامعقول ، ولا تزركشها اطياف من عالم الغيب والملأ الأعلى ، ولا تتدخل فيها الآلهة والأرواح والخوارق ، انها ظاهرة طبيعية تنتمي الى هذا العالم وان كانت تتجاوزه وتعلو عليه ، وهي تخضع لقوانينه كأي ظاهرة طبيعية أخرى وان كانت تستطيع السيطرة عليه بالتسلح بهذه القوانين ، سيراً على قاعدة : إذا أردت ان تقهر الطبيعة فاخضع لها أولاً . انها (أي المعجزة) ظاهرة طبيعية تحدث كل يوم في بؤر حضارية تنتقل من مكان إلى آخر ، وتتقلب في الأمصار والأقطار في عصور التاريخ المختلفة .

---

(١) المعلوم أنه ليس في حياة الحيوان من جديد منذ نشأته على هذه الأرض . ولذلك فان الحيوانات لا تعيش في التاريخ . لكن الانسان هو الكائن الوحيد الذي يعيش في التاريخ دون سائر الخلائق . ان حياة الحيوان هي مجرد استجابات وردود أفعال ، وأما حياة الانسان فهي كفاح في سبيل حياة أفضل ونضال من أجل التغيير . انه ينشد حريته واستقلاله في طبيعة عمياء فرض ذاته عليها . وإذا كان لا يزال يقف عاجزاً أمامها رغم ما حقق من انتصارات فحسبه أنه هو ذلك التوازن العجيب بين قوى الطبيعة الغاشمة وحرية الذات المستقلة الواعية .

ليست العبرة بالتأثيرات الأجنبية ، انما العبرة كل العبرة بالعقل الذي يستخدم هذه التأثيرات ويصوغ منها مادة جديدة ، ان التأثيرات الخارجية لا تُغْني شيئاً إذا لم يتوفر العقل الذي يعرف كيف يتناول هذه التأثيرات وكيف يفيد منها وينميها ويضيف اليها ما يزيدها تألقاً وإشعاعاً وعمقاً ، بينما تقرع هذه التأثيرات عقول الناس جميعاً وتزدحم في أذهانهم دون ان يستخلصوا منها شيئاً أو تثير فيهم أي معنى . اجل ان التأثيرات الأجنبية لا خير فيها ما لم تصادف عقلاً خصباً يبث فيها الحياة ويسخرها لأغراضه ومصالحه ، ويعطيها من الصيغ والأشكال ما لم يخطر لأحد قبله على بال . انها لا تكفي أبداً وحدها لتفسير ما يومض في النفس من بداوات وسوانح ، وما يعنّ لها من خلساتٍ ولُمع ، وما ينبثق فيها من نفثات الابداع ونفحات الالهام ، انها لا تصلح أبداً لتعليل اطلالة العظم وان كانت عنصراً من عناصر وجوده . ان هذه الاطلالة ظاهرة فريدة فذة تنبثق من اعماق الذات ، من ينبوعها الدافق السلسبيل ، وهي لا تتصل بالاسباب والعوامل الخارجية إلاّ بخيوط أوهن من خيط العنكبوت . وإلاّ فما بال هذه الأسباب والعوامل تقرع جميع الأبواب فلا يستجيب لها إلاّ قلة نادرة منها ؟

ما قيمة التأثيرات الأجنبية إذا لم تجد العقل الذي تحركه ، والخيال الذي تثيره ، والوجدان الذي توقظه ، والوعي الذي يقبل عليها ويعانقها بحصافة العلماء ، ونشوة الصوفية ، واخلاص العاشقين ، وبراءة الأطفال وفرحتهم وسذاجتهم . وكأيِّنْ من عنصر ثقافي أو أثر فكري أو معنى حضاري يمر عليه الناس وهم عنه غافلون !.

ومن هنا فان المبدع الذي كثيراً ما يُتهم بالسطو على آثار غيره ، لا مصادر له بالمعنى الوجداني الدقيق ، انما هي تجارب وخبرات تجيش في نفسه ، وبروق تومض اليه ثم تخمد عنه ، وخطرات وسوانح تهجم بين الحين والحين فيسارع الى تدوينها قبل ان تفلت منه ، وقد يتخلل ذلك كله آثارٌ وأفكارٌ ترد اليه من خارج وتقفز الى وجدانه الحي على علم منه أو على غير علم ، فتتفاعل في عالمها الغض الجديد هذا وقد رسبت منها أشياء وتناثرت أشياء . فهو بحكم عكوفه على القراءة والكتابةوالبحث ومطالعة آثار أولئك الذين يشبهونه في المزاج والاتجاه الفكري والفني ويشعر بنوع من الارتباط الداخلي الوثيق بينه وبينهم ، يسري الى نفسه

منهم بعض الايحاءات والمعاني ، فتغور فيها وتغور ، وهناك يُعاد تنظيمها مرة أخرى . وبعد ان تخضع لعمليات كثيرة من المعالجة والانضاج ويضاف اليها ما يضاف من عناصر عالمها الجديد ، تخرج الى بؤرة الشعور في صيغ وأوضاع غير مسبوقة . لقد صهرتها عبقريته الفذة وأضافت اليها نظراته العميقة وخبرته الواسعة وتجاربه ومعاناته . لقد نضجت بما إستقر في نفسه من الآخرين وبما أضافت اليها عبقريته وتفجرت به ينابيعه، فاتهم بالاغارة عليهم والسطو على آثارهم ، والمسكين غافل عن كل هذا . كلا يا هؤلاء ، ليس في الأمر سطو ولا إغارة ، انما هناك هضم وتمثيل . هناك خلق والخلق لا يكون من عدم بل من مواد خام سابقة : الخلق من عدم مستحيل ، سواء على نطاق الأشياء أو على نطاق الأفكار . أفكار تثير أفكاراً ، وتتولد عنها أفكار . وإذا كان قد « سرق » حقاً ، فقد القى على ما « سرق » ظل شخصيته وطبعه بطابعه ، واضفى عليه قبساً من روحه وبيانه ، فجاء (كيماويو) الأفكار وقبضوا عليه متلبساً بجريمته . يا للعار ويا للشنار !! لقد نسوا فكره المنظم ، وعقله المرتب ، وتحليله الدقيق ، وغاياته المنشودة ! لقد نسوا ـ وهذا هو الأهم ـ التركيبة الجديدة التي صنعها والصيغة الجديدة التي طلع بها علينا . ان الفلسفة التي انتهجها هي فلسفته هو ، وهو وحده ، رغم مشاركة الكثيرين فيها . انها فلسفة شخصية خاصة به ، وان نحابها نحو هذا الفيلسوف أو ذاك . انها ليست مجرد اقتباس ، وانما هي خلاصة تفكير عميق ، وتعبير شخصي انيق . وإذا كان قد « سرق » حقاً فكما « يسرق » النحل رحيق الأزهار ! أجل ، الفيلسوف هو بالنحل أشبه : فالنحل يمتص الرحيق من هذه الزهرة وتلك ، ولكنه بذلك انما ينتج الشهد الذي هو صنعه الخاص : فلا صعتر ولا ليمون ولا زيتون ولا نرجس . انه شهد والسلام . هكذا يقتبس الفيلسوف من سواه ، ولكنه يصنع مما يقتبس نتاجاً شخصياً فريداً ، فيه الكثير من نفثات صاحبه التي امتزجت برحيق الزهور . انه من قوة الاستيعاب والخلق بحيث يتحلل هذا الرحيق وينحلّ في حسه الفياض وقريحته المبدعة فيخرج عسلاً مصفّى فيه شفاء للناس ولذة للشاربين . فهو يُركّب مواد من مواد ويضيف اليها مواد من ذوب عقله ومهجة نفسه ويستولدها وعليها سيماؤه وطابعه وكأنها تتفجر من اعماق ذاته ، لكن شرطة (كيماويي) الأفكار له بالمرصاد . انها في شغل

شاغل عن جميع هذه العمليات الباطنة التي لا تعبأ بها في قليل ولا كثير ، انها شرطة فظة جافة غليظة لا تهادن ولا تساوم ولا تسالم ، رائدها هتك الأستار ، وفضح الأسرار ، واختراق الأسوار . انها شرطة جاهلة تتمسك بالقشور التي تطفو على السطح ، وليس لها القدرة على سبر الأغوار والوغول في الأعماق . ان المسروقات عليهابصمات اللص ، وحسب الشرطة هذا الدليل لاثبات الجريمة ؛ فَلِمَ العبث واضاعة الوقت ؟ « النصوص قبل النفوس » . هذا هو الشعور الذي تدين به ، وعلى منطوقه انما تسير .



ان الانسان ما ان يخرج من بطن امه حتى تبدأ التأثيرات الخارجية ، تلفحه وتنصبّ عليه . ولا يتوقف ذلك إلا عند الموت . فليت شعري ! ماذا عساه يتبقّى لنا بعد ذلك إلا القليل من الجهد والارادة والتفكير ؟ ولو طُلب من أحد ان يقدم بياناً بكل ما هو مدين به للسابقين والمعاصرين لم يكد يبقى له شيء . فالنفس الانسانية غارقة في مؤثرات تنصبّ عليها من البيئة الخارجية ، ولا يستطيع احد أن يتخلص من هذه المؤثرات إلا في حدود ضيقة جداً . والفرد الذي يكون من الحرية والقدرة بحيث يدفع جميع التأثيرات الخارجية لا مكان له إلا في عالم الخيال .

وهذه التأثيرات تتكرر وتجترّ ذاتها في معظم الكائنات ، لكن هناك كائنات أخرى لا تخلو من بعض الأفراد النادرين الذين يستطيعون التحكم في هذه التأثيرات وضبطها وتوجيهها وصنع أشياء جديدة هامة منها . الكائنات الأولى تعيش على هامش التاريخ وهي تشمل الحيوانات والنباتات . وأما النوع الآخر من الكائنات فهي ذات قدرات متفاوتة بين صناعة الأدوات العادية البسيطة ، والأدوات الخارقة ذات التعقيد العالي ، بين توليد الأفكار البسيطة والأفكار العظيمة . فهذه تعيش في بؤرة التاريخ ، وتلك على الحافة ، وبينهما درجات ودرجات . فالمخترعون والفنانون الفلاسفة والقادة العظام و . . . هؤلاء جميعاً يعيشون في بؤرة التاريخ . انهم لا يستغنون عن التأثيرات الخارجية من بيئية وغيرها ولكنهم يقفزون منها إلى ما وراءها ليتعاملوا مع عالم من المعاني والرموز وشبكة من العلاقات المعقدة والصيغ

المجردة .

ان الفنان الصادق المطبوع يستعير ويقتبس ويمعن في الملاحظة والبحث والتقصي ليظفر بالذخائر والنفائس . ويستغل كل قواه الفكرية والعاطفية في تنظيمها وتنسيقها واعطائها صيغاً وأشكالاً مختلفة . وهو يستعين على ذلك بما يستخلصه من التقاليد المرعية والأحكام والنظريات السالفة ، وما يعرفه عن الطبيعة البشرية وما يُلمّ به من العقائد السائدة والآداب الغالبة . . . فالانسان لم يصنع دينه وعقائده ومألوف نظراته الأخلاقية ، وانما يستمد ذلك كله من اتجاهات عصره . وهو يضيف الى هذه المادة المتجمعة عناصر ذاتية ليلقي منها الضوء على المستقبل . وهذا لا يضيره في شيء ما دامت المادة التي استعارها لم تخرج من بين يديه كما كانت عندما دخلت عالمه ، وما دام لم يقصر في التسامي بها والاضافة اليها وتجميلها وتصحيح ما قد يكون فيها من اخطاء وانحرافات ، واستكمال ما قد ينقصها من المزايا والمحاسن ، فهومير الذي كان يُظن حتى القرن الثامن عشر الميلادي انه قد بلغ قمة الشعر دون امعان في الدراسة أو استفادة من ادب غيره ممن سبقوه ، قد اثبت المتخصصون في الأدب اليوناني انه كان مطلعاً على القصص والأساطير التي تناولت حصار طروادة ، وانه كان يعرف جميع الأحداث المتصلة بالتاريخ البطولي لبلاده . فقصصه الشعرية عن الأبطال مأخوذة عن الأشعار التي تقدمت عصره . ومع ذلك فان أحداً لا يشك في اصالة هومير وقدرته الفذة على الخلق والبناء وتوليد الصور الجديدة الرائعة . وما ينطبق على هومير ينطبق على غيره من كبار الشعراء . فشكسبير لم يبتكر موضوعات رواياته وانما استمدها من الكُتّاب والشعراء الذين سبقوه ثم اضفى عليها خياله الرائع . وكذلك موليير الشاعر والمؤلف المسرحي الفرنسي ، فانه لم يكُفّ عن الاستعارة طوال حياته . وهو لا ينكر ذلك بل يؤكده حتى لقد قال : « اني لا اعفُّ عن أخذ ما أفيد منه حيثما وجدته » . فقد اخذ ملهياته من مؤلفين سبقوه ، كما ان الشخصيات الواردة في رواياته والمواقف والأحداث منقولة عنهم ، لكن نقد المجتمع الذي يتخلل كلمات أبطال الروايات في مختلف المواقف مستمد من تفكيره هو وينم عن قدرة عظيمة على النقد . وهكذا فان

عبقريته ـ كعبقرية شكسبير ـ انما تكمن في قدرته على معرفة ذوق اهل عصره. ومعرفته بما يخالج صدورهم ويجول في نفوسهم .

ولا ينحصر ذلك في ميدان الفن ، بل يسري أيضاً على الفلسفة وعلى كل عمل عظيم خلاق ! إذ تلتقي فيه عناصر خارجية مع أخرى تفرزها الذات ليخرج من ذلك كله مزاج جديد تستطيع العوامل الشخصية فيه اخفاء الكثير مما تسرب اليه من خارج . هنا مناط العبقرية وهنا يكمن سرها .

ان كل فيلسوف هو هو الذي يصنع فلسفته بنفسه ، وكذلك كل صاحب نظرية خلّاقة وكل صاحب مذهب مبدع . لا تصدقوا العكس أبداً . فهو لا يجلس على اريكته هادئاً صامتاً ليتلقى توجيه سلفه ووحيه ويُحمل على تياره مستسلماً خاضعاً ليس له من الأمر شيء ، و انما هو يُعمل عقله في فهم اغراض سلفه وسبر أغواره في محاولة لتجاوزه ولسان حاله يقول :

اني وان كنت الأخير زمانه　　　لآت بما لم تستطعه الأوائل

لكن مؤرخي الفلسفة التقليديين لا يشاطرونه هذه المشاعر الفياضة وهذه الدعاوى العريضة . فهم اذ يكتفون ـ كعادتهم ـ بالنظر الى المظهر الخارجي للبناء الذي أفنى عمره وأكل أعصابه واستنزف دمه ، يرقصون طرباً وقد عثروا على الأسباب الموجبة لتوجيه تهمة الانتحال إليه بعد أن اطلعوا على التقارير وادلة الاثبات التي رفعتها شرطة كيماويي الأفكار وخبراؤها الى المراجع المختصة . وبكل ثقة بالنفس واعتداد بالذات يجردون صاحبنا من جميع حقوقه وامتيازاته ويعلنون على رؤوس الأشهاد : نحن على علم بمصدر فلسفته وبالموادّ الأولية التي أنشأ منها مذهبه . واننا نعرف ايضاً كيف تم البناء . يا للجريمة النكراء ! يا للجريمة الشنعاء ! خذوه فغلّوه ، ثم الجحيم صلّوه ، ثم في سلسلة ذرعُها سبعون ذراعاً فاسلكوه : انه كان لا يؤتمن على آثار غيره بل لقد كان ينتحلها لنفسه ، فيأخذ كلمة من هنا وعبارة من هنا ، ويقول انما مؤلفها أنا . . .

وهكذا لا يهنأ لمؤرخنا المحترم بال حتى يُجرِّد هذا الفيلسوف المسكين من جميع حقوقه في مذهبه نزولاً عند رغبة الزبانية . ويتنافس المؤرخون الآخرون في طعن الضحية بحرابهم والتمثيل بها وسلب كل درّ ثمين من

جيوبها ، عبرةً لكلٍ من تسوّل له نفسه الامارة بالسوء ان يحذو حذوها أو ينهج نهجها ، ونَكالاً من زبانية لا تأخذهم في « الحق » لومة لائم ! والمؤرخ المؤرخ هو ذلك الذي يطعن أكثر من أخيه ويمضي في المُثلة الى شوط أبعد مما ذهب فيه . وكلما كانت قوة الرؤية في مجهره أكبر ، والدقائق التي يطل عليها منه أضخم ، كان ذلك أدعى الى تصفيق الزملاء واعجابهم بمنهجه « العلمي » الدقيق . وهنا تدخل الاطماع والحزازات وحب الظهور ، وهنا يظهر التشفي والتعصب وتتغلب الضّغائن والأحقاد . وويل للضحية إذا كانت من ملة غير ملة أخينا النقادة المحترم ، ومن مجتمع غير مجتمعه ، وكانت تنتمي الى عصر غير عصره . هنا الطامّة الكبرى ! فالحكم مبرم ، والأحكام المبرمة لا رجعة فيها .

ولله درُّ الفيلسوف الفرنسي الكبير هنري برغسون اذ يتصدى لهذه المسألة التي يتورط فيها كثير من مؤرخي الفلسفة « الرسميين » ، فيعالجها باقتناصته الباطنة ومنطقه الساحر الأخاذ ، وبروح التعاطف والمشاركة التي اتسم بها مذهبه . فلا يفهم العظيم إلاّ عظيم مثله يحياه ويعانيه ويستنطقه ويعقد الحوار معه . وهيهات لغيره ان يفعل . فأنّى للضفدع ان يطاول الأسد !

فبرغسون يرى ان في كل فلسفة رؤية اصيلة يمضي القاريء نحوها مباشرة بعيداً عن منطق التأثير والتأثر ، وبذلك يتمكن من رؤية الشعاع المركزي الذي يضيء جوانب المذهب كله . ومن ثم فان المؤرخ التقليدي يخطيء عندما يركّب المذهب الفلسفي ـ أياً كان ـ من تصورات اشلاء مستهلكة مصنوعة من قبل ـ انها تصورات قديمة مضى عهدها لا تصلح لتفسير ما في المذهب الجديد من نبرات وظلال والوان ومعان ودلالات تتشابه على العين غير المدربة .. لقد دارت في الأذهان كثيراً ولاكتها جميع الأفواه ففقدت خصوصيتها وتوقف نبضها . ان هذه التصورات المتحجرة من شأنها ان تفسد على المؤرخ الكفء الاتجاه نحو الرؤية المولدة لهذه التصورات ، نحو الشعاع المركزي الذي منه يمكن معاينتها في دفقها الغض الأصيل . وهو

يخطىء أيضاً عندما يرد مذهباً فلسفياً ما إلى مذهب أو أكثر ، مدعياً ان هذا المذهب أو ذاك معروف فيما سبق من المذاهب ، وسيراً على قاعدة لا جديد تحت الشمس ، بينما المذهب كلٌ عضويٌ واحدٌ تتداخل أجزاؤه فيما بينها كما تتداخل اجزاء الكائنُ الحي . فكما ان في كل جرثومة حية فكرة موجهة وخالقة ـ والتعبير لكلود برنار ـ يخضع لها الكائن الحي في تطوره ، كذلك لكل مذهب فلسفي فكرة موجِّهة تدفع الفيلسوف من طور إلى طور ، حتى تهيء له الصورة الفلسفية الأخيرة التي استقر عليها في نهاية المطاف . وهذه الصورة فريدة في نوعها ، ولا سبيل إلى ردّها الى صور أخرى .

وبعبارة أخرى ، لكل مذهب ـ فلسفي أو غيز فلسفي ـ مظهر خارجي قد يشترك فيه قليلاً أو كثيراً مع بعض المذاهب الأخرى ، وله أيضاً نقطة داخلية مركزية هي جوهر المذهب وهي أساسه وهي روحه ، وهي هي التي انما يجب البحث عنها بعد قراءة المذهب واعادة قراءته من جديد ، كيما نستقر نحن معاشر الذين ننظر اليه من خارج ، في فكر الفيلسوف وننفذ الى أعماقه ، بدلاً من الدوران على مظهره الخارجي الذي لا يُغني من مذهبه الحقيقي شيئاً . وهذه النقطة هي التي ما فتيء الفيلسوف طوال حياته يرغب في ان يكشفها لنا ويميط اللثام عنها . فهو يكتب ويكتب ، ثم يعاود الكتابة من جديد عساه يصل إلى التعبير الدقيق عنها، وكثيراً ما يخفق في هذا السبيل . فكلما نزع عنها حجاباً وجد تحته حجاباً . لقد تكاثرت الحجب والأغشية حتى ليكاد يقضي عمره كله ولا همٌّ له ولا هاجس إلا كشف ما يرين على هذه الفكرة الموجهة البسيطة من غواشٍ ، وايجاد الانسجام والتناسق بينها وبين الوسائل التي في متناوله للتعبيرعنها .

وهكذا ، فليس أمعن في الخطأ من فهم المذهب بطائفة من المفاهيم الممضوغة والتصورات المصنوعة من قبل ، بينما كان من الضروري تمزيق الحجب التي تحيط بالتصورات والمضي قُدماً إلى باطن المذهب للوصول إلى البؤرة أو النقطة المركزية التي جهد الفيلسوف في إظهارها والتي بها إنما ننفذ إلى عالمه ونقتحم أجواءه ، وإلّا رجعنا بخفّيْ حنين . ومعنى ذلك أن برغسون يدعونا إلى أن نقبل على دراسة الفيلسوف بروح من التعاطف

والمشاركة الوجدانية ، إلى أن نقتنصه من باطن ، بأن نعانيه ونحياه ، وبهذا الطريق وحده نستطيع أن ننفذ إلى الرؤية البسيطة الواعية التي تكمن وراء التصورات ، فنقف من ثم على الاتجاه الأصلي الذي انبثقت منه فلسفته ومذهبه في الكون والحياة والمصير . وما جميع كتابات الفيلسوف وتصانيفه ومؤلفاته إلا محاولات دائبة لصياغة هذه الرؤية وعرضها في حلة قشيبة . وهو قد ينجح في التعبير عنها ، لكنه قد يخفق أيضاً ، فيكون بذلك قد زاد مذهبه تعقيداً [1] .



فالفيلسوف ـ وهو كائن يتميز من غيره بالارادة وتُضج الوعي ـ ليس صخرة صماء تجري عليها أحكام الضرورة العمياء . انه إنسان ، بل انه إنسان أكثر من كل إنسان . ان له شخصية متمردة تتميز بإرادة واعية وتفكير مستقل ، وهي تصبو إلى التعبير عن ذاتها بمختلف أشكال التعبير ، وإلى فرض وجودها بشتى الصور والأوضاع لتثير الأذهان من حولها وتحرك العقول والمدارك ، وتمدّها بالطاقة اللازمة لاحداث التغيير المطلوب والتفجير الفكري الثوري المنتظر .

في كل وقت توجد حركة فلسفية ، فلا يخلو منها زمان أبداً . لكن الفيلسوف الحق لا ينقاد لهذه الحركة بسهولة ، بل يعقد حواراً معها . ولئن حاولت فرض شروطها عليه ، فإن إرادته تظل قادرة هي أيضاً على مناقشة تلك الشروط أو نقضها . ان الجو العقلي المحيط بالفيلسوف لا بد أن يترك آثاره في هذا الفيلسوف ويساعد على تشكيله وصياغته بما يتلاءم وطبيعة هذا الجو وصبّه في القوالب المناسبة . لكن ذلك كله لا يمنع أن الفيلسوف يظل عاملاً هاماً في الحركة الفلسفية التي يحمله تيارها . فهو في كل كلمة يكتبها ، وفي كل فكرة تسنح له ، إنما يضيف إلى هذه الحركة عنصراً جديداً مليئاً بالعوامل الشخصية . لكنها ليست مجرد إضافة كمية ، وإنما هي تحول كيفي ،

---

(١) انظر د . مراد وهبة : المذهب في فلسفة برغسون،خاصة الفصل الثاني والثالث والرابع، فهذه الفصول الثلاثة كانت عمدتنا هنا وان كنا قد تصرّفنا قليلاً تصرفاً يقتضيه المقام .

إنما هي إعادة تنظيم القديم في ضوء الجديد ، وإطلالة متجددة عليه . إنها إثراءٌ له واغناء لمضمونه وتوسيع لآفاقه . انها قفزة في المطلق تتلوها قفزات وقفزات .

إن المشاكل التي يعالجها الفيلسوف ويهتم بإيجاد حل لها إنما هي دائماً تلك المشاكل التي تُثار في عصره ، أو على الأقل تلك التي يستشفها هو بقوة بصيرته مما يلوح وراء الأفق أو تموج به أحداث متوقّعة . كما ان العلم الذي يستخدمه الفيلسوف لحل هذه المشاكل هو علم زمانه . لذلك كان لا بد أن نعثر في آثاره على كثير من الآراء والأفكار التي ترجع إلى معاصريه وأسلافه . وقد يكون هو شاعراً بهذه الآراء والأفكار متنبهاً لها ، وقد تصبح جزءاً من تراثه دون أن يدري بها أو يعي أمرها . لقد انزلقت إلى الأعماق على حين غرّة منه فاختلطت بالنسيج والأمشاج حتى ضاعت معالمها . المهم أن آثاره ليست بنات أفكاره هو ـ وحده ـ وإنما هي نتاج جيل كامل من الأفكار تفاعلت في ذهن هذا الفيلسوف الذي كان ثمرة يانعة من ثمراتها . ان القضايا التي يعرضها تشف دائماً عن الأسئلة السابقة له أو المعاصرة . وكيف يكون الأمر غير ذلك والانسان لا يتأتى له أن يعالج الجديد ويشرحه ويعبر عما فيه ، ويضع له حلولاً واقتراحات إلاّ معتمداً على القديم ، وإلاّ مستخدماً لمشاكل قد أثيرت من قبل وحلول عولجت بها في عصره أو في العصور السابقة ، وبالتالي لا بد أن يستخدم العلم الأدب والفلسفة والتراث العقلي كله بحسب منطق العصر ومفاهيمه . هذه هي المادة الخام التي يجد نفسه مضطراً إلى استخدامها ليخلع على فكره صورة مفهومة ، كما يستخدمها كبار المفكرين الآخرين لاعادة تنظيم القديم على ضوء الجديد واستيلاده معاني جديدة لم تكن لتظهر لولا سلفها القديم الراحل . انها الجنين الذي عاش في أحشاء القديم وتغذى بما ينتقل إليه منه ، ولما اكتمل نموه انشق عنه وخرج بشبه المخاض بشراً سوياً . فكل تراث سابق إنما هو أداة بين صناع التراث اللاحق للتعبير عما يجيش في نفوسهم ووسيلة لاعطائه صورة حديثة معقولة ومقبولة في الأذهان .



والخلاصة لا يخلو مذهب من المذاهب من عدد لا يحصى من أوجه الشبه الجزئية بغيره من المذاهب ، بل لقد تكون وجوه الشبه هذه قوية إلى حد يفقأ العين ، ومع ذلك لا يعدو هذا ان يكون مظهراً خارجياً بحتاً . أما أساس المذهب وجوهره ولبّ لبابه فشيء آخر لا ينفذ إليه أسلوب النقد « الكيماوي » ، أسلوب تمزيق المذهب خرقاً وقصاصات تفقد كل قيمتها عندما تُنزع من عالمها . ولكي نفهم أساس المذهب وننفذ إلى روحه ونغوص في أعماقه ، لا بد أن نعيش مع صاحبه طويلاً ، ونحاوره ونشاطره - بنوع من الحدس الباطن والمعاناة الحية - الأفكار والمشاعر التي إنما تثيره وتجذب اهتمامه . وبعبارة أخرى ، يجب أن نحياه لنقترب ما أمكن من النقطة المركزية التي توجه أفكاره والتي قد نذر نفسه لايضاحها والتعبير عنها وفضّ مكنوناتها ، والافصاح عما تبشر به من كل جديد وطريف . فكل أجزاء المذهب تتلاقى في هذه النقطة المركزية ، موجّهة بها ، منعطفة إليها ؛ فتراها بتداخل بعضها في بعض ، ويلتف بعضها حول بعض ، ويأخذ بعضها بأعناق بعض ، وينصهر بعضها في بعض ، بحسب أوضاع هذه النقطة ومقتضياتها الآنيّة والمستقبلة ، وحاجاتها العاجلة والآجلة .

دعوا الفيلسوف في همومه وهواجسه ، فما يشغله لا يشغلنا ، وما يثيره لا يثيرنا ، والأشياء التي يكون لها معنى عنده قد لا يكون لها أي معنى عندنا . انه أسير عالمه الخاص الذي لا ينفك ينسجه في كل لحظة ونحن عنه لاهون . انه يسعى بيننا بجسمه وحسه ، لكن مسافات شاسعة تفصلنا عنه . ان نقطة واحدة تؤرقه وتنغّص عليه حياته ، وتستغرق كيانه ووجوده . فكل اسم يذكره فإنما هو عنها يُكنّى ، وكل دار يندبها فإنما دارها يعني . إذا كتب فإنما عنها يكتب ، وإذا دوّن شيئاً فإنما فيها يدوّن . ثم هو يكتب ويكتب ، ويعيد الكتابة والتدوين لعله يكون أحسن تعبيراً وأفصح بياناً . وهكذا تنصرم حياته بين التعبير وإجادة التعبير ، ولا همّ له إلا توضيح هذه النقطة والتزام الفكرة فيها ، والعكوف عليها بِكُنْه الهمّة أو التماس الوسائل الكفيلة بنقلها إلى الآخرين وإقناعهم بها واجتذابهم إليها ، بأفصح لسان وأوفى بيان .

تلك هي خلاصة رأي برغسون في الرؤية الباطنة للفيلسوف ، وهو رأي صائب جداً لو رجع إليه مؤرخو الفلسفة وساروا على منهاجه ، إذن لأنصفوا الفلاسفة ، ولوصلوا إلى نتائج جديدة هامة في دراساتهم وأبحاثهم ، وبالتالي لما ألقوا الأحكام جزافاً ذات اليمين وذات الشمال . فالنظر إلى الفيلسوف من خارج وبطريقة « التحليل الكيماوي » للأفكار كما لو كان شيئاً من الأشياء ، فيه افتيات عليه وفيه تضليل ، فضلاً عن أن الدارس له على هذا المنوال لن يظفر إلا بالفتات وسقط المتاع .



إن الفلسفة والعلم والحضارة لا تقوم إلاّ على تراث الأقدمين ، ولا يمكن تصورها بدون تراث الأقدمين . ولا غرو في ذلك ، فهي بناء رفعت لبناته تجارب الأجيال جيلاً بعد جيل . ولذلك فان جميع الحضارات تدين بالكثير مما فيها للاقتباس والنقل والاستعارة ، ولم يتطاول بناء الفكر والتراث إلا بالأخذ والعطاء .

فلقد أخذ الاغريق من كل حضارة سبقتهم ، حتى ليرى البعض ـ كما ذكرنا من قبل ـ انه لا يكاد يوجد شيء في الحضارة الاغريقية الكلاسيكية لا يمكن إرجاعه إلى أصول خارجية . ان المنقب في أصل الحضارة يجد ـ إذا أراد ـ أن جذورها تمتد بعيداً جداً في أعماق الماضي وتتشعب في أغوار التاريخ وما قبل التاريخ لتأخذ من مصادر شتى لا تقع تحت حصر . ولكن كل هذا لا أهمية له على الاطلاق في نظرنا . فالعبرة ليست فيما استفادوه من غيرهم من الأمم والشعوب والحضارات ، إنما العبرة فيما لم يستفيدوه من غيرهم ، وبتعبير أدق فيما لا سبيل إلى استفادته من الغير ، وأعني به حب الاستطلاع الشديد ، وسعة الخيال ، والقدرة الهائلة على استخراج العلاقات ، وملكة الاستنتاج والاستدلال ، والتحليل والتركيب . . . فالعنصر المميز للإغريق هو مرونتهم العقلية الشديدة وقوة خيالهم ومقدرتهم الخارقة على الجمع والتأليف . ولهذا فان الأفكار التي كانت تتجمع بعضها إلى بعض في أذهانهم سرعان ما تتفاعل ، فكانوا يخرجون منها بنتائج وحلول ليست في الحسبان ، بينما قد تظل لدى غيرهم من الشعوب متراكمة طبقات

بعضها فوق بعض يعلوها الغبار إلى يوم يُبعثون . ما قيمة الأفكار المستعارة إذا لم تقترن بالقدرة على التنظيم والتحليل والتركيب والجمع والتأليف واكتشاف العلاقات ؟ فليس من العار على الاغريق أبداً أن يستفيدوا من الفُرص التي قد خلقوا بعضها بأنفسهم وأتاح لهم كل من الزمان والمكان بعضها الآخر ، ولكن العار كل العار كان أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمام سيل المعرفة الذي فاض عليهم من كل مكان . ليست العبرة بالمعارف التي قد نهلوها من الآخرين ، وإنما العبرة كل العبرة بما فعلوا بهذه المعارف ، وأي النتائج استخلصوها منها . وهكذا فلئن استعارت حضارة الاغارقة شتى العناصر من الحضارات الأجنبية ، فانها في الوقت ذاته قد أعادت ما استعارته أضعافاً مضاعفة ، وبلغت في ذلك حد الاعجاز . فقد ارتفع الاغريق ببناء الحضارة إلى علو شاهق وأضفوا عليه جمالاً رائعاً وصفات خلاقة .

أجل ، ان النظر إلى الحضارة اليونانية من الخارج لن يجدي شيئاً . انه لن يقدم لنا سوى مجموع حسابي مبرقش من الصور الباهتة والأوضاع المقلوبة ، فضلاً عن أن ذلك من شأنه أن يبخس اليونان حقوقاً كثيرة ويجردهم من أخص خصائصهم التي اكتسبوها في مراحل التاريخ المختلفة ، وأما إذا نظرنا إليهم بحسب الرؤية الباطنة التي يبشر بها برغسون ومدرسته فستقع على أشياء في غاية الأهمية عند هذا الشعب العظيم . غير ان ذلك ليس غرضنا في هذا الكتاب ، لا سيما وقد تبارى الكثيرون في الاشادة بالفكر اليوناني والمعجزة اليونانية ، وجنّدوا جميع طاقاتهم لاظهار مآثر الحضارة اليونانية وفضلها على الفكر العالمي ، وكان كل غواص يخرج بدُرٍّ جديد حتى لم يتركوا زيادة لمستزيد أو كادوا . كيف لا وتاريخ أثينا يعني تاريخ أوربا وإضافة أمجاد جديدة إلى أمجاد أوربا ، وفي ذلك ما فيه من تسويغ للهيمنة الاوربية وتوكيد لحقها التاريخي في السيادة على العالم . إن غرضنا في هذا الكتاب أن ننفذ إلى أعماق الفكر العربي الذي قلّ منصفوه وكثر جاحدوه ، وقد آن له أن ينتصف لنفسه وعلى أيدي أبنائه . وسنسهم بنصيبنا المتواضع في هذا السبيل ما وسعنا الأمر ، إيماناً بتاريخنا وتراثنا . ولن نكتفي بمنهج برغسون بل سنضيف إليه منهجاً آخر يمكن الانتفاع به أيضاً في دراسات

أخرى لا تنحصر في الفكر العربي . ومن يدري ؟ فلعلّ في هذه الاضافة ما يفتح الأبواب مشرّعة لاضافات أخرى ستشهدها هذه المنطقة غداً ، وان غداً لناظره قريب . . .



ولنعد إلى السؤال الذي طرحناه سابقاً دون أن نجيب عنه إجابة شافية : هل (المعجزة اليونانية) وليدة التأثيرات الأجنبية التي هبت رياحها على بلاد اليونان من مصر والهند وبلاد ما بين النهرين ؟ ان كثيراً من مؤرخي الفلسفة يظنون ذلك ، لكن هذا الظن سطحي جداً لا يغوص إلى الأعماق . فمهما بلغت هذه التأثيرات من القوة فانها لا تستطيع أن تفسر لنا الظاهرة اليونانية الفذة . لذلك كان لزاماً علينا ونحن نتصدى للحديث عن الخصوبة والثراء في العقلية اليونانية ألا نهتم فقط بما تعرضت له من مؤثرات خارجية لا سبيل إلى نكرانها ، بل أن نُبدي أيضاً مزيداً من الاهتمام بالقوى الداخلية العارمة التي استقبلت هذه المؤثرات والتقحت بها ، والا كان مثلها (أي المؤثرات) كمثل البذور تلقى في أرض سبخة لا ينبت فيها حرث ولا زرع .

إن هذه المؤثرات تذرع الأرض ذهاباً وإياباً كل يوم تطلع فيه الشمس ، فَلِمَ اختصت بالفعل والانتاج في بلد بعينه في وقت بعينه دون سائر البلاد الأخرى رغم ما يعاني هذا البلد المختار من فقر وحرمان ؟ ثم ما هي الحاجات التي حققتها والمتطلبات التي عبرت عنها ؟ ماذا صنع أهل هذا البلد بها وأي النتائج استخلصوا منها ؟

فإذا أجبنا عن هذه الأسئلة ونحوها قطعنا شوطاً طويلاً في فهم (المعجزة اليونانية) وعرفنا الشيء الكثير عن القوى التي لا يتم اللقاح إلاّ بها ، وإلاّ ارتدّ عنها خاسئاً حسيراً . وعلى كل حال ، لن نقف عند هذه المعجزة ، وإنما سنقف وقفة طويلة عند معجزة أخرى هي (المعجزة العربية الاسلامية) . نعم (المعجزة العربية الاسلامية) رغم ما تحدثه هذه الكلمة من صدمة لأصحاب المشاعر « الرقيقة » الذين لا يتصورون وقوع المعجزات في أي بلد لا يمتّ بصلة النسب والقربى إلى الجنس الأبيض المختار . فَذَرْهم وما يظنون ذرهم يخوضوا أو يلعبوا حتى يطأطئوا الرؤوس لهذه المعجزة ويحنوا

لها الهامات ، وسيجثون على ركبهم صاغرين ! فما (المعجزة اليونانية) سوى واحدة من (معجزات) كثيرة سبقتها وأعقبتها . فالتاريخ حافل بالمعجزات ، وإلا لم يكن تاريخ،فلا تاريخ بلا معجزات . فإنما التاريخ تاريخ للمعجزات ، وإلا كان مجموعة قصص وحكايات ، وكتل من الأنفاس والحركات ، وأجسام تدب على الأرض كالحيوانات .

إن وجود المعجزة لا يمنع أن تكون البيئة التي حدثت فيها هذه المعجزة ميشبعة بالعناصر الأجنبية ، بل ان هذه العناصر ضرورية أحياناً لاكتمال دورة حياة المعجزة ، ولكنها (أي العناصر) تظل مادة خام لا تضر ولا تنفع . إنها إنما تنتظر العقل الذي يستخدمها ويسخرها لأغراضه وحاجاته ، العقل الذي تحدث فيه الصدمة المطلوبة . ويبدو أن هذه الصدمة لا تحدث كيفما اتفق . فليست جميع العقول تنفتح للأفكار ذلك الانفتاح الذي يؤدي إلى حدوث الصدمة ، وليست جميعها مهيأة لهذا الانفتاح في كل زمان ومكان . إلا أنه يبدو أن عصور الانتفاضات والثورات والمعجزات الكبرى في التاريخ هي أكثر من غيرها مؤاتاه لشحن العقول والاذهان وتفجير الطاقات فيها . إنها أقدر من غيرها على كشف المواهب والعبقريات واستفراغ ما فيها من جهود وإمكانيات ، واستجاشة ما تنطوي عليه من قوى كامنة مضغوطة تنتظر الشرارة الأولى لتنفجر وتثور كالبركان . إن هذه المواهب والعبقريات تكون راكدة في ظروف الحياة العادية يعلوها الغبار والصدأ،لكن ما ان تسمع المنادي حتى تهبّ من رقادها ، ما أن يجلجل البطل بصوته وتتردد أصداؤه في الآفاق ، ما ان يؤذّن للناس بالثورة والاصلاح ، حتى يأتوه رجالاً وركباناً ويهرعوا إليه من كل فج عميق . لقد بُعثوا قوماً آخرين بعد أن كانوا غُثاء كغثاء السيل . لقد استدبروا عصراً واستقبلوا عصراً . لقد دان لهم التاريخ وأسلس لهم قياده .

ان جميع علوم الأرض لا تكفي لاحداث الانتفاضة ، بل لقد تحدث الانتفاضة مع انعدام المؤثرات الخارجية . فإذا حدثت عرفت كيف تجذب المؤثرات الخارجية إليها لتستدرك ما فاتها بسرعة خارقة . أجل ، إن العوامل الخارجية لا تجدي وحدها شيئاً ، وآية ذلك ان العلم الاوربي منتشر اليوم في

كل مكان لا تكاد تخلو منه لغة من لغات العالم ، ولا تكاد توجد عاصمة من العواصم في آسيا وافريقيا وأمريكا اللاتينية تخلو من جامعة من الجامعات ، ومع ذلك فان هذه الجامعات لا تزال تعيش على هامش الحياة اليومية لهذه البلاد . إنها في برزخ تجد نفسها عاجزة عن الخروج منه إلى الفضاء الواسع العظيم . فعلى الرغم من وجود الجامعات في العالم الثالث فاننا لا نستطيع أن نقول أن هناك مناخاً علمياً بالمعنى الحقيقي للكلمة . هناك معامل ومختبرات وتكنولوجيا مستوردة ولكن العلم لا يُستورَد ، وإذا استورد بالوسائل الصناعية ألى بلد فانه يقحَم فيه إقحاماً لا ينتج عنه أي ثمر. ان كثرة خريجي الجامعات لا تعني بالضرورة وجود علم يساوي عدد المتخرجين . ولا أدل على ذلك من أن الجامعات في أكثر دول العالم الثالث لا تنتج أرباب عقول ، وإنما هي تطرح في الأسواق أعداداً متزايدة من حملة الشهادات وموظفين في دواوين الحكومة . انها مطابع لطبع الشهادات لا أكاديميات للبحث وتخريج العقول . فالطلاب فيها إنما يعيشون بالغرائز لا بالمشاعر ، بالنقل لا بالعقل ، بالرواية لا بالدراية . فالفقر والمرض والطغيان وبلادة البيروقراطية في هذه البلاد ـ كل أولئك بهدر كرامة الانسان وقتل مواهبه . ولا يغرنّك أن يقبل الكثيرون من خريجي هذه الجماعات على الكتابة والتأليف ، فأغرقوا الأسواق بمؤلفاتهم التافهة الرخيصة التي تتملق ولا تخلق ، وتدافع ولا تعارض ، وتبرر ولا تعلل ، وتصانع ولا تتخذ المواقف الحرة الجريئة . وربما كان أحد أوبئة الحضارة الحديثة ان جعلت النشر سهلاً ميسراً واسعاً ، بعد أن كان في الماضي باباً ضيقاً لا يلجه إلا الجديرون الأكفاء الذين ينصبون ويتعبون ويرهقون الناس معهم عملا بالقول المأثور : « اجهدوا للوصول من الباب الضيق » !

قد أكون مسرفاً في التشاؤم وقد أكون مخطئاً في رسم هذه الصورة القاتمة المظلمة لا سيما واني رسمت في مكان آخر صورة أكثر إشراقاً . ومع ذلك فلا يكفي أن يظهر في بلد ما عملاق كغاندي أو نهرو مثلاً لنقول ان الهند قد انتقلت من العصور الوسطى الى العصر الحديث . ان المسألة اعقد من ذلك بكثير . فقد انجبت الهند حتى الآن رجلاً أو رجلين لكنها لم تنجب

رجالاً . لقد وقفت حيث تركها غاندي ونهرو أو تكاد ، ونامت على أمجادهما ثم انصرفت الى المشاحنات الداخلية ظناً منها ان نجماً أو نجمين يكفيانها في السُرى الطويل ، بينما جارتها الصين تسطع فيها الآن نجوم ونجوم . انها تقذف بالرجال تلو الرجال ولا تزال تطلب المزيد . لقد تخرجا في مدرسة استعمارية واحدة وعانيا من حرمان واحد ، فما ان جلا المستعمر عنهما حتى سلك هذا فجاً وسلك الآخر فجاً غيره . فليت شعري ! علام يدل جميع ذلك ؟ ليست العبرة بعدد السكان ولا بالمساحة واتساع اكناف البلاد ، ولا بالثروة القومية والموارد الطبيعية . . . لكنما العبرة بشيء لا يقاس ولا يُكال ولا يُدرك بالأعداد والأرقام . العبرة بارادة الحياة، والسلام!مهما تكن هذه العبارة عامة وتحتاج الى شرح طويل !

ان العصور التي تقع فيها المعجزات وتحدث الانتفاضات والثورات هي عصور التحولات الكبرى ، ولكل تحول ظروفه وضروراته . انه ينجم عن مجموع العلاقات الاجتماعية والثقافية ، والاقتصادية والتاريخية السائدة ، وهي علاقات معقدة متشابكة لا يمكن تعقبها في تشعباتها الدقيقة ومساراتها المتعرجة التي تضرب في كل اتجاه وتذهب كل مذهب . هنا يأتي دور القائد البطل الذي يستوعب هذه العلاقات جميعاً في نظرة كلية شاملة ، ويستخلص منها ما لا يستطيع غيره استخلاصه. وبئس القائد يستبد بالعمل وحده . فالقائد الحق هو ذلك الذي ينشيء مدرسة من القادة من حوله تشاركه الحكم والمسؤولية فلا يترك رحيله فراغاً بعده .

ان التحولات الكبرى نادرة جداً في التاريخ . فلئن كانت هناك قوى كثيرة في المجتمع تتطلبها فهناك قوى أكثر تعارضها وتمنع تحقيقها ، ولا سيما إذا لم تنضج ظروفها بل كانت سابقة لأوانها . انها معركة تنازع البقاء . ولذلك ليس من الممكن التنبؤ بالتحولات الكبرى وتوقيتها بالسنين والأيام والساعات ، وان كان من الممكن الشعور ـ بنوع من الحدس الدافىء ـ بان شيئاً ما سيحدث . لكن ما هو هذا الشيء الذي سيحدث ؟ وعلى يد من سيحدث ؟ وكيف سيحدث ؟ ومتى سيحدث ؟ . . . فكل أولئك منوط بظروف وأحوال وأوضاع ومواقف لا يمكن

حصرها . وكل ما يمكن ان يقال في هذا الصدد : هناك مفاجأة ستحدث ، هناك قفزة ترتسم في الأفق ، هناك حدث عظيم ينتظر الرجل العظيم ، ومع ذلك فقد لا يحدث اي شيء من هذا القبيل لاسباب متعددة . فقد يُجهض الحدث لخطأ في التوقيت أو التخطيط أو لأن قوى المعارضة تقف له بالمرصاد ، أو قد لا يكون في الأفق أي حدث وانما هناك آمال وآماني وعواطف استبدت بالناس دون ان تتوفر ظروفها الموضوعية ، فالتبست بالأحداث العظام . . . وعلى كل حال ، إذا سارت الأمور على ما يرام ، ووقع الحدث العظ اء معه الرجل العظيم ، جاء أيضاً موكب من الرجال وجاء الرجال تلو الرجال . تتوالى الرجال بعد الرجال حتى تخبو الجذوة وتنطفىء الشعلة ، فتدول الا ة وينتقل الأمر إلى غيرها . وهكذا تتوالى الدول والأمم ، وتنطفىء شعلة توقد شعلة ، وتنشط عقول وتجف عقول ، وتعلو أقطار وتهوي أقطار . تى يند مي الزمن وتنصرم الأيام . وفي ذلك عبرة لكل معتبر .

وهكذا فقد تصدق الانتفاضة وتصح عزيمتها وقد لا تصدق . فما أقل الانتفاضات وما أكثر الحركات التي تلتبس بها ! إذ ان الأمر لا يعدو في كثير من الأحيان ان يكون زبداً راغياً . لقد تمخض الجبل فولد فأراً . فكما يتشابه الأمر على الطبيب النطاسي فيخلط بين الحمل الصحيح وانتفاخ البطن بالمرض والغازات ، كذلك كثيراً ما تحدث انقلابات وفتن وحركات تمرد يحسبها المتشوف الملتاع ثورة حقيقية عارمة ، حتى إذا جاءها وجد الاطماع وتجار السياسة وسماسرة الحكم وجماعات المرتزقة . كسراب بقيعةٍ يحسبه الظمآن ماءً ، حتى اذا جاءه لم يجده شيئاً . فللثورة امارات قد تلتبس حتى على المختصين . وقد يبرز عدة رجال فتكتمل الخديعة ويصعب التشخيص . فما تُغني الرجال في واد بلقع وأرض موات ؟ « الأمور مرهونة بأوقاتها » كما يقول أشياخنا . فاذا أضفنا إلى هذه الثورات الكاذبة ما ذكرناه من امكانية خنق الثورات الحقيقية واجهاضها قبل ان تولد ادركنا صعوبة الثورات وندرتها واستحالة ـ أو شبه استحالة ـ التنبؤ بها ، وعرفنا مدى التضحيات التي تبذل في طريقها والأرواح الزكية التي تزهق في سبيلها . فما اسرع ما تُسرق الثورات وتُغتال !



الانتفاضة اذن هي الحدث الكبير في حياة الأمم والشعوب . انها حدث الأحداث وقُدس الأقداس، وجميع الأحداث بعدها إنما هي أحداث صغار . فكل جامعات العالم لا تكفي لانثيال الفلاسفة والعلماء وقادة الفكر والرأي إذا لم تكن انتفاضة . فهؤلاء محصورون في بؤر ضيقة جداً من العالم ليست شيئاً مذكوراً في حساب المعمور من الأرض . هنالك الولاية للعلم والفكر وهنالك فقط تؤتي الحضارة أُكْلَها ويينع ثمرها ، هنالك فقط تتفاعل العقول وتتلامح ، وهنالك يُصنع التاريخ ، ولا يعود ذلك إلى اسباب عرقية عنصرية ، وانما هو يرجع الى ظروف موضوعية ، استجاشت الانتفاضة وتكونت بفعل الانتفاضة في آن واحد ، وبالانتفاضة انما تستيقظ العقول وتتفتق المواهب وتتفجر الطاقات . هنالك تحدث المعجزة ويخرج المارد الجبار من قمقمه . هنالك ينبسط الطريق ، وتتفتح الأبواب ، وتزول الغواشي والحجب ، وتتضح الرؤ ية ، وتتوالى قوافل العظماء . فالرجل العظيم - وما أكثر العظماء في عصور الانتفاضات - لا يحتاج إلا إلى الشرارة ، وهو بعد ذلك يتولى الباقي . انه يتلقى اشارات وتنبيهات ، ثم ينطلق في الدرب وحده ليقتحم المعاقل بنفسه ويفتح المغاليق . فالنبضة ان لم تكن نبضته هو فمن اين عساها ان تأتيه ؟ انه منذ الآن - وهذا أخص خصائصه - عقل لَماح يكفيه القليل ليستخلص منه الوافر الكثير . . .

فليس من القسط اذن ارجاع كل ظاهرة حضارية جديدة في بيئة من البيئات - ونقولها للمرة المئة - إلى عوامل خارجية صرف واهمال العوامل الداخلية التي هي كل شيء في هذه الظاهرة . إذ لا فكرة من الأفكار ترد من الخارج وتسعى ليكون لها سلطان على الناس من الداخل ، دون ان يكون لها مبرراتها ومقتضياتها الداخلية الموضوعية وما لم يكن لها فيهم وجودٌ ما بالقوة . فالعامل الخارجي انما يوقظ العوامل الداخلية - ان وُجدت - ويستحثها ويستجيشها ، ولكنه لا يخلقها . بل - ماذا أقول ؟ - ان الأفكار التي تُستعار من الخارج دون ان تؤخذ البنية الثقافية والتاريخية بالحسبان ، اثمُها أكبر من نفعها ، لأن من شأنها ان تؤدي إلى القضاء على روح الابتكار والنبوغ وإلى خنق الذوق الفطري لدى كثير من الناشئة ، وان أرضتهم - وهذا من افدح أخطارها - بالحصول على بعض

الشهادات والألقاب ، فقتلت طموحهم بتولي بعض المناصب الكبيرة والتمتع بمكتب في الديوان مجهز بأثاث فاخر وثير . لقد كانت وبالاً عليهم كما يكون الماء البارد العذب وبالاً على العطشان إذا شَرِق به فمات ، أو اجترعه وجسمه يتصبب عرقاً . لكن هذه الأفكار ذاتها تكون غذاءً دسماً لبلد يعيش انتفاضته ويحقق أحلامه ويرقص ويهزج . ها هنا وادي عبقر ، الوادي المعشوشب المراع ، وادي الآمال والأحلام ! وهنا فقط تتمخض الأحداث عن مولود جديد . . .

وهكذا فبانعدام الانتفاضة الداخلية لا يُغني المدد الخارجي شيئاً . انه لا ينتج إلا الشوك والعلقم . هذه هي سُنّة التاريخ وذلك هو حكمه ، ولا معقِّب لحكمه . فهو لا يستقر في بلد فريد مختار يبقى فيه الدهر كله ، وانما هو حُوَّلٌ قُلَّبٌ جوّال ، لا يكاد يستقر به مقام ، بل يتبع انتفاضات الشعوب وتفجر الاحداث فيها . فلا يكاد يحل ببلد حتى يغادره إلى آخر على خطوات منه أو يقبع في أقصى الأرض . فإنما الأيام دُوَلٌ بين الناس .

ولا يشذ تاريخ العرب عن ذلك . فلقد أتى عليهم حين من الدهر كان التاريخ فيه طوع بنانهم ، وكانت لهم وحدهم زعامة الفكر ورياسة العلم واستبحار الحضارة والعمران ، بحيث لا يمر علينا يوم دون ان تكشف لنا فيه اعمال البحث والتنقيب بين المخطوطات إنجازاً هاماً للعرب ومأثرة من مآثرهم في العلم والفلسفة ومناهج الفكر والرأي ما سمعنا بها من قبل نحن ولا آباؤنا . ولا ينكر ذلك إلا مكابر جاحد للمعقول والمحسوس . فللعرب مواقف فكرية رائعة لن يسع المتعصبين العنصريين التشكيك فيها إلا بالمكر والمراوغة كعهدنا بهم دائماً .

لقد كانت الذريعة الدائمة المتكررة ان نظام التصورات اليوناني كان هو الأساس لجميع الأعمال الفكرية العالية المتكررة التي قام بها العرب ، وان المبادىء الفلسفية والآراء التي جاء بها هؤلاء إنما هي ترجمة مشوشة لفلسفة اليونان ومنطق اليونان والمنهج اليوناني . فليس للعرب قدرة على التفكير الأصيل ، وليست لهم أي إضافة هامة مستقلة عن اساتذتهم اليونان . هذا ما يردده الباحثون الغربيون باستمرار ، وبهذا تأمرهم أحلامهم ، حتى ملَت الأسماع منه وصدئت الآذان لتكراره .

ليسوا سواءً . منهم أمة أخطأت الاجتهاد وتعجلت الحكم فلم يحالفها التوفيق . وكان ما وصلت اليه جُهد المقلّ . فلا جناح عليها في هذه الحال ما دامت سليمة القصد والغاية رائدها البحث عن الحقيقة الخالصة . فينبغي علينا ألا نجحد فضل هؤلاء الباحثين الطيبين رغم اختلافنا معهم في الرأي . فلئن كان منهجهم العلمي لا يعجب البعض لأنه موضوعي جداً ولأنه يعتمد كثيراً على التحليل والتدقيق والمقارنات المتعجلة والأحكام غير المتعمقة ، أو لأنه يستند كثيراً الى اللمحات البعيدة واللوامع الرائعة أكثر من اهتمامه بالوثائق والقواعد المنهجية الدقيقة ، ويحفل بالفروض أكثر مما يُعنى بالوسائل الكفيلة بتحقيقها على أصول راسخة ، فان بعض تعميماتهم السريعة ونظراتهم اللماحة التي بدت لأول وهلة مسرفة في الخيال انما يشفع لها صدق عزيمة اصحابها واستعدادهم للرجوع عنها عندما يظهر لهم بطلانها . فليست عندهم أفكار عنصرية سابقة مدمرة . هذا فضلاً عن ان دراساتهم قد وجهت البحث وجهات جديدة ودفعته في آفاق جديدة ما كان يمكن الانتباه اليها لولا منهجهم العلمي واقباسهم الوضاءة التي جاء الكثير منها موحياً أكثر منه مقنعاً . وان تقدم البحث العلمي في حاجة إلى كلا النوعين من الباحثين : أصحاب المنهج الدقيق واصحاب النظرات اللماحة والاقباس الوضاءة والفروض الخصبة . فان هؤلاء وأولئك سيظلون أعلاماً خفاقة في طريق البحث الدقيق العميق والفهم الناقد والادراك الموحي والوجدان المشبوب . انهم ذخرنا ورصيدنا وحملة مشاعلنا في أوربا ـ التعصب والاضطغان على العرب ، أوربا المصابة بعقدة العرب .

نحن لا ننكر ان الانتاج الحقيقي للعرب في ميادين المعرفة المختلفة ـ لم يبدأ بالفعل إلا بعد مرحلة النقل . وهذا أمر طبيعي له سوابق ولواحق متعددة . فان عصر النهضة الحقيقي في أوربا لم يبدأ هو أيضاً إلا بعد اطلاع علمائها وقادة الرأي فيها على آثار الحضارات السابقة ، وفي مقدمتها الحضارة اليونانية والرومانية والعربية ، ونقلها إلى لغاتهم المختلفة . ولا تثريب عليهم في ذلك . فقيمة الحضارة اللاحقة وجوهرها وغائيتها ليست فيما ورثت من الحضارات السابقة بقدر ما هي في طريقة إغناء ما ورثت وتغييره وتكييفه بحسب أغراضها وانماط الحياة فيها . اجل انها ليست فيما أخذت بقدر ما هي فيما أعطت وأضافت إلى

تراث الانسانية من عناصر وآثار وثمرات عمَّ نفعها وانتشرت في كل أفق خيراتها ، وكانت بذوراً جديدة لحصاد وافر وجني جديد .

ولم يُقصِّر العرب في ذلك أبداً بل لقد أضافوا إلى ما ورثوه كل خصب وجديد كما سنرى في كتابنا (آفاق الفكر العربي) . فالنّقلة الذين يعزو إليهم السطحيون يقظة الفكر العربي إنما كانوا مجرد أدوات مسخّرة لأغراض سادتهم الذين استقدموهم من أقصى الأرض ، وأغروهم بالمال والجاه والسلطان ، وتسابقوا في اقتنائهم والتجمل بهم ، وانفذوا البعوث والسفارات للبحث عن الكتب في الأقبية والزوايا في المكتبات العامة والخاصة ، وعقدوا المعاهدات لحيازتها، وجعلوا الحصول عليها شرطاً لوقف القتال وجزءاً من غنائم الحرب . إنها العوامل الذاتية هي التي كانت وراء حركة النقل القوية الجبارة والجادة في الاسلام ، وهي التي جعلت من النّقلة مجرد أدوات مسخرة للعمل ووسائل للتعبير عن الذات العربية الطالعة ، الذات الواعية الحرة المستقلة التي تتدفق بالقوة والنشاط وتحبيش بالامكانيات الفياضة والطاقات المتجددة ، والتي تريد أن تتحقق وتفرض نفسها وتصنع تاريخها بالعرق والدم والأعصاب ، فتركب كل صعب ، وتذلل كل عقبة ، وتقضي على كل عائق ، وتنطلق كالسيل لا يقف في وجهه شيء . ولا غرو في ذلك ، فهي ذات متوقدة متوهجة تتفجر بالطاقة والاشعاع . إنها حياة متجدّدة وقوة جياشة متوثبة تتدفق من بحر مزبد ، وأبدٍ لا يُحدّ ، وموج لا يكاد يُقبل حتى يرتد . ولولا انها كذلك لما حققت ما نطلق عليه اسم (المعجزة العربية) .

لقد وجدت هذه الذات غذاءها الدسم المتنوّع في آثار الأمم الأخرى العريقة في العلم والحضارة ، فأقبلت عليها تلتهمها التهاماً . وبعد مرور نحو قرنين أو يزيد من المواجهة الحضارية والاختلاط الثقافي ، تغير كل شيء في هذا المجتمع الجديد دون أن يتشرذم فكرياً أو يتشتت حضارياً . لقد تمالك على نفسه وظل محافظاً على وحدته ، ولم يتوقف يوماً عن العطاء والمزيد من العطاء . بل انه حتى في المرحلة التي يطلق عليها عادة اسم (مرحلة الأخذ والتمثيل) والتي تنتهي حتى أواسط القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) تقريباً ، تمكن المسلمون والعرب من تأسيس علوم كثيرة كالعروض والنحو وعلم أصول الفقه وعلم

الكلام وعلم الجبر والكيمياء والطب والموسيقى والفلك . كما اهتموا في هذه المرحلة أيضاً باجراء قياس دقيق لمحيط الأرض على غير طريقة إيراتوستانس التي كانت مأخوذة عن البابليين غالباً والتي كانت درجة صوابها مرهونة بالصدفة . وكتبوا في جغرافية الأرض ، وامتحنوا النتائج التي انتقلت إليهم من الاغريق ، كما توسعوا في قياساتهم للكرة الأرضية ، فأدخلوا مناطق جديدة لم يشملها القياس من قبل . وفي هذه المرحلة أيضاً استيقن العرب ان حسابات بطلميوس وأرصاده مغلوطة وان من الواجب المبادرة إلى تصحيحها وإعادة النظر فيها واستدراك ما فيها من نقص . كذلك تمكنوا في هذه المرحلة من قياس اختلاف أوجه القمر وإرساء قواعد علم الجبر واستعمال مناهج حسابية غير معروفة عند الاغريق . . . وأمسك عند هذا الحد قبل أن يجرفني اغراء الاستطراد إلى أبعد من ذلك والحديث عن أشياء سيأتي الكلام عليها مفصلاً في حينه .

وهكذا فلا صحة على الاطلاق لزعم البعض (ريتر Ritter مثلاً) ان جهود علماء العرب المسلمين قد اقتصرت على نقل ما تعلموه من أساتذتهم اليونان إلى الأجيال التالية بوفاء وأمانة . إن هذا الزعم ينقصه قبل كل شيء ذلك الفارق الكبير بين ما وصل إليه الأخلاف المسلمون في العصور المتأخرة وما كان شائعاً عند الأسلاف قبلهم بعصور طويلة . فقد أدى بهم طول البحث والتنقيب في مصادر القدماء إلى نتائج هامة لا يجوز أبداً المساواة بينها وبين ما وجدوه في تلك المصادر الأصلية . فالتراث الذي خلّفه العرب شيء ، والتراث الذي انتقل إليهم شيء آخر . إنهما شيئان مختلفان كمّاً وكيفاً ،ولا يُسوّي بينهما إلاّ جاهل بهما معاً أو متعصب على أحدهما .

كذلك لا أساس للقول بهامشيّة الظاهرة العلمية في الحضارة العربية الاسلامية . وهذا زعم خاطىء أوحى به وقوف أهل السنة ـ أو جمهور كبير منهم ـ موقف المعارضة ـ بل الرفض أحياناً ـ من علوم الأوائل . يالله ! إن قبل المسلمون علوم الأوائل رماهم الناعقون والمرجفون بتهمة التقليد ، وان عارضوها ونقدوها وصححوها وعدّلوها وكان لهم رأي مخالف لليونان فيها ، أو وصلوا إلى نتائج لم تخطر لليونان على بال ، قالوا إن العلم العربي يعيش على هامش الحضارة الاسلامية.نحن في حيرة من أمركم يا هؤلاء ! هل تريدون أن يكون العرب

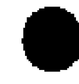
أسرى آلهتكم اليونان أم أن ينخلعوا عنهم ويتحرّروا من ربقتهم ويفكروا كما يشاؤ ون ؟ عجيب أمركم يا هؤلاء ! هذا كلام له خبيء ، معناه كراهية العرب ، والحقد على العرب . فلو جاؤ وكم بكل آية فلن تؤمنوا . قد بدت البغضاء من أفواهكم ، وما تخفي صدوركم أكبر .

ثم من قال لكم ان أهل السنة هم المسلمون وحدهم واللسان الناطق باسمهم ؟ أوتظنون حقاً انهم قد صبوا في قالب واحد هو قالب أهل السنة فقط كأن الله لم يخلق سواهم ، وكأن الاسلام مقصور عليهم وحدهم ؟ حتى الكاثوليكية فانها ـ رغم ما عرف عنها من تعصّب وإرهاب ديني وكهنوتي على رأسه البابا الذي ينطق وحده باسم المسيحية الرسمية ـ قد قامت فيها معارضة وقامت فيها تيارات وانشقاقات وانقسامات جعلت من الكنيسة الواحدة كنائس متعددة لم يستطع الجهاز الكهنوتي كله احتواءها أو القضاء عليها رغم ما كان يتمتع به من جبروت وسلطان . فإذا كان أمر الكاثوليكية كذلك فما يمنع الاسلام الذي لا يعرف نظام الكهنوت ولا سلطة لرجال الدين فيه ـ بمن فيهم الخليفة نفسه ـ إلاّ سلطة التوجيه والارشاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بلا إرهاب ولا إكراه ـ أقول فما يمنع الاسلام أن تقوم فيه معارضة وان تقوم فيه حركات وتيارات وانشقاقات وانقسامات لا حصر لها ؟ فالساحة هنا خالية من سلطة الكهنوت ، والظروف مهيأة لذلك أكثر جداً مما في المسيحية ؟ إن هذه الخلافات في نظري فيها إثراء كبير للفكر الاسلامي . انها دليل غنى وتنوع . انها أمارة من أمارات الصحة وليست أبداً عرضاً من أعراض المرض . نعم ، كان هناك في عصور الانحطاط تمزق وتفسخ ، ولكن التمزق والتفسخ شيء ، واختلاف الرأي وتعدّد وجهات النظر شيء آخر. وسنرى في كتابنا التالي أهمية هذه الخلافات من الوجهة السيكوسوسيودينامية ، والخدمة الكبيرة التي أسدتها لتطور الفكر الاسلامي العربي .

إن معارضة أهل السنة لعلوم الأوائل ، وهي معارضة لهم كل الحق في إبدائها ـ كانت مقصورة عليهم وحدهم ولم تكن تعبر عن رأي جميع المسلمين . ثم إنها كانت معارضة لفظية ، بمعنى انها لم تكن مصحوبة بمواقف إرهابية من قبل السلطات الحاكمة . فالحكام لم يضطهدوا المشتغلين بالعلوم الوثنية ولم يسعوا

للقضاء عليهم أو على علومهم ، بل لقد شجعوهم عليها ووصلوهم بالهبات والعطايا . فقد تبنى هؤلاء قضية العلوم القديمة ، ولم يدخروا جهداً ولا مالاً للبحث عنها في جميع مظانها ونقلها إلى لغتهم ، وفتحوا أبوابهم وصدورهم وخزائنهم لا للمشتغلين بها من أبناء ملتهم المسلمين وحدهم ، بل لجميع الملل والنحل والعقائد والديانات ، سواء آمنوا بالله الواحد أو بآلهة متعددين ، أو لم يؤمنوا بإله البتة .

يا للسماحة ! تُرى هل عرفت ذلك شعوب أخرى غير الشعوب التي قد دانت بالاسلام أو عاشت في ظله أو تفيأت بفيئه ؟ ومتى ؟ في صميم القرون الوسطى . لقد كانت عقوبة الاحراق بالنار في أوروبا تنتظر كل من تسول له نفسه الاشتغال بأي علم غير العلوم التي تسمح بها الكنيسة وكتبها الصفراء . حتى الكتاب المقدس لم يكن يباح لأحد أن يتصدى لشرحه أو الاجتهاد في فهمه بل يجب على كل أحد الالتزام الحرفي بما ورد على لسان آباء الكنيسة المعصومين عن الخطأ . إن أوروبا حديثة العهد بالتعايش بين الأديان والمذاهب ، كما ان التعصب لم يتسرب إلى المسلمين إلاّ في عصور التمزّق والتفسخ الأخيرة .



إن التراث العلمي القديم كان قبل الاسلام موزعاً في مراكز متعددة ، فلم يكن من القوة بحيث يتم الاتصال بين هذه المراكز اتصالاً إيجابياً فعالاً ينتج عنه تقدم الحركة العلمية تقدماً سريعاً مطرداً . فإذا بالاسلام بين عشية وضحاها يربط بين هذه المراكز ويعزز إمكانيات الاتصال والتفاعل فيما بينها . ولو لم يكن للمسؤولين - وعلى رأسهم الخليفة نفسه - اهتمام صادق بالعلم والعلماء لتعرقلت كثيراً مسيرة الثقافة العلمية في بلاد الاسلام . لقد كان بإمكانهم أن يقفلوا هذه المراكز كما أغلق الأمبراطور زينون مدرسة الرها سنة ٤٨٩ م والأمبراطور جوستينيان اكاديمية افلاطون في أثينا سنة ٥٢٩ م بحجة مخالفتها لتعاليم الكنيسة المقدسة ، ولكنهم لم يفعلوا .

ولئن دل هذا على شيء فإنما يدل على بطلان القول بأن العلوم العقلية ظلّت على هامش الحياة الاسلامية وان نشاط القلّة المشتغلين بهذه العلوم لم يتعدَّ في الغالب قصور الخلفاء والأمراء والحكام . فانتقال العلوم القديمة إلى العرب لم يكن

مجرد انتقال سلبي خامل ، وإنما كان نتيجة سعي إيجابي ومحاولات دائبة مستمرة للحصول على نفائس اليونان وغيرهم من الشعوب الأخرى ذات التقاليد العلمية والعقلية العريقة ، والاستحواذ عليها بأي ثمن كما تقدم معنا في فقرة سابقة . وقد أسفر ذلك عن نتائج في غاية الأهمية ، لا بالنسبة إلى الحضارة العربية الاسلامية وحدها ، بل أيضاً بالنسبة إلى الحضارة الانسانية قاطبة . ذلك بأن العلوم التي دُوّنت قبل الاسلام بلغاتها الأصلية قد صُبّت كلها الآن في بوتقة لغة واحدة هي اللغة العربية . ففضلاً عن الكسب الكبير الذي حققته اللغة التي خرجت لتوها من الصحراء فانتقلت من لغة السيف والبعير والنخيل إلى لغة العلم والفلسفة والحضارة - أقول فضلاً عن هذا الكسب العظيم فقد تحقق كسب آخر قد لا يقل أهمية عن الأول وهو حدوث تركيز ثقافي إنساني هائل لم يسبق له مثيل سواء في دار الاسلام أو في أي بلد آخر من بلاد العالم الواسع الكبير .

إن الحركات الفردية الهامشية لا يُكتب لها النجاح بل تظل جسماً غريباً ناشزاً يضر أكثر مما ينفع . إن أي حركة من هذا القبيل لا تؤتي ثمارها حقاً إلاّ بقدر ما تندمج في حياة الجماعة وتعبر عن تطلعاتها وآمالها وتكون جزءاً لا يتجزأ من أفراحها وأتراحها ، وهمومها وهواجسها . وإذا صح ان نشاط القلّة المشتغلين بالعلم من العرب لم يتعدَّ قصور الخلفاء والأمراء والحكام كما يدعي القائلون بهامشية العلم العربي فمعنى ذلك ان هذه القصور كانت على الأقل وحدها مسرحاً للعلم وحارسة له ، وبالتالي انها ستكون عاملاً هاماً من عوامل انتشاره وتشجيعه وليست عقبة في طريقه . فنِعْمَ العلم ينطلق من القصور ! وهذا لعمري شرف كبير لحكام العرب يدل على مدى نضجهم واستنارتهم وعدم وقوفهم حجر عثرة في طريق تقدم العلم والعلماء . فبئس الحاكم يقيم دولة الجهل ، ويخنق أنفاس الفكر ، ويحارب حرية الرأي والعقيدة ، كما كان حكام أوربا القرون الوسطى !

فلا هامشية ولا سطحية ، وإنما هي تيارات واتجاهات ومواقف تخترق الحياة العربية والحضارة الاسلامية والواقع الاجتماعي والعقلي الجديد من أقصاه إلى أقصاه ، وتعصف به طولاً وعرضاً وعمقاً حتى لا يبقى فيه جناح بعوضة لم يهزه الحدث الجديد ولم ينتفض بالواقع الفكري الجديد . فمن العجيب أن نحكم بالهامشية على حركة بارزة قوية كهذه الحركة التي لم تكن يوماً من الأيام حركة آنية

عابرة ، بل لقد استمرت مئات السنين ، وظهر المشتغلون بها ـ وما أكثرهم آنذاك ـ في أرجاء مختلفة من العالم الاسلامي ، وكانت لهم أصداء قوية تجاوبت في جميع جوانب الحضارة الاسلامية وما تضمنته هذه الحضارة من مثل الحرية وقيم الحق والخير والجمال .

إن اتصال هذه الحركة الفذة واستمرارها قروناً عديدة داخل جدران المدارس أو خارجها ، بل واحتفاظها المدهش بالمستوى العلمي الرفيع أجيالاً طويلة ، خارج مدارس الدولة ومؤسساتها ، ووصول العلوم فيها إلى درجة عالية نسبياً من التجريد والتعقيد والنضج بعد حركة الترجمة بوقت قصير ـ إن كل أولئك فيه تكذيب للقول بهامشية الحركة العلمية في بلاد الاسلام . وقد ظلّت هذه المسيرة مستمرّة حتى القرن الخامس عشر . وبينما كان علماء الرعيل الأول أكثرهم من المترجمين النساطرة واليعاقبة والصابئة السريان ، إذا بهم بعد مضي وقت قصير على المسيرة الطويلة ، من العلماء العرب المسلمين الأقحاح . فالمسيرة مسيرتهم هم ، ولم يكن السريان سوى مجرد أدوات عابرة فيها .

أرأيت إلى هذا التدرج الطبيعي في كل شيء في هذه المسيرة : الانتقال من البساطة إلى التعقيد ، من السطحية إلى العمق ، من أيدي السريان إلى أيدي العرب . . . ؟ أفلا يدل كل أولئك على فشل التفسير الهامشي ؟ فإذا أضفنا إلى هذه العوامل عوامل أخرى سنصادفها كثيراً في تضاعيف هذا الكتاب والكتب التي تليه أدركنا مدى التهافت والاسفاف الذي ينطوي عليه قول القائلين بهامشية الظاهرة العلمية في بلاد الاسلام . ولكن ما العمل ؟ فلو جئناهم بكل آية فلن يؤمنوا بها . فليس هناك من يقبل منهم بتعديل صورة وضع الاغريق التي اعتادوا عليها ، كما ليس هناك من يرضى منهم بتعديل صورة وضع العرب التي التصقت بأذهانهم وترسخت في عاداتهم وتقاليدهم . اللهم إلّا إذا استثنينا قلة ضئيلة منهم تطهرت من الأدناس والأرجاس ، وتخلصت من الأوشاب والأوضار والرواسب ، حتى لم يكن لهم دون الحق مطلب ، ولم يبقَ لهم سواه مطمع . وهيهات ان يقدر على ذلك إلّا الآحاد . إن ألفين وخمسمائة من السنين على الأقل ، قد سبقت عصر اليونان ، وهي حافلة بالأعمال والمآثر التي إنما تضع اليونان في منتصف تاريخ العلوم لا في أوله ، كما ان سبعمئة سنة أو تزيد قد

سبقت عصر النهضة في أوربا، فيها من الانجازات والمآثر ما يضع العرب في منتصف الطريق بين اليونان والأوروبيين . ولكن أولئك الذين في قلوبهم مرض لا يصدعون بالحق . انهم لا يريدون أن يتنازلوا عن حقوق السيادة العقلية لليونان على العالم بأسره . فلا فضل لأحد على اليونان ، كما لا فضل لأحد على أوربا إلّا اليونان ، وما أوربا سوى امتداد لليونان ، وثمار يانعة من دوحة اليونان . . . !! بهذا تأمرهم أحلامهم . لقد مَرَدُوا على التعصّب والاستعلاء والأنانية واحتقار الشعوب . هكذا كان دأبهم في القرون الوسطى ، وهو دأبهم اليوم أكثر من أي وقت مضى . وسيظلون كذلك حتى يرث الله الأرض ومن عليها.فما في الصدور لا تغيره السطور ، وما في النفوس لا تؤثر فيه النصوص ، إلّا قليلًا منهم فاعفُ واصفح ولا تأسَ على القوم الظالمين .



لقد مضى الهنود ومضى الفرس ومضى الاغريق في أعقابهم ، ولكنهم تركوا شيئاً لا يمضي ولا يزول ، بل يظل باقياً لا يبلى . لقد تركوا تراثهم لمن جاء بعدهم ، تركوا علمهم وفلسفتهم وأدبهم . . . تركوا خوالد لا يمحوها كرُّ الدهور ولا مرّ العصور . . . والمطلوب الآن ايجاد المناخ الصالح لاستنبات هذه الخوالد وإخصابها وتفجرها . المطلوب انتقال هذا التراث ، لأن انتقال التراث ـ إذا صادف تربة خصبة ـ فإنما يعني تحقيق نصف أسباب الحضارة ومقوماتها ، فرفقاً بالنصف الآخر .

وكان العرب على مستوى الحدث الكبير . لقد كانوا معه على موعد ، وأعظِمْ به من موعد ! لقد لبوا النداء ، وترددت تباشير هذه التلبية وأهازيجها في الآفاق . لقد وجدوا ضالتهم المنشودة وأعدّوا أنفسهم لِلقاء العظيم . لقد أقبلوا على تراث الأوائل وعبوه عباً ، ووقفوا منه موقف الوارث الشرعي . فنِعْم التراث ونِعْم الوارث ونِعْم الموروث ! .

أجل لقد أقبل العرب على هذا التراث لانتاج حياتهم العقلية وإنجاب المفكرين والفلاسفة والعلماء وأرباب الرأي والمشورة . فالفلسفة الاسلامية ، والعلم العربي لم يخرجا إلى الوجود إلّا من الاتصال المباشر بين الاسلام والنزعات الفكرية الاسلامية وبين ثمرات الفكر الأجنبي ومناهج العقل الفلسفي

الأجنبي ، ولا سيما اليوناني . إن كثيراً من المفكرين الاسلاميين قد نبغوا في عصر ترجمة الثقافات الأجنبية أو بعده بقليل . إن من الطبيعي أن تتغذى عقولهم وتتكوّن متأثرة بهذه الثقافات بحيث لا يكون تفكيرهم مبتكراً من كل وجه . ولكن أي عيب في هذا ؟ فاللاحقون هم على الدوام عيال على السابقين ، وهذا لا ينتقص منهم شيئاً البتة ، فلا تثريب عليهم فيه . إن النقل لا يقل أهمية عن الابداع ، وذلك لأن الابداع لا يستتم بغير لقاح ، مهما كان هذا اللقاح ضئيلاً . وبهذا المعنى ، فالثقافات جميعاً تلفيقية ضروروة في حداثة عهدها ، ابتكارية فيما بعد ، لأن التعليم إنما يبدأ دائماً من التقليد ، ثم يستقل بنفسه بعد ذلك إذا كان على ذلك من القادرين . ومن العبث أن يحاول المرء إبداعاً قبل أن يتلقى تعليماً جدياً . فإذا ما بلغت الأمة أشدها وكانت في مستوى ما هو متوقع منها ، طبعت بطابعها جميع أعمالها وآثارها ، وصاغت شخصيتها المستقلة الواعية . وكما انه لا توجد سلالة صافية ، كذلك لا توجد ثقافة (أو حضارة) خالصة لم تتأثر بغيرها ، صديقاً كان أم عدواً . فلا شأن للصداقة أو للعداوة في منطق التفاعل الحضاري . فكما ذكرنا من قبل ، ليس ثمة مثل على حضارة استقلت بذاتها أو نشأت على حيالها . فلا بُدّ لها من دم جديد يسري فيها باستمرار ، وإلّا دبّ فيها الانحلال والوهن . إن الحدود الثقافية غير الحدود الجغرافية . فإذا كانت هذه الأخيرة تنحصر في رقعة ضيقة من المكان ، فإن الحدود الثقافية لا يحصرها زمان ولا مكان . ولا غرو في ذلك ، فالثقافة إنما هي انفتاح وامتداد وتوسع وانتشار وراء الحدود والسدود بحكم قوتها الذاتية وفاعليتها الخاصة . انها تنتشر وتنتشر تبعاً لقواها الباطنة من جهة ، ولاستعداد غيرها لتقبلها من جهة أخرى . وقد اهتم علماء الاجتماع والحضارة بهذه الظاهرة التي يمكن تسميتها (سيولة العناصر الحضارية) وجعلوها منطلقاً لتفسير جميع التغيرات الحضارية التي حدثت في التاريخ . وأسرف بعضهم في هذا المذهب الانتشاري diffusionisme فردّوا جميع الحضارات إلى موطن واحد (وادي النيل ، أو بلاد ما بين النهرين ، أو شواطيء بحر قزوين) انطلقت منه بمحض الفعل الانتشاري وحده .

●

حذار من الأحكام الغالية المسرفة في الصميم . فإنه ليس من اليسير في

مجال العلوم الانسانية أن يقال على وجه التحديد ان فلاناً كان أول من نادى بكذا ، أو فلاناً قد تأثر به وأخذ عنه . إذ ينبغي علينا في مثل هذه الأحوال أن نحسب حساباً لوحدة قوانين الفكر وتوارد الخواطر وبالتالي إمكان وجوه الشبه بين باحث وآخر دون أن يأخذ أحدهما عن الآخر . فكما انه ليس بين العلوم علم واحد يصح أن يقال انه نشأ وتكوّن دفعة واحدة ، وإنما تضافرت عليه جهود كثيرة متلاحقة ، كذلك ليس من الضروري أن يكون لكل فكرة أصل واحد صدرت عنه . ففي ذلك إنكار لامكان توارد الخواطر والأفكار ، ورفض لفاعلية العقل وسَوْرته وتلقائيته الواعية المستقلة ، ومحو للخصائص الفردية للأشخاص .

فهناك عند كثير من الباحثين في الفكر العربي غلو وشطط في تلمس الأشباه والنظائر مع افتقار إلى الأسانيد المكتوبة أو الشفوية للدلالة على حصول تأثير وتأثر . إن فكرة التأثير والتأثر هي كما نعلم أساس كل بحث علمي دقيق جدير بهذا الاسم ، ولكنها من أخطر المزالق في يد الباحث الذي يتصدى لدراسة التيارات الفكرية والنظريات العلمية والفلسفية . فإن الفكر الانساني في محاولته الوصول إلى الحقيقة لا يخضع لقانون العلة والمعلول خضوع المادة الجامدة . فلا يكفي ظهور فكرة من الأفكار في فلسفة ما ، ثم ظهور هذه الفكرة نفسها أو ما يشابهها في فلسفة أخرى أو نظام فكري آخر ، للحكم بأن الثانية متأثرة بالأولى ، إلاّ إذا وجدت دلائل وقرائن مستمدة من الصلة التاريخية بين الفلسفتين ، وهذا أمر لا تسمح به المناهج الموضوعية بطبيعتها من التثبت منه ، فضلاً عن أنه كثيراً ما تظل هناك فروق جوهرية بين الرأيين اللذين يقال بتأثر أحدهما بالآخر . وفي رأيي ان قضية انتقال أفكار فلسفية من نظام فكري إلى نظام إاخر ، هي أعقد من أن تكون مجرد عملية مقارنة نصوص . فإن وجود قرابة بين طائفتين بين الأفكار لا تدل دائماً على وجود تأثير وتأثر ، ولذلك ينبغي على الباحث هنا أن يشير إلى الظروف التي يجري فيها اللقاء الفكري ، وأن يبرهن على احتمال انتقال فكرة ما من فلسفة ما إلى فلسفة أخرى . وهكذا فلا بد أن تؤخذ أقوال هؤلاء الذين يتلمسون الأشباه والنظائر بأشد الحذر ، لأنهم إنما تلمسوها تلمساً قد لا يخلو

من الافتعال والاقتسار ولاعتمادهم على مجرد التشابه العام دون أن يتثبتوا بالوثائق الكتابية أو النقول الشفوية الصحيحة ان المتأثر قد اطلع ضرورةً على من يقال انه أثر فيه وعرفه ونقل عنه . أما ان يقفز الباحث ـ الذي يحمل في ذهنه أفكاراً معينة يريد إثباتها كيفما اتفق ـ من مجرد التشابه إلى توكيد عملية التأثير والتأثر ، فأمر يجافي التحقيق الدقيق والمنهج العلمي السليم .

إن حكمة الحياة قد انتقلت عبر العصور من فم إلى فم ، وفي أحيان كثيرة قد أتت الحكمة نفوساً متعدّدة كلاً على حدة ، فأومضت لهم بما يشبه النَفْث في الرّوع وانثالت عليهم بالمعاني والأفكار التي تتشابه وتتقارب قليلاً أو كثيراً . هذا هو الالهام الذي يهبط [1] على عدد من المفكرين يعيشون في بلاد وأجواء تتشابه فيها المؤثرات والعوامل الاجتماعية والظروف النفسية ، ناهيك بوحدة قوانين الفكر للناس جميعاً في كل زمان ومكان . لذلك فإن مؤرخي الحضارات قد بدأوا منذ وقت قريب يقرّون بإمكان قيام أفكار متشابهة في دوائر فكرية متباعدة مستقل بعضها عن بعض ، وذلك تبعاً لنظريتهم المعروفة بنظرية التطور المتلاقي The theory of çonvergent Evolution. ذلك بأن كشوفاً علمية كثيرة ـ متطابقة أو متشابهة ـ قد وصل إليها باحثون مختلفون في أماكن متفرقة في وقت واحد تقريباً . والتفسير الذي يؤخذ به اليوم يتلخص في أن انتهاء مذهبين أو أكثر إلى نتيجة واحدة أو نتيجتين متشابهتين أو متقاربتين لا يعني دائماً أن أحدهما متأثر بالآخر ، بل قد يعني أيضاً ان صاحبي هذين المذهبين قد خضعا لظروف وأحكام نفسية واجتماعية و . . . واحدة ومتشابهة ، لذلك لا بد أن يفضيا إلى نتيجة واحدة أو إلى نتيجتين متشابهتين أو متقاربتين . وقد حدث ذلك في الماضي . فقد كان هناك ماضٍ مشترك من المعضلات والمشاكل ، فعمدوا الرواد الأوائل إلى إيجاد حلول واحدة أو متقاربة لها ، كيف لا والفكر الانساني واحد، والمصادر التي استقوا منها المعلومات واحدة أو متقاربة ، والضرورات الحياتية التي واجهوها

---

(١) اعتذر عن هذه الألفاظ الصوفية التي إنما اضطررت إليها اضطراراً لما فيها من قوة تعبيرية كبيرة لا توجد في غيرها من الألفاظ الأخرى غير الموحية .

واستمدوا منها إلهامهم واحدة أو متقاربة[1] .ويحدث ذلك اليوم باستمرار . فنظرية التطور يعود أمر اكتشافها إلى اثنين من الانكليز كان أحدهما ـ وهو دارون ـ أسبق من أخيه إلى إعلانها فنُسبت إليه لا إلى وولاس . كما ان الأوكسجين الذي يُنسب إلى لاقوازييه الفرنسي الذي اكتشفه أيضاً بريستلي الانكليزي وشيل Scheel الألماني . وفي المجال الطبي . يُصر الألمان على تسمية المرض الناجم من فرط نشاط الغدة الدرقية باسم (داء بازدو Basedow) أما المصادر الانكليزية فإنها تسميه (مرض غريڤز Graves) لاعتقادها ان غريڤز كان أول من وصفه . وهكذا فعملية توارد الخواطر والأفكار ليست مقصورة على زمن دون آخر . فإذا كانت تحصل اليوم فقد حصلت في الماضي ضرورة . فالماضي أشبه بالحاضر من الماء بالماء كما يقول ابن خلدون .

فمن العبث إذن أن نرهق أنفسنا في تعقب أصول فلسفة فلان أو تصوفه أو كلامه ، ونحلّلها إلى عناصرها الأولى كما يفعل علماء الكيمياء ، أو أن نقتنص النظائر والأشباه كيفما اتفق ، لنقفز من ذلك كله إلى مصادر خارجية صرف ، غافلين عن الدور الذي تقوم به عقلية فلان أو روحه في التفكير والهضم والتمثيل . فليس من الجائر أبداً في هذه الحالة إهمال شخصية الفرد . فهو ـ لا النظائر والأشباه ـ مناط الحكم والتقويم . انه كما قلنا مراراً يأتي أولاً ، والمصادر الخارجية تأتي بعد ذلك . وهذه المصادر ينبغي ألّا تؤخذ إلّا في خطوطها العامة لا في تفاصيلها وجزئياتها ، وذلك بقدر ما يتعلق الأمر بالعمالقة الذين يفتتون الصخر ويصهرون الحجر الجلد ويستخرجون منه لبناً سائغاً للشاربين . أما الأقزام فلا شأن لنا بهم في هذه الدراسة . فما ينقلونه يشف بوضوح عن مصادره وأصوله . انهم مقلدون تافهون لا يخلو منهم زمان ولا مكان .

●

فإذا كان المفكرون الاسلاميون قد استقوا مذاهبهم ونظرياتهم أو

---

(١) انظر سارطون : تاريخ العلم ١ / ٦٥ .

بعضها من ينابيع اليونان والفرس والهنود وغيرهم ، إلّا ان تفاصيل هذه المذاهب والنظريات هي من عمل المفكرين المسلمين أنفسهم . كما ان النتائج التي استخلصوها منها والأهداف التي كانوا يرمون إليها من ورائها ما جالت أبداً في أذهان أصحاب تلك المذاهب الأولين ، كلا ولا خطرت لهم على بال . فإن من يمعن النظر في المبادىء العامة يجد هناك اتفاقاً بين أرسطو وابن رشد ، أو بين أفلاطون والفارابي . لكن من يتغلغل إلى الأعماق وينظر في الغايات،يجد اختلافاً كبيراً بين الفيلسوف اليوناني وتلميذه العربي . إن معرفة الغايات في تاريخ المذاهب الفلسفية وفهم معانيها عند أصحابها وتتبع النتائج التي وصلوا إليها ، كل أولئك لا يقل أهمية وخطراً عن معرفة الوسائل المؤدية إليها . وحسبنا أن نقول في هذا الصدد إن فلاسفة الاسلام بالرغم من تأثرهم بالأقدمين واعتمادهم غليهم فقد استطاعوا أن يبنوا صروحاً فلسفية لا تخلو من بعض النقص ، ولكنها على كل حال صروح هندسية منسقة البناء تدل على الدأب الطويل ، والجهد الجبار ، والمعاناة المستمرة ، والنفس التواقة إلى الخلود ، والادراك الشامل لمعاني الأشياء .

وبعد ، فإذا كان من غير الممكن وقف تطلعات الفكر والقلب والوجدان إلى النضج والتكامل لدى العرب في إبان انتفاضتهم العارمة ، وكان من المستحيل أيضاً الحؤول دون أن تنفذ إلى الحضارة الاسلامية تيارات مختلفة تلتقي فيها وتتفاعل وإياها ، فقد أنبت هذا اللقاء ثباتاً طيباً جديداً لا هو باليوناني ولا بالفارسي أو الهندي . . . انه نبات عربي إسلامي له طابعه الخاص الذي لا يقل من شأنه أبداً انه يساير بعض هذه التيارات أكثر من بعض ، وذلك لأن الفلاسفة الاسلاميين يخالفون اليونان وغير اليونان في المفاهيم والأدلة والغايات ، فضلاً عن تفاصيل المذاهب وجزئياتها . ولم يكن هذا الخلاف محصوراً في نطاق الدين وحده ، بل هو في بعض المسائل الكبرى خلاف عقلي منهجي من الطراز الأول كما سنرى في حينه .

وكيفما كانت الأفكار الأجنبية التي تسربت إلى عقول المسلمين ، فان هذه الأفكار لا تعدو ان تكون مادة سخية صاغوا منها عالمهم العقلي الخاص الجديد . وما كانوا ليستطيعوا أن يصوغوا هذا العالم بمعزل عما رسخ في

عقيدتهم ووجدانهم وثقافتهم القرآنية والعربية . لقد صاغوه صياغة فريدة وأخرجوه على النمط الذي أملته ظروفهم الخاصة متأثرين بعالمهم النفسي الخاص . فلا يمكن لأي مسلم ـ صادق في دينه أو مفرّط فيه ـ أن يصور لنفسه عالمه العقلي دون أن تكون فيه ملامح من تصوره الديني .

وهكذا استطاع المسلمون ان يخلقوا لأنفسهم بيئة عقلية خاصة بهم ، وان ينشئوا حياة فكرية مستقلة ليست هي حياة اليونان أو الفرس أو الهنود . . . إنها شيء من ذلك ولكنها أيضاً شيء فوق ذلك وأهم لهم من ذلك ، فيها من تلك الحيوات بمقدار ما في الشجرة من البذرة ، ثم فيها بعد ذلك مجموعة من الطاقات والقيم والمواهب الذاتية التي تغذوها وتمدها بالنسغ ، حتى غدت دوحة وارفة الظلال طيبة الثمر ، تؤتي أكُلُهَا كل حين .

ولا يسع المرء حقاً إلا أن يشيد بقدرة العرب على اختيار العناصر الصالحة من الأفكار الأجنبية التي صادفوها ، وتنسيقها وترويضها وإصلاح فاسدها ، وإكمال نواحي النقص فيها ، حتى انتهوا من ذلك كله إلى إقامة بناء جديد شامخ لا يمكن أن يوصف إلا بأنه عربي إسلامي . ولا بد للباحث الحصيف إذا تحرى الدقة والتمحيص أن يشهد بقيام تلك الوحدة والانسجام في التكوين الروحي ، وبقوة التكيف المدهشة التي تعرض العارية الأجنبية في ثوب إسلامي جديد وحلة عربية قشيبة .

وإذا أردنا أن نقف على مبلغ ما فعله العرب بتراث الأوائل ، وكيف سلكوا بازائه ، وأي النتائج استخلصوا منه ، بل كيف تجاوزوه وأقاموا على دعائمه بناءهم الشامخ العتيد، فماعلينا إلا أن نقارنهم بالسريان الذين كانوا أسبق من العرب إلى تلقف هذا التراث ، وأقرب إليه منهم لحمة . ومع هذا فقد عجزوا أن ينجبوا ـ قبل اختلاطهم بالعرب المسلمين ـ مفكراً واحداً تصح مقارنته بالكندي والفارابي والرازي وابن سينا وابن الهيثم والغزالي والبيروني وابن رشد وابن خلدون وغيرهم . . . ويجب أن نقارنهم أيضاً بالبيزنطيين الذين ورثوا حكمة الأوائل لكنهم لم يقدروها حق قدرها ، فدفنوها في الأقبية والكهوف والسراديب ، حتى جاء العرب فانتشلوها وأخرجوها من حجورها في عملية إنقاذ نادرة في التاريخ . فالدولة البيزنطية لم تنجب طوال تاريخها

مفكرين عظاماً من معدن مفكري الاسلام ، ولم تشهد قيام نهضة كتلك التي قامت في بلاد الاسلام . وإذا كان قد نبغ من هؤلاء أو أولئك (السريان والبيزنطيين) من نبغ كحنين بن اسحاق والبتاني مثلاً ، فإنما يعود الفضل في ذلك إلى الظروف الموضوعية الجديدة التي جاء بها الاسلام وأتاح لهم فرص الحياة الخصبة فيها . وسنرى تفاصيل ذلك كله في كتابنا (آفاق الفكر العربي) فنحن هنا إنما نقدم المقدمات ونومض بالاشارات ، على أن نتولى التوسيع والتفصيل فيما بعد .

ولا غرو في ذلك ، فان الفلسفة الاسلامية مثلاً رغم اعتمادها على الفلسفة اليونانية والفكر اليوناني ، ومع أنها إنما تسير في تيار التراث اليوناني ، إلا أن هذا التيار لم يجرفها عن مواقعها بحيث تنسى رسالتها ومهماتها . فقد جاءت أولاً وقبل كل شيء لتحلّ مجموعة من المشكلات التي واجهتها لأول مرة دون أن يسبق لليونان مواجهتها من قبل ، فعالجتها هي بعناصر عرف اليونان بعضها وأخرى لم يسمعوا بها . كما ان الفلسفة الاسلامية أيضاً قد شغلت بتفسير عدد من المسائل نبتت في جو الاسلام وفي زمن اختلفت فيه المثل والقيم والمسؤوليات والآمال والآلام عينها أيام اليونان . كل أولئك كان من شأنه أن يغذو الشجرة الجديدة ويرتفع بها كالطود شامخة ندية .

إنها شجرة طيبة تتخير غذاءها بدقة . إنها دوحة وارفة الظلال ، أصلها ثابت وفرعها من السماء ، ولكنه فرع ليس له شكل هندسي منتظم . فنرى بعض الأغصان باسقاً متطاولاً في الفضاء له ظل ظليل وثمر مبارك ، وبعضها قميئاً قليل الجَنْي هو كل ما تسمح به حياة الدوحة ولا تسمح بسواه ، وبعضها بين ذلك . غير أن جميع الأغصان على تفاوتها تسقى بماء واحد وتنظمها حياة واحدة ، وتخدم غرضاً واحداً مشتركاً ، هو تغذية الحياة العقلية والروحية في الاسلام وإرساؤها على قواعد ثابتة تكفل لها النمو والاستمرار والصمود في معركة تنازع البقاء .

وكذلك الحياة العقلية في الاسلام : ففيها أروع الذخائر وأجمل المفاخر وأثمن التحف ، كما فيها أيضاً ما دون ذلك . فيها العمالقة وفيها الأقزام ، وفيها من هم في منزلة بين المنزلتين . . . وذلك ينطبق على كل فرع من فروع

المعرفة في الاسلام ، بل على كل علم من علوم الدين والدنيا . أجل ، لقد بلغ التنوع أقصاه في تفكير المسلمين ووجداناتهم وأحاسيسهم . . . فإذا رأيت ثم رأيت ، مراكز تشع بالعلم والفكر تتناثر في كل مكان ، فيها العلم وفيها الفلسفة ، وفيها الأدب والفن والتصوف ، وفيها التشريع والفقه ، بل فيها الزندقة والالحاد ، وفيها الكفر والايمان . . . فقد كان العراق مثلاً مضطرَباً فسيحاً للفكر المختلف الأكل والألوان . كان فيه الفقه ، وكانت فيه الفلسفة ، وكانت فيه الفرق المتعددة . وكان الخوارج في باديته والشيعة في سواده . وكان فيه العلم بكافة ضروبه وأشكاله : ففيه علم النحو ينشأ وليداً ، ورواية الشعر تنتقل على ألسنة الرواة ، واليه انتقل العلم اليوناني والحكمة الفارسية والتصوف الهندي والرهبانية النصرانية الخ . . . وهكذا كان العراق مقصداً لكل طالب ، مستراداً لكل مذهب ، وبيئة خصبة نبتت فيها كل نحلة . . . وما يسري على العراق يسري على الشام ومصر والأندلس ، على تفاوت في ذلك . وهكذا أنجبت الحضارة الاسلامية عدداً لا يحصى من المذاهب والعلوم والرجال ، وحلّقت في جميع الميادين والحقول ، وسخّرت كل شيء لمصالح أهلها وخدمة الأغراض والمثل والقيم التي يؤمنون بها .

وهذا الانتاج الضخم لم يكن ليجري على هامش الحضارة ، بل لقد كان ينبع من جميع عروقها ، حتى لكأن كل خلية فيها تتداعى للعمل المشترك الكبير . هناك الفلاسفة ، وهناك العلماء ، وهناك الفقهاء ، وهناك الفنانون . . . هنالك الأفذاذ والعمالقة وهناك الصعاليك والأقزام . وما منهم إلّا له مقام معلوم . كلّ عرف وجهته وطريقه .

ولا يسبقن إلى حدسك أن الحضارة الاسلامية العربية ـ وهي على هذه الخطورة ـ ينبغي أن تكون كالحضارة اليونانية سماتٍ وأوصافاً وخصائص . كلا . فإذا كانت الفلسفة أعظم أمجاد هذه الحضارة الأخيرة ، فليس معنى ذلك أن الفلسفة يجب أن تكون عنواناً لجميع الحضارات ومعياراً لتقدمها في كل زمان ومكان . فلكل حضارة مذاقها ونكهتها ، ولكل حضارة أمجادها وآفاتها . والمجد لا بدّ له من عمالقة أوتوا حظاً غير قليل من عمق التفكير

وأصالة الرأي وقوة القريحة يستطيعون به مواجهة عالم الأذهان وعالم الأعيان . ان أعظم مجد تحققه الحضارة هو المجد العقلي ، لكن المسلمين بدلاً من أن يحققوا هذا المجد في الاستغراق في عالم الأذهان الذي كان أكبرَ همّ اليونان وشغلهم الشاغل ، فان الحضارة العربية التي لا تقل عن الحضارة اليونانية تعلّقاً بالمجد العقلي ـ بل يمكننا القول أن المجد العقلي كان عنواناً واحداً فقط من عناوينها المتعددة ـ لم تستنفد هذا المجد في متاهات العقول ومسارح الأحلام كما فعل أفلاطون وأرسطو مثلاً ، بل لقد تفتحت على آفاق كثيرة من آفاق الحياة العقلية ولم تقتصر على أفق واحد بعينه هو أفق الفلسفة الميتافيزيقية . وآية ذلك نهضة العلوم الطبيعية المختلفة وازدهارها في بلاد الاسلام في صميم العصور الوسطى (١) . لقد استغرق التأمل الفلسفي مفكري اليونان حتى أغفلوا النواحي الأخرى أو كادوا ، لكن عالم الأعيان يتطلب حلولاً لمشاكل أشد شكيمة من مشاكل عالم الأذهان ، لأن معالجة الأفكار ـ ولا سيما في تلك العصور ـ تظل أسهل مراساً وأسلس قياداً من معالجة الواقع العاتي المتمرد . ومع ذلك فان العرب لم يُقصّروا في إنجاب نصيبهم الكامل من الفلاسفة الخلّص الذين استمرأوا الحياة في عالم الأذهان فقبعوا فيه وغلّقوا من دونهم الأبواب . فالحياة العقلية ليست حكراً على الفلاسفة وقفاً عليهم وحدهم ، ولا تقاس الحضارة بعدد الفلاسفة فيها . ففنون الحضارة كثيرة ، والتنوع أمر ضروري في الحضارات الراقية ، وجزء لا يتجزأ من حياة الأمم والشعوب التي اكتمل تنظيمها وبلغت درجة عالية من النضج . وإنما يرجع إلى ظروف الزمان والمكان والوضع الحضاري والمستوى العقلي والمرحلة التاريخية والحاجات الروحية والاقتصادية ، ان تغلّب ظلالاً على أخرى ، وان تعطي للحياة مزاجاً تنفرد به حقبة معينة من الزمن ، فإذا ما تغيرت هذه المعادلات تغيرت الظلال وتغير المزاج ، وبالتالي اختلف النتاج . وعلى كل حال ، ان ما قدمه المسلمون في عصورهم الذهبية كان أقصى ما يمكن للعقل الانساني آنذاك ـ بإمكانياته المتواضعة المعروفة ـ ان

---

(١) انظر مواضع مختلفة من كتابنا : المرجع في تاريخ العلوم عند العرب .

يقدمه . وكذلك فعل اليونان في الزمن القديم ، والاوربيون في الوقت الحاضر .



لقد صحت عزيمة القدر وانتصب المارد الجبار!

هذا المارد هو الابن الشرعي لتلك الانتفاضة التي حققت المعجزة . لقد كانت انتفاضة رائعة حقاً ، أعقبتها سلسلة من الهزات والتصدعات في بنية الجزيرة العربية وهيكلها القَبَلي المتفسخ . لقد تغيرت المعادلة واختل الميزان ، وظل ذلك يتلاحق ويتفاعل على صعيد سياسة الحرب والسلم ، وعلى امتداد تجربة صراع القوى والمثل والمفاهيم ، حتى عمّ المنطقة كلها وشمل العالم المتمدن القديم من أدناه إلى أقصاه .

وفي خلال عمليات الانتشار هذه وجد العرب مجالاً فسيحاً للتقابل والاختمار والتفاعل في بيئات متسعة الأكناف ، وأجواء مختلفة الأوضاع والغذاء ، وأقاليم مليئة ببؤر الاشعاع الحضاري ومراكز الاستقطاب الفكري وجبهات الصدام التاريخية . وإذن فانتفاضة الاسلام ، والتغيرات الجذرية العميقة التي طرأت على شبه الجزيرة العربية والأحداث التاريخية التي أعقبتها ، هي التي تفسّر التطلعات الجديدة للعرب ، وهي وحدها التي خلقت لهم حاجات عقلية جديدة ودفعت بهم من آفاق رحبة جديدة . ثم جاء التوسع الخارجي والمد الحضاري لينضما إلى التجربة الداخلية والمعاناة الباطنية . فاشتد الزخم وقوي الاندفاع إلى سوق الأفكار والعقليات ينهبونها نهباً ، وإلى ينابيع العلم والمعرفة يرتشفونها ارتشافاً .

أجل لا يجوز لنا أبداً أن ننسى أو نتناسى ـ ونقولها للمرة المئة أو المئتين ـ العوامل الداخلية التي إنما صنعت تاريخ الجزيرة العربية ، وبالتالي تاريخ الفكر العربي الاسلامي كله . فإذا كان البعض ـ ليبلغ حاجة في صدره ـ لا يرى هذه الجزيرة إلا من خارج ، ولا يقيم وزناً للعرب إلا بعد دخول الاعاجم في الاسلام واختلاطهم بأهله ، بحيث يجعل من العرب كمية مهملة خاضعة لمؤثرات سطحية صرف لا رأي لها فيها ولا قصد ، تصرّفها الأحداث كيف تشاء وتعبث بها كما تريد ، دونما اعتبار لما كانت تمر به من

تجارب ويطرأ عليها من تطورات ـ أقول إذا كان البعض ينظر إلى العرب شزراً على هذا النحو ويعالج قضيتهم هذه المعالجة التافهة ، فهو كمن يبدأ قراءة الكتاب من آخره ، أو كمن يحتزّ الرأس أو يقطع الشريان ليدرس وظائف الحياة والجسد جثة هامدة . وإذا كان المؤرخون التقليديون الذين يشققون الشعر بحذلقتهم يوسعون مفكري الاسلام تقريعاً ، وينحون عليهم باللائمة لعدم انطباق المعايير اليونانية عليهم أو لعدم انصبابهم في قوالب الفكر الغربي ـ ناسين أو متناسين بعد الشقة الزمانية والمكانية بين الفريقين واختلاف تجارب كل منهما ـ فاننا في هذا الكتاب وفي غيره أن أنسىء لنا في الأجل ، لن نمل ولن نكلّ عن دراسة تاريخ الفكر العربي الاسلامي من الداخل ، والنظر إليه بحسب معاييره هو ، لا بحسب معايير وقوالب مصنوعة لغيره . ان التشديد على هذه القوالب والمعايير في كل مناسبة ـ فضلاً عن انه يشغلنا بقضايا جانبية فارغة ويبتعد بنا عن الدراسة المحورية التي تدخل في صميم الموضوع وتأخذ بتلابيبه ـ فيه حجر على الفكر وتضييق لخناقه . انه يشل حركته ويسلبه حرية العمل ويقتل فيه كل روح للمبادرة والايمان بالذات . فلكل فكر قوالبه ومعاييره ، ولكل فكر أنماطه وطرائقه . هذا هو لبّ الدراسة المحورية المبنية على اقتناص الحياة العقلية من الداخل ، دون أن تعبأ كثيراً بالمعايير المصطنعة والقوالب التي قدّت لغير أصحابها .

فالعوامل والمؤثرات الخارجية التي دخلت في شرايين الفكر العربي واخترقت اللحم والعظم تظل ـ بحسب هذه الدراسة ـ عوامل مساعدة واحداثاً طارئة صادفته شيئاً قائماً بذاته فاهتم بها وأقبل عليها ليزداد بها ثراء وتألقاً ، وليُمعن بها وجوداً وانتشاراً . . . وكان بينهما حوار وصراع ، وكان بينهما صدام وعناق ، ولعنات وقبلات . . . ولكنها لم تخنقه ولم تخلقه . فقد كان موجوداً قبل أن تغزوه ، وظل محتفظاً بذاته بعد أن ارتدت عنه وفقدت كل صدى فيه في عصور الانحطاط ، وكان بين الحالين قدوة ترتجى ومثالاً يحتذى ، في تلك الفترة الغنية بالكرامة الانسانية وشرف النفس والمجد الروحي والعقلي .

إن تقويم الفكر الاسلامي يونانياً فيه تشويه له عربياً ، انه يحول بيننا

وبين النفاذ إليه والوغول إلى أعماقه . فنحن في هذه الحالة نبحث عبثاً عن أشباح لا وجود لها ، كما نعمى عن حقائق كان من الواجب الاهتمام بها وبذل أقصى الجهد للوقوف عليها . وإلّا حصل اللّيُّ والتضييق من هنا ، والمط والتوسيع من هناك ، ولا ينتج عن ذلك سوى التزييف والتشويه والاستهتار بقيم الأشياء . ان الباحث الجيد كالخياط الجيد ، يفصّل الأثواب على قدود الأبدان .

وعلى ذلك ، فإذا أردنا أن نبحث في القيمة الذاتية والمكانة التاريخية للفلسفة الاسلامية مثلاً ، فلا بد أن نقرر أولاً وقبل كل شيء أنها ليست فلسفة أبدية خالدة ، كما أنها أيضاً ليست فلسفة تافهة مبتذلة . وكذلك الفلسفة اليونانية ، وكذلك أيضاً الفلسفة الحديثة . وبذلك فلن نحكم على الفلسفة الاسلامية خارج إطار عصرها وظروفها . إنها فلسفة كسائر الفلسفات ، لها محاسنها ومزاياها ، كما لها عيوبها ومثالبها . فلا يجوز أن نسرف في عيوب هذه لابراز محاسن تلك لحاجة في نفس يعقوب . ان الفلسفة ـ أيّ فلسفة ـ يجب أن يراعى في تقديرها النظرة التاريخية ، والاطار الثقافي والمنطق الحضاري ، وسائر الظروف الموضوعية التي انبثقت عنها تلك الفلسفة ، وإلّا اختلطت علينا الأشياء كحاطب ليل . ان خصائص التفكير في القرون الوسطى غيرها في العصور القديمة وفي العصر الحديث . فكل عصر إنما يصبو إلى مزاج ما من العبقرية يحتاج إليه أكثر من غيره ، قد نفهم منه بعض الأشياء وتغيب عنا سائر الأشياء . ان الكتب التي وصلت إلينا من القدماء إذا كانت قد كشفت لنا بعض الحقائق فقد حجبت أكثرها . وكلما بعدت الشقة بيننا وبينهم أوغلوا في الغموض حتى يصبحوا ظلالاً باهتة أو أشباحاً لا حراك بها . وكل ما هو مطلوب منا في هذه الحال ان نعترف للقدماء بقدمهم ، وأنا زعيم بعد ذلك أن أحكامنا عليهم ستكون أقل قسوة وأدنى إلى القسط والانصاف . فلا يصح والحالة هذه ان نطلب من القرون الوسطى أكثر مما تطيق ، أو أن نسومها فوق ما تحتمل . ولنعلم أن لليونان تجارب في الفكر والتاريخ والحضارة لم تتوفر لرجال القرون الوسطى ، أولئك الذين عاشوا في أجواء عقلية وروحية غير تلك التي عاش فيها القدماء ،

وفرِضت عليهم ظروف وأوضاع لا عهد لمن قبلهم بها ، وهبّت عليهم نفحات وانسام لم تهبّ على غيرهم من أهل الأرض قاطبة ، وكانت لهم قيم ومثل وآمال ومسؤوليات لم تكن لاسلافهم اليونان ، فكيف يُطلب منهم بعد ذلك أن يكونوا كاليونان ؟ ما هذا إلّا غاية الاحالة . إن الاختلاف بين عقليتين لا يجعل احداهما أفضل من الأخرى أو أقل منها ، بل ان هذا الاختلاف ضروري جداً وطبيعي جداً ، ويجب النظر إليه دائماً على أنه إنما يعبر عن واقع حي محسوس . فكل من العقليتين صحيحة في نطاقها ، فريدة في ذاتها ، وحيدة في بابها ، صادقة في ادائها ، ولكل منهما مزاياها ونقائصها وعوراتها . وبكلمة موجزة : كل منهما إنما هي صيغة جيلها ورسالة عصرها وحضارتها .



وزبدة القول ، يجب أن تتوقع في كل عقلية من العقليات ، أو ثقافة من الثقافات ، أو فلسفة من الفلسفات ، عناصر دخيلة وأخرى جديدة . لذلك إذا أردنا الحكم عليها لا يجوز الاكتفاء بما انتقل إليها من مؤثرات خارجية ، بل يجب البحث أيضاً عما عسى أن يوجد فيها من عناصر ذاتية غير دخيلة ، قد تنبهم وتغمض حيناً ، وقد تلتبس بغيرها أحياناً ، لكن الاستمرار في البحث ، والدأب على العمل ، وتقصّي الموضوع من جميع أطرافه ـ كل أولئك قمين بالكشف عن الحقيقة في يوم من الأيام وتبديد الضباب الذي يحيط بها . فلئن نفذت إلى الفكر الاسلامي تيارات متعددة اجتمعت فيه وتفاعلت ، إلا أنه يجب ألا يصرفنا ذلك عن البحث عن نتائج هذا التفاعل وثمرات هذا اللقاء .

هذه النتائج والثمرات تتحلى فيما يلي :

علم الكلام الذي يقول فيه رينان انه الفلسفة الحقيقية في الاسلام . فهذا العلم رغم اعتماده على النقل انتهى به المطاف إلى أن اختلطت مباحثه بمباحث الفلسفة حتى لقد ظنا علماً واحداً .

علم أصول الفقه الذي يخوض في مبحث الدليل والعلم والعلة والحكم وعلل الأحكام وغير ذلك من الأمور التي يلمح المرء فيها نشأة التفكير

الفلسفي الأصيل المستقل عن اليونان . في بلاد الاسلام . فإن هذا العلم غني بالمباحث التي تكاد تهجم على علم الآلهيات وتلتبس به حتى ليشك المرء وهو يتصفح كتاباً في علم أصول الفقه أن يكون هذا الكتاب كتاباً نقلياً لا كتاباً عقلياً . وقد توصل علماء أصول الفقه وعلماء الكلام الأصولي إلى وضع منطق جديد يختلف عن منطق أرسطو اختلاف الهندسات اللااقليدية عن هندسة اقليدس . فنحن نجد في هذا المنطق المبادىء العامة للمنهج العلمي الحديث ، بل نجد فيه أشياء لم يصل إليها رواد المنهج العلمي حتى الآن .

العلوم الدخيلة من طب وفلك ورياضة وطبيعة وجغرافيا وتاريخ واجتماع . . . ومعالجتها على أساس المنهج العلمي التجريبي الذي إنما اشترك في وضعه علماء الطبيعة العرب وعلماء أصول الفقه وبعض الفلاسفة الاسلاميين .

التصوف ورياضة النفس ومجاهدتها وتحليلها والبحث في أذواقها ومواجيدها ، والوصول من ذلك إلى تأملات وأنظار في الانسان والكون والحياة ووحدة الوجود ليس لها من التصوف إلا الاسم . كما للصوفية أيضاً منطقهم الجديد المخالف لمنطق أرسطو .

وأخيراً الفلسفة التي تتفق مع الفلسفة اليونانية في أشياء وتختلف عنها في أشياء . ورغم اعتماد هذه الفلسفة على فلسفة الأوائل فقد استخلصت منها نتائج لم تخطر للأوائل على بال ، بل من شأنها ـ لو اطلع عليها هؤلاء ـ ان تثير سخطهم على تلاميذهم العرب لا سيما وان الفلسفة اليونانية قد كانت سلاحاً ماضياً استخدمه كثير من المفكرين الاسلاميين للرد على اليونان وإبطال أقاويلهم وإثبات تهافت حججهم . وسنبحث ذلك كله في كتابنا (آفاق الفكر العربي) .

على أن هناك علوماً أخرى كثيرة غير ما ذكرنا تجلت فيها عبقرية العرب لن نخوض فيها لبعدها كثيراً عن موضوع هذا الكتاب ، وإن كانت قد لا تقل أهمية عن العلوم التي ذكرناها من حيث دلالتها على عظمة الفكر . . .

العربي الاسلامي ، والخدمات الجُلى التي أسداها للفكر الانساني[1] .

ولئن كان بعض هذه العلوم شرعياً من حيث الموضوع ، إلا أنه من حيث المنهج سليم لا غبار عليه البتة . فالأصوليون مثلاً يعنون عناية كبيرة بالمنهج ويدققون النظر فيما يعرض عليهم في مجال الأحكام الشرعية من وقائع جديدة تحتاج إلى إعمال العقل استنباطاً ، وإلى التروي في الحكم اجتهاداً ، وإلى التدقيق في الألفاظ وتحليلها من حيث المفهوم ولما صدق منهجاً وطريقة . وبهذا الاعتبار يمكن القول انهم أكثر تعبيراً عن الفكر الفلسفي من حيث ارتباطه بالاسلام من الفلاسفة التقليديين .

ومن هنا لا يمكن أن نعطي صورة كاملة ـ أو قريبة من الكمال ـ عن التفكير العقلي في الاسلام إذا نحن اقتصرنا على ما كتبه الفلاسفة الخُلَّص وحدهم . حتى ليذهب البعض إلى أن أكثر هؤلاء الفلاسفة لا يمثلون الفكر الاسلامي في شيء[2] . إلا أننا لا نذهب هذا المذهب من الغلو والشطط . بل نرى أنهم يمثلونه كما يمثله الأصوليون والفقهاء وعلماء الكلام ، على تفاوت في ذلك . فالفقه وأصول الفقه وعلم الكلام والتصوف ، مضافاً إليها الفلسفة ، إنما هي تعبيرات مختلفة للفكر الاسلامي ، والاختلاف في التعبير بينها إنما هو اختلاف في الدرجة لا في النوع . فمن فلاسفة الاسلام من اقترب من أرسطو وأفلاطون دون أن يفرّط في إسلامه ، ومنهم من أخذ بمبادىء فلسفة ما قبل سقراط ، ومنهم من جمع بين تراث الهند وفارس وتراث اليونان بروح إسلامي ، ومنهم من اتجه اتجاهاً اسلامياً خالصاً لا أثر فيه لمباحث اليونان أو غير اليونان وكان في تفكيره مع ذلك نصيب كبير من الأصالة والعمق والابداع ، بل منهم من ابتعد عن الاسلام وخاصمه وأعلن

---

(١) من أهم هذه العلوم علم الصوتيات Phonetics بقسميه العام General والوظيفي Phonology وقد درسه العرب بإسهاب وعمق وكتبوا فيه أبحاثاً مستفيضة لا تختلف كثيراً عن الأبحاث التي يتناولها أي كتاب حديث في الصوتيات . انظر الكلمة القيمة التي ألقاها في هذا الصدد الدكتور يوسف الهليس في الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب ، المنعقدة بجامعة حلب من ٥ ـ ١٢ نيسان (ابريل) سنة ١٩٧٦ . (الأبحاث صفحة ٤٦١ ـ ٤٨٦) .

(٢) د . علي سامي النشار : نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ٢ / ٢١ .

الحرب عليه . لكن جميع الذين احتفظوا باتجاههم الاسلامي قاموا بمحاولة جادة للتوفيق بين العقل والنقل ، بين حقائق الفلسفة وحقائق الاسلام . فقد اتسع الاسلام لكل هذا دون أن يضيق به ذرعاً ، اتسع لأبنائه كما اتسع لخصومه ومناوئيه .

فالفكر الاسلامي لم يكتف إذن بتعبير واحد فقط ، بل لقد اتخذ لنفسه تعبيرات شتى وصوراً متنوعة وأنماطاً متباينة ، تختلط فيها موارد الفيلسوف بمياه الاسلام ، وأنظار العقل بتجارب الايمان ، على تفاوت في القوة والأصالة . لكنها جميعاً تظل أفكار المسلمين ، ويظل الاسلام ـ حتى ولو خاصمته أو رفضته ـ مبعث نشاطها وقوة الدفع فيها . فما من بحث عقلي عرفه المسلمون إلا كان منطلقه إسلامياً : بدأ أولا بتفهم تعاليم الاسلام ونصوص القرآن وشب في أحضانها وتغذى بلبانها . ثم تطور هذا الفهم بحكم نموه الذاتي وبما تسرب إليه من عناصر أجنبية اتسعت بها آفاقه واتصل بتفاصيل العقائد والنحل وامتزج بها ، وأثر فيها وتأثر بها ، وخضع للعديد من التغيرات والتبدلات خلال رحلة حياته الطويلة . وما زال أمره كذلك حتى شب عن الطوق وبدا انه بعيد الصلة بأصله الأول ، وما هو ببعيد ، بل هو لا يزال مع كل ذلك مرتبطاً بالأصل الأول الذي تفرع عليه ، والبيئة التي نشأ فيها والظروف العربية الاسلامية التي أحاطت به .

وهكذا فالفكر العربي الاسلامي شديد التنوع ، كثير التشعب ، متعدد الجهات ، مختلف الألوان والظلال . لكن مهما تعددت الموضوعات ، واختلفت الاتجاهات أو تشعبت الطرق والمسالك ، وتباينت وجوه التعبير ، فانه في علم الكلام هو نفسه في علم أصول الفقه ، هو نفسه في علم الهيئة والطب والكيمياء والرياضة والتاريخ والاجتماع . . . فهو إنما يصدر عن حوض واحد ويسقى بماء واحد ، وينهل من معين واحد ، انه التعدد في الوحدة ، والوحدة في التعدد . فإذا لمح الدارسون في هذه الوحدة عناصر افتراق فانها ليست من التشتت والتباين بحيث تغيب وراءها آيات الوحدة أو تذهب معالم الانسجام . انها لوحة فنان انتظمت فيها الألوان والخطوط والأشكال والظلال ، رسمتها ريشة من عبقر ! انها الشمس تشع بالنور

والدفء والحرارة ، وتهب الحياة والقوة والنشاط ، وتكتظ بجميع الألوان ، وهي هي واحدة معطاء . فسياسة صب الناس في بوتقة واحدة وقالب واحد من حيث الكم والكيف ، سياسة ساذجة جاهلة لا تدرك خصوبة الفكر الانساني وتنوع المظاهر والصور والأشكال التي يتخذها كلما أمعن في الوجود وازداد في الاشعاع والعطاء .

لقد أنجب الاسلام عدداً لا يحصى من الرجال الذين طبقت شهرتهم الآفاق ، وذلك في مدة قصيرة نسبياً لا تتجاوز الأربعمئة سنة . ان عصور التاريخ الذهبية وحدها ، عصور الثورات الكبرى والاشعاع العظيم ، هي التي ينجب فيها المجتمع في مثل هذا الزمن القصير ذلك العدد الجم من الرجال الأفذاذ الذين ذاع صيتهم في القيادة والحكم والادارة والتاريخ والجغرافيا والاجتماع ، واللغة والرياضة والفلك ، والكيمياء والطبيعة والطب ، في القرون الأربعة الفاصلة بين هارون الرشيد وابن رشد . لقد كان هناك رجال عظام قبل هذه الفترة ولكنهم إنما كانوا أول الغيث . وكذلك كان هناك رجال عظام أيضاً بعد انقضاء هذه الفترة ، لكنهم القطر يساقط في أواخر فصل الشتاء عندما تكون الأرض قد ارتوت بالماء حتى ملأ فجاجها وشعابها . ولكن الحشد العظيم من الرجال إنما تجمّع بكثافة هائلة وتركيز شديد في القرون الأربعة المذكورة . وهذا النشاط المتلالىء الجبار قد استمد بعض مادته من تراث الأوائل ، ولكن أكثره كان نشاطاً مبتكراً . بل يمكننا أن نقرر هنا واثقين أن هذه الذروة من نهضة الاسلام كانت في بعض نواحيها تحريراً للشرق الأدنى والأوسط من سيطرة اليونان العلمية كما يقول ول ديورانت [1] .

إن كل أولئك يدل دلالة واضحة على أنه مهما كانت طبيعة الأفكار الأجنبية التي قد تسربت إلى عقول العرب المسلمين وغزت أذهانهم وافئدتهم ، فانها لم تبق على حالها ، بل لقد طرأ عليها ما يطرأ على عناصر الأرض عندما تدخل من جسم الكائن الحي . فلقد تمثلوها على نحوهم

---

(١) قصة الحضارة ١٣ / ٣٨٧

الخاص ، واستخدموها في إنشاء وجهة نظرهم في الانسان والكون والحياة والمصير ، وأفرغوها في صياغة مفاهيمهم بحسب معايير مجتمعهم ، وسلكوا بإزائها سلوكاً ينسجم وأصول حياتهم العقلية والروحية ، وينبثق من أحكام البيئة العربية الاسلامية ، وما يثيرها من اهتمامات ويعتمل فيها من مشاكل وتطمح إليه من مقاصد وآمال . وبذلك فقد أمكنهم أن يخلقوا بيئة عقلية خاصة بهم ، منبثقة عن حاجاتهم وظروف مجتمعهم ، وان ينشئوا لأنفسهم حياة فكرية مستقلة لا معنى لها إلا بالنسبة إليهم ، وبالنسبة إليهم وحدهم . فمصنفاتهم ليست أبداً تلخيصاً لمذاهب اليونان والهنود والفرس وغيرهم ، كلا ولا هي ترجمة لكتبهم ، مهما تقوّل المتقوّلون وتخرّص المتخرصون ، وإنما هي مصنفات عربية ومؤلفات إسلامية لها جوّها الخاص وظلالها الفريدة ، ومقاصدها المتميزة التي لا يقدح فيها أبداً انها ـ من وقت إلى آخر ـ تسير في تيار هذا المفكر أو ذاك . انها التعبير الشخصي عن أفكار أهلها وأبناء عشيرتها ، وعرض لمفاهيمهم ومعانيهم ، وحلّ لأزماتهم ومعضلات حياتهم . فلا غرو بعد ذلك أن نقول جازمين أنها تخالف كتب القدماء في الظروف والملابسات والمقتضيات ، وتفترق عنها في المفاهيم والأدلة والغايات ، فضلاً عن استقلالها عنها في التفاصيل وبعض الكليات .

هذه نتيجة طبيعية لعملية الأخذ والعطاء أو (عملية السيولة الحضارية) . فالتأثير والتأثر ، والأخذ والعطاء ، وتبادل الأفكار والآراء والمعتقدات ، ليست عمليات بسيطة ، انها ليست مجرد إضافات كمية ، إنها عمليات معقدة ينتج عنها تحولات نوعية هامة . وتزداد هذه التحولات نوعية كلما ازدادت عمقاً وتعقيداً ، ولا سيما في المجتمع الصحي السليم ، وهو مجتمع فتيّ ناشىء بلغ جهاز الهضم والتمثيل فيه مبلغاً عظيماً من النضج . هذا ما يؤكده منطق الحضارات وتاريخ الحركات الثورية ، وقوانين السيكوسوسيوديناميكا مجتمعةً . فان حضارة ما إذا تأثرت بأخرى وأخذت عنها بعض عناصرها ، فهذه العناصر لا تبقى على حالتها الأولى ، بل تتكيف بحسب متطلبات الحضارة الآخذة وأوضاعها وتاريخها . وقصة الحضارات في اتصالها بعضها ببعض ، وتفاعلها وتبادل العناصر والمؤثرات فيما بينها مليئة

بالشواهد على ما نقول :

« فالعرب مثلاً أخذوا عن اليونان الكثير من العلم والفلسفة ، ورفعوا أفلاطون وأرسطو إلى أعلا مراتب الاعتبار والتقدير ، ولكن العلم اليوناني والفلسفة اليونانية لم يظلا في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة على ما كانا عليه في ايونيا وأثينا والاسكندرية وانطاكية ، بل تكيفا بحسب اتجاهات الحضارة العربية وروحها الشاملة . . . » ويضيف الدكتور قسطنطين زريق الذي نقلنا عنه هذا النص في كلامه على الحضارات وهي تتلاقى وتتسرب آثار بعضها إلى البعض الآخر قائلاً : « فإن هذه الآثار تحمل مفاهيم تختلف عن المفاهيم الأصلية ، وإذا هذه المفاهيم المختلفة تتفاعل في داخل الحضارة الواحدة ، وإذا نتاج هذا التفاعل يتنوع بتنوع حالة الحضارة وقدرة أبنائها على الخلق والابداع . فمتى كانت الحضارة حية ناشطة ، كما كانت الحضارة العربية في إبان نهضتها ، جاء هذا التفاعل مدعاةً للنمو والاثمار ، فنجد المفاهيم اليونانية مثلاً تلتقي المفاهيم الاسلامية الأصيلة ، وتتطعم الواحدة منها بالأخرى ، فتنشأ عن هذا التطعم المتبادل غراس قوية زاهية مثمرةً فلسفةً وكلاماً وتصوفاً وفناً ، وما إلى ذلك »[(1)] .

إن المجتمع المريض ـ كالجسم المريض ـ يلفظ ما يلتهمه كما هو ، دون أن يمتزج بدمه وعروقه . انه لا يسيغه أبداً . وأما المجتمع الصحي السليم فانه يحيل ما يتناوله من غذاء خلايا جديدة لا تختلف أي اختلاف عن خلاياه الأصلية ، بحيث يكاد يكون من المستحيل تعرف أصل الغذاء ومصدره . فإذا كان اطلاع المسلمين إبان الحضارة العربية على الفلسفة اليونانية مثلاً لم يؤثر في سلامة عقيدتهم وقوتها ، بل لقد زادها قوة ومناعة ، فلا يرجع ذلك فقط إلى أنهم قد أحسنوا الاختيار بين ما ينقلون وما لا ينقلون ، بل هو الموقف النفسي الصلب الذي واجهوا به قيم الحضارة الجديدة التي بدأت تغزوهم .

لقد تقبلوا عناصر هذه الحضارة بفكر منفتح ، وصدر رحب ، وبُعد

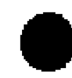
---

(١) قسطنطين زريق : في معركة الحضارة صفحة ١٢١ ـ ١٢٢ ، ١٤٠ .

نظر ، دون حساسية أو تعقيدات ، أو خوف على أنفسهم منها . إذ « ينبغي ألا نستحيي من استحسان الحق واقتناء الحق من أين أتى ، وإن أتى من الأجناس القاصية والأمم المباينة لنا . فانه لا شيء أولى بطالب الحق من الحق ، وليس ينبغي بخس الحق ولا تصغير بقائله ولا بالآتي به . ولا أحد بخس الحق ، بل كل يشرفه الحق » . هذه الكلمات وردت في مقدمة أقدم كتاب وضع في (الفلسفة الأولى) ألفه الكندي وأهداه إلى الخليفة المعتصم .

لقد استوعب المسلمون الحضارة الجديدة بهذه الروح استيعاباً مثمراً ، حتى أصبحت جزءاً حياً من الفكر العربي والثقافة الاسلامية والتراث الناشىء الجديد . لقد امتصّت العقلية الاسلامية الغذاء الذي قدمه ميراث العالم القديم الضخم بعد أن أصبح متوفراً بالعربية . فأدى ذلك إلى قيام مدارس الفلسفة والعلوم والفنون المختلفة التي سيطرت على أفق الحضارة الاسلامية ، نتيجةً لتطبيق مبادىء الاسلام على أشكال المعرفة المختلفة التي ورثها المسلمون عن الشعوب ذات الحضارات العريقة ، ولدمج هذه الأشكال المختلفة من المعارف في النظرة الاسلامية إلى الكون والانسان والحياة وما بعد الممات . وأضيف ذلك كله إلى عالم النظر الاسلامي وأصبح ملكاً له لا ينازعه فيه منازع . فجميع المذاهب الفكرية التي نشأت عن ذلك العالم إنما هي مذاهب عربية إسلامية ، ما دامت المفاهيم والأشكال التي كانت تستعملها قد انصهرت في النظرة العربية الاسلامية ، وفكرت بعقليتها ، وأنتجت بوحي من مثلها وأهدافها وفي ظل قيمها ومعاييرها .

إن الحضارة التي أنتجت كل هذا وغير هذا هي حضارة عريقة أصيلة دامت قروناً طويلة ، واتسعت حتى شملت جميع أرجاء العالم المتمدن القديم ، لما فيها من طاقة حيوية ، وقدرة إنشائية ، وسلطة قانونية ، وقابلية عمرانية ، وحكمة أخلاقية ، وقوة روحية ، ومواهب عقلية ، وآفاق نفسية . لقد أخذت من الحضارات التي سبقتها عناصرها الفعالة ، ثم أعطت الحضارات اللاحقة أضعاف ما أخذت .



هناك حاجة ماسّة إلى الاحساس بالتاريخ والاحساس بتفاعلاته . وعلى

الدارسين أن ينظروا إلى هذه العبرة بمنظار واحد لا بمناظير متعددة تختلف باختلاف اللون والشكل ، وبحسب موازين القوة والضعف ، والغنى والفقر . . . وعندئذ تُقوَّم الشعوب ومنتجات الفكر تقويماً سليماً لا تحيّف فيه ولا محاباة، ولا يتأثر بميل أو هوى .

أجل نحن في حاجة إلى طاقة هائلة لتفهم واقعنا السلبي تفهماً راسخاً مبنياً على التاريخ . فليس كالتاريخ ما يساعد على وضع الأمور في نصابها والحكم لها أو عليها ، وبذلك نتلافى النظرة القصيرة العجلى والرأي الفطير . ان القدرة على تفهم الواقع تفهماً يقوم على حقائق التاريخ تتطلب ثقافة واسعة وآفاقاً فكرية عامة ، فضلاً عن النظرة العلمية الموضوعية السليمة تحل محل الازدواجية البسيطة المغلوطة التي يتسم بها كثير من التفكير التقليدي المعاصر . وتتضح هذه الازدواجية في تقسيم الانسانية إلى ساميّ وآريّ ، وأبيض وملوّن ،ومتمدن ومتخلف ، وغني وفقير ، وشرقي وغربي ، ونحن وهم . . . الخ .

إن الرجل الأوربي مُطالَب أكثر من غيره بالتخلي عن هذه الازدواجية التي هي من صنع يده . ولكن هل يفعل ؟ هيهات ! ان جميع مصائب الدنيا مرجعها إلى غرور هذا الرجل واعتقاده أنه صاحب الحضارة العظمى ، وان له حق السيادة على العالم والوصاية عليه ، لا لشيء إلا لأنه اليوم هو العنصر الأقوى . انه إنما يقيس درجة التقدم في كل بلد بلون بشرته ومقدار اقترابه من نمط الحياة الغربية وانتهاج النظم الغربية وبتبنّي القيم الغربية . أما قيم الحق والخير والجمال فهي شعارات يتبجح بها لسانه ويكتفي بتدوينها في وثائقه الورقية . حتى صوته يضنّ به في المحافل الدولية ـ وهي منابر للخطب الكلامية لا للأفعال الجادة ـ إذا كان هذا الصوت سيتخذ ـ ولو على المدى البعيد ـ ذريعة لاحقاق حق وإزهاق باطل ، مما يتعارض مع مفاهيم القوة والهيمنة التي لا يؤمن إلاّ بها . انه يجهل ان كل حضارة إنما هي في الواقع عالم قائم بذاته مليء بالألغاز والمفاجآت التي لا تخطر للأوربي على بال . لذلك فانه كثيراً ما يقع في الخطأ تلو الخطأ وهو يواجه الحضارات البعيدة عنه ، لكنه لا يكتشف أخطاءه إلا بعد فوات الأوان . ويبدو أنه آخر من يعلم بما

تتمخض به حركات الشعوب من انتفاضات وما تجيش به من مطامح وآمال وتطلعات، رغم إمكانياته الضخمة وأجهزة مخابراته الهائلة التي تنتشر كالاخطبوط في جميع أنحاء العالم.

إن الحضارة العربية الاسلامية هي إحدى الحضارات التي لا يزال االغرب يجهل الكثير عنها، رغم حضوره الثقيل كالكابوس في البلاد العربية والاسلامية ورغم استعماره الطويل لها، وإلّا لما أصدر - وما زال - عليها تلك الأحكام الجائرة التي رأينا طرفاً منها والتي يختلط فيها الجهل بشعور الصلف والتعالي. ولولا نفر قليل من المفكرين الغربيين الذين تفهموا هذه الحضارة لطمّ الماء على الوادي. ومع أنه لم يكن لهم تأثير يُذكر في تصحيح الأحكام والمفاهيم المغلوطة، ولا يزالون عاجزين عن التصدي للأكاذيب والتخرصات والافتراءات التي تمتلىء بها كتب الغرب وتردّدها وسائل إعلامه، فإنهم يظلون نواة صالحة لا بد أن تنمو يوماً وتقوى ويشتد ساعدها وتكون في مستوى ما يعلق عليها من آمال.

إن كتب التعلم في أوربا تلقن الطلاب منذ نعومة أظفارهم - استمراراً لحملة الأكاذيب والافتراءات والتخرصات على الفكر العربي الاسلامي - أن معركة بواتييه كانت نقطة تحول في تاريخ الحضارة الاوربية لأنها تمكنت من طرد العرب الاهماج عن أوربا المتحضّرة. يا للتزوير! يا لها من أكذوبة تجلل بالعار تاريخاً مشحوناً بالافتراءات على الشعوب، يدعي رجاله أنهم سدنة العلم والفكر، والقيّمون على رسالة الحضارة، ومع ذلك يصورون الفتوحات العربية منذ القرن الثامن للميلاد على أنها فتوحات من البربرية الآسيوية جاءت تهدد الغرب!

ولعله يكفي للرد على هذا التزوير ان نستشهد بعبارة مشهورة لاناتول فرانس وردت في كتابه (الحياة بين الزهور La vie en fleur) على لسان السيد دي بوا Dubois ففي الحوار الذي عقده بين هذا السيد والسيدة نوزيير Nouzière يسأل دي بوا هذه الأخيرة عن أشأم يوم في تاريخ فرنسا. ولما لم تستطع الاجابة قال لها: «انه يوم معركة بواتييه عندما تراجع العلم العربي والفن العربي والحضارة العربية سنة ٧٣٢ أمام همجية الفرنجة».

ومن الجدير بالذكر أن هذا الحوار كان سبباً في طرد المفكر الفرنسي الكبير روجيه غارودي من تونس سنة ١٩٤٥ بتهمة الدعاية المناهضة لفرنسا ، كما يعترف هو ذاته . فعلى عهد الحماية الفرنسية لتونس كان محظوراً على الناس الاشادة بتاريخ العرب في أوربا والقول بأن الحضارة العربية كانت لها السيادة على الحضارة الاوربية والفكر الاوربي حتى القرن الرابع عشر ، وكان محرّماً أيضاً تداول كلمة أناتول فرانس هذه ونشرها بين الناس . يا للغباء ! لقد أرادت فرنسا بذلك أن تحجب الشمس باصبع طفل صغير ! لقد ضيّعت فرنسا بواتييه فرصتها التاريخية للاسهام في الحضارة العربية الطالعة كما أسهمت الأندلس ، وفي اختصار أمد الفوضى الاقطاعية التي كانت مستشرية فيها آنذاك ، فتأخر بناء وحدتها القومية قروناً عدة ، ولم تستطع أن تفيد من المغانم والانجازات التي حققتها جارتها اسبانيا على يد العرب .

ويؤكد بلاسكو ايباريز Blasco Ibarrez في كتابه (في ظل الكاتدرائية) « ان انتعاش اسبانيا لم يأت من الشمال حيث القبائل البربرية » ، بل لقد جاء من الجنوب مع العرب الغزاة »[1] . ويقول أيضاً في معرض حديثه عن الحضارة العربية : « ما كادت أن تنشأ حتى استطاعت ان تمثل أفضل ما في اليهودية وما في العالم البيزنطي . وقد جلبت معها التقليد الهندي العريق ، وآثار الفرس ، وكثيراً من الأمور المستمدة من الصين الغامضة . لقد كان الشرق هو الذي ينفُذ الى أوربا على منوال امثال (دارا) و (كسرى) ، لا بطريق اليونان الذين رفضتهم أوربا لانقاذ حريتها ، بل من الطرف الآخر ، بطريق اسبانيا التي كانت تستقبل بذراعين مبسوطتين غزاتها وهي تئن من عبودية الملوك اللاهوتيين والأساقفة المشاكسين[2] » .

ويقول غارودي معلقاً على ما حققه العرب في اسبانيا : « فقد جلبوا معهم نظاماً اجتماعياً أعلى جداً من النظام الراهن ، وسرعان ما ظهروا بمظهر المحررين : أولا بانقاذهم الأقنان من وصاية ملوك (الڤيزغوط) في عصر

(١) نقلاً عن روجيه غارودي : حوار الحضارات صفحة ١٠٢ زدني علماً رقم ١ ـ عويدات .
(٢) نقلاً عن المصدر السابق .

انحطاطهم ، ثم بعدم الاستيلاء على الأراضي ـ فالقرآن يحرم ذلك ـ مكتفين بالخراج »[1] .

ان العمى الغربي ، ووهم التفوق الغربي ، والتعصب الغربي ـ نسي أو تناسى ان الغزاة الفرنسيين والانكليز والايطاليين والبرتغاليين هم الذين دخلوا ارض الاسلام ، فجاسوا خلال الديار وعاثوا فيها فساداً ، مدمرين الحضارة العربية تدميراً لا يقل ـ اذا لم يكن يفوق ـ تدمير المغول..

ان فتح العرب للأندلس كان فتحاً حضارياً ، وهذا ما لا يفهمه الأوروبيون ولا يتطابق أبداً مع مقاييس الاستعمار ، وموازينه التي يحكمون بها الشعوب . اجل هو شيء جديد لا عهد لهم به قط . انه لم يكن غزواً عسكرياً كغزو المغول في القرون الوسطى والغزو الأوربي في العصر الحديث . كلا . فالفرسان العرب عندما دخلوا الاندلس لم يزد عددهم على خمسين الف فارس ، بينما كان فيها من السكان عشرة ملايين . ولو كان الأمر مجرد حرب لما نجحوا . ولكن تفوق حضارة على أخرى كان أهم عوامل النصر . ومما له دلالته في هذا الباب أيضاً ان العبقرية الاسبانية لم تتفجر وتزدهر إلا في المناخ العربي وفي ظل الحكم العربي وأجواء الحضارة العربية . أما قبل ذلك فلم تكن اسبانيا شيئاً مذكوراً ، وأما بعد ذلك فقد أصبحت دولة كبرى وكانت هي وجارتها البرتغال طليعة الاستعمار الأوربي في العالم .

ومنذ انتصار شارل مارتل على العرب في معركة بواتييه ، تكونت لدى أوربا عقدة العرب والاسلام . هنالك ظهر شعار (حماية الحضارة الغربية من البرابرة العرب) . أما البربرية الغربية في فييتنام والهند والصين وافريقيا والبلاد العربية فهي رسالة حضارية ، رسالة ابتزاز الشعوب واستنزاف دمائها ونهب خيراتها وتركها قاعاً صفصفاً . وكانت حصة البلاد العربي منه أكبر من غيرها . اذ لم تكد موجة الاستعمار تنحسر عن الوطن العربي ـ في الظاهر على الأقل ـ حتى ابتلي باسرائيل ، وما ادراك ما إسرائيل ! انها استعمار من نوع جديد هو الاستعمار الاستيطاني . انها حضور دائم للغرب

---

(١) المصدر السابق صفحة ٩٧ .

في المنطقة ، وعين ساهرة على مصالحه لا تغفو ولا تنام . هذه هي رسالة أوربا الحضارية !

ولكن ما العمل اذا كانت المثل الاخلاقية لا قيمة لها ولا وزن في العلاقات السياسية والدولية ؟ هذه هي حقيقة المأساة في الحضارة الغربية . انها حضارة شرهة لا همَّ لها إلا جني الأرباح والمكاسب . انها حضارة رأس المال والقوة ودكتاتورية البروليتاريا ، ولكنها ليست أبداً حضارة الانسان . فرغم التقدم الكبير الذي أحرزته هذه الحضارة في جناحيها الشرقي والغربي ـ فان إنسانها لم يتقدم . هناك تقدم علمي وتكنولوجي هائل ، ولكن ليس هناك أي تقدم في جوهر الانسان . فبينما نحن نشهد الفصول الأخيرة من عصر استعباد الانسان للانسان ـ أو هذا ما يبدو في الظاهر على الأقل ـ إذا بنا نشهد عصر استعباد الآلة للإنسان ! وهكذا ينتقل الانسان من استعباد إلى آخر . فبدلاً من ان تحرره هذه الآلة من شقاء العصور زادت في سحقه وتحطيمه كأنما قد كُتب عليه ان يظل في شقاء دائم . لذلك كان غارودي على حق عندما قال ان هذه الحضارة التي لا يزيد عمرها على قرنين من الزمان توشك ان تجرُّ العالم إلى الهلاك والدمار وتجعله كأن لم يكن . ويبدو انها لن تعمِّر طويلاً . انها لم تُثبت قدرتها على البقاء . وكل شيء يشير الى انها لن تفعل . ان حضارة المصريين القدماء عاشت زاهرةثلاثة آلاف سنة ، وحضارة الصين عاشت الفين من السنين . القيم هي حامية الحضارات ، وهيهات ان تعيش حضارة بلا قيم .

حقاً ، لقد اثبتت الحضارة الغربية انها عاجزة عن قيادة العالم . هذا ما يؤكده روجيه غارودي وتثبته الأحداث يوماً بعد يوم . فاذا ما أرادت ان يُنسأ لها في الأجل ويُكتب لها البقاء ، فيجب ان تدرك حجمها الحقيقي بين حضارات العالم ، وان يقوم حوار بين الحضارات تتبادل فيه مفاهيمها ومُثلها وقيمها وتجاربها ، وان تتعاون جميع الحضارات على توفير الحرية لجميع المواطنين في بلاد الله الواسعة ، وتقديم الفُرص المتكافئة لهم ، والبحث عن الأفراد الموهوبين اينما وُجدوا ، وإلى أيّ جنس انتموا ، دون التفات الى العرق أو اللون أو المذهب ، ومساعدتهم في عملية تحقيق الذات ، وتقريبهم

بعضهم من بعض ، وتشجيعهم على تغذية الحوافز الخلاقة بدلاً من خنق مواهبهم لاعتبارات عنصرية أو مذهبية أو طائفية ضيقة . وبذلك يمكن لهذه الحضارة (الغربية) ان تعيش ، ويتسنى للآخرين ان يعيشوا العيش الكريم والحياة الوادعة المطمئنة،ويستطيع العالم ان يهدأ بسلام وأمان . وإلا فعلى العالم العفاء !

ولكن على من تقرأ مزاميرك يا داود ؟

خاتمة ـ ان عيب الكثير من الدارسين للفكر العربي من المستشرقين الغربيين انما هو تضخيم بعض الجوانب على حساب البعض الآخر ، تضخيم جانب الأخذ والاستعارة ، والتعتيم على جانب العطاء والانتاج ، تضخيم جانب النقل والاقتباس ، وتسليط الأضواء عليه دون غيره من الجوانب الأخرى . وهذا لعمري تحيُّفٌ لا نرضى به وتجنٍّ سافر لا نرى له مساغاً ، فضلا عن انه عمل غير علمي كان ينبغي على سدنة العلم والفكر ان يربأوا بأنفسهم عنه .

ان الحضارة العربية الاسلامية فيهاالكثيرمن العناصر الأجنبية ، هذا ما لا ننكره ولا نزال نكرر إيماننا به . ولكن أيُّ عيب في هذا ؟ ومن ذا الذي لم يتتلمذ على من سبقه ويقتفِ أثر من تقدمه ؟ فان الآراء والأفكار لا تعيش ولا ينتظم أمرها إلا بهذا الطريق ، أو قُل هذا الطريق هو أحد العوامل الهامة لاستمرار حياة الأفكار وشحنها بالزاد والمؤونة ، واستيلادها أجيالاً جديدة من الأفكار وذراري جديدة . فالاقتباس والاستعارة والنقل إذا كانت تخلق جيوشاً من الموظفين وتغرق الأسواق بحملة الشهادات (نقل سلبي) فانها أيضاً تخلق جيوشاً من الأفكار المبدعة والمعاني الخلاقة دون ان يستلزم ذلك عبودية واسترقاقاً ، أو يكون دليلاً على الاستخذاء والتخاذل.هذا هو النقل الايجابي الذي يدل على النشاط والفعالية والاعتداد بالذات . انه انما يعني التفتح والانطلاق وارادة الحياة . انه انما يعني ان الشخص الناقل ايجابياً قد بدأ يعي ذاته ووجوده ، في محاولة لتجاوزهما والتفوق عليهما بقوى الابداع الكامنة فيه . انه انما يعني ان هذا الشخص لا يُقرّ بالحدود التي رسمتها له الطبيعة والقيود التي كبلته بها ، بل يريد تحطيمها والثورة عليها ليطور ذاته ومجتمعه

ويعيش في عالم أفضل . هذا هو المعنى العميق للاقتباس المنفتح الايجابي الذي يُثري صاحبه ومجتمعه ويكفل له الصمود في معركة تنازع البقاء .

ليس ثمة مَثَل على أمة استقلت بذاتها أو سارت بمفردها في هذا العالم المليء بالأشواك والعقبات والطلاسم والأسرار ، اللهم إلا ان تكون متخلفة في سلم التطور . فالتطور لا يسير بخطى واحدة في المجتمعات الانسانية المختلفة ، بل يسير بسرعات متفاوتة ، وهو أشد ما يكون سرعة في المواضع التي تقع على طرق التجارة والمواصلات ، والأماكن التي يكثر فيها الاختلاط أو ـ على حد تعبير برغسون ـ في الأماكن التي تلتقي فيها تيارات مختلفة . هناك يصنع التاريخ وهناك يقفز ويقفز .

إن جميع الأمم دائنة ومدينة في وقت واحد معاً ، فكل أمة لا بد ان تنتفع بآثار الأمم التي تقدمتها قبل أن تصبح صاحبة آثار ذاتية ، وكل جيل يستفيد في البدء مما ادخرته الأجيال السابقة ، ثم يضيف اليه اذا كان على ذلك من القادرين . اذ لا يُطلب من الأمة ـ أيّ أمة ـ ان تبدأ من الصفر أو ان تخلق ثقافتها من العدم دون ان تعتمد على غيرها. ولا يعاب عليها أبداً ان تحجّ الى المعرفة أنّى وجدتها ، وتطلبها في جميع مظانها ، وإنما يعاب عليها أن تجمد في مكانها وتُغَلّق من دونها الأبواب والقلاع والحصون ، وتجترّ هناك ما تعلمته من الآخرين دون أن تضيف إليه عصارة أن شجرة المعرفة تغذيها عصارة العقول البشرية بالأفكار ، وبها انما تنمو . ثم هي تتفرع هنا وهناك لتصبح وارفة الظلال دانية الثمار . فما من ورقة ولا ثمرة ولا فرع يمتد في هذه الشجرة إلا كان وراءه عقول تزيده تماسكاً ونضارة وانتشاراً . وما زال جهد الأيام وعرق العصور وكدح العقول يتطاول بهذه الشجرة ويزيدها سموقاً وارتفاعاً . هذه حكمة الأجيال وعبرة التاريخ .

فقد اقتبس اليونان بادىء ذي بدء ما عند قدماء المصريين والهنود وبلاد ما بين النهرين كما مر معنا ، لكنهم حولوا هذه المعارف التي ظفروا بها إلى ما يلائم حاجاتهم هم وأوضاعهم ومقتضيات حياتهم . فلم يزدردوا ازدراداً ، بل لقد تريثوا واختاروا ، واستخلصوا مما اختاروا مزيجاً له خواص جديدة غير خواص أجزائه متفرقةً ، فكان هو علم اليونان ، وفلسفة اليونان ، وتراث اليونان . لقد هضموا كل ما أخذوا وتمثلوه حتى دخل في كيانهم العقلي كله

وصار جزءاً أساسياً في تكوينهم وصيغة حياتهم .

وكذلك فعل اجدادنا العرب . فلئن كانوا تلاميذ لليونان وغير اليونان ، إلا انهم كانوا تلاميذ نوابغ بررة يفخر بهم اساتذتهم ، كما يعترفون بفضل أساتذتهم عليهم . فقد اجتمع لهم عاملان اثنان لا بد منهما ليصنعوا حضارتهم بأيديهم ويدخلوا التاريخ من أواسع أبوابه : الانتفاضة الجبارة التي انطلقت كالصاعقة في بطن مكة تطيح بالعروش والطواغيت ، والمدد الخارجي الذي لم يدخر العرب وسعاً في سبيل الحصول عليه لتغذية هذه الانتفاضة بروافد شتى من مراكز الفكر القديم والابقاء عليها طرية ندية . فنشطت العقول ، وتفتقت القرائح ، وتمخضت الأذهان عما لم يكن بالحسبان .

وإذا كان هناك من يشك في القيمة الحقيقية لثمرات الفكر العربي ، ويقول ان حظ العرب من العلم والفلسفة لم يكن إلا النقل والتعليق على الكتب اليونانية أو غير اليونانية فما علينا ـ لادحاض هذا الرأي ـ إلا مقارنة ما كتبه النقلة بما كتبه العلماء والفلاسفة والمفكرون العرب . فالمؤلفات الأولى تمثل مرحلة الترجمة والنقل ، وأما المؤلفات الثانية ، المؤلفات العربية الاسلامية ، فتمثل مرحلة التأليف الخالص . فلو كانت حجة النقل صحيحة ، اذن لجاءت المؤلفات الأولى أهم من المؤلفات الأخيرة وأعظم شأناً . وهذا ما لا يقول به عاقل .

وهكذا ، فانه باندماج الفكر المستورَد في نواة الفكر المنتفض ظهرت في العالم الاسلامي ثُلّة متألقة من الفلاسفة والعلماء والمفكرين كانت منارة للعالم كله ، كالكندي والفارابي وابن سينا وابن الهيثم وابن رشد وابن خلدون والبيروني والبتاني والخازن . . . وكانت هذه الاسماء اللامعة هي التي قدمت فيما بعد ، إشعاعها العلمي والفلسفي لاوربا ، واسهمت كثيراً في وثبة العلم والفكر الاوربيين ، ونقلهما الى عصر جديد .

ولا غرو في ذلك ، فقد كان العرب نموذجاً للانفتاح على العالم واقتباس الصالح فيه ، دون حساسية ولا عُقد ولا رواسب . فأخذوا عمن سبقهم ولم يتهيبوا، واغنوا تراث الانسانية ولم يبخلوا ، وكانت لهم جولات وجولات في

ميادين الخلق والابداع . ثم ان استيعاب المسلمين لتراث الأوائل لا يقتصر أمره على اغناء الثقافة الاسلامية وحدها ، بل لقد أغنى أيضاً ـ وبالمقدار ذاته ـ الثقافة اليونانية والفارسية والهندية معاً : اذ بُعثت هذه الثقافات جميعاً من مرقدها بعد ان كانت على شفا الموت تلفظ أنفاسها الأخيرة دون ان يبالي بها أحد أو يسرع إلى نجدتها انسان . فلولا عناية العرب بها وحفاظهم عليها ، وانقاذها من التلف والضياع والحشرات والديدان و . . . ولولا تنقيحهم لها وترميمها واصلاح فاسدها وتحقيق نصوصها ، وشرحها والتعليق عليها . . . لغابت في ظلمات الماضي وانقطعت وشائج التاريخ . فاذا كانت قد وهبتهم ثروتها الفكرية الضخمة وتراثها العظيم ، فقد زودوها بلغتهم واقلامهم ومهجهم ، واستولدوها أجيالاً جديدة بمناقشاتهم ومطارحاتهم وتأملاتهم وثمرات عقولهم ، وهيأوا لها فرصاً جديدة للانتشار والتوسع . وهكذا لم يقتصر النفع والانتفاع على فريق دون فريق ، بل لكل فضله ومزيتُه . فالحياة انما هي تبادل في المصالح والمنافع ، ولا يستقيم أمرها إلا بذلك .

لقد كان بين أيدي المسلمين والعرب مادة دينية غزيرة مصدرها القرآن والاسلام ، وتراث عقلي ضخم سعوا اليه رجالاً وعلى كل ضامر ، وأتوا للظفربه من كل فج عميق ، وتحملوا في سبيله كل عنت وارهاق . فتمثلوه على وجه خاص ينبع من قيمهم الدينية والروحية ومُثلهم العربية ، واستخدموه في انشاء وجهة نظرهم في الله والكون والحياة والمصير ، حتى لقد دخل في نسيج تفكيرهم ، واكتمل بحسب اصول عاداتهم ونظم معيشتهم وحاجات بيئتهم الاجتماعية والعقلية ، واصبح غذاءً نافعاً يجد فيه كل طالب بغيته ، وكل باحث ضالته .

وليس في هذا أي استرقاق أو عبودية . فالاسترقاق والعبودية لا يكونان بنقل الأفكار ، بل بالعجزعن الانتفاع بها وبالانجراف في تيارها كيفما اتفق . فلا ضيْر على الانسان ان يأخذ ما يشاء عمن يشاء ، فما يضيره حقاً انما هو ان يظل عاجزاً مُقصّراً عن معلمه الذي كان نبعاً له ومستقى لأفكاره ، وان تنطفىء الشعلة بين يديه ، وان تنقطع عنده السلسلة التي اتصلت منذ بداية

لتاريخ الى ان وصلت اليه . فالعرب لم ينجرفوا أبداً وراء المدارس والثقافات المستوردة كيفما اتفق ، ولم تنطفىء الشعلة بين أيديهم . لقد كانوا يفتشون عن أجوائهم وأخيلتهم ، وينقّبون في الثقافات التي اتصلوا بها لعلّهم يجدون فيها تفريجاً لهمومهم وقلقهم،وحلاً لمشاكلهم وبلسماً لأوجاعهم وآلامهم وشفاءً لنفوسهم ، ووسيلة للفوز بالسعادة في الحياة وبعد الممات . لقد وجدوا فيها اداة فعالة لتحقيق الذات والامعان في الوجود ، وكم من فكرة وصلت اليهم واخترقت عالمهم فأصبحت أخطر شأناً في مثواها الجديد منها في منبتها الأصلي القديم !

ان الفكرة الواحدة عندما تنتقل من بيئة إلى أخرى أو يُقذف بها في جوٍ عقلي جديد له مثله وقيمه ومفاهيمه الخاصة به ، فانما تدخل في نظام فكري جديد وعلاقات جديدة ، لذلك لا بد ان تطرأ عليها تغيرات شتى وتبدلات مختلفة . فتفقد عندئذ شخصيتها ولا تعود ملكاً لأصحابها الأولين ، بل تصبح ملكاً لأصحابها الجدد ، وحقاً مشاعاً يمكن لكل أحد ان يستمتع به ويتخذ منه منطلقاً لأفكار ونزعات جديدة تناسب روحه وتلبي حاجاته ، وتخفف من الضغط والتوتر في نفسه . . . وكذلك إذا طُرحت فكرة واحدة ما على بساط البحث عمد كل باحث إلى فحصها وتمحيصها على نحوه الخاص هو ، واستخراج ما يمكنه استخراجه منها ، وبذلك تتشتت وتتفرق وتتخذ مظاهر متعددة وأشكالاً متباينة ، وسمات لا حصر لها تختلف باختلاف الباحثين ، وتتنوع بتنوع الدارسين . . .لذلك فان طريقة فرز الأفكار بعضها عن بعض وبيان ما هو منها مأخوذ مقتبَس وما هو غير ذلك لم تعد طريقة عصرية ، وذلك لأنها لا تبين لنا خصائص الشخصية الناقلة ومميزاتها والأسباب التي حدت بها إلى النقل . . . انها لا تأخذ بالحسبان إلاّ اشباه الأفكار ، الأفكار مجردة من جميع ارتباطاتها وأجوائها ، الأفكار الهشة المسحوقة التي انتُزعت منها جميع الخصائص التي تمنحها قوامها وشخصيتها . وماهذه بالأفكار،إنها أشباح أفكار. فالمعوَّل عليه اليوم إنماهومعرفة طريقة فهم الأفكار في ارتباطاتها وأجوائها ووظائفها ودلالاتها ، طريقة فهم الشخصية لهذه الأفكار وما فعله الشخص المبدع بها ، وأي النتائج استخلصها منها .

فالأفكار يتسلسل بعضها من بعض ، ويتولد بعضها من بعض ، ويتفاعل بعضها وبعض ، ويُشحن بعضها بعض ، ويتخذ ذلك مذاهب شتى وطرائق قدداً . ثم تنتقل الى الناس على وجوه نعرف بعضها ونجهل أكثرها ، فيتقبّلونها بلا وعي ولا احتساب ، أو يسعون اليها بالجهد والعرق ، وبمختلف الوسائل والأسباب . وهناك يطرأ عليها ما طرأ على أسلافها من قبل . فالانسان يرزح في الواقع تحت اعباء ثقال من مواريث العقائد والمذاهب والأفكار التي تفاعلت وتصادمت وتوالدت في الزمان والمكان ، ولكل خطوة يخطوها ينابيع يستقي منها وأصول يبني عليها . ان الانسان الذي يكاد يعرف كل شيء عن القمر لا يكاد يعرف شيئاً عن عالم خصب بكر هو اقرب الينا من أنفسنا ويحيط بنا من كل جانب . انه عالم الأفكار ، وهو عالم معقد كبير ، يصطرع بعضه ببعض ويموج بعضه في بعض ، ويجب ان يكون موضوعاً لعلم مستقل قائم بذاته له مصطلحاته وتعابيره ، وله مناهجه وطرائقه ، وله سننه وقوانينه . انه عالم عتيد قاهر ، لا مُعقب لحكمه ولا رادّ لقضائه . فهو الذي يحكم عالم الانسان ، ويعمّق وجوده ويسمو به على جميع العوالم ويضفي عليه معنى وغاية .

●

وزبدة القول ، إن الأعمال الفكرية ليست وليدة يوم أو شهر أو سنة ، ولا هي مقتصرة على شعب دون اخر . فهي تتوالى ببطء وتنمو في مخيلة الشعوب على أجيال متطاولة . ثم يتغذى بعضها ببعض ويؤثر بعضها في بعض ، وتنتقل من صورة إلى أخرى وان لم يتنبّه لها الآحاد أو يفطن لها التاريخ .

واقتباس الأفكار يسبق كل عمل ابداعي عظيم . فلا ابداع بدون اقتباس . ان ما اقتبسه العرب لم يكن في أيديهم سوى اداة للعمل . فهم لم يُقدموا على ما أقدموا عليه من اكتساب وتعلم من الأمم التي سبقتهم في العلم والمعرفة إلاّ مدفوعين بتلقائية غنية خصبة ، تُسيرها ارادة واعية تصارع طبيعة جافية متمردة . وهذا لعمري دليل صحة وحيوية ، وليس عرضاً من أعراض المرض والتخلف . وبعبارة أخرى ، ليس تراث العالم القديم هو

الذي رحل إلى بلاد الاسلام ليجد له سوقاً فيها أو ليفرض نفسه عليها ، وإلاّ ظل سلبياً كسيحاً لا حول له ولا قوة ، ولا قدرة له على التأثير والفاعلية والتجاوب ومشاعر الناس وآمالهم وآلامهم . . . كلا لم يرحل هذا التراث إلى بلاد الاسلام ، بل ان فريقاً من العرب المسلمين تتدفق فيهم قوى ومواهب وطاقات خاصة ، هم الذين تركوا الأهل والعشيرة والوطن ورحلوا إلى مظّان هذا التراث ـ أو انفذوا بعثاتهم في طلبه ، والمعنى واحد ـ واختاروا جزءاً بعينه منه ، ثم صبغوا هذا الجزء بصبغتهم وحوّروه لكي يلائم طبيعتهم ، فحذفوا منه ما حذفوا مما لا يساعد على عملية تحقيق الذات ، وأضافوا اليه كل ما من شأنه توكيد هذه العملية ، حتى جعلوا منه نوعاً جديداً من التعبير العقلي له معنى خاص بالنسبة اليهم ، وبالنسبة اليهم وحدهم . انهم لم يقبلوا هذا الجزء إلا ليستخدموه ، لقد اكتشفوا فيه امكانية الخلق والابتكار ، اكتشفوا انهم به انما يستطيعون التعبير عن روحهم وامانيهم ، وتحقيق آمالهم وما تصبو اليه نفوسهم ، وتصوير همومهم ومشاعرهم تصويراً صادقاً دقيقاً ، والتصرف تصرفاً سلبياً حكيماً في شتى المواقف والحالات . انه ـ بكلمة واحدة ـ لم يكن سوى الأداة التي استخدموها في عملية بناء الذات وتفجير الطاقات الكامنة في هذه الذات .

لقد انتقل هذا الجزء من عالم إلى عالم ، ففقد بعض الخصائص واكتسب خصائص أخرى تساعده على التفاعل وعناصر عالمه الجديد . فهو منذ الآن سيكون له طابعه الخاص ، وسيكون له مكانه المناسب ، وسيكون له معناه ووظائفه في نظام عضوي واسع لا تتفاعل الأجزاء فيه إلا بقدر ما تنتمي اليه وتكون عضواً من أعضائه . لذلك لا يجوز بعد الآن النظر إلى هذا الجزء المستورَد منعزلاً عن الكل الذي هو فيه ، وانما يجب النظر اليه دائماً من حيث تعبيره الخاص ، وعلاقته مع غيره ، ومعناه بالنسبة الى مجتمعه الجديد ، ووظيفته في الاطار الفكري العام عند أصحابه الجدد . والخلاصة ، ان انتماءه الجديد قد أحدث تغييراً شاملاً في جميع خصائصه القديمة . انه لم يكن ليفعل فعله الساحر العجيب إلا لارتباطه الشديد بمواقف حية واتجاهات معاناة في البيئة العربية الاسلامية . وبتعبير أوضح ، انه لم يكن ليؤثر فيهم

تأثيره الخصب الفعال إلا لأنه خضع لعمليات باطنة كثيرة من التغيير والتبديل أصبح بعدها أهلاً للدخول إلى عالمه الجديد والمشاركة في حل مشاكله وفضّ منازعاته . فهناك اذن اتجاه حي ، هناك جانب مُعانى يجب على تاريخ الفكر والفلسفة ان يأخذه في الحسبان ، ويتناوله بالبحث والتمحيص اذا كان لا يريد ان ينحلَّ إلى مجرد تدوين سطحي بارد للمذاهب ، وترجمة آلية لسيرة أصحابها ، تهتم بالنصوص دون النفوس ، وتغريها القشور دون الزهور .

لقد ارتحل اليهم ليجد أرضاً خصبة مهيأة للخلق والابداع ، وبيئة صالحة اكتملت لها وسائل البحث والنظر ، وعقلية منهجية متسقة اصبحت تعالج الأمور والأحداث معالجة كلية شاملة ، لكثرة معاناة اصحابها للأعمال الذهنية التي انما أورثهم اياها النظر في العلوم الطبيعية والتفكير في المسائل الشرعية ، خاصة مسائل الفقه واقضيته وقياساته . فمن السذاجة حقاً ان يقال ان الدراسات الفقهية والأصولية المعقدة ومباحث الطبيعة والطب والفلك والرياضة هي وليدة عقلية مشتتة لا تتبع في مسارها الطويل نظاماً ولا منهجاً . فكأنهم لم يطلبوا هذا الجزء الذي اختاروه من تراث الأوائل إلا في فترة كانوا قد وصلوا فيها من الناحية العقلية والحضارية إلى مستوى هذا التراث ، بمعنى أنه لو لم تُتح لهم فرصة نقل هذا التراث الى لسانهم ـ لعمدوا ـ ومن يدري ؟ ـ إلى مناهل نفوسهم يفجرونها طاقات غزيرة ، وعبقريات سامقة ، ومواهب فذّة ، ولكان من الممكن ان ينطلق الفكر العربي آنذاك الى غاية مداه مكتفياً بالقليل من العون الخارجي ، فيبدع فلسفة جديدة خاصة به ، وعلوماً جديدة قد تشبه ما عند الأوائل وقد لا تشبهه . فلولا انهم انداد لهؤلاء الأوائل ، أكفاء لهم ، ما كان في مقدورهم ان يسموا إلى ما سما اليه هؤلاء الأوائل ويتطلعوا إلى ما تطلعوا اليه . ولا غرو ان يفعلوا. كيف لا وهم حين أخذوا ما أخذوا لم يكونوا عزلاً من أي ميراث حضاري أو محرومين من أي نواة للتفكير . بل لقد كانت بين أيديهم نظرية كونية شاملة قد أمدَّهم بها القرآن ، كما ان نواة الفكر كانت قد تكونت لديهم منذ وقت مبكر جداً ، وذلك عند قيام الفرق والمذاهب الاسلامية الأولى ابتداء من القرن الأول للهجرة ، في اعقاب النزاع الكبير في مسألة الخلافة وشروط الخليفة والصدام

بين علي ومعاوية ، مما سنراه في غاية التفضيل والتحليل في كتابنا القادم ، في حديثنا عن الانفجار السيكوكسوسيوديناميكي الذي سيزلزل شبه الجزيرة العربية والمنطقة المحيطة بها ويدك أركانها ، ويقلب موازينها واوضاع الحياة فيها ليستخلف اصحابها في الأرض ويجعلهم الوارثين .

وبذلك لم تكن الفلسفة اليونانية ، والعلم الهندي ، والحكمة الفارسية ، و . . . سوى روافد اندفعت جميعاً لتصب في المجرى الكبير ، وتلتقي بتيار صاخب يجيش بالعقول المتفتحة ، والنفوس المشرقة والأذهان المتوقدة ، والبصائر النافذة ، والآمال العريضة ، والقيم السامية ، والمثل الرفيعة ، والمسؤوليات الجسام . . . وهكذا ، فانما العبرة كل العبرة بهذا التيار الصاخب وبما يزخر فيه من قوى وطاقات هي التي تصنع التاريخ ، وليست العبرة أبداً بنفحات تجود بها جماعة من المترجمين المحترفين والمرتزقة التافهين الذين يعملون لا استزادةً من العلم أو توسيعاً للمدارك ، بل طلباً للرفد واستكثاراً من النشب . هذا مع تقديرنا البالغ للخدمات العظيمة التي اسداها النقلة للفكر العربي الاسلامي ، على الا نسرف في أهمية هذه الخدمات فنحملها فوق ما تحتمل ، وننسى الفكر الذي استقدم اصحابها ، فأحلَّهم مكاناً كريماً يليق به وبهم ، وجعل لهم سوقاً نافقة كانت من قبل كاسدة . فمن أوجب الواجب ان نقرَّ بفضلهم ، لكن من اقبح القبيح ان نسلب العرب كل فضل . وبذلك اغتنى اللاحق بالسابق ، والخالف بالسالف ، فارتفع الصرح وعظم البناء .

وهكذا اجتمع تراث المسلمين بتراث الأوائل وبه اكتمل . والتقى الفكر بالفكر على أمر قد قُدر . فالتقاء الأفكار ليس مجرد عملية عددية ، وانما هو تحول نوعي في النظم والمفاهيم والأهداف والآمال والعلاقات العامة والخاصة . انه بداية لعملية طويلة معقدة ، من النمو والتطور تتناول هذه الأفكار بالتنقيح والتصحيح ، والحذف والاضافة ، وفي اثناء هذه العملية تنبثق افكار وتموت أفكار ، وتصطرع الأفكار بالأفكار .

فلا تحسبن ما حدث في بادية العرب أعجوبة يصعب تصديقها . انما هي الأفكار ترفع ما انخفض وتُوري ما انطفأ . من اعتد بها عز ، ومن

استهان بها ذل . فما الحياة إلا شحنة من الأفكار ، وتبادل الأفكار ، وتفاعل بين الأفكار ، لكن درجة تكامل المجتمع ونضجه وتماسكه مما يُسهِّل أو يعرقل عمل الأفكار واحتمالات النجاح أو الفشل التي تتعرض لها .



حسبنا الآن هذا القدر الذي ذكرنا ، آملين ان نكون قد استطعنا في هذه الصفحات اظهار عدم كفاية التاريخ الخارجي الذي لايتغلغل في الأحداث وينفذ إلى شغافها ، بل ينظر اليها من خارج ومن جانب واحد فقط ، وبعلم واحد فقط ، لا بطائفة من العلوم المتعددة ، ويعالج ظواهر الفكر كما يعالج ظواهر المادة وبنفس المناهج والطرق ، ويخضعه لحتمية صارمة لا تخضع لها حتى الظواهر الطبيعية . فاذا ما تجنبنا هذا النمط من التاريخ ، وعرفنا ان اجتماع الأفكار ليس مجرد اجتماع كمي بقدر ما هو عملية تحول كيفي ، وان نقلها من مكان إلى آخر ومن أفق إلى أفق ليس مجرد نقل جغرافي بقدر ما هو نُقلة ثقافية وقفزة حضارية ، وإذا طبقنا ذلك على ظواهر الفكر العربي والمجتمع الاسلامي والحضارة التي انبثقت عنها ، وتناولنا هذه الظواهر بعلوم مختلفة ومعارف متباينة ومآخذ متعددة ، استطعنا ان ننفذ الى صميم هذه الظواهر ونتغلغل في شعابها وادق دقائقها، ولا يقتصر أمرنا في هذه الحال على اننا قد اقتنصنا من الباطن تلقائية الفكر العربي الاسلامي وادركنا معناه ومغزاه ، وعرفنا قيمته ومداه ، بل نكون ايضاً قد استطعنا ان نعيش حقبة مضى عهدها ، وأن نغوص بحق في أعماق الماضي ، وبالتالي ان نعود القهقرى ونَصّاعد في مجرى التاريخ !!!

الفصل الثالث

الفكر العربي بين الأصالة والتقليد

مغالطة جديدةتضاف إلى سلسلةالمغالطات التي ينطوي عليهاسجلّ«أدب» التشهيروالتجني العنصري على قوم مرّواعلى هذا العالم كما يمرّ الغمـام على الأرض العطشى بعدسنوات عجاف جف فيها الضرع وهلك الحرث والنسل ، فاهتزت الارض وربت ، وأنبتت من كل زوج بهيج . لقد أتاهم عام لا كالأعوام ، عام مدرار ، فيه يغاث الناس وفيه يعصرون . وأقبل بعضهم على بعض يرقصون ويهزجون ويتبادلون التهاني والهدايا . . . هكذا كان العرب بعد احتضار أثينا وانطفاء الشعلة التي كانت تمسك بها . وأشرقت الأرض بنور العلم والفكر ، ووُضع الكتاب ، وجيء بالفلاسفة والعلماء والمفكرين وقادة الرأي يتلونه ويعلمونه للناس ، بعد أن نفضوا عنه غبار الأجيال والأعصار .

لقد كان العرب يشعرون أنهم أصحاب رسالة تاريخية لا يجوز التفريط فيها أو الاستهانة بأمرها ، وقد أدّوا هذه الرسالة على خير وجه وهم يُطلّون على العالم بالفتوح والحضارة . وقد امتاز ماضيهم باتساع الأفق ، والاخلاص للعقل ، وقبول الحق أيّاً كان مصدره ، والتسامح مع أصحاب الديانات والعقائد الأخرى ، وهو أمر جديد على تقاليد العصور الوسطى الاوربية عصور التعصب والحقد الديني وغرور الكنيسة الواحدة التي « اختارها » الله لقيادة العالم .

إن رغبة العرب الملحة في المعرفة واكتشاف الذات والكون والحياة ، وعكوفهم على ذلك ، ودأبهم على البحث والنظر والتفكير في خلق السموات والأرض ، وما أعقب ذلك من مآثر ومنجزات تحققت على أيديهم-كل أولئك قد جعل منهم رجالاً عظاماً وقوة دينامية جبارة محركة للتاريخ . لقد حرصوا

على التماس المعرفة في جميع مظانّها ، فطلبوها في آثار اليونان وكتب فارس والهند وغيرهم ، وكانوا أوفياء في حق من أخذوا عنهم ، فأقرّوا بفضلهم ، ولم ينتحلوا فضلاً استحقه سواهم ، واعترفوا بجهلهم حيث مُنوا بالاخفاق . لقد أدرك الخلف انهم مدينون للسلف دون أن ينتقص من قدر هؤلاء وقوعهم في بعض الزلات أو الهفوات ، إذ ليس ما يمنع من الاستدراك على الأسلاف شريطة ألا ينطوي ذلك على التجني والتشهير . والاسراف في التجريح والتشنيع . ففي اعتقادهم أنه ما من عالِم مهما بلغ شأنه بمعصوم عن الزلل . هذه المبادىء أرست لديهم الأسس الأخلاقية للنقد ، ونزعت منهم عقدة التكبر والغرور . فكانت الأخلاق رائدهم في جميع أعمالهم وتصاريف حياتهم ، ولا سيما ما يتصل منها بالعلم والعلماء . واهتموا بالتجربة والملاحظة وتنظيم البحث العلمي اهتماماً منقطع النظير في تلك العصور ، ووضعوا له المناهج وسنوا له القواعد والأصول . وكانوا يجودون بالمال والوقت والنفس في سبيل الأهداف والمثل التي من شأنها توكيد الذات وإثراؤها وإغناء مضمونها ، لتقف على معنى وجودها وتُطلّ على بعدها الكوني . ومضوا في هذا السبيل حتى غايته .

ولا تقتصر مآثر العرب في العلم والفلسفة وسائر وجوه الحضارة على ما أضافوه من الابتكارات العلمية والاجتهادات العقلية ، حتى لقد فاقوا في ذلك سائر الأمم المعروفة آنذاك ، فأثروا فيها وتأثروا بها ، وأخذوا منها وأعطوها ، في عملية رائدة فذة من التبادل الفكري والحضاري الكثيف ، حقيق بها أن يُفرد لها دراسة شاملة تتناولها في جميع نواحيها ـ بل انهم فضلاً عن ذلك قد حفظوا لنا خلال الفترة الطويلة التي اتسمت باحتضار ثقافة اليونان وانحلال حضارة الفرس والهنود ، كنوز الحكمة القديمة وأصدق تقاليدها وأعظم نفائسها وأسمى غاياتها ومداركها . يضاف إلى ذلك أخيراً أن الرجال الذين أطاقوا النهوض بأعباء هذه الرسالة علموا أوربا ـ فضلاً عن الخبرات والتجارب التي طلعوا بها على العالم ـ الأساس الذي إنما قامت عليه هذه الخبرات والتجارب ، وسر الطاقة الدينامية التي أرفدتهم وشدت من عزائمهم . انه الروح العلمي وشمائله ومعانيه ، انه الايمان بالعقل وبقدرة

العقل على تيسير الحياة وخدمة أغراض الحياة .

ورغم مآثر العرب في جميع ميادين المعرفة ، وما أسدوه للتاريخ والحضارة والانسانية من خدمات ، وما أنجبوه من عقول وعبقريات كما سنرى مفصلاً ، فقد كان جزاؤهم الجحود والتجني والانكار من قِبَل أدعياء الموضوعية والنزاهة العلمية ، ومنتحلي الاخلاص والتجرد عن الأغراض والغايات . . . بل أيضاً من قبل بعض ذوي النوايا الطيبة سواء من المضلّلين العرب أو الأجانب الذين لم يتسنّ لهم الاحاطة بالفكر العربي في شموله وأبعاده ، واستيعابه في دقائقه وجزئياته ، أو النفاذ إلى أغواره وشعابه ، فراحوا يجرون وراء كل ناعق ، ويتبرعون بالأحكام يصدرونها جزافاً بلا تحفظ ولا تحرز ، كلّ يريد أن يحجب الشمس بإصبعه ، أو يقهر الجبل بقبضة يده . لقد أخذتهم العزة بالاثم ، فراحوا يتبجحون ويتشدقون كصبية أغرار هجموا على الأسد لترويعه !

لم يغفروا لابن البادية أن يكون نداً لابن أثينا أو روما أو القسطنطينية فتألبوا عليه من كل جانب وقد كشّروا عن أنيابهم ينازعونه حقه في الوجود والسيادة وكرامة الحياة .لقد هالهم أن يخرج عملاق من الصحراء ، فيقهر الأنساب والأحساب والأعراق ، ويجدع الأنوف ، ويثلّ العروش ، ويدك معاقل الظلم والطغيان ، ويقلب موازين القوى ، لا في شبه الجزيرة العربية وحدها ، بل ـ ويا للوقاحة ! ـ في أرجاء العالم المتمدن كله .

وليس خليقاً بنا في هذا المجال أن نفتّات على القوم ونبخسهم ما في تاريخهم من صفحات مشرقة مجيدة لاختلاط هذه الصفحات بصفحات أخرى قاتمة تلطّخها الخصومات والمنازعات والحروب بين الحكام في سبيل السلطة . ولنذكر أن وراء ذلك حضارة زاهرة ، ومدناً عامرة ، وشعوباً واعية ، ومدارس مكتظة بالطلاب ورجال العلم ، ومكتبات زاخرة بنفائس الفكر وكنوز المعرفة وغير ذلك من دلائل الرقيّ واستبحار العمران . ولكنها كبوات لا تخلو منها حضارة ، وهنات ملازمة للضعف الانساني ومنازع الملك وإغراءات الحكم والسلطان و . . . فكل أولئك وإن كان من الآفات التي كان ينبغي التخلص منها ، إلا أنه كان من لوازم الحضارة التي أينعت ،

والفكر الذي أشعّ ، والنهضة التي تحققت ، والفجر الذي انبلج ، والصرح الذي ارتفع ، والبنيان الذي اصّعّد وتطاول . . . ولكن المنقّرين والشامتين والمصطادين في الماء العكر ، لا يهنأ لهم بال ولا يرتاح لهم جفن إلا بالفساد والافساد ، واصطناع التزييف تلو التزييف ، كمثل الجراثيم الفتاكة القاتلة لا يحلو لها العيش ، ولا تستمرىء الحياة إلاّ في الانجاس والأرجاس والأدناس . هناك فقط تنمو وتتكاثر ، وهناك فقط تستمتع بأجمل الرؤى وأعذب الأحلام !!!

إن الحضارة العربية إذا كانت ـ ككل حضارة ـ لا تخلو من الغرائز والأطماع ، فانها أيضاً حافلة بالقيم والمثل والمبادىء . فهي حضارة عملاقة راسخة القواعد وطيدة البنيان . انها نفحة من نفحات هذا الشرق العتيد الذي ما انفك حتى عهد قريب يقذف بالعلم تلو العلم والحضارة في أعقاب الحضارة . ان تراث العرب إن كان لا يخلو من الأهواء والشهوات وأطماع الحكم والسياسة ، ففيه أيضاً عصارة العقول ، ومهجة القلوب ، وذوب القرائح ، ونفثات الأذهان ، ومعاناة الأجيال . انه مشاركة قوية فعالة في إثراء الفكر وتطوير المعرفة لا ينكرها إلا جاحد جاهل ، أو مكابر في قلبه مرض . إن الأمة التي صنعت هذا التراث بالجهد والعرق والمعاناة لم تمت ، بل لقد صمدت للمحن والاحن والفتن والخطوب والأزمات ، فتحدّتها جميعاً ، وتجاوزتها جميعاً ، بفضل رسالتها الحضارية ووعي الأبناء لتراث الآباء . فالحضارة العربية تمثل الانجازات والمآثر المختلفة التي حققها الانسان العربي قبل الاسلام وبعده . ولم يكن الاسلام ديناً طارئاً جاءت به أقوام غازية أو شعوب استوطنت الجزيرة العربية وكانت من قبل غير عربية ، بل لقد جاء الاسلام عربي اللسان والروح لأمة العرب ، وانبثق من بطن جزيرة العرب ليغذي انتفاضة العرب ويفجر الطاقات الكامنة فيهم . ففي قوتهم قوة له ، وفي منعتهم ضمان لاستمرار تدفقه في العقول والقلوب ، ولا سيما إذا تذكرنا أن الاسلام هو وليد العبقرية العربية وابنها البارّ الصادق الأمين . انه رسالة من رسالات العروبة ومجد من أمجادها شمخ بها في يوم من الأيام إلى سدة التاريخ والحضارة . وهكذا تحددت العروبة بالاسلام ، وتحرك الاسلام

بالعروبة ، ولم يستتب له الأمر إلاّ بها . ان الاسلام بالنسبة إلى الشعوب الاسلامية غير العربية هو الاطار الفكري والعقائدي العام الذي استطاع توحيد السلوك والمشاعر والمواقف والأهداف ، والصيغة التي ذابت فيها التنوعات القومية والحضارية المختلفة . ولكنه بالنسبة إلى العرب شيء أكثر من ذلك ، وله أهداف ومعان أكبر . فهو ثقافتهم ورسالتهم وحياتهم ، بينما هو بالنسبة إلى الفرس مثلاً لا يزيد على أنه دين جاء به العرب . وكما كان للاسلام آثار لا تمحى في الشعوب التي اعتنقته من غير العرب ، كذلك كان للعربية آثارها الواضحة في تلك الشعوب التي آثرت الانفلات من الطابع العربي في اللسان والفكر لتوكيد استقلالها اللغوي الذي عزز ثقتها القومية بتراثها الحضاري قبل دخولها الاسلام . فالفارسية مثلاً ـ وهي أرقى تلك اللغات ـ كانت في بداية أمرها فقيرة في اللفظ والتعبير ، ولكنها بفضل اللغة العربية وما تسرب إليها من ألفاظ وتعابير وأساليب عربية لا تزال باقية حتى الآن ، استطاعت الوصول إلى مرحلة النضج لتعبر عن أفكار العصر وثقافة العصر إلى جانب اللغة العربية ، وظلت هذه اللغة تؤثر في اللغة والأدب والثقافة الفارسية الجديدة . وهكذا كان حال العربية مع سائر اللغات الأقل من الفارسية شأناً .



رأينا في سياق هذا الكتاب أنماطاً كثيرة من حملات التشهير بالفكر العربي والانتقاص من شأنه . فماذا يريد أصحاب هذه الحملات أن يقولوا ؟ ما الغاية التي يرمون إليها ؟ الجواب واضح لا يحتاج إلى ذكاء خارق ، وهو تأكيد قصور الفكر العربي وعجزه عن مجاراة الفكر الاوربي ، وبالتالي التشكيك في أصالته . حتى أن جميع الأحكام التي تناولوه بها في كتاباتهم وأبحاثهم لا بد أن تتصل بهذه المسألة من قريب أو بعيد. فعندما يقارنون بين الفكر الآريّ والفكر الساميّ ليجعلوا هذا تابعاً وذاك متبوعاً ، وعندما يقولون أن العرب طابع تفكيرهم الاقتباس والنقل والرواية والتقليد ، وعندما يؤكدون ـ كما سنرى في الفصل القادم ـ أن نموهم العقلي لم يكن نمواً طبيعياً لأنهم إنما برزوا فجأة على مسرح الأحداث بلا مقدمات ولا إرهاصات ـ أقول

عندما يفعلون ذلك فانهم إنما يدورون على مسألة واحدة فقط وهي النيل من أصالة الفكر العربي . فالأصالة هي المقصودة من وراء جميع هذه الحملات . انها الهدف الذي تسدَّد إليه السهام وفوّهات البنادق . فلننظر الآن في هذه الأصالة ، ولنتناولها بشيء من التحليل والتمحيص .



لقد كثر الحديث عن (أصالة) الفكر العربي أو (عدم أصالته) بتعبير أدق . فالجمهور من النقاد أجمعوا على أن الفكر العربي لا أصالة له البتة ، فما هو سوى صورة ممسوخة للفكر اليوناني ، صورة هزيلة تافهة كُتبت باللغة العربية . الحرف فقط عربي ، ولكن المعنى والمضمون يوناني . فأما الحرف فلا عبرة به ، وإنما العبرة بالمعنى والمضمون . هذا ما يردده صباح مساء أولئك الذين لا يؤمنون بالفكر العربي الاسلامي وينكرون عليه كل أصالة . فما نصيب ذلك من الصحة ؟

أما ان الفكر اليوناني فكر أصيل فذ فهذا ليس موضع مناقشة أو جدل ، انه حقيقة واقعة لا ينكرها إلا جاهل مأفون . وأما ان نسلب الفكر العربي طابعه الأصيل وان نجعل منه نسخة رديئة عن الفكر اليوناني كتبت باللسان العربي ، فهذه مسألة أخرى تحتاج إلى وقفة طويلة . فان مما يؤسف له حقاً أن باحثين كباراً مشهوداً لهم بالعلم والمعرفة قد انحرفوا في هذا التيار ، فأسهمت شهرتهم في تغذية مجموعة من الأراجيف والمغالطات نفذت بقوة إلى الفكر العلمي والتصقت به التصاقاً يصعب التملص من آثاره الضارة . وكم كان حقيقاً بهم ـ وهم العلماء الأعلام ـ أن يربأوا بأنفسهم عن الرأي الفطير والحكم الغالي المتعجل ، والتعميم السريع الذي يختلط فيه الهوى الشخصي بالنظرية العلمية . فهم يتعمدون ـ كعادتهم دائماً ـ إبراز بعض الملامح في الفكر العربي يختارونها اعتباطاً ، وإخفاء بعض الملامح الأخرى التي قد تكون أكثر أهمية وأصدق تعبيراً ، ويغلون في ذلك حتى يصلوا إلى غاية المدى ، ونتيجة ذلك كله أحكام مبتسرة تجافي الحقيقة والواقع ، ولا تصمد أبداً للنقد العلمي والتحليل المنهجي .

هذه الأحكام جميعاً تنطوي ـ فيما تنطوي عليه ـ على خطأ منطقي

فادح ، وهو عدم التمييز فيها بين أحكام الواقع وأحكام القيمة . ففكرة (الأصالة) بعد تحليلها وإنعام النظر فيها تتكشف لنا عن جانب كبير غير عقلي ولا صلة له بالمنطق والاستدلال ، انه جانب المثل الأعلى تغشاه غلالة رقيقة من زخرف المنطق وبريقه . فإن أصحاب هذه الأحكام يتصورون حالة مثالية من الصعب جداً - إن لم يكن من المستحيل - بلوغها والوصول إليها . وبكثير من الافتعال والقسر يوحّدون بين هذه الحالة وبين نماذج بشرية ينتقونها انتقاء متعسفاً ، ثم يهبطون بعددها إلى أقل قدر ممكن - وإلاّ لم تكن لها قيمة - . ويوجهونها بحيث تستجيب لمعايير عزيزة المنال في الشرق (ولا سيما في الشرق العربي والاسلامي) ، بينما يمكن العثور عليها بصعوبة أقل شيئاً في الغرب ، والنتيجة الطبيعية لذلك هي تفوق الغرب على الشرق .

فالأصالة في مفهوم هؤلاء إنما تكمن أهميتها في ندرتها وصعوبة العثور عليها ، بل حتى لو كانت كثيرة الشيوع فانهم يستفردون بعض الأنماط النادرة منها فيقطعون بأصالتها هي وحدها . ويحرمون سائر الأنماط الأخرى من امتياز كان يحق لها التمتع به لولا أن (الأصالة) ، هذه الفكرة - الشّبح ، هذه الفكرة الفارغة من المضمون ، لها معنى أرادوه هم بحيث ينطبق فقط - بكل تحكم وافتصار - على قلة نادرة مختارة دون الكثرة المبتذلة . وهذا لعمري يذكّرني بشبه مشكلة فلسفية تنبه لها الفيلسوف الانكليزي العظيم دافيد هيوم وكشف ما فيها من زيف وفساد . فالناس كثيراً ما يتساءلون : لماذا لا تكون جميع النساء جميلات ، بل يقتصر الجمال على نسبة ضئيلة جداً منهن ؟ إن مجرد طرح هذا السؤال يعني - من حيث ندري أو من حيث لا ندري - أننا لا نفهم من الجمال إلاّ الحدّ الأعلى من الجمال ، وبذلك نخرج الكثيرات من الجميلات عن حد الجمال ونُدرجهنّ في عداد القبيحات . فقد ضيّقنا واسعاً حتى جعلناه كسُمّ الخِيَاط ، وبيدنا نحن أن نوسعه من جديد بحيث يلج فيه الجمل والفيل والبقر وكل حيوانات الدنيا . فالأمر مرهون بنا ، برغبتنا في توسيع الضيّق أو تضييق الواسع . فالمشكلة إذن من صنعنا نحن ، وليست مشكلة موضوعية ، أو قل هي شبه مشكلة ، وبالتالي فالسؤال لا معنى له عند هيوم . فلو كانت أكثر النساء على درجة من الجمال تقارب أجملهن

لوجدناهن تافهات ، ولقصرنا وصف الجمال على الأقلية الضئيلة منهن ، وهن اللاتي يتمتعن بجمال خارق . وهكذا حكم السؤال : لماذا لا تكون جميع الشعوب (أصيلة) ؟ بل تقتصر الأصالة على أقلية ضئيلة جداً لا تتوفر إلا في الشعوب البيضاء فقط ؟ فالسؤال ههنا لا معنى له أيضاً . فمع أن جميع الشعوب والأقوام والأجناس متشابهة فيما بينها من حيث الأصالة ، فان أصحاب الأهواء والأغراض والمآرب يقصرون هذا الوصف على قلة مختارة بيضاء نادرة يرفعونها إلى أعلا عليين ، إلى مستوى المثل الأعلى ، فيجعلونه معياراً للتقويم ، ويردون البقية الباقية أسفل سافلين . وهكذا ـ وبسحر ساحر ـ خرجت أكثر الشعوب عن وصف (الأصالة) ، فحقّ عليها الوصف المضاد وهو (التقليد) . انها غثاء كغثاء السيل . أعداد في اعداد . لكن ما قيمة الاعداد إذا كان المعدودون مجموعة أصفار ؟ فرب واحدٍ كألف ، ورب ألفٍ كأف ! فليست العبرة بالعدد ، إنما العبرة بالمعدود . فالشعوب البيضاء وحدها جديرة بالحياة ، وأما الشعوب الأخرى فلتلحق بحظائر البيض . هذا هو قدرها ، وهذه هي إرادة التاريخ ! فإذا لم يقل البيض هذا الكلام بمثل هذه الصراحة والدقة والوضوح ، فقد قالته تفرقتهم العنصرية في جنوب افريقيا وسائر البلدان التي عانت ـ ولا تزال ـ من اضطهادهم وقهرهم وعسفهم واستغلالهم . فلسان الحال أصدق كثيراً من لسان المقال .



وكيما نعطي ما للشرق للشرق وما للغرب للغرب ، فما علينا إلا أن نذكر أن هذا الغرب المستعلي المفتون بذاته ، المنتشي بانتصاراته ، المأخوذ بسحر (أصالته) هو حديث عهد بالحضارة . فهو ـ كما أسلفنا في فصل سابق وكما يعلم الجميع ـ لم يدخل حلبة التاريخ إلا في وقت متأخر جداً ليس شيئاً مذكوراً في عمر الشرق الحضاري . أما قبل ذلك فقد كان الغرب دائماً عالة على الشرق معتمداً عليه ، سبّاقاً إلى تقليده ومحاكاته ، نهازاً لكل فرصة تتيح له الأخذ عنه والتهالك على خيراته ومغانمه . لقد أعطى الشرق الغرب أدباً وأخلاقاً وفلسفة وديناً وأنبياء وآلهة وحضارات وأساطير وزخارف فنية وآلات صناعية . . . فتلقاها الغرب وظل يتلقاها طالباً المزيد ، دون أن ينبس بكلمة

شكر أو عرفان جميل ، ولم يعكف على تحسينها وتجويدها والارتقاء بها إلا في العصور الحديثة . أجل ، إن وراء الشرق تراثاً يمتد عصوراً سحيقة في الماضي البعيد لا تعيها ذاكرة التاريخ ، تراثاً من الأديان والنبوات والآلهة والفلسفات والآلات والأدوات والصناعات والنقوش والصور والتماثيل والمنحوتات والعمارات وسائر جوانب الحضارة الأخرى . لقد كانت الحضارة الاوربية على الدوام حضارة حشر وتجميع وضم Cumulative تأخذ من كل شيء بطرف ، على حد تعبير اشتراوس ، أكثر منها حضارة خلق وإبداع ، وقد ظلت محتفظة برصيد العصر الحجري الجديد الأول Néolithique initiale قروناً قبل أن تضع شيئاً ذا بال . لكنها بعد ركود دام مئات الآلاف من السنين خرجت من القمقم وانتفضت على حين غرة من التاريخ ، حتى غدت مركزاً لثورة صناعية هائلة لا مثيل لها من قبل(١) .

هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لا يجوز لنا أن نتجاهل ما يحيط بكلمة (أصالة) من اضطراب وغموض . فهي - فضلاً عما أسلفنا من أنها كلمة ذات شحنة مغيارية تلحقها بأحكام القيمة لا بأحكام الواقع - كلمة زئبقية متموجة فضفاضة ، حتى أن المؤرخين الذين يلوكونها صباح ومساء لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن تعريف دقيق لها . ومع ذلك فانهم لم يتحرجوا من استعمالها كيفما اتفق وتجاهلوا ان البحث العلمي الحقيق بهذا الاسم لا يكون بإطلاق الأحكام جزاماً ، وإنما يكون بالتدقيق في المسائل وتفهمها وإدراك الصعوبات التي تحيط بها وبالمنهج الذي ينبغي اتباعه لمواجهتها .

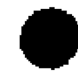
ومن الصعوبات التي تعترض تعريف الأصالة ، التمييز بينها وبين التقليد ووضع حد فاصل بين عمل ينتمي بكليته إلى الأولى ، وآخر يعود بتمامه إلى الثاني . فهناك في الحقيقة من التداخل والتماس والاتصال بين الطرفين المتباعدين ما يجعل التفريق بينهما أمراً في غاية الصعوبة ، هذا إذا لم يكن مستحيلاً . ولئن كانت الفروق بين الأشخاص الذين يقعون في طرفي السلم فروقاً عميقة يمكن ملاحظتها بسهولة ، فانها قمينة أن تفقد - وبسرعة -

---

(١) Claude Lévi — Strauss : Race et Histoire, P . 57

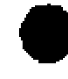
كل قيمة لها إذا تذكرنا أنه من الميسور دائماً الربط بين هذين الطرفين بما لا يحصى من الأوساط التي لا سبيل أبداً إلى تبينها والقيام بقياس دقيق لها .

لذلك فإن الأعمال والمنجزات التي تُنسب إلى الأصالة تتفاوت في قيمتها تفاوتاً كبيراً . فإذا أردنا معرفة درجة هذا التفاوت وجدنا أن قياسه لا يجري بطريقة منهجية مقررة ووفقاً لمعايير علمية دقيقة مقررة ، وإنما هو يسير جزافاً وعلى غير هدى . كيف لا وأمره متروك دائماً للتقدير الشخصي الذي يظل عرضة للهوى والتعصب والنزوات الخاصة والتشيعات للمذاهب والآراء . وبذلك يكون مصدراً لصعوبات جمة لا حصر لها . فهذا الباحث قد يقرر وجود خمسة أعمال أصيلة أو سبعة فقط في هذه الجماعة أو تلك ، بينما يقرر باحث آخر أقل تزمتاً أن العدد أكبر من ذلك بكثير . وإذن فكل قرار من هذا القبيل إنما يستند إلى اعتبارات خاصة وفلسفة شخصية تنعدم فيها القواسم المشتركة . وهذا من شأنه بطبيعة الحال أن يقف حجر عثرة في وجه كل محاولة لوضع مفهوم علمي دقيق للكلمتين (أصالة) و(تقليد) فأولئك الذين يطلقون الأحكام ذات اليمين وذات الشمال ، كان ينبغي عليهم قبل أن يخوّلوا لأنفسهم الحق في إصدار هذه الأحكام على الأمم والشعوب والحضارات ، ان يعوا هذه الاعتبارات جميعاً ويضعوها نصب أعينهم .



ثم ما الفرق بين (الأصالة) و(العبقرية) و(الجنون) ؟ فان عدداً لا يستهان به من الأشخاص ممن كانوا يوسمون في الماضي بأنهم مجانين ضعفاء العقول ، قد أنصفتهم الأجيال التالية فأقرّت بعمق (أصالتهم) وعرفت لهم فضلهم ، بعد أن سامتهم الجحود والنكران والهوان . فمسألة (الأصالة) ليست من المسائل التي تقررها الأكثرية العددية ، إنها ليست مطروحة للتصويت البرلماني أو الاستفتاء الشعبي . ان المحق قد يكون واحداً ، والمبطل قد يكثر جمعه . فلم يحدث قط أن كانت الأكثرية في مستوى الأشخاص (الأصلاء) لتصدر أحكامها عليهم . إنها دائماً غبية حمقاء هوجاء تتجاذ بها قيادات وأحزاب ودعايات مختلفة ، كلّ يريد أن يخطب

ودها ، وكل يريد أن يحظى بنصيب الأسد منها ، كأنها قطعان من الماشية يتهالك الجميع على اقتنائها والحصول على أكبر عدد ممكن منها . أجل إن الأصالة ليست العبرة فيها الكثرة العددية ، لا سيما وان هذه الكثرة تظل ألعوبة في يد بعض الأفراد الذين يتفاوتون في إخلاصهم لهذه الكثرة ومدى اهتمامهم بها . انها (أي الكثرة) ليست مهيأة أبداً للحكم على أعمال المبدعين الخالقين التي لا يعرفها إلا ذووها ـ وقليل ما هم !



فإذا كانت الأكثرية الشعبية غير صالحة لأن تكون معياراً للتمييز بين (الأصيل) و(المقلد) ، بين (العبقري) و (المجنون) ، فما عسى أن يكون هذا المعيار إذن ؟

هل هو الاتزان ؟ لكن هناك دائماً بعض النقص في الاتزان لدى أكثر الناس تماسكاً ، وبعض التماسك لدى أشد الناس اختلالاً .

السيطرة على الذات ؟ هناك دائماً عجز عن السيطرة على الذات أمام بعض المغريات يتحدى أعظم القادة والأبطال . ولا أعرف غير المسيح نموذجاً مثالياً لا نظير له في السيطرة على الذات . ولكن المسيح إله وابن إله في نظر قومه ، فضلاً عن أن المسيح الانسان شخصية غير تاريخية ، فكيف يقاس عليه ؟

السيطرة على الواقع ؟ ترى أي واقع ؟ واقعنا نحن الذين نسمي أنفسنا عقلاء ، أم واقع أولئك الذين نسميهم بالمَوْسى والمدخولين وسائر من بهم لوثة أو مسّ من جنون ؟ فليت شعري ! أي سيطرة على الواقع أعظم من تلك التي تخلق من العدم واقعاً جديداً أغنى من واقعنا الفقير الشاحب الملتاع ، وأكثر منه إشباعاً وأكرم تسامحاً وأعظم مرونة وأطوع بناناً ، ما دام واقعنا الفج الشديد العاتي عاجزاً عن تلبية أغراضهم وتحقيق أمانيهم ؟ فما داموا سعداء بواقعهم فما حاجتهم إلينا وإلى واقعنا الأسود الصارم المرير ؟ أوليس الاحساس بالرضى والسكينة والسعادة هو المعيار ؟

وما ينطبق على الاتزان والسيطرة ينطبق أيضاً على غيرهما من المعاني التي يمكن اتخاذها معايير للتمييز بين الناس ، كالتركيز والانتباه والصحة

النفسية والمتانة الشخصية ، والسلوك الخلقي و . . . فكل أولئك معان لها درجات ودرجات يتفاوت فيها الناس ـ كل الناس ـ ويتفاضلون ، الاصلاء منهم والمبتذلون التافهون . فالاصالة إذن ليست صفة قائمة برأسها ، ليست حكراً على نوعية خاصة من الناس لها حدود مرسومة لا تتداخل مع غيرها ، وإنما هي معنى يشترك فيه الناس جميعاً . ولشدة اشتراك الناس فيها وتشابكها مع المعاني الأخرى لم يعد لها معنى خاص بها وحدها كما سنرى بعد قليل . انها من العموم والاطلاق بحيث تكاد تفقد كل دلالة واضحة وكل تميز وتحديد . لقد تبخرت الأصالة وأصبحت ـ أو كادت ـ أثراً بعد عين .



هناك مفهوم قديم شائع للأصالة ترى أنها إنما تتمثل في الأعمال المبتكرة التي لا جدال في امتيازها وتفردها . فمثل هذه الأعمال ، وإن كانت أصيلة حقاً فهي نادرة جداً ، فضلاً عن أنها تظل خاضعة للتقدير الشخصي الذي يختلف من إنسان إلى آخر . فهي حين تظهر على صورة اختراع أو اكتشاف ، أو تومض لصاحبها بحقيقة جديدة،فانها لا تفعل ذلك إلا لدى عدد محدود جداً من الأفراد ، وهو أمر قد تكون البيئة مسؤولة عنه لا الأفراد . ورغم هذا ، فإذا تساوت الظروف البيئية أمام جميع الأفراد فستظل هناك فروق كبيرة في الانتاج الأصيل بينهم . فإذا أردنا الوصول إلى عدد أكبر من الأعمال الأصيلة ، فما علينا إلا أن نخفف من تصلبنا فنقبل أعمالاً أقل امتيازاً وأكثر تواضعاً . وهذا هو جوهر النظرة الحديثة التي تعدّ الأصالة ضرباً من الأداء المتصل يتدرج فيه الأفراد زيادة ونقصاً ، وليست قدرة متفردة توجد كلها أو لا توجد أصلاً . فليست هناك قدرة خاصة بالأصالة يتمتع بها البعض ويُحرم منها البعض ، وإنما هي حظ مشترك قد يتفاوت الناس فيه ولكن أحداً ليس مجرداً منه على الاطلاق ، مهما كانت درجته في سلّم التقويم العقلي ، لا فرق في ذلك بين أن يكون غبياً أو عبقرياً ، عريض القفا بليد الحس أو سريع البديهة ، قوي الملاحظة . فليس المقصود بالأصالة إنتاج الأعمال النادرة ، إنما المقصود عدم إنتاج أعمال متكررة . فالأصالة بهذا المعنى تقتضي التميز وعدم التكرار . فالناس يتميزون بعضهم من بعض بكل

شيء ، ابتداء من بصمات الأصابع ، ومروراً بالصوت وتركيب الخلايا ـ وهذا مما يجعل عملية زرع الأعضاء مهمة شاقة ـ وانتهاءً بالتكوين النفسي والعقلي .

وهناك اعتقاد شائع بين الناس أيضاً وهو أن الأصالة تتمثل في التفوق في الذكاء . وهذا الاعتقاد الخاطىء متأثر بالنظرة التقليدية التي تربط بين الذكاء والفعاليات العقلية الأخرى انسياقاً وراء بحوث سبيرمان وتيرمان التي تقول بوجود عامل عام سائد بين مختلف أوجه النشاط الذهني يؤدي التفوق فيه إلى الأصالة والابداع والعبقرية . وهذا غير دقيق . فالأصالة والذكاء نوعان مختلفان من أنواع النشاط العقلي للانسان فقد نجد شخصاً أصيلاً ولكنه لا يتمتع بمستوى رفيع من الذكاء ، لكن العكس غير صحيح : إذ يصعب أن نتصور وجود شخص ذكي دون أن يكون أصيلاً ، ما دامت الأصالة تفيد معنى التفرد في الاداء ، وهذا التفرد حقيقة ثابتة لكل إنسان مهما كان مستواه العقلي ونضوجه النفسي .



وهكذا ، فكل إنسان إنما هو إنسان أصيل . فالانسان أصيل على الدوام ، أراد أم لم يرد . أما ما يسمى بالتقليد ، فهو كلمة لا معنى لها في قاموس العلوم الانسانية ، فآراء تارد الخاصة بالتقليد يجب إعادة النظر فيها إعادة شاملة على ضوء ما استجدّ من دراسات وأبحاث في هذا الباب . « إذ لا وجود لتقليد مطلق . فذلك الذي يتبني فكرة ما ، أو يذهب مذهباً ما في العمل ، على سبيل التقليد لغيره ، فانه يشوهه دائماً ، على تفاوت في درجة هذا التشويه . وهكذا ، فالتقليد الذي يُنظر إليه على أنه عملية سلبية صرف ، انقلب عملاً خلاقاً »(١) .

وقد ثبت ذلك سواء من الناحية الفولكلورية ، أو من الناحية العائلية والتربوية ، أو من الوجهة الاجتماعية والثقافية .

فأما من الناحية الفولكلورية فان التجربة قد أثبتت أنه لا وجود لواقعة

---

(١) Gastan Bouthoul : L'invention, P. 36.

فولكلورية دون أن تتضمن ـ في آن واحد وعلى درجات متفاوتة ـ تكراراً وتجديداً معاً ، اتباعية جامدة Conformisme وتلقائية مرنة . فجوهر الانسان ليس ترديداً لأمثولة ، وإنما هو السيطرة على الواقع والنجاح في تسيير دفة الحياة (١) .

وهكذا الحال من الناحية العائلية والتربوية . فقد لوحظ منذ زمن طويل أن تنشئة الأطفال عملية شاقة تُكبّلها قيود كثيرة ، إذ هي لا تجري دائماً على ما يشتهي الأبوان . كلا . فان هذه المهمة العسيرة ترتطم دائماً بطبيعة الطفل وما فيه من طاقات وفعاليات من شأنها أن تحدّ من عمل المربي وان تضع له قيوداً صارمة . والعامل الذي يسهم أكثر من غيره في وضع هذه القيود إنماهو ماللفردمن قدرة هائلة على الرد بأساليب مختلفة وطرق متنوعة على الحوافز الخارجية وتنبيهات البيئة التي يعيش فيها . وهكذا ، فليس مما يعني الطفل أن يتلقى سلبياً عقائد أسرته ومواقفها واتجاهاتها في الحياة ، إنما يعنيه أولاً وقبل كل شيء ما لهذه العقائد والمواقف والاتجاهات من دلالة عنده ، وما تنطوي عليه من معان ورموز بالنسبة إليه هو ، وما يعلقه عليها من أمان وآمال وأحلام . وعلى قدر ما تثير فيه من اهتمام وتحل له من مشاكل ، وتبعاً لما تخفف فيه من ضغوط وتوترات ، فانه يتقبلها ليجعلها جزءاً منه ، أو يرفضها دون أن يلقى لها بالاً . انها لا تندمج فيه إلا بحسب ما تلبي له من حاجات . فعليها أولاً أن تدخل عالَمَهُ النفسي لتتشكل به وتخضع لقوانينه . هناك فقط يتقرر مصيرها ويُبتُّ في أمرها . فالمؤثرات الخارجية إذن ليس أمرها فوضى ، فهناك عملية دائمة من التهذيب والتشذيب والتقليم والتنقية والتصفية والحذف والاضافة يجريها عالَم الطفل على كل ما يرد إليه من خارج (٢) .

وأما من الوجهة الاجتماعية والثقافية ، فقد أثبتت التجربة أيضاً أن التراث العقلي لا ينحصر تأثيره في إعطاء الانسان معتقدات ومواقف واتجاهات

---

(١) انظر André Varagnac : Civilisation traditionnelle et genre de vie P. 359 — 370

(٢) المصدر السابق

نهائية تملي عليه إملاءً كأنما هو آلة صماء ، كلا . فهناك على الدوام مجال للاختيار الفردي تنمو في نطاقه المعتقدات والمواقف والاتجاهات . وهذه جميعاً لا تُتعين صورتها في كل إنسان إلا تبعاً لما تلبي له من حاجات وما تحقق له من أغراض ، وإلا فقدت فاعليتها وكل تأثير لها في نفسه وخبا بريقها كأن لم تكن . فلا قيمة للعوامل الثقافية إلا بحسب ما يعيها الفرد ويفسرها ويُسخّرها لأغراضه ومشاريعه وغاياته (١) .

وهذا ما يؤيده أخيراً مبدأ التلقائية والابداع Spontanéité et créativité وهو مبدأ مزدوج أساسي في علم الاجتماع الرياضي Sociométrie فالكائنات الانسانية لا تسلك في الحياة ـ بحسب هذا العلم ـ كأنها دُمى ، وإنما يتميز سلوكها دائماً بروح المبادرة الشخصية والتلقائية الابداعية معاً . فلا فصل بين التلقائية والابداع ، إنهما فكرة توأم ، على حد تعبير مورينو (٢) . فهناك دائماً تلقائية وإبداع مترابطان متلازمان في كل إنسان هما عنوان الأصالة فيه بانعدام التلقائية يظل الابداع بلا حياة وبانعدام الابداع تظل التلقائية فارغة عقيم . ان اهم انجاز قد حققه القرن التاسع عشر واعظم اسهام له في العلوم الانسانية ، انما هو اكتشاف اللاشعور ولواحقه .والآن وقد اشرف القرن العشرون على نهايته ، فان كثيراً من المطلعين والنُظار يعتقدون ان اعظم حدث في ميدان العلوم الانسانية والاجتماعية انما هو اكتشاف فكرة التلقائية الابداعية التوأم هذه . ومن هنا يمكن القول ان جهود القرنين معاً كانت متكاملة . فاذا كان القرن التاسع عشر قد وضع يده على القاسم المشترك التحتي للانسانية ، أي اللاشعور ، فان القرن العشرين قد اكتشف ـ أو أعاد اكتشاف ـ قاسمها المشترك الفوقي ، أي التلقائية والابداع . لقد كان برغسون رائداً سباقاً في هذا المضمار . فهو أول من قذف بفكرة التلقائية في كتابه (المعطيات المباشرة) وفي مذهبه الخاص بالسُّورة الحيوية Élan Vital أجل ، ان التلقائية الابداعية هي القاسم

---

(١) المصدر السابق .

(٢) J . L . Moreno : Fondements de la sociométrie p. 19

المشترك بين الناس جميعاً ، مهما تكن انتماءاتهم واعراقهم ، بل مهما تكن كفاءاتهم ومواهبهم وقواهم النفسية والعقلية . هذا ما يقرره علم الاجتماع الرياضي . لكن هذه الفكرة التي كانت مجرد فكرة ميتافيزيقية عند برغسون ، أصبحت آلات شيئاً علمياً مقرراً بفضل علم النفس الدرامي psychodrame وعلم الاجتماع الدرامي sociodrame اللذين انزلا من السماء إلى الأرض فكرة التلقائية الابداعية واخضعاها للتجربة والقياس الرياضي . فلولا التلقائية لما بدأ العالم ، ولولا توأمها الابداع لما تابع مسيرته . وهما معاً ينبوعا الأصالة .

●

فليس من الجائز أبداً والحالة هذه معالجة الانسان بروح شيئية تُفقده حقه في الأصالة . فالانسان فوق الأشياء ، ولو انه معجزة الأشياء . فكل تعليل له في نطاق الموضوعية الباردة ، وكل تفسير له لا ينطلق من اصالة الذات ـ كل ذات ـ وتلقائيتها الفاعلة ، وابداعيتها الغنية الجياشة ، انما هو شيئية مسرفة غالية ، فيها حرمان له من أخص خصائصه ومن سر كينونته التي انما تفوّق بها على العالمين وبلغ بها سُدة عليين !

هنا تكمن اصالة الانسان ـ اي إنسان ـ في كل زمان ومكان ، عربياً كان أم أعجمياً ، موحداً كان أم مشركاً ، مؤمناً كان أم ملحداً . فاذا كان ثمة من أصالة . فانما هي هذه الأصالة ، التي لا يخلو منها فرد أو بلد أو شعب .

فالانسان مخلوق فذ لا ينحصر وجوده في مقولة الكم والعلاقات العددية كسائر الأشياء . انه أكبر من ذلك بكثير . فاذا كانت التفاعلات الكيماوية تُعرف نتائجها سلفاً ، وإذا كانت الأشياء لها ابعاد يمكن قياسها في الزمان والمكان والتنبؤ بها انطلاقاً من بعض المعطيات والحقائق ، فان الانسان هو الكائن الوحيد الذي لا يُحدّ في اطار ابعاده ولا يمكن التنبؤ بسلوكه ، مهما كان عدد المعطيات والحقائق التي تُقدَّم في هذا السبيل ، وما ذلك إلا لأنه أصيل بطبعه . فهو يستطيع ان يتخطى جميع المعطيات والحقائق المتكدسة من حوله ويقفز عليها باستمرار ، ما دام في ذلك تحقيق لذاته واثراء لوجوده

وكيانه . انه يمتد في الزمان والمكان ، ويغوص في اللامتناهي في الكبر كما ينساب في اللامتناهي في الصغر ، وفيه يلتقي اللامتناهيان معاً . انه أعجوبة الأعاجيب ، أعجوبة فذة هي نسيج وحدها في الوجود واللاوجود ، أو قل هو أعجوبة الوجود واللاوجود . انه يؤكد وجوده حيثما كان ويحيل كل شيء إلى كيانه الخصب الممراع . فلا حدود واضحة بينه هو وبين ما ليس هو ، خلافاً للأشياء التي لها حدود مقررة معروفة لنا جميعاً . وبهذا المعنى فانه ذاته وغير ذاته ، كما انه أيضاً الجسر الذي يجمع بينهما . انه معجزة الوجود وسر الأسرار [1] .

فهو إذ قُدَّ من عالم فريد نسيج وحده ، وكان مشحوناً بدينامية خصبة متدفقة ، وطاقة لا تكاد تستفرغ حتى تتجدد مرة أخرى ، فانه يحيا سلسلة من الأفعال والمنجزات التي بها يتخطى طبيعته ويتجاوز وجوده المادي الهزيل ، وذلك بحكم ما يصطرع في نفسه من ارادة التغيير والتبديل ، وما ينبثق فيه باستمرار من خطط ومشاريع لتحقيق هذه الارادة ، وما يصبو اليه من آمال وأحلام ، فيصعِّد من مستوى إلى آخر ، ومن ملكوت إلى ملكوت ، تبعاً لتذوقه للقيم ، وبحسب نظرته إلى عالم الأشياء ورسوخ قدمه في عالم الرموز . انه عملية تاريخية متوترة خلاقة لا تتوقف ، تلتقي فيها الذات بالموضوع ، والأنا باللاانا ، لتحقيق وجود جديد ، والاطلال على عالم جديد . انه حدثٌ في صيرورة دائمة ، وحالة مستمرة من عدم الاستقرار قوامها التوازن في الاختلال . اجل ، هو نمط فذ من الوجود يمنح كل شيء كينونته ، دون ان يكون هناك ما يمنحه هو ماهيته وكينونته ، اللهم إلا هو . فما يضفي عليه طابعه الخاص وكينونته الفريدة ويعطي معنى لوجوده انما هو شعوره بذاته ، وسعيُه المستمر الدائب لتحقيق ذاته واثراء ذاته ، واعادة تنظيم ذاته ، في عملية دائمة لا تتوقف أبداً من اصطراع الذات باللاذات ، وصدام الأنا باللاانا ، وفي مسعى متواصل لتخفيف التوتر وحل التناقض ، ليظل في ربيع دائم ، ويصل إلى الفردوس المنشود . وهيهات !

---

(١) سيظهر تفصيل ذلك كله في كتابنا القادم .

هذا هو الانسان الذي صنع الأدب والعلم والفن والتاريخ . انه أيضاً هو الذي صنع الفلسفة وتاريخ الفلسفة . وإلى هذا الانسان انما يجب على مؤرخي الفلسفة ان يتجهوا عندما يتصدون لكتابة تاريخها . انه هو أيضاً الذي انتصب مارداً جباراً في عصور الاسلام الذهبية ليسهم في بناء الفكر الانساني عامة ، ويرفع صرح الفكر العربي والعلم العربي والفلسفة العربية خاصة . وقد رفع هذا الصرح على أحسن وجه بحسب ظروف العصر الذي عاش فيه ، دونما أي اعتبار للأصول التي كان ينتمي إليها والسلالات التي يتحدر منها . وما غاب عن السّاح قط ، كلا ولا نامت له عين أو غمض له جفن . فقد كان على الدوام حاضراً متنبهاً ما دامت حوافز الحضارة قائمة مستفحلة . فالحضارة ، والمستوى العقلي ، والمرحلة التاريخية التي أنجبت الفكر الاسلامي ، والتي هي بدورها أيضاً وليدة الفكر الاسلامي ، هي وحدها ـ من دون الأرومة أو الجنس أو السلالة ـ الفتيل الذي فجر طاقاته ، والمعين الذي كان يمده بالقدرة على تغيير الذات وتسخير كل شيء للرقي بهذه الذات وزيادة قدرتها على العطاء . وعندما نضب هذا المعين أمْحلت الشخصية العربية وانطفأت شعلتها ، وضعفت حوافز الخلق والابداع فيها ، مهما كانت الأصول التي تحدّر منها أصحابها وبُناتها ، لا فرق في ذلك بين عربي من أصل عربي أو عربي من أصل أعجمي ، أو أعجمي تعرّب باللغة والدين والنشأة والتوجيه والمشاعر ، أو باللغة والنشأة والمشاعر دون الدين والعقيدة . فالعبرة باستفحال الحضارة واستبحار العمران أو بانعدامهما . فالفاعلية الحضارية ـ أو التعبئة السيكوسودينامية ، وهو التعبير الذي نفضل استعماله منذ الآن ـ هي التي فجرت الطاقات العربية وتفجرت بها في نفس الوقت . كما ان ذبول الحضارة والعمران ـ أو الاستنزاف السيكوسوسيودينامي ـ قضى على الطاقات العربية وتلك التي تعربت سواء بسواء . فلا شأن للأصول والأعراق في كلا الحالتين : تفجر الطاقات أو جفافها ، وإنما الشأن كل الشأن لاستفحال الحضارة والعمران أو ذبولهما . فالعربي والفارسي والهندي والتركي والرومي والمصري والاسباني والبرتغالي والبربري والصقلبي و . . . الذين صنعوا الحضارة العربية الاسلامية قد برزوا معاً في أثناء المد العربي وعند

انتفاضة الاسلام ، كذلك معاً ذهبت ريحهم وغابوا عن مسرح الأحداث عند انحسار هذا المد وغروب شمس العرب والمسلمين ، لا فرق بين عربي قح وعربي بالتعرب ، ولم يشفع لأحد منهم كرم محتد أو عراقة أصل أو نفحة عنصر ، فالكل في المحنة سواء ، كما كانوا من قبل في النعمة سواء .



ولم يكن العرب أول من غربت شمسهم ، بل لقد غربت قبلهم شموس وشموس ، وزالت عن مسرح الأحداث شعوب وأقوام أعرق من العرب وأرسخ منهم قدماً في العلم والحضارة . فاليونان مثلاً ، كانوا أسوة في شرف الأصل وكرم المحتد وسمو المعدن والنجّار . فأين هم الآن ، وأي ميزة لهم اليوم على شعوب البلقان المجاورة لهم . لقد مضى اليونان إلى رجعة أو إلى غير رجعة ، لا أدري . وغابوا إلى الأبد أو حتى حين . لقد ذهبوا كما ذهب غيرهم ، ولم تُغن عنهم فلسفتهم وفنونهم وآدابهم شيئاً . فَخَلَفَ من بعدهم خَلْفٌ أضاعوا الفلسفة والفن والأدب ، فأصبحوا في ديارهم جاثمين . لا هَمَّ لهم إلاّ إطعام العيال والتماس الرزق الحرام والحلال ، وإيثار العافية والسلامة في العمل والفكر والمقال ، وبعد ذلك على الدنيا السلام . فلا طموح إلى الأسمى ، ولا مطمع في العالم الأعلى ، بل تكالب على عالم الحس والخساسة ، وزهد بعالم العقل والرجاحة . لقد أقبلوا على المادة يحتضنونها وعلى الهيولى يعتنقونها ويُعضّون عليها بالنواجذ ، وأدبروا عن الروح ينفرون منها كأنها رجز الرواجز . لقد أعماهم العرض عن الجوهر ، واهتموا بشهوات البدن دون فضائل النفس ، وجرفهم عالم الظلال عن عالم المثال . لقد ابتعدوا عن المحجة الواضحة وضلوا سواء السبيل . ولم يُغن عنهم انهم أبناء أثينا وأحفاد سقراط وافلاطون وأرسطو وافلوطين . لقد نكثوا عهوداً قطعوها للآباء والأجداد ، فغدوا لا يجمعهم باليونان القدماء الا اشتراك الاسم . وعندما يُكتفى بالاسم عن الوجود فعلى الوجود العفاء !

وكذلك ذهب العرب ومضوا إلى حيث مضى الآخرون . ولكنهم لم يذهبوا إلى غير رجعة . أو هذا ما يبدو على الأقل . فهناك امارات ودلائل تبعث على التفاؤل وإن كانت غير كافية بطبيعة الحال . ولعل إسرائيل هي

السياط التي ستعجل في صحوتهم . بلا بواعث عنيفة تدفع النفس إلى الحركة تتلاشى الحركة وتموت ، وإن لم يكن ذلك قاعدة عامة أو قانوناً تاريخياً ، لأن الضربة القوية كما تحيي في بعض الأحيان فإنها تميت في أحيان أخرى . وأملي كبير ألّا تموت هذه الأمة التي صمدت لضربات أشد وأعنف .

إن المخاطر والتحديات الخارجية كانت دائماً ترافق عمليات التحوّل الكبرى في التاريخ وأهمها تحقيق الوحدة . والحق ان احتلال فلسطين يقدم لنا على أكاليل من الشوك هذا القانون الضروري للعمل الوحدوي العربي . وهذا يعني ان مواجهة الاحتلال مواجهة مباشرة مستمرة بكل شراسة وصلابة وتصميم عامل أساسي في العمل الوحدوي. فهي تنبه باستمرار إلى وجود هذا الاحتلال ومخاطره وإلى معاناة مباشرة للضغوط والمآسي والمهانات التي يفرضها علينا ، فتحفز المجابهة على توحيد الجهود والطاقات التي لا بد منها للتصدي للاحتلال ، وبالتالي تُذكّر باستمرار بضرورة قيام الدولة الواحدة ، أداة هذه التعبئة . فقد آن للعرب أن يحققوا وحدتهم لتنتشلهم من هذا الضحضاح الذي رسبوا فيه منذ زمن طويل وتعيد إليهم وجودهم وكرامتهم . وإن إسرائيل التي أعملت فيهم سياطها سترتد عليها هذه السياط عاجلاً أم آجلاً وستسقط في نهاية المطاف ، ولو كانت جميع دول العالم ظهيرة لها . فهذه الأرض الطيبة لن تتسع للعرب وإسرائيل معاً ، والمعركة فيها هي معركة فناء أو بقاء . فإسرائيل كيان عنصري توسعي استيطاني ليس له من مقومات الوجود إلّا الدعم الخارجي وبعض الأساطير الداخلية . إنها كيان مفتعل غريب أقحمته القوى العظمى في هذه المنطقة وأغرقته بالقروض والمعونات وآلة الحرب الرهيبة . فلا وجود له إلّا بوجود عائِله بل ليس له من مقومات الوجود إلّا أسطورة أرض الميعاد وشعب الله المختار ، وهي أسطورة شُك في إيمان إسرائيل بها ، وإنما هي ذريعة الثعلب للانقضاض على الحمَل . ولن تصمد إسرائيل طويلاً للسير في وجه قوى التاريخ والاجتماع وستهوي في يوم من الأيام لا محالة . فالعالم العربي يملك قوى هائلة أقلها الموقع الاستراتيجي وموارد الطاقة وكتلة الأموال والثروات الضخمة والخبرة البشرية الآخذة بالنمو والتطور . ثم هناك بعد ذلك السواعد القوية والحقد المكبوت على المستعمر

الغاشم ، أو التراث الضخم والتطلع إلى مستقبل أفضل ، وهناك أخيراً قوى التغيير، «هي قوى كان ينبغي على إسرائيل ومن يقف وراءها أن تحسب لها ألف حساب . فالمؤسسات القديمة أصبحت غير قادرة على مواجهة التحديات الجديدة وأهمها إسرائيل والمشاكل الاقتصادية . ان تخلخل هذه المؤسسات ، والحاجة الماسة إلى تجديدها وإعادة النظر فيها، مطلب يزداد قوة يوماً بعد يوم . وإن التصدي لهذا المطلب ومقاومته يؤدي إلى أحداث عنيفة كالهزات الأرضية أو البراكين من شأنها الاطاحة بالمؤسسات البالية العتيقة لاقامة مؤسسات جديدة سيترتب عليها ظهور القوى الجديدة التي تحدث التغيير والاستفادة من الثروة المادية والبشرية والحضارية في هذه المنطقة لحل المشاكل السياسية والاقتصادية والاجتماعية وإرساء قواعد الحياة المقبلة . فلا بد للثروات العربية أن تنتقل إلى أيدي أصحابها ولا بد لقوى التغيير أن تؤتي ثمارها . إن جولة الباطل ساعة ، وجولة الحق إلى قيام الساعة وسيُطرد اللص ، وستعود فلسطين عربية ، شاءت القوى العظمى أو لم تشأ ، فما ضاع حق وراءه طالب .

تُرى ، هل هذه رؤية أم هي رؤيا ؟ آمل أن تكون الأولى . فحسبنا رؤى وأحلاماً ! فقد أثبت العرب في الماضي قدرتهم على البقاء رغم العواصف والأعاصير . فليس ما يمنع أن يكون ما هو آت على منوال ما فات . وهنيئاً للجيل الذي يعيش ليشهد ساعة النصر .

أجل ، لقد أثبت العرب قدرتهم على البقاء رغم ما ألم بهم من خطوب وكوارث . لقد انتهوا سياسياً ، ولكنهم لم ينتهوا بشرياً وحضارياً . فلم يذوبوا في غيرهم من الأمم والشعوب كما ذابت أمم من قبلهم ، وإن ظلوا شراذم وفتاتاً . لقد غربت شمسهم وأفل نجمهم ، ولكن دون أن يفقدوا قدرتهم على العطاء فضلاً عن البقاء . إذ مما يلفت النظر عند مؤرخي الحضارة الاسلامية المفارقة الواضحة بين المنحدر السياسي والتصاعد الثقافي . بل قل إن من أبرز من أنجبتهم هذه الثقافة وأكثرهم إشعاعاً إنما ظهروا في عصور التراخي قبل أن يستشري الانحطاط ويتفاقم أمره . فالعواصف والأعاصير لم تنل سوى الاستقرار السياسي والأمني ، وأما العطاء

الفكري والاشعاع الحضاري فلم يتوقف إلاّ بعد ان اشتد الداء وعز الدواء . وهذه الميزة الفريدة لا نكاد نجد لها نظيراً لدى شعب آخر غير الشعب العربي ، وهي صيغة اتسم بها الفكر العربي الاسلامي لتدل على انتمائه إلى شخصية تراثية (لا أقول عرقية) متميزة لم تكف أبداً عن السعي إلى إبراز الهوية العربية وتحقيق الشخصية الاسلامية . وقبل أن يستبد بي الاستطراد كعادتي ويذهب بي كل مذهب أكتفي بالقول ان شُلّة من علماء العرب والمسلمين ومفكريهم الكبار - كالبغدادي في الطب ، والبيطار في علم النبات ، والطوسي في علم الفلك ، والكاشي في الرياضيات ، وابن خلدون في علم التاريخ وعلم الاجتماع وغيرهم كثيرون - قد نشأوا جميعاً في مضطرب اليم ، بل في بؤرة الاعصار العاصف ، وكانوا ومضة العبقرية في سطوع إبداعها وفيض عطائها قبل الأفول لغسق طويل . . .



هناك أحكام زائفة لا معنى لها ينكشف بطلانها بعد قليل من امعان النظر . فحذار حذار من التشدق بها والوقوع في فخاخها ، كقولنا مثلاً :

لا أصالة للعرب بوجه من الوجوه رغم انهم :

- أسسوا ديناً كان - ولا يزال - يؤثر في سير التاريخ ويوجه أحداثه ، ديناً انطلق من عرينه بسرعة مذهلة لا مثيل لها في حياة الأديان ، واكتسح مناطق ومساحات وحضارات مختلفة ، وانتشر على أيدي التجار والعُبّاد والزهّاد أكثر منه على أيدي الحكام ، وفي عصور الضعف السياسي أكثر منه في أيام المجد العسكري ، وكان من القوة والنفوذ في المؤمنين به بحيث انه قد أكسبهم مناعة تستعصي على جميع حركات التبشير التي تقف أمامه عاجزة مشلولة ، رغم ما تقدمه من إغراءات المال والمجد والسلطان (١) .

- أنجبوا عدداً من القادة والعسكريين الأفذاذ الذين برزت مواهبهم

---

(١) انظر توماس ارنولد : الدعوة إلى الاسلام (الترجمة العربية) تجد فيه جميع الشواهد على ما قدمنا ، وان كان لا يخلو من الغمز أحياناً.وانظر في هذا المعنى أيضاً Latoureett : A History of the Expansion of christianity وكذلك انظر N. A. Daniel : Islam, Europe, Empire وانظر أيضاً Stephen Neill : Colonisation and Christian Missions وانظر أخيراً M. O. Bashier : The southern sudan

وكفاءاتهم على النطاق العالمي ، ولم تقتصر على المحليات الضيقة .
- حفظوا تراث الأوائل من البلى والفناء ، وبعثوا الفكر اليوناني حياً بعد أن كان يُحتضر ، واتخذوه دستوراً للفكر ومنهاجاً للحياة بعد أن كان مدفوناً فى بطون الكتب تهدده الأرضة والرطوبة والديدان والحشرات . . . وجعلوا منه غذاء للعقول بعد أن كان طعاماً للهوام ، وأخرجوه إلى النور بعد أن كان مخزوناً في بعض الرؤوس كأنه أحجار ثمينة في رأس شمطاء شنعاء ، وتولوا أمره بأيديهم واستنقذوه ممن حُمّلوه ثم لم يحملوه ، فكان مثلهم في عدم الأهلية للحمل كمثل الحمار يحمل أسفاراً !
- تركوا من الكتب والآثار ما يزيد على ما خلّفه القدماء مجتمعين - من يونان وهنود وفرس وسريان و . . . - أضعافاً مضاعفة . ولم تكن هذه الكتب والآثار مجرد نقل ورواية لأقوال القدماء . فالعرب لم يكونوا مجرد آلات لحفظ التراث القديم أو قناطر عبرت عليها الحضارات السابقة في طريقها إلى عصر النهضة في أوربا ، بل لقد أضافوا إليه إضافات هامة جداً سنقف على الكثير منها . فقد تركوا آثاراً واضحة في العلم والفن والدين والأدب والفلسفة ، وانتجوا من ثمار الفكر ما لم تنتجه أمة قبلهم. ماذا أقول ؟ انهم لم يقتصروا على الاسهام في تقدم الطب والفلك والجغرافيا وعلم العدد وغيرها ، بل لقد وضعوا علوماً جديدة أيضاً لم يعرفها القدماء كالكيمياء والطبيعة والجبر والتاريخ والاجتماع . ناهيك بإسهامهم الكبير في علوم الدين وعلوم اللغة . فلا اليونان ولا الرومان ، ولا الهنود ولا الفرس ، تركوا آثاراً فكرية بقدر ما ترك العرب ، سواء من حيث الكم أو من حيث الكيف . والدليل على ذلك أن عدد المخطوطات العربية والاسلامية التي تناولت جميع فروع المعرفة والتي وصلت إلينا - دون تلك التي فُقدت في الحروب والفتن والحرائق ، وتلك التي أتلفها تعصب محاكم التفتيش بعد خروج العرب من الأندلس وإرغام من اضطر إلى البقاء منهم فيها على التنصر بحد السيف - تفوق كثيراً عدد المخطوطات التي قد خلفتها الأمم الأخرى مجتمعةً . فقد كانوا من قوة الاستيعاب بحيث يتمثلون المعاني الأجنبية في حسهم ومواهبهم ، ثم يستولدونها ثانية وعليها سيماهم وكأنها من صميم العربية وينبوعها الثر

الدافق .

ـ حققوا أعظم حدث في تاريخ العلم ومبرر وجوده ، ألا وهو اكتشاف الطريقة العلمية . فقد عرفوا العناصر الأساسية لمنهج البحث العلمي : الاستقراء والملاحظة والتجربة ، وهي عناصر كفرت بها أثينا ، وسخر منها أفلاطون وأرسطو ، لأن اليوناني الأصيل إنما ينذر نفسه للتأمل والنظر العقلي البحت ، ويترك للعبيد والبرابرة مهمة الاتصال بالمادة الخسيسة ومعالجة شؤون هذا العالم الهيولاني السافل المنحط .

ـ أقاموا حضارة ضخمة عتيدة لم يكن لها منازع أو شريك طوال العصور الوسطى كلها ، حضارة استطاعت أن تغزو جميع العقول والأذهان ، وتكون مصدر خير وبركة لكل من آمن بها أو تفيأ بظلالها . ثم انتقل إشعاع هذه الحضارة إلى أوربا الحديثة ، فكانت عنصراً هاماً من عناصر نهضتها ومستقىً لكثير من جوانب حياتها ، إذ أطلقت الفكر اللاتيني من عقاله ، وحررته من تعصب الكنيسة وإرهابها ، وكانت نموذجاً للتسامح وصيغة فريدة للتعايش بين الأديان والطوائف والمذاهب والآراء والمعتقدات ، حتى ليمكن القول إن الحضارة الاوربية لم يصنعها التأمل اليوناني بقدر ما صنعها العلم الحديث والفكر الحديث اللذان شارك العرب والمسلمون كثيراً في تأسيسها وتوطيد دعائمها . بل ان التأمل اليوناني ـ فضلاً عن الكنيسة ـ كان عائقاً تعثرت به الحضارة الاوربية زمناً طويلاً ، وعقبة كأداء في طريق تقدم العلم والفكر . فكأنما قد جاءت الحضارة العربية الاسلامية على موعد لانقاذ ما يمكن إنقاذه من أشلاء فكر تضافرت قوى كثيرة على إخماده وإسكات صوته ، وللنهوض بشعب (أو شعوب) أراد الحياة وصمم على أن يخلع أسماله البالية وينفض عنه غبار العصور . فالعرب كانوا بحق عنصراً أساسياً في خروج أوربا من الظلمات إلى النور . لقد اهتدت إلى العلم بعد الجهل ، وإلى التسامح والتعايش بعد التعصب والتنابذ ، وإلى الحضارة بعد الهمجية . لقد تعلمت كيف تفكر ، وكيف تنظر ، وكيف تبحث وتدرس وتجرب وتلاحظ . لقد كان العرب مثلاً حياً على مدى تأثير القوى الخارجية عندما تنضج القوى الداخلية وتستكمل شرائطها وأسبابها . لقد هبّت عليهم رياح التغيير من

الأندلس وجنوب إيطاليا وفرنسا ، فكانت الوثبة العظيمة وكانت الانطلاقة الرائدة الجبارة .

أجل ، رغم كل هذا الذي صنعه العرب لأنفسهم وللعالم ، ورغم جميع الخدمات التي قد أسدوها للعلم والفكر والحضارة ، ورغم . . . ورغم . . . ورغم . . . فانهم - في نظر أولئك الرهط من المكابرين العنصريين الاوربيين الذين يريدون أن يحجبوا الشمس باصبعهم - لا يستحقون وصف (الأصالة) ، ولو جاءوا بكل آية . فلا يستحق هذا الوصف إلّا الآريّون وأحفادهم وأسباطهم وذرياتهم الذين نزحوا من الهند وفارس في عصور موغلة في القدم إلى أوربا - بزعمهم - واستقروا فيها ، وحققوا لها الأمجاد والعظائم . انها (أي الأصالة) حق طبيعي لهم وحدهم دون سائر العالمين ، لا ينازعهم فيها منازع .

فكل توكيد من هذا القبيل ، كل نفي لفكرة الأصالة ، رغم توفر جميع أسبابها ودواعيها ، فيه تعنت وفيه تحامل مبيّت واضح على أصحاب هذه الأصالة ، ومحاولة سافرة لنفيها عنهم بأي طريق كان ، وعلى أي وجه اتفق لجعلها حكراً على قلة مختارة بيضاء ، وامتيازاً تاريخياً لها .

فإذا لم تكن جميع إسهامات العرب العلمية والحضارية ، وإذا لم يكن كل ما قدموه للتراث الانساني من خدمات ومآثر ، وإذا لم يكن لجميع التبدلات التاريخية التي أحدثها الاسلام في شبه الجزيرة العربية ، ثم تجاوزتها إلى ما وراءها ، وظلت تفاعلاتها تنتقل من بلد إلى بلد ، ومن أفق إلى أفق ، ومن عصر إلى عصر ، حتى فرضت نفسها على تطور الفكر الانساني كله والحضارة العالمية بأسرها وصارت عاملاً أساسياً فيها - أقول إذا كان كل هذا الذي صنعه العرب على غير مثال ، لا ينطوي على أصالة ، وعلى صيغ من التعبير عن الذات غير مسبوقة وغير مكرّرة ، فقولوا لي بربكم ما عساها أن تكون الأصالة إذن ؟ لقد صدق الشاعر حين قال :

وعين الرضى عن كل عيب كليلة   وعين السخط تبدي المساويا

فلو جاء العرب بكل آية فان أصحاب الأغراض والاحقاد لن يؤمنوا إنها لن تكفي لنزع ما في صدورهم من غل . انهم يعانون من عقدة العروبة

والاسلام يذكيها صلف القوة والاستعلاء في قالب من العلم الأكاديمي . قولوها بصراحة يا هؤلاء . لقد حلقتم في أجواء المعقول واللامعقول لتثبتوا باطلكم ، وسخرتم العلم للتمويه والتضليل . بئسما شريتم به أنفسكم ! بئس العلم يباع في سوق النخاسة ! بئس العلم في أيدٍ غير أمينة لا تحفظ له حرمة ولا ترعى له عهداً !

على رسلكم يا هؤلاء ! ان الأحكام التي تدلون بها مشحونة بمغالطات لا أظنها تخفى عليكم . فهي تنطوي على تناقضات داخلية لا مجال لنكرانها ، وفيها أيضاً جهل صريح بالمبادىء الأساسية للبحث العلمي والمنهج الموضوعي . هذا فضلاً عما فيها من التجنّي الواضح الذي لا يخفى على كل ذي عين ، التجني على قوم لا ذنب لهم ولا اثم إلا أنهم صنعوا أنفسهم بأنفسهم ، وخرجوا من البادية على حين غرة من التاريخ ، فأسقطوا امبراطوريات القهر والتسلط والطغيان . أجل ، ان ذنب العرب هذا كبيرة لا تُغتفر بحسب مقاييسكم. كيف لا وهم شعب « ساميّ » اجترأ على شعبين آريين عريقين طبقت شهرتها الآفاق هما الروم والفرس ، وكانت ثالثة الأثافي انهم سطوا على ثقافة « آريّة » مضنون بها على غير أهلها هي الثقافة اليونانية . ومن الأندلس هددوا عرين « الآريّة » في أوربا . لقدجاءوا شيئاً إدّاً ، ان جعلوا « للآريين » ندًّا ، ومدوا لهم في الهزيمة والعار مدّاً ! فيا للويل والثبور ، وعظائم الأمور ! فليخسأ هؤلاء « الساميّون » الطارئون . فلا وربك لا حكم إلاّ لآريا والآريّين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين !!!

إن التجنّي على العرب هو كتجني الطغاة والعتاة والجبارين وأصحاب الامتيازات والاحتكارات على المقهورين والمحرومين والمسحوقين الذين تحدّوا سادتهم وكشفوا زيفهم وعرّوهم من زخارف المجد الكاذب المبني على الأشلاء والجماجم . انه من نوع التجني التاريخي على الثائرين والمصلحين وأصحاب الرسالات الذين انبثقوا من سواد الشعب واغماره ، وثاروا لحقوق الشعب ، وقاموا لتحقيق أماني الشعب . انه كبرياء الارستقراطية على الديمقراطية ، ورجال المال والأعمال على الفقراء والمساكين . لقد أصبح هؤلاء أنداداً

لسادتهم ، نظراء لهم في المال والرجال وقوة الشكيمة . فأسرّها السادة في أنفسهم واضطغنوا على الثائرين الجدد ، ولا يمضي يوم دون أن ينفّسوا عن أحقادهم المكبوتة بإصدار الأحكام المتشنجة التي تنطوي على الحقد الأسود ، والتي رأينا بعضاً منها ، ولا تزال تتردد في صحفهم وإذاعاتهم وجميع وسائل إعلامهم ، بل حتى في بعض كتاباتهم « العلمية » ودراساتهم « الأكاديمية » .

إنها النفس الأمارة بالسوء لا تطيق التجرد والتنزه عن الأغراض والمصالح والنظر إلى الأمور نظرة موضوعية علمية لا تتطرق إليها الأهواء والنزوات ولا يمليها التعصب وكراهية الشعوب . فالانسان في حقيقة أمره مجموعة من الغرائز والميول والعواطف والشهوات وردود الأفعال ، في غلالة رقيقة هشة من العقل والمنطق والأدب المصطنع الكاذب ، تنفضّ لأقل رعشة وتتمزق بألطف خلجة . فإذا انفطرت تكشف وحش في إهاب إنسان . فياللهول المشهد !!



إن النظرة التحليلية الساذجة التي لا ترى في الفكر العربي الاسلامي سوى مرآة عاكسة للضوء ، تغفل ما فيه من مصادر غنية بالضوء والطاقة . ويرجع السبب في ذلك إلى الجهل المطبق :

١ - بمكنونات الطبيعة البشرية وتعقيدات السلوك الانساني والعلاقات الدينامية القائمة بين الأفراد والجماعات والأشياء . فقد كان من الواجب على من يتصدى لدراسة الفكر الانساني بعامة والفكر العربي الاسلامي بخاصة ، الاعتماد على طريقة أكثر جدارة بالانسان الذي لا ينحل أبداً إلى مجرد موضوع ، إلى ظاهرة سلبية صرف تنفعل عن الحوادث ولا تفعل فيها ، وتتأثر بها ولا تؤثر فيها . ان تجاهل أهمية العامل الانساني في صنع الأحداث وإحلال قوى أخرى بديلة مكانه قد أفقد الانسان تميزه من عالم الطبيعة والأشياء وجعله مجرد شيء من الأشياء . لقد تشيّأ الانسان بالأشياء بدلاً من أن تتأنس الأشياء به . لقد خضع لها بعد أن كانت في جميع مراحل تاريخها خاضعة له وأداة مسخرة بين يديه . لقد ذاب فيها بعد أن كانت جزءاً منه . هذه هي مأساة جميع التصورات الميكانيكية للانسان في القرن الماضي وبداية

القرن الحالي . لا بد من تناول الطبيعة الانسانية في تكاملها العيني ، وفي تفاعلها مع الأحداث والوقائع ، وفي قواها العارمة المتفجرة ، وإلّا فلن نصل - كما لا يزال حالنا الآن - إلا إلى نتائج هزيلة شاحبة لا قيمة لها ولا يصح البناء عليها .

٢ - بالفكر العربي الاسلامي والأدوار التي مرّ بها ، والأطوار التي تقلّب فيها ، والعقبات التي صادفته وتحدّت مواهبه ، والظروف التاريخية والحضارية التي تسنّى له العمل فيها ، والمشاكل والمعضلات التي ثارت من حوله ، والحلول التي وضعها لها ، والنتائج التي استخلصها منها ، والمعاقل التي اقتحمها ، والطرق والدروب التي شقها ، والأغراض التي حققها ، والتيارات التي اصطرع معها ، وكيف استطاع أن يمضي في طريقه بين الصخور والأشواك وأن يصمد للعواصف والأعاصير وعوامل الفناء .

إن الجهل بكل ذلك كان من شأنه الوقوع في مزالق كثيرة ، والاسراف في الأحكام الجائرة وإلقاؤها ذات اليمين وذات الشمال . ومما زاد الطين بلّة ، الميل والهوى الذي ما دخل شيئاً إلا أفسده ، وتعصب بعض الدارسين والحاقدين والمضطغنين ، وصلف أولئك الذين لا يروق لهم أن يخرج من الحفاة العراة رعاء الابل ، القادة والرادة والأبطال وعظماء التاريخ ، وان ينبثق عن الجهل والفقر والفوضى والشرك والحيرة ، العلم والغنى والنظام والتوحيد والايمان ، وأن تقذف شبه الجزيرة برجال الفكر ، وأفذاذ الحكم ، ونطس الأطباء ، وجهابذة العلماء ، وأصحاب المذاهب العقلية والدينية والفلسفية والتاريخية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية . . . وكان للاحساس القومي واختلاف الدين وتخلف العرب والمسلمين في الوقت الحاضر أثرها البالغ في إذكاء روح الاستعلاء عند الرجل الأوربي المنتشي بانتصاراته ، فازداد عُتُواً في الأرض واستكباراً . وانطلق المرجفون في مفترياتهم ، لا وازع من أخلاق ولا رادع من ضمير . واختلط الحابل بالنابل ، والغث بالسمين ، وأصبح الوصول إلى الحقيقة العارية في هذا العجاج المضطرب أمراً صعب المنال .



الأصالة العربية كما ألمحنا من قبل هي عنوان لنزعة قوية تنتمي إلى

شخصية تراثية متميزة ذات خطوط ومعالم خاصة ظهرت في عصور الازدهار الاسلامي لتدل على الهوية العربية وتعبر عن الشخصية الاسلامية . وقد كانت هذه الأصالة هي الشرط الضروري لتحقيق الوحدة الثقافية ، وتوكيد الاستمرار التاريخي والديمومة الحضارية للعرب والمسلمين . وهذه الأصالة ذات اتجاهين : اتجاه يرمي إلى الحفاظ على الهوية العربية الاسلامية ، والآخر يحرص على الابقاء على علاقاتها العالمية . إنها أصالة غير منغلقة على ذاتها ، وإنما هي منفتحة على تيارات الثقافة العالمية تغنيها وتغتني بها وترد إليها أضعاف ما تأخذه منها . فهويّتها لم تفقدها انتماءها إلى العالم المحيط بها ، كما ن عالميتها لم تفقدها إحساسها العارم بالانتماء العربي الاسلامي .

لقد كانت أصالة معطاء حقاً ، وكان عطاؤها لا ينحصر في ميدان دون آخر ، بل لقد شمل جميع الحقول والميادين المعروفة آنذاك ، ماذا أقول ؟ لقد اقتحمت ميادين لم تكن معروفة من قبل . فهي في مجال التعبير عن الهوية العربية وبناء الشخصية العربية أعطت الأدب العربي وعلم الصوتيات [1] والعلوم العربية (نحو ، صرف ، عروض الخ . . .) وفي المجال الاسلامي أعطت العلوم الاسلامية (تفسير ، حديث ، مصطلح ، فقه ، أصول ، كلام الخ . . .) وفي المجال العقلي أعطت الفلسفة العربيّة الاسلامية ، وعلى المستوى العلمي والعالمي ، ارتقت ببعض العلوم (طب ، صيدلة ، حيوان ، نبات ، رياضة ، فلك الخ . . .) وخلقت علوماً أخرى لم تكن موجودة من قبل (جبر ، كيمياء ، طبيعة ، تاريخ ، اجتماع الخ . . .) وتوّجت ذلك كله بالمنهج العلمي الذي وهبته للانسانية تذكرةً بعصور العطر والشذى قبل السبات الطويل . وسنفصّل القول في معظم هذه العلوم (ما عدا القسم الأول منها إذ لا يدخل في اختصاصنا) في كتاباتنا القادمة . وهكذا تكون الأصالة العربية الاسلامية قد نجحت في توكيد انتمائها العربي والاسلامي دون الاخلال بانتمائها العالمي أو التفريط فيه . فالأصالة كما تعني توكيد

---

(١) انظر أعلاه صفحة ٢١٦ حاشية ١ .

الشخصية المستمرة المحافظة على ذاتها ، تعني أيضاً توكيد وجودها الانساني العالمي . فهي عندما تكون خلاقة تضيف إلى الحياة مكاسب جديدة وتُغني الانسانية بمعين إضافي طارف . فالخلق لا ينحصر في إغناء الذات . بل هو أيضاً زيادة في حجم الوجود الانساني ، وزيادة في حجم الحياة ، وزيادة في الانتاج الحضاري العالمي ورفع مستواه ، بإمداد الثقافات العالمية بمنجزات فكرية وفنية وأدبية جديدة تغني الحضارة الانسانية وتزيد في رصيدها ومكاسبها . ماذا أقول؟ ان عملية الخلق التي تتمخض عنها الذات لا تتكشف ولا تستبين إلا بقدر ما تتعدى هذه الذات وتفيض عنها إلى مسافات بعيدة في الخارج . فكلما كانت المسافة أكبر كانت الدلالة على أصالة عملية الخلق أوضح وأبين . وبعبارة أخرى : ان توكيد الذات هو في نفس الوقت توكيد للوجود الانساني . انه إشعاع وعطاء .



وقد مرت هذه الأصالة بثلاث مراحل :

الأولى هي مرحلة نشأة الفكر العربي وتكوين النواة التي ستنمو وتكبر بما يعتمل فيها من تفاعلات دينامية ذاتية داخلية وبما ينضم إليها من عناصر خارجية . وسنلم بهذه المسألة إلماماً خفيفاً في الفصل التالي ، لكننا سنخصص لها كتابنا القادم بكامله . فهي أهم مسألة على الاطلاق في الفكر الاسلامي العربي وعليها ستنبني أحكام في غاية الخطورة من شأنها أن تنسف جميع المفاهيم التقليدية السائدة عن هذا الفكر حتى الآن . لذلك فهي جديرة بأن يعقد لها كتاب كامل .

المرحلة الثانية : هي مرحلة تأمين الغذاء الكافي لاستمرار عملية النمو وبقاء الشعلة متوهجة متقدة تتحدى الرياح والأعاصير . وقد تحقق ذلك في عصر الترجمة الذي يسرف خصوم الفكر العربي الاسلامي في أهميته حتى جعلوه عصر بداية هذا الفكر ومنطلقة . وسنرد هذا العصر إلى حجمه الطبيعي . فهو في نظرنا ليس بداية للفكر العربي ، بل امتداد من امتداداته وشعبة من شعبه . ان العصر الأول ، عصر نشأة الفكر العربي ، سيكون من السطوع والقوة بحيث يبهرنا ويحجب عنا رؤيته ماوراءه . ولذلك سنضع على أعيننا نظارات مدخّنة كتلك

التي تُستعمل عند رصد الشمس أثناء الكسوف الكلي لرؤية الاكليل والشواظ المنبعث منها . هنالك فقط سنرى عصر الترجمة قزماً يقف قريباً من شمس الفكر العربي بنورها الساطع المتوهج . وبغير هذه الوسيلة فلن نرى القزم الصغير . ففي طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل . ولذلك فلن نستفيض في الحديث عن عصر الترجمة الذي يُتخذ تعلّة للهجوم على الفكر العربي الاسلامي والانتقاص من قدره ، بل سنقف وقفات قصيرة لا بد منها لتوضيح بعض المعميات ، أوّ تبديد بعض الشبهات ، أو للرد على بعض المفتريات .

المرحلة الثالثة والأخيرة هي مرحلة تبلور الأصالة العربية في شتى الأعمال الابداعية . وسنستفيض في ذلك في كتابنا (آفاق الفكر العربي) الذي لم نفرغ من كتابته بعد . فلا تزال أمامنا بعض الفصول القليلة ، فضلاً عن أنه يحتاج إلى بعض التنقيح . وسيظهر في عدة أجزاء .



وقد عملت هذه الأصالة على أربعة محاور ، ثلاثة منها عربية داخلية ، والرابع أجنبي خارجي . وهذه المحاور هي :

المحور الأول هو القرآن . فقد كان القرآن دائماً المحور الذي إنما تدور عليه كل حركة فكرية في الجماعة الاسلامية . ولذلك كانت جميع الحركات الفكرية في الاسلام فيها ظلال من القرآن وتحسب حسباباً للقرآن ، على درجات متفاوتة من الشدة والوضوح . وهذا لا غبار عليه ، بل تفرضه طبيعة الأشياء ومنطق العصر والبيئة التاريخية التي كان يعيش فيها المسلمون . فقد انبعثت من القرآن ، وباستنطاق آي القرآن ومعاناة القرآن ، علوم ومذاهب وفلسفات ومواقف وآراء وأفكار أغنت الفكر العربي الاسلامي كثيراً واغتنت به ، وأخذت منه وأعطته ، واستوحته وأوحت إليه . فكان من نتيجة ذلك ظهور عدد من العلوم لم تكن معروفة قبل الاسلام ولا عهد للعرب بها ، كالتفسير والحديث والفقه والأصول والكلام والقراءات والعلوم العربية الخ . . .

المحور الثاني الحديث . وأحاديث الرسول تأتي في الدرجة الثانية من

اهتمام المسلمين بعد القرآن . فقد اهتم المسلمون بأقوال نبيهم وأفعاله وحركاته وبعض التفاصيل الصغيرة من حياته اهتماماً لا مثيل له في تاريخ الأديان والمذاهب والأفكار . فلم يحدث قط في التاريخ أن حظي زعيم ديني أو سياسي أو فيلسوف عقلي أو . . . من تلامذته وأتباعه ومريديه بمثل ما حظي محمد عليه السلام من اهتمام أصحابه وتابعيهم وتابعي التابعين ، بأقواله وأفعاله وكل ما قام به أو علمه أو فكّر فيه . فقد عني المسلمون بكل صغيرة أو كبيرة في حياة قائدهم وسيدهم وراعيهم ، حتى أن أحداً لن يستطيع أبداً أن ينافسهم في فخرهم بحفظ أدق تفاصيل كل حادث من حياة نبيهم حفظاً دقيقاً واعياً لا يصل إلى مستواه تسجيل حياة أي إنسان آخر من قبل ولن يحلم به إنسان من بعد . فمن أجل تسجيل هذه الحياة بأدق تفاصيلها قام رجال الحديث بدراسة حياة ثلاثة عشر ألفاً من الصحابة والتابعين ، حتى ليكاد أحدنا يعرف كل سكان مكة في صدر الاسلام في وقت لم يعرف العرب بعد نظام الكتابة والتأليف . والحق أن هذا عمل فريد أصيل لا مثيل له في تاريخ الانسانية حتى الآن وبعد الآن . إذ لم يحدث قط ـ ونجزم أنه لن يحدث أبداً ـ أن تتضافر كل هذه الجهود والطاقات وأن تتجند كل هذه القرائح والأقلام من أجل دراسة حياة فرد واحد فقط !!! على حد قول شبلي نعماني . فيا لعظمة هذا الفرد ! ويا لعظمة أولئك القوم الذين أحاطوا به وأيدوه وعززوه ونصروه ! لقد كان القوم على عجلة من أمرهم فشقوا لأنفسهم الطريق بين الأشواك والغيران والكهوف ، ليضعوا علماً لم يكن بالأمس ، وليواجهوا زحف جيوش الأحاديث الموضوعة على لسان نبيهم إرضاء للعامة ، أو تملقاً للساسة والحكام وأصحاب الأغراض والمآرب والأهواء ، وزُلفى لأولي الأمر وأهل الحل والعقد . وقد تجمعت لعلماء العرب تجارب عديدة في هذا الباب وكانت لهم تقاليد راسخة في علم الحديث ونقد النصوص كانت مفخرة من مفاخر العرب ومجداً من أمجاد الاسلام .

والمحور الثالث اللغة . كانت اللغة أيضاً ميداناً فسيحاً للعبقرية العربية جالت فيه وصالت . فقبل الاسلام كانت ملكة التعبير الحاصلة للعرب أحسن الملكات وأوضحها إبانةً عن المقاصد لدلالة غير الكلمات فيها (الحركات

والحروف) على كثير من المعاني كما يقول ابن خلدون [١] . فلما جاء الاسلام وفارقوا الحجاز لطلب المُلك وخالطوا العجم ، تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعربين من العجم . والسمع أبو الملكات اللسانية . ففسدت بما أُلقي إليها مما يغايرها لجنوحها إليه باعتياد السمع . واستمر ذلك الفساد بالاستمرار في ملابسة العجم ومخالطتهم . وخشي أهل الحلوم منهم أن تفسد تلك الملكة راساً (أي نهائياً) ويطول العهد ، فينغلق القرآن والحديث على المفهوم . بل لقد تأدّى الفساد إلى موضوعات الألفاظ ، فاستعمل كثيرمن كلام العرب في غيرموضوعه عندهم ، ميْلاً مع هجنة المتعربين في اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية . فاحتيج إلى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب (الكتابة) والتدوين خشية الدروس (البلى واختفاء الأثر) ، فشمّر كثير من أئمة اللسان وأملوا فيه الدواوين . فاستنبطوا من مجاري كلام العرب قوانين لتلك الملكة ـ التي تسرب إليها اللحن ـ مطردة شبه الكليات ، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه منها بالأشباه . وجعلوها لهم صناعة مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو . ثم تتابعت علوم اللسان العربي بعد ذلك ، فنشأ علم اللغة وعلم البيان ، وعلم الأدب . . . وهي علوم أبدى العرب استقلالاً كبيراً فيها وإبداعاً لا ينكره إلا مكابر أو جاهل .

المحور الرابع **الثقافات الأجنبية** . والمحور الرابع والأخير الذي قد عمل فيه المسلمون هو الثقافات الأجنبية . فإذا كانت المحاور السابقة عربية اعرابية ، أي وليدة القوى الداخلية ، فإن المحور الرابع أجنبي جاءت به القوى والعوامل الخارجية لاخصاب الحركات الداخلية وتلقيحها بما يكفل لها النمو والتكامل . لقد كانت الثقافات الأجنبية معيناً لا ينضب استقى منه الفكر الاسلامي كثيراً من مقوماته وعناصر وجوده . فقد وضعت هذه الثقافات بين أيدي المسلمين ما توفر لدى الأمم الأخرى من علوم وآداب وفلسفات ، وأمدّتهم بفيض غزير مما كانت تحتفظ به من ذخائر ونفائس . وقد حدث ذلك في وقت مبكر جداً . فمنذ القرن الأول للهجرة بدأ لقاء العرب بحضارات غيرهم ، فاصطدموا بها اصطداماً عنيفاً

---

(١) انظر كتابنا : المرجع في تاريخ العلوم عند العرب ، صفحة ١٣٩ ـ ١٥٤ و٣١٨ ـ ٣٤٨ .

كان كفيلاً أن يطيح بهم لولا قوة شخصيتهم التي استمدت كيانها من القرآن ومن الدين الجديد الذي انبثق في شبه الجزيرة ، وكان مهوى القلوب والأفئدة فيها ، وكذلك - وهذا هو الأهم - لولا أن المجتمع الصحي السليم تزيده الأزمات رسوخاً ، بينما هي نفسها تزيد المجتمع المريض تفسخاً وضياعاً . فقد أثمر هذا الاصطدام ثمراً طيباً كان من آثاره حدوث انقلاب فكري وثقافي واجتماعي جديد منقطع النظر في تاريخ الحضارات الانسانية قد يفوق في عمقه وسرعته واتساع مداه الانقلاب الذي أحدثته النهضة في أوربا في القرن الخامس عشر . وقد حدث هذا الانقلاب الأخير ولما يمض على الانقلاب الأول مئة عام .

وهكذا ، فيما كادت الفتوح العربية الاسلامية تستقر في البلاد التي كانت تسود فيها روح الهلينية على أثر فتوح الاسكندر حتى بدأ التفاعل بين العرب الخارجين من طور البداوة وبين الشعوب العريقة المغلوبة على أمرها ، بعد أن أفسدتها الحضارة وأتخمها البذخ والاسراف واستكانت إلى الأسوار تنشد حمايتها . لقد تفاعل الفكر العربي والذوق الاسلامي بأذواق وأفكار بلغت شأواً بعيداً من التقدم والنضج ، فنتج من ذلك كله بواكير حضارة راقية أخذت تتخلق في العصر الأموي ، ثم اكتسبت شكلها النهائي في العصر العباسي أولاً والأندلسي بعد ذلك .



قلنا إن رسالة العرب في تاريخ الحضارة الانسانية لم تقف عند حد ترجمة كتب اليونان . أجل ، لقد نقلوا تلك الكتب إلى لغتهم وشرحوها وعلقوا عليها ، بحيث أمكن لاوربا فيما بعد فهمها وهضمها . إلا أنهم قد فعلوا ما هو أكثر من ذلك كما أسلفنا من قبل . فقد أنقذوا ببعثاتهم طائفة كبيرة من كنوز الحضارة اليونانية التي أوشكت على التلف والبلى والفناء ، فرمموها ، وأصلحوا فاسدها ، وحققوا نصوصها . وكم من أثر يوناني قيّم فُقد نصّه الأصلي وحفظته لنا الترجمات العربية ، أو الترجمات اللاتينية والعبرية المنقولة عن العربية . ولا يقتصر أمر العرب على هذا ، بل انهم علاوة على ما ذكرنا رقوا العلوم التي اقتبسوها من هذه المخطوطات وطوروها ، وأوجدوا طرقاً جديدة لفهم الطبيعة والعالم والانسان لم تخطر لأساتذتهم اليونان على بال ، فأسدوا بذلك خدمات جليلة للعقل

البشري ، والتراث العلمي والحضارة الانسانية العالمية .

وعلى كل حال ، ليس الفكر الاسلامي قبل الترجمة هو نفسه بعدها . وان الفرق بين الفكرين لم يكن فرقاً حسابياً ، بل لقد كان شيئاً أبعد من ذلك بكثير . فالتغير الذي طرأ عليه كان ـ حقاً ـ شيئاً منقطع النظير في سرعته وعمقه وشموله وأبعاده . لسنا هنا إذن بإزاء إضافة عددية ، فقد تمخضت هذه الحركة عن عقلية جديدة تغيرت على أثرها نظرة الانسان العربي إلى نفسه وإلى محيطه ، مما جعله يعيد النظر في معنى الحياة والوجود الانساني . فكما كان اليونان تلامذة المصريين والبابليين والهنود ، فأخذوا عنهم ثم تجاوزوهم إلى آفاق لم تكن بالحسبان ، كذلك كان العرب أيضاً تلامذة لليونان والفرس والهنود و . . . بأفكارهم اغتذوا ، ومن لبانهم رضعوا ، ثم لم يلبثوا أن تجاوزوهم وحلّقوا في عوالم وآفاق جديدة . ولا يعود الفضل في ذلك إلى الترجمة بقدر ما يعود إلى القائمين بها وإلى البيئة التاريخية والظروف الموضوعية التي كانوا يعيشون فيها والتي هي من صنع أيديهم . فالعوامل الخارجية لا تجدي نفعاً إذا لم تدعمها العوامل الداخلية وإذا لم تجد تربة خصبة فيها . فليست كل ترجمة تؤتي ثمراً كما مر معنا في الفصل السابق .

وهكذا فمن الترجمة انتقل العلماء العرب إلى الانتاج العلمي والفلسفي الأصيل . وقد ظهرت جهود العرب الابتكارية في الطب والكيمياء والفلك والطبيعة والرياضة والتاريخ والاجتماع والفلسفة . فقد اشتغلوا بهذه العلوم وغيرها رواية ودراية ، وتناولوها بالتصحيح والتنقيح والاضافة والحذف والتوسيع والايجاز ، حتى لقد بلغوا في ذلك غاية المدى . وكانت لهم طرقهم الخاصة في البحث العلمي ، وهي طرق جديدة يختلفون فيها عن أساتذتهم اليونان . فالعرب هم رواد المنهج العلمي الذي عماده التجربة والملاحظة والاستقراء والاستنتاج . فاليونان قد كفروا بهذا المنهج كما هو معلوم واستحقروه واسترذلوه ونسبوه إلى العبيد ، وازدروا بالمادة والعالم الأسفل وبكل ما يتصل بهما ، واعتمدوا التأمل والتفكير سبيلاً إلى معرفة العالم . فالمنهج العلمي الذي يعزوه الاوربيون إلى بيكون ـ حتى أصبحت كلمة (الروح البيكوني) و (الروح العلمي) كلمتين مترادفتين عندهم ـ هو من وضع العرب ومبتكرات العرب ، وسمة من سمات

الأصالة العربية والاسلامية . وعن العرب عبر هذا المنهج إلى أوربا وعرفه العالم .

والحق ، ان العلم العربي ـ كما سنفصّل ذلك في كتابنا (آفاق الفكر العربي) ـ تلتقي فيه خصائص العلم القديم والعلم الحديث . فهو في طور وسط بينهما . لقد كان يجتاز مرحلة انتقال من الطريقة القديمة في البحث إلى الطريقة الحديثة التي استقر عليها منذ بداية عصر النهضة . إذ لم يكن ممكناً أن تحصل النقلة طفرةً وعلى غير انتظار . وهذا ما يفسر لنا وجود التأمل الفلسفي الميتافيزيقي في تراث العرب العلمي إلى جانب المنهج التجريبي ، واعتماد البحث فيه على النظر العقلي المجرد بمقدار أخذه بالواقع العيني المحسوس . فاليونان أورثوا العرب طريقتهم التجريدية ونظرهم العقلي وتأملاتهم الفلسفية الرائعة ، فأخذ العرب ذلك كله واستوعبوه وتوسعوا فيه ، لكنهم أضافوا إليه ما ينفرد به العرب عن اليونان ، ألا وهو اختبار معارمهم وإخضاعها للمنهج العلمي [١] تحقيقاً لأصالتهم وإبرازاً لهويتهم وانموذج تفكيرهم .

لقد آمنوا بالمادة دون أن يكفروا بالعقل ، بل لم يزدهم الايمان بالمادة إلاّ إيماناً بالعقل ، لقد جمعوا بينهما في إطار من الوحدة والتناسق لم يُعرف من قبل ، وكان ذلك واضحاً في نهضة علوم المادة بينهم كالكيمياء والفلك والعلم الطبيعي والحيل والطب . . . نعم لقد كانت هناك تيارات أفلاطونية صوفية ، ولكنها لم تستطع أبداً القضاء على التيارات المادية ، بل لقد ظل التعايش والتفاعل والحوار قائماً بينهما ، خلافاً لما كان عليه الحال عند اليونان حيث لم تنجح التيارات المناوئة لأفلاطون وأرسطو أن تعلن عن ذاتها إلا بشق النفس . لقد كان عند اليونان علماء فحول بالمعنى الحديث للكلمة ، ولكنهم ظلوا غرباء في عقر دارهم ، فلم يؤثروا ولم يتفاعلوا ، كأنما هم نشاز في سمفونية رائعة .

وأما العرب فقد كانوا عنواناً لتعايش الفلسفة والعلم ، والمنطق والتجربة ، والميتافيزيقا والفيزيقا ، في تراث واحد وحضارة واحدة . فلولا انهم شقوا عصا الطاعة على اليونان وخلقوا أجواء جديدة تحدّ من سيطرة اليونان ،

---

(١) انظر كتابنا : المرجع في تاريخ العلوم عند العرب ، صفحة ١٣٩ ـ ١٥٤ ، ٣١٨ ـ ٣٤٨ .

لأعادوا اجترار أفكار اليونان وكانوا نسخة مكرورة عن اليونان . فكل فيلسوف كبير من فلاسفة الاسلام ينطوي على باحث له جميع مقومات رجل العلم ، كما ان في كل امرأة حامل جنيناً فيه جميع مقومات الحياة . وهذه الظاهرة الفذة التي سنشرحها بالتفصيل فيما بعد لم تُعرف إلا في العصور الحديثة ، وكان العرب أول بوادرها . لقد اختارهم القدر لأمر جلل هو تعريف العالم بمزايا المنهج التجريبي ، كما اختار اليونان لتعريف العالم بمزايا المنهج التجريدي . ولذلك فقد عمدوا ـ أو بتعبير أدق عمد فريق منهم ذوو نزعة خاصة ـ إلى دراسة الطبيعة في صميم الطبيعة ، لا في عقول الدارسين لها من أصحاب الأسماء الكبيرة الفضفاضة ، ولا في بطون الكتب التي صنفوها عنها . وهذا لعمري إنجاز كبير وتطور خطير في مفهوم العلم عندهم . فقد أدركوا ـ ويا لهول ما أدركوا ! ـ ان التجربة والملاحظة خير من ألف كتاب . هذه الحقيقة التي أصبحت معروفة اليوم لم تكن كذلك في الدهر السالف . وقد أورثت أعمالهم العلمية الوضوح والابداع ، وقادتهم إلى الكشف عن أمور وأشياء في مدى ثلاثة قرون أو أربعة لم يُكتب لليونان ولا لغير اليونان الكشف عنها في آلاف السنين . لقد كانوا علماء وجعلوا غيرهم علماء . وهذا حسبهم !!!

وأهم مثل على تعايش العلم والفلسفة في شخص واحد فيلسوف العرب الأول أبو يوسف يعقوب بن اسحق الكندي (المتوفى في أواسط القرن الثالث الهجري ، التاسع الميلادي) . فهو فضلاً عن كتبه الفلسفية يُنسب إليه أكثر من ٢٦٥ كتاباً في الفيزياء والطقس والكثافة والمدّ والجزر . والبصريات وانكسار الضوء والموسيقى . . . وإذا كانت معظم أبحاثه قد ضاعت ، فقد بقيت لنا بصرياته في ترجمة لاتينية كان لها أثرها الواضح في أعمال روجر بيكون وغيره من العلماء اللاتين والانكليز . . . وما ينطبق على الكندي ينطبق أيضاً على كثير من فلاسفة الاسلام الآخرين ، كالرازي وابن سينا وابن رشد وغيرهم . فقد أنجب العرب كنديين كثيرين لا كندياً واحداً ، إذا جاز التعبير ، لأن الحضارات لا تقوم ولا تدوم على شخص واحد فرد ، مهما بلغ من العبقرية ، بل لا بد من جهاز كامل من المواهب والكفاءات والطاقات تكفل لها الحياة والاستمرار ، وأجيال من العلماء والأدباء والفلاسفة والفنانين والمفكرين يضمنون لها النمو

والبقاء ، وإلّا هلكت وأسرع إليها الفناء . فقد نبغ العلماء العرب في كل فن ، ونزلوا كل ميدان ، واقتحموا كل معقل ، وأحاطوا بجميع ألوان الثقافة التي انبعثت في مراكز متعددة ، حتى لقد سبقوا الغرب إلى الكثير من النظريات في الطبيعة والكيمياء والرياضة والفلك والطب والتاريخ والاجتماع . . . وأغنوا التراث العقلي الانساني بكثير من المعاني والأفكار . وبعد أن لم يكن للعرب سوى خطرات الفكر وفلتات الطبع على حد تعبير الشهرستاني ، فقد غدوا فحولاً في التمحيص والتحليل والتدقيق ، والربط والمقارنة والتسلسل في عرض الآراء والأفكار والمذاهب والفلسفات ، ومثلاً يُحتذى في سبر الأغوار والغوْص على المعاني ، لا عفو الخاطر ، ولا بالبديهة الجامحة والتعسف الشارد ، بل بالخطو الوئيد ، والنقلة المتأنية المدروسة . وبهذه الصفات العظيمة غدت الأمة العربية وريثة الفكر الشرقي واليوناني معاً ، والقيّمة وحدها على ذخائر الثقافة والفن ، والممثلة الوحيدة للحضارة الانسانية الرفيعة في العصور الوسطى كلها . فعظمت الحركة العلمية والعقلية بين المسلمين ، واتسع نطاقها ، حتى شملت كل شيء من مظاهر الحياة تقريباً . وبعد أن بلغت هذه الحركة غاية مداها ، واستنفدت جميع ممكناتها ، وحققت جميع أغراضها في بلاد الاسلام ، انتقلت إلى بلد آخر ومناخ آخر ، مشحونة برصيد كبير من التجارب والخبرات والأفكار والنظريات، لتظهر مرة أخرى وتستأنف الحياة من جديد في حركة النهضة العلمية في إيطاليا بعد سقوط القسطنطينية .



وهذه المحاور الأربعة متصل بعضها ببعض ولا ينفصل بعضها عن بعض إلا بوسائل صناعية يفرضها الذهن المحلل والفكر المنسق المنظم . فهي مترابطة متماسكة ، ولا سيما في تلك العصور التي كانت المعرفة فيها محدودة تشق طريقها بصعوبة وتؤدة وخَفَره فمحور اللغة لا ينفصل عن محور القرآن ، ما دامت اللغة المقصودة هنا إنما هي لغة القرآن وما دام ضبطها وتجويدها واستخراج علومها أموراً موضوعة لأغراض قرآنية . وكذلك لا تخفى صلة القرآن بالحديث ، فإنما الحديث تفصيل لما جاء في القرآن وتوضيح له بالقول والفعل ، وتشريع فيما لا نص فيه . انه المصدر الثاني للشريعة يلي القرآن مباشرة ، والقرآن هو المصدر

الأول . وصلة اللغة بها واضحة أيضاً . بقي المحور الرابع والأخير ، محور الثقافات الأجنبية ، فصلته بالمحاور الأخرى صلة الغذاء المتجدد بالبدن . فبهذا المحور اتصل العرب بالعالم وخرجوا إلى العالم ووهبوا العالم كل طريف وجديد وأصيل . فهذه المحاور الأربعة متصل بعضها ببعض ، متفاعل بعضها ببعض ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً . فالفصل بينها لا وجود له إلا في برزخ العقل وعالم العقل . فللأفكار منطق خاص لا يعترف بتفريعاتنا وتقسيماتنا الموضوعة لأغراض منهجية صرف . ان لها نمطها الذي تسير عليه في انثيالها وانبثاقها ونشوء سلالات وأجيال جديدة منها ، ثم نعمد نحن إلى الينبوع الثر الدافق فنجعله جداول وروافد تختلف باختلاف الأغراض التي نستخدمها لأجلها . العين واحدة ، والمشارب كثيرة متعددة .

ولقد نشأ عن تفاعل هذه المجاور الأربعة علوم وفنون وآداب وفلسفات ومدارس ومذاهب واتجاهات ومواقف يعزز بعضها بعضاً ، ويواطىء بعضها بعضاً ويعارض بعضها بعضاً . فهناك علوم العقل وعلوم القلب ، علوم الدين وعلوم الدنيا ، العلوم اللّدنيّة والعلوم التجريبية ، مذاهب الايمان ومذاهب الالحاد ، مدارس تأخذ بمنطق أرسطو ومدارس تناوئه وتقيم على أنقاضه منطقاً جديداً ، مدارس أهل السنة الواقفين على النصوص ومدارس أهل الرأي الذين يتجاوزون النصوص وينفذون إلى روحها ، أقاويل تدعو إلى التمسك بأهداب الدين والفضيلة وأخرى تدعو إلى المجون والاباحة والرذيلة ، أقاويل تنادي ألّا حكم إلّا الله ، وأخرى تؤكد أن الحكم للعقل الملتزم بالشرع و . . . وبين كل طرفين متباعدين من هذه المدارس والمذاهب والأقاويل درجات متوسطة تتفاوت في الشدة والمرونة والتزمت ، من شأنها أن تسد الثغرات وتملأ الفجوات . وكل حزب بما لديهم فرحون . ولا تحسبنّ هذا التعارض الكبير بين الأضداد ، وهذا الصراع القائم بين المتناقضات ، وهذا التوتر المستمر ، مما يسيء إلى التفكير العربي والاسلامي أو يسمه بالسخف وقلة المؤونة ، أو بأنه دليل على الفوضى والتمزق والتفسخ ، وبالتالي علامة من علامات المرض . كلا . فهذا هو التنوع الذي يحققه الفكر الخصب عندما يبلغ أقصى غاياته ، أو قل ـ باصطلاح السيكوسوسيودناميكا ـ هو الدليل القاطع على قوة التعبئة السيكوسوسيودينامية

ونضجها واستكمال جميع - أو جل - درجات السّلم السيكوسوسيوديناميكي فيها . فكلما كانت هذه التعبئة أشد ، وكلما كان عدد درجات السلم فيها أكثر ، أخصب الفكر وأنتج ، وازداد تنوعاً وتعقيداً ، وازدهى بالظلال والأشكال والألوان . هنا تنمو الشخصية الابداعية ، وهنا يتولد الفكر الأصيل . هنا وادي عبقر ، الوادي المعشوشب الممراع ، وادي الوحي والالهام !!!



لقد قيل الكثير عن المفكرين والعلماء والفلاسفة العرب ومدى ما يتمتعون به من أصالة ، ونعى عليهم الناعون والناعقون تقبلهم للمؤثرات الخارجية ، كأنما هم في ذلك بدع من البشر.ولست أرى أمعن في الخطأ وأبعد عن الصواب من محاولة فهمهم بأسباب خارجية صرف ، وانتحال شتى الذرائع وفنون الحيلة لتجريدهم من كل أصالة أو ابتكار ، وجعلهم مجرد مرآة عاكسة للصور والأضواء ، لا فضل لهم فيها ولا قبل لهم بدفعها . انهم يعكسون الضوء وهيهات ان يصنعوه ! ان فهم المفكر - أيّ مفكر - في اطاره الخارجي فقط لحرمانه من شهادة الأصالة إشباعاً لهوى متّبع ، أو تعبيراً عن أحقاد دفينة ، عمل غير علمي وسلوك يتسم بالحقد وعدم المسؤولية ، فضلاً عما فيه من تشويه لهذا المفكر وتفريط في انسانيته ، وبخس للطاقات والامكانات التي يذخر بها . فاذا اردنا أن نفهم أي مفكر فلنفهمه من الداخل ، من الينبوع الأصيل الصافي ، أي من حيث هو نبض واشعاع ، من حيث هو كينونة فاعلة متحركة ، من حيث هو انسان له مشاكله وهواجسه ، وهمومه التي تختلف من شخص إلى آخر ومن وقت إلى آخر ، لا من حيث هو صورة جامدة أو صيغة محفوظة ، أو قالب على غير قدّ صاحبه ينطبق على جميع الأفراد والأشخاص . هذا ما قلناه دائماً ولا ندع فرصة تفوتنا دون تكراره ولو بعث ذلك في النفس سيلاً من السأم والملل . فشؤون الفكر فوق حساسيات النفس ، وحقائق العلم يجب ان يراعى في تقريرها اثباتها في الأذهان دون اعتبار لذيولها في الوجدان .

فلا حرج على المفكر ان يستعير ويقتبس ويمعن في الملاحظة والبحث والاستقصاء ليظفر بالذخائر والنفائس دون ان يُرمى من أجل ذلك بعدم الأمانة ونقص الأصالة ، أو يُتهم بالانتهاب والسرقة والاغارة على آثار الآخرين . وليست العبرة بالاستعارة ، بل كيف تناول المادة التي استعارها ، وكيف أفاد منها

وأنماها وزاد عليها ، وأضاف من عنده ما يزيدها عمقاً وفاعلية . وما دام بعيداً عن التقصير في التسامي بها والاضافة اليها ، وتصحيح ما قد يكون فيها من خطأ أو انحراف ، واستكمال ما قد ينقصها من المزايا والمحاسن ، فلا سبيل لنا الى انكار أصالته ورفض ادائه .

ان المؤثرات الخارجية تهجم على الانسان من المهد إلى اللحد . فهو غارق فيها إلى أخمص قدميه تتدفق عليه من البيئة التي تحيط به . ولا تقف هذه العملية عندما يستخصد العزم ويكتمل الوعي الذاتي واللغة ، بل تظل مستمرة عرف صاحبها أم لم يعرف . ولا يستطيع أحد ان يتخلص منها إلا إلى حد معين لا يمكن تخطّيه فالفرد الذي لا يتأثر بالعوامل الخارجية لا مكان له في هذا العالم العاتي المتمرد ، مهما كان مبلغه من الحرية وقوة الشكيمة والاعتداد بالنفس والسيطرة على الذات .

وللشاعر الالماني غوته رأي في الأصالة جدير بالنظر . . . وقد عبر عنه في حديثه الشائق مع ايكرمان يوم ١٢ / ٥ / ١٨٢٥ ان يقول : « يتحدث الناس دائماً عن الأصالة ، ولكن ما الذي يقصدونه بها ؟ فنحن حينما نولد سرعان ما تبدأ الدنيا تأثيرها فينا ، ويظل هذا التأثير مستمراً حتى النهاية . فليت شعري ! ماذا عسانا بعد ذلك ان ننسب إلى أنفسنا من كسب غير الجهد المبذول والقوة والارادة ؟ ولو كان في وسعي ان أقدم بياناً بكل ما أنا مدين به للسابقين العظماء والمعاصرين ، اذن لما بقي لي سوى جزء يسير في الميزان » . ويضيف غوته في هذا الحديث : « المهم هو أن مَنْ عليَّ ان أتعلَّم منه لا بد ان تكون طبيعته ملائمة لطبيعتي . واضرب على ذلك مثلاً بالشاعر كالدرن . فمع انه شاعر عظيم ورغم اعجابي الشديد به لم يكن له أي تأثير حسن أو سيء في نفسي » .

حكمة بالغة ! فالكتاب والشعراء والفنانون والعلماء والفلاسفة الذين وصلوا إلى درجة الامامة يبحثون دائماً عمن يشبهونهم في المزاج النفسي والاتجاه العقلي والاستعداد الفني . من هؤلاء فقط انما يفيدون ، ولا يفيدون منهم إلا لأنهم أنداد لهم . فاذا كنا لا ننكر تأثر فلاسفة الاسلام ومفكريهم بعناصر لها مصادر مختلفة ومظّان متباينة لا يُعنى الباحث الخارجي إلاّ بها عادة ، فان هذا التأثر عندما يكون مثمراً فعّالاً وراءه استعدادات وقابليات وقدرات ليست لكل

أحد ، وانما ينفرد بها بعض الآحاد دون سائر العالمين . فهي عندما تتوفر لانسان ما وتجيش فيه ، تسلبه النوم والراحة والمتعة ، وتجعله يقظاً واعياً مرهف الحس ، متوتر النفس ، مترقباً لكل سانح ، مترصداً لكل وارد . انه يرى ما لا يرى الآخرون ويحس ما لا يحسون ، بحيث لا يحتاج في نفاذ البصر والبصيرة إلى كبير عناء وإلى تخريج وتعليم ، بل تراه يكاد يعرف كل شيء بنفسه على سبيل اللمح والحدس ، بلا قياس ولا معلم فكيف إذا وُجد المعلم !

وهذا الاستعداد النفسي لا يتوفر إلا لكبار الشعراء والفلاسفة والملهمين . وهو ليس على درجة واحدة من القوة والنصوع في بقية عباد الله . وانما هو يتفاوت تفاوتاً لا ينحصر في حد . انه يقبل الزيادة والنقصان دائماً . ففي طرف النقصان ينتهي إلى البُله والأغبياء ، وفي طرف الزيادة ينتهي الى الموهوبين والعباقرة الذين يشتعلون حدساً ، فيلمحون الحقائق في أسرع وقت وأقصره ، ويصلون إلى نتائج هامة في كل المطلوبات أو أكثرها . فيمكن ان يكون شخص من الناس من العبقرية ونفاذ البصيرة بحيث تبرق له كل البوارق وتلمع له كل اللوامع بأقل جهد ، فترتسم فيه الصور ، وتنثال عليه المعاني ، إما دفعة واحدة وأما قريباً من دفعة . ماذا أقول ؟ يكاد زيته يضيء ولو لم تمسسه نار . نور على نور . يهدي العقل لنوره من يشاء! من هذا المعدن الثمين النادر قُدَّ كبار الفلاسفة والفنانين والعلماء والشعراء الذين أينعوا بوادي عبقر !! ولله در غوته حين يقول : « ان الشاعر المطبوع يعرف الدنيا بفطرته ، وهو ليس في حاجة إلى تجارب وملاحظات منوّعة ليصورها تصويراً صحيحاً » . ويقول أيضاً : «لولم يكن العالم في نفسي من طريق الاستشفاف للبثت أعمى له عينان تنظران ، ولكانت كل تجاربي وملاحظاتي عملاً لا جدوى فيه . فالضوء هناك ، والألوان من حولنا ، لكن لو لم يكن في عيوننا ضوء والوان لما ابصرنا العالم الخارجي » (1) . فالشبيه انما يُعرف بالشبيه ، كما يقول القدماء .



(1) أحاديث جوته مع اكرمان . الترجمة العربية . نقلاً عن علي أدهم في كتابه : صور أدبية صفحة ٦٧ - ٦٩ .

واذن ، فلا يشتغل أحد بعلم من العلوم ، أو باب من أبواب المعرفة ، ويتعمق فيه ، ويغوص على معانيه غوصاً نابعاً عن شغف خاص به ، واستجابةً لميول ودوافع ذاتية عنيفة لا تتأثر باحتياجات السوق وقانون العرض والطلب - إلا إذا كان معداً لهذا العلم ، مقتدراً عليه ، غير مكترث لتبعاته وللصعوبات التي سوف تعترضه في سبيله والالتزامات التي ينبغي عليه الوفاء بها . انه يطلبه لذاته ، لا لجر منفعة أو دفع مضرة . لقد وهب نفسه له مهما كانت النتائج . ولا غرو في ذلك،فهو يحقق له لذائذ ومتعاً لا يعرفها إلا ذووها . « فمن ذاق عرف ، ومن لم يذق فلا حرج عليه اذا سلّم واعترف . وهذه لطائف تقصر عنها العبارة ولا تلحقها الاشارة ، إذ لا يفهم عنك إلا من اشرف (ولعلها اشرق) فيه ما اشرف فيك » على حد قول أحد الصوفية .

هؤلاء هم الموهوبون المبدعون . انهم بطبيعتهم وبحكم اخلاصهم للعلم والمعرفة ، متصوفون ، اذ لا بد للابداع من نفحات صوفية تحيل المرارة والعذاب وصعوبات الطريق الى لذائذ وأشواق ومشاعر انسانية رفيعة غنية بالمثل والقيم ، وتذوب فيها الأطماع والأغراض والمصالح . لكن ذلك لا يعني ان كل متصوف موهوب ضرورة ، فما أكثر البُله في أوساط الصوفية ، وما أكثر المرتزقة والمنتفعين والمتسكعين بينهم !

هؤلاء الموهوبون لا يحتاجون إلا إلى القليل من الدُربة والتوجيه ، ثم يتولون الباقي بأنفسهم ، فيسيرون فرادى أو يكادون ، لا يلوون على شيء كأنما هم اصحاب الطريق لا يحتاجون إلى دليل يرشدهم فيها . انهم يَشُقّونه بأنفسهم غير هيابين ولا وجلين . ان اسطراً قليلة من كتاب يقع في يد واحد منهم ، أو عبارة يسمعها من أستاذ ، أو اشارة عابرة من صديق اتى بها من قبيل الصدفة ، أو شيئاً سقط على الأرض (تفاحة نيوتن مثلاً) أو ماء فاض في وعاء (جرن الحمام الذي اغتسل فيه أرخميدس) . . . ان أياً من هذه الأشياء قد يكفي وحده لأن يقدح الزناد ويُشعل الفتيل ، فاذا نحن بين عشية وضحاها أمام عبقري فذ في اهاب رجل غبي ، أو - في أحسن الأحوال - رجل عادي لم يبدُ عليه طوال حياته ما ينم عن ذكاء خارق : كما حدث للكيميائي ككوله عندما حل لغز صيغة البنزين وكان في غفوة ينظر إلى لهب النار ، فتراءى له كأن أفعى تعض ذنبها ،

فخطر له ان هذه الصيغة لا يمكن ان تكون إلا إذا قبلنا انها دورية مغلقة . وهذا أديسون قد أعجزته الحيل في عمل المصباح الكهربائي . ففي جلسة هادئة ، وهو يتناول الطعام مع زوجه وولده ، قالت له زوجه ان ابنه بليد فارغ الدماغ . فصرخ اديسون : نعم يجب عليَّ تفريغ المصباح من الهواء ! ان هؤلاء موجودون في كل مكان وزمان، وفي جميع الأمم والشعوب دون اعتبار للجنس أو اللون أو الدين. . . ولكنهم إنما ينتظرون الشرارة، وهذه الشرارة لاتتوفردائماً، بل هي رهن بظروف وملابسات خارجية لا دخل لارادتهم فيها ، وويل لمن طال انتظاره فلم يجد الشرارة ، بل ويل للمجتمع الذي يمنع هذه الشرارة عن صاحبها ، فليس هو وحده الخاسر ، وانما الانسانية كلها قد خسرت ، وذلك هو الخسران المبين ! والسعيد السعيد من وجد شرارته . وعندئذ فهو في غنى عمن يأخذ بيده ويدله على الطريق . ففي داخله ، ومن خارجه ، وبين يديه ومن خلفه ، أدلاَّء كُثُر يتعهدونه ويوجهونه ويهدونه سواء السبيل . وهو عن وعي أو غير وعي لا ينفك يبحث عن كل ما يتصل باستعداداته ومواهبه . وهكذا فكلٌ مُيسَّرٌ لما خُلق له . انه ليس وحيداً على هذه الأرض وان بدا كذلك . ففيه من الدوافع والحوافز والمنبهات ، وينتابه من الضغوط والقوى والتوتر ، ويساوره من القلق والصراع والصدام ، ما ينوء بالعصبة أولي القوة . ومع ذلك فانه يظل محتفظاً بتوازنه متشبثاً بالبقاء ، فهو يصمد ويصمد دون ان تطيح به الرياح والأعاصير . انه لا يستريح أبداً ، وذلك بحكم الحال لا بحكم النطق والمقال : فان ثورة عنيفة تنشب في نفسه ، ولكن أحداً لا يطلع عليها . انه لا يهدأ حتى يفرغ ما به من شحنات ويخفض ما يصطرع فيه من توترات . ولكن هيهات ! فالتوتر يستتبع التوتر ، والشحنة تتلوها الشحنة . ان المخاض عسير ، ولكنه لن يكون بلا ثمن . هنالك ترتفع الحجب وتزول الغواشي ، فيرى ما لا يرى الراؤون ، ويضع يده على اسرار واحاج لم يستمع بها السامعون . ثم تُسدل الحجب وتوصد الأبواب ، فما عاينه وعاناه يكفيه مؤونة الطريق . انه زاده في رحلة العمر . وقد تعاوده هذه الحال مرة أخرى ، وقد لا تعاوده أبداً ، والأمر مرهون بجملة من العوامل والظروف الداخلية والخارجية لا يدري أحد من أمرها شيئاً . انها ليلة القدر ، خير من الف شهر ، تَنزَّل العلوم والمعارف فيها حتى مطلع الفجر !

ولم يعدم العرب مفكرين من هذا المعدن الثمين . لذلك يطيب لي تذكير أولئك الذين يسرفون في التجني على العرب ، ويشككون في اصالتهم وقدرتهم على الخلق والابداع ، ويجعلونهم مجرد مرآة تعكس الأضواء ولا تصنعها ـ تذكيرهم بانه لا يفهم عن اليونان إلا من أشرف (أو أشرق) فيه ما أشرف في اليونان . فلو لم يكن للعرب حوافز ابقراط وسقراط، ومواهب ارسطرخوس وارسطو ، وتطلعات أفلاطون وأفلوطين ، وفطانة ابرخس وبطليموس، وبراعة أبولونيوس وأرخميدس و . . . اذن لما استطاعوا ان ينجبوا الكندي والفارابي والرازي ، والبيروني والصوري والغزالي ، كلا ولا الطوسي والخوارزمي والبتاني ، وابن يونس وابن سينا وابن زهر ، وابن النفيس وابن الهيثم ، وابن رشد وابن البيطار وابن خلدون . . . فهل يظن ظان أو يحسب حاسب ان هؤلاء لم يبتكروا شيئاً ، وانهم لم يكونوا سوى مقلدين أمناء ومرايا عاكسة ؟ ان العدد الجم من الرجال الذين انجبهم الاسلام في عصوره الذهبية ـ بل حتى في عصور الانحطاط أيضاً ، وهذه سمة مميزة للفكر الاسلامي ـ في الطب والصيدلة والطبيعة والكيمياء والرياضة والفلك والتاريخ والجغرافيا والاجتماع ـ ناهيك بعلوم الدين واللغة على اختلافها ـ اقول ان هذا العدد الهائل من الأقطاب والأعلام والجهابذة لا ينسجم أبداً مع القول بانعدام الأصالة عند العرب والمسلمين خلال تاريخهم الطويل . فإذا لم يكن في جميع هذه الحقول والميادين ثمرات يانعة وقطوف دانية من عبقرية العرب والمسلمين ، وإذا لم يكن فيها نفثات صادقة ملأى بالعناصر الخاصة المخالفة جد المخالفة لم عند القدماء ، وإذا لم يكن فيها كل جديد وطريف اعترف به كبار مؤرخي العلوم في أوربا نفسها ـ وبالتالي إذا لم تكن تنطوي على عنصر الأصالة ، فماذا عسى أن تكون الأصالة ؟ أم على قلوب اقفالها ؟ فليتعنت المتعنتون ما شاء لهم صلفهم وكبرياؤهم ان يتعنتوا ، وليُصرُّوا على جحد الشمس في وضح النهار . فلو جئناهم بكل مثل للجُّوا في طغيانهم يعمهون . فذرهم وما يقولون .. فلا بدّ لليل أن ينجلي ولا بدّ للزيف أن ينكشف .

إن الأصالة هي جمع وربط ، وتأليف وتنسيق ، وتنظيم وترتيب وتبويب ، وتحليل وتركيب وتعليل ومقارنة . إنها تجربة وملاحظة واستقراء

واستنتاج . إنها حذف وإضافة وتعديل وتنقيح ، وتصحيح ومراجعة وإعادة نظر . .إنها صدق وزهد وإخلاص وإتقان وتفان ، وتأمل وعبادة وصلاة . إنها ارادة وحماسة واندفاع ، وحب كامن للطبيعة وشغف بالحقيقة ، ومتعة عند الوصول إليها . إنها استشفاف وتطلّع وبصيرة وغوص على المعاني . إنها إنتاج للأفكار القديمة في ارتباطات جديدة ، وإعطاؤها سمات جديدة وحُلّة قشيبة . إنها طاقات عقلية ، ومشاعر وجدانية ، وقوى روحية ، ورقابة ذاتية ، وصحة نفسية ، وتربية روحية ، وانضباط خلقي ، والتزام أدبي . إنها محاولة وخطأ ، ونصر وانتكاس ، وكر وفر. إنها دراسة وتخطيط وتصميم ومخاض عسير . . .

ورب معترض يقول : رويدك رويدك يا أخا العرب ! لقد جرت عن القصد وركبت متن الشطط ! لقد توسعت في معنى الأصالة حتى اختلطت بغيرها من المعاني ، وضاعت في بحر لجيٍّ من الصفات والخلال والقوى والمسلكات والمواهب حتى لم يبقَ منها شيء . وهذا عبث بالألفاظ لا نرى له مساغاً . لقد تبدّدت الأصالة وذهبت شعاعاً .

وهذا حق لا غبار عليه . فالأصالة ، كما قلنا ، ليست صفة معينة توجد كلها أو لا توجد . إنها صفة كل إنسان وهو يرود ويستكشف ويتحسس ويبحث على نحوه الخاص ويأتي بالخواطر والأفكار غير المسبوقة ، وهو في مجال التعبير عن هوية قومية معينة والانتماء إلى شخصية حضارية وتراثية متميّزة . أجل إنها الانسان كله ، وليست هي ملكة خاصة من ملكاته .

إن الطبيعة تخاطب الجميع ، وتتحدث بحرية إلى أولئك الذين يجيدون لغتها . وهيهات أن يفهم هذه اللغة كل أحد . فلا يفقه لغة الطبيعة إلا من اكتملت شخصيته وتوفرت له مجموعة من الصفات والخلال كتلك التي رأينا أنها تدخل في تعريف الأصالة . وقد أجاد العرب لغة الطبيعة ، أو فريق منهم على الأقل وهم الموهوبون ، ووقفوا على الكثير من أسرارها وأحاجيها ، وعرفوا كيف يستنطقونها ويستلهمون معانيها . لقد قاربوا ووفقوا ، وصنفوا ونسقوا وبوّبوا ، وعدّلوا وصححوا ونقحوا ، وأضافوا وحذفوا ، وأمعنوا في

النظر والتأمل والتعليل والمقارنة والموازنة . لقد عشقوا الحقيقة وأخلصوا لها وتفانوا في سبيلها ، ووضعوا المناهج والأصول للوصول إليها . كانوا يتوغلون في كل مظلمة ، ويتهجمون على كل مشكلة ، ويقتحمون كل ورطة ، ويتفحصون عن عقيدة كل فرقة ، ويستكشفون أسرار مذهب كل طائفة ، ليميزوا بين محق ومبطل ، ومصلح ومفسد . لقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبهم وديونهم . لقد كان غريزة من الله وفطرة وضعها في جبلتهم ، لا باختيارهم وحيلتهم ، على حد تعبير أجد عما لقتهم وهو الغزالي وهو يتحدث عن نفسه فهو عندما كان لا يزال في عنفوان شبابه منذ أن راهق البلوغ قبل بلوغ العشرين إلى أن أناف السن على الخمسين يقتحم لجة هذا البحر العميق ، ويخوض غمرته خوض الجسور لا خوض الجبان الحذور . وظل أمره كذلك حتى انحلّت عنه رابطة التقليد ، وانكسرت عنه العقائد الموروثة عن قرب عهد سنّه بالصبى ، ودخل في صراع الشك العنيف ، ثم خرج منه بعد أن أشرف على الهلاك . وما ينطبق على الغزالي ينطبق على جهابذة العرب وعلماء الاسلام الآخرين ، على تفاوت في ذلك . فان ما ذكره الغزالي هو الحد الأدنى من الصفات التي لا بد لكل مبدع عظيم أن يتصف بها . إنها المدخل الطبيعي إلى الأصالة وبناء الشخصية المبدعة .

بهذه الصفات أرسى ابن الهيثم قواعد البصريات وعلم الضوء ، واكتشف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى ، وقام البيروني بقياس محيط الأرض ، ووضع ابن سينا وابن تيمية أسس المنهج العلمي ، ونقل الرازي الكيمياء من الطور الأسطوري إلى الطور العلمي ، ومهد ابن الشاطر لآراء كوبرنيقوس الفلكية ، وأسس الخوارزمي علم الجبر ، والزهراوي علم الجراحة ، وابن البيطار علم النبات ، والبتاني علم المثلثات ، وابن خلدون علم التاريخ وعلم الاجتماع . . . ان السلسلة طويلة ، والحلقات لا حصر لها ، ولا بد من كتاب كامل يتناول ذلك ببعض التفصيل ، رغم أن الوقت لم يحن بعد لاستيفاء موضوع تاريخ العلم عند العرب . ففي كل يوم تكتشف مخطوطات جديدة تضع أيدينا على حقائق تاريخية جديدة ، وعلى مآثر للعرب والمسلمين لم تكن معروفة من قبل . كل ذلك رغم ما فقد وضاع وتلف من

المخطوطات العربية الاسلامية في الحروب والحرائق وعوادي الطبيعة وآفات الزمان وتصاريف الدهر وغوائل الحدثان .



لقد أصابوا في أمور كثيرة وأخطأوا في أمور كثيرة أيضاً ، وجدّوا في البحث والطلب . ومن هنا انطلقت مذاهب الشك واليقين ، والايمان والالحاد ، والعقل والنقل ، والعلم والتصوف ، والتقليد والاجتهاد ، ووحدة الحقيقة وتعددها . . . لقد وصلوا إليّ مذاهب في الألوهية لا تقل روعة عن ـ ان لم تكن تفوق ـ مذاهب المحدثين ونظرياتهم . وخاضوا في كل ذلك بجرأة وحرية واندفاع ، فلم يخشوا سخط الساخطين وضغينة المضطغنين . ولم يكن هناك محاكم تفتيش أو سلطات دينية متعصبة عليا تحدّ من حرية الفكر أو تضع له القيود والأغلال . نعم لقد عورض الكثير من هذه الآراء والمذاهب ، واشتد الخلاف بين المسلمين في عدد لا يستهان به من المسائل ، وهذا شيء طبيعي جداً وصحي جداً ، لكن لم يُحرق أحد لرأي اعتقده مهما كان مخالفاً للدين ، كما حصل في القرون الوسطى اللاتينية ، اللهم ما لم يكن ذلك متصلاً بسياسة الحكم وأطماع ذوي السلطان .

لقد آمنوا بالله فسخّروا العقل والمنطق لاثبات وجوده . لقد آمنوا بالقرآن فحملوا رسالته وجنّدوا أنفسهم وجميع طاقاتهم للدفاع عنه والغوص في معانيه ، واستخراج علوم أهل الأرض من ينابيعه . بل لقد أوجدوا شتى العلوم لفهمه والوصول إلى حقائقه . وأفاضوا في بيان الحكمة في كل آية من آياته ، بل في كل حرف من حروفه أحياناً ، وذهبوا في ذلك شططاً . فقد قوّلوه ما لم يقل ، واستخرجوا منه معاني لم تخطر ببال محمد ولا من هو فوق محمد . المهم أن يعمل العقل ويكدح ، ولا عليه بعد ذلك إن أصاب أو أخطأ . هناك فائض من الفكر ، وطاقات عقلية تزيد على احتياجات القوم ، فلا حرج في إنفاقها في الكماليّ بعد تأمين الحاجيّ والضروري [1] . فريق

---

(١) هذا على كل حال تفسيرنا نحن الذين ننظر إليهم في بعيد لنرى كيف يتصرفون في هذا الفائض العقلي ، وما هي الوجوه والمسارب التي ينفقونه منها . أما هم فلا يفرقون بين حاجيّ وكماليّ . فكل فرقة منهم ، تعتقد أنها على حق ، وان ما تقوم به واجب وضروري ، وانها إنما تدور في فلك القرآن لم تخرج عنه .

آمن بالقرآن وتجند لرسالته والدفاع عنه بأي وجه اتّفق ولم يخش في ذلك لومة لائم ، وفريق تحداه بنفس الايمان ونفس الحماسة ، وأظهر اختلافه وتعارض آياته ، ولم يخش في ذلك لومة لائم أيضاً . الجميع يتوخون الحقيقة ويبشرون بها ويدعون إليها بالسر والعلن ، دون أن تكون هناك سلطة عليا تعطى لنفسها الحق الالهي في إملاء الرأي الذي ترى ، كما فعلت السلطات الدينية في أوربا،إذ أعطت لنفسها الحق في إحراق كل من لا يدين دينها ويذهب في الفكر والتعبير غير مذهبها . فالقرآن حمّال أوجه ، ولكل ان يعتقد ما يراه حقاً ولو خالفه الآخرون . فلا يبتّ في الأفكار ويحسمها إلا ما فيها من قدرة ذاتية على الصمود والكفاح وتنازع البقاء .

وكما عورض القرآن عورض النبي وقامت في وجهه تيارات وتيارات . هذا يؤيد رسالته ، وذاك يعارض ويجادل . فالمساند لم يدخر وسعاً للدفاع عن النبوة وإثبات صحتها وتجهيل خصومها . وما أمر الفارابي وابن سينا وغيرهما عنا ببعيد . وكذلك المعارض والمناوىء . فانه لم يدخر علماً ولا أدباً ولا فلسفة لنقض النبوة وإظهار بطلانها وتسفيه أحلام القائلين بها . وما أمر الرازي وابن الراوندي وغيرهما عنا ببعيد . انها معركة عقول وأقلام ، لا معركة سيوف ورماح . لقد كانت هناك ملاحم فكرية لا محارق جسدية . ولا يبقى إلا الأقوى والأقدر على البقاء .

وكما أخذ فريق من المسلمين بفرائض الدين وأحكامه وتكاليفه والتزموا بحرفية النصوص ، فقد قام فريق آخر ينادي بالتوسع في فهم النصوص وعدم التزمت والتشدد.ولم يُعْوز هذا الفريق الحجة والبرهان لاثبات الرخصة واحقاق ما يراه حقاً . لقد قوبل الالتزام بالتكاليف بالتحلل منها ، لكنه ليس تحلل الماجن الفاسق المستهتر ، بل تحلل المؤمن المجتهد الواسع الصدر الواثق بربه . وما أمر فلاسفة الاسلام والمعتزلة وأصحاب مدرسة الرأي وبعض فرق الصوفية ، عنا ببعيد . نعم كان هناك عدد لا يحصى من المجّان والفسّاق والمستهترين ، ولكن هؤلاء تسيرهم الغريزة والهوى ، وإنما حديثنا عن المترخصين بالاجتهاد والرأي . وشتان بين الفريقين ! وبين أهل النص وأهل الرأي درجات ودرجات من الاتفاق والاختلاف لا يُدرَك غورها

ولا يُحصى عديدها . فلو كانت هناك سلطة عليا لفضّ الخلاف وحسم النزاع لقضي الأمر بينهم ، وإذن لشلّ الفكر ولصُب الناس في بوتقة واحدة وقالب واحد . وما كان أوخمها من عاقبة . ولكن الله سلم . فان غياب السلطة أعطى الرخصة ورفع الحجر والوصاية ، وأطلق للفكر العنان .

لقد جاء أرسطو بفلسفة غزت العقول والأفهام ، وكان لها اغراء وفتنة عند أولئك المفكرين الاسلاميين الذين نذروا أنفسهم لهيكل المعرفة ومحراب الحقيقة . فأقبلوا عليها حتى صارت جزءاً من ثقافة كل متحرر مؤمن بالعقل وسلطان العقل ، وعلامة بارزة من علامات الرقي والتقدم . بل لقد أقبل عليها أيضاً عدد لا يستهان به من المقلدين الفارغين الذين تستهويهم الرطانات الأجنبية ، لا حُباً لها في ذاتها ، بل إظهاراً للتكايس في النزوع إلى الحق وتقرباً إلى أصحابه . ومع ذلك فان فريقاً آخر من المسلمين ، قد لا يقلون عن الفلاسفة « الرسميين » إيماناً بالعقل وحباً للحقيقة ، لم تجد الفلسفة هوى في نفوسهم ، فردوا على الفلاسفة القدماء والمعاصرين لهم بنفس سلاحهم ، مبينين تهافت عقيدتهم وتناقض كلمتهم فيما يتعلق بالالهيات ، وكاشفين عن غوائل مذهبهم وعوراته ، مع حكاية مذهبهم على وجهه . وماء أمر الغزالي عنا ببعيد . فقد اقتصر هذا الأخير في كتاب (التهافت) على إظهار التناقض في رأي مقدمهم الذي كان في رأي الأقدمين الفيلسوف المطلق والمعلم الأول ، ألا وهو ارسطاطاليس ، وما أدراك ما أرسطاطاليس ، في تلك الأيام الميس ! لكن الساحة لم تكن خالية للغزالي وحده يجول فيها ويصول ، ويتبوأ منها حيث يشاء ، بل ـ كعادة المسلمين دائماً ، بل هذه سنة من سنن الفكر كما سنرى في السيكوسوسيوديناميكا ـ لم يلبثوا أن قذفوا إلى المسرح بابن رشد ليتولى الرد على الغزالي ويعلن فساد حجته وتهافت (تهافته) . هكذا كان دأبهم دائماً : الفكرة تصرع الفكرة ، والحجة تقرع الحجة ، واختلاف الرأي لا يفسد للودّ صلة . لقد كانوا يقذفون بالرأي على الرأي فيدمغه ، فإذا هو زاهق . لقد كانوا يزهقون الآراء لا الأرواح ، وكانوا يزهقونها بحد الفكر لا بحد السيف ، وهذا وجه واحد

من وجوه الأصالة العربية الاسلامية في تاريخ العصور الوسطى . وهكذا تنشب المعارك بين الأفكار ، وتصطرع الأفكار بالأفكار ، فأما الزبد فيذهب جفاءً ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض .

هذا ، وان أكثر فلاسفة الاسلام لم يتقيدوا بهذا الفيلسوف أو ذاك من فلاسفة الأوائل تقيداً أعمى يسلبهم حرية الحركة والفكر ، بل لقد حادوا عنهم وهم يدّعون أنهم إنما يدورون في أفلاكهم ويغوصون على دررهم . فقد عدّلوا وبدّلوا ، وقابلوا وعارضوا ، وقارنوا ووازنوا ، ووفقوا وخرّجوا ، وقوّلوا الفلاسفة ما لم يقولوا ، وصححوا هذا الفيلسوف بذاك ورتقوا هذا بذاك ، وأكملوا هذا بذاك ، ووصلوا إلى نتائج لم تخطر ببال هذا ولا ذاك . لقد ربطوا بين عناصر مختلفة وأمشاج متباينة في وحدة فنية تتفاوت في قوتها وتماسكها وروعتها ، ذات أبعاد مترامية وعلاقات كثيرة متشابكة ونتائج خصبة غنية . كما جمعوا بين ما اختاروه من فلسفة اليونان وبين ما استصفوه من الدين ، وخرجوا بنتائج ومذاهب وآراء فيها كل جديد وطريف كما سنرى في حينه .

وكانت روح النقد عندهم قوية . وقد ظهرت هذه الروح منذ العصور الأولى لتاريخهم . كما يقول روزنتال [(١)] . حتى انه لم يسلم عالم أو فيلسوف اغريقي قديم من سهامهم . ولم يقتصر ذلك على الفقهاء ورجال الدين ، بل لقد شمل الفلاسفة والمتكلمين الذين كانوا من أشد أنصار الفلسفة والعلم الاغريقيين . وبهذه الروح النقدية أيضاً وضعوا علم الحديث . فقد كانت لهم تقاليد راسخة في نقد النصوص ومعرفة الصحيح من الزائف فيها ، وقعّدوا لذلك القواعد وصاغوا له المبادىء والقوانين . ومن مبادئهم المشهورة في هذا الصدد مبدأ (الجرح والتعديل) . فان الحديث عن الرسول عليه السلام لا يُعدّ صحيحاً في نظر علماء الحديث إلا إذا تتابعت سلسلة الاسناد من غير انقطاع من لدن النبي حتى راوي الحديث عنه ، وكانت هذه السلسلة تتألف من أشخاص عرفوا بصدق الرواية . وهذا التحقيق يرجع إلى حياة

---

(١) د . فرانتز روزنتال : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي ، صفحة ١٣١ .

الأشخاص أنفسهم ، وإلى الوقت والظروف التي عاشوا فيها . وقد تولت ذلك كتب الطبقات العديدة التي أغنت هذه المادة وقدمت لنا تاريخ الصحابة فرداً فرداً ، ثم تاريخ التابعين وتابعيهم واحداً واحداً . ويمكننا على ضوء الرواية الخاصة بالأشخاصَ أن نقضي بتجريح صاحب السند الحديثي أو تعديله ، أي عدّه أما مُجرّحاً (أو معيباً في روايته) أو عَدلاً صادقاً فيها .

وهذا المبدأ في ذاته يمكننا تطبيقه على الروايات التاريخية أيضاً ، وذلك بالرجوع إلى حياة صاحب الرواية ومكانته من الصدق والثقة ، ثم إلى الرواية ذاتها وما يقترن بها من ظروف العصر الذي تسند فيه ، وظروف غير المعقول وغير ذلك . لهذا لم يكن من قبيل الصدفة أن أكابر المؤرخين المسلمين كان معظمهم من رجال الحديث ، وبخاصة أصحاب التواريخ الكبرى . ومن ثم كان رجال الحديث هم أصدق الرواة وأوثق المؤرخين . وقد أصبح لديهم بمرور الزمن تراث عريض من كتب الطبقات التي تبدأ بطبقة الصحابة ، وهم أول كتيبة من الرواة عما سمعته أو شهدته من أقوال النبي عليه السلام وأفعاله وتصرفاته . ونقلت رواياتها إلى الطبقة التي تليها ، وهي طبقة التابعين ، ثم إلى الطبقات التالية من تابعي التابعين ومن يلونهم . ومن هذا التراث العريق تستخرج السُنّة النبوية مؤيّدة بالرواية المباشرة والاسناد المتصل عن أشخاص عرفوا بالأمانة وصدق الرواية .

ويشيد روزنتال بقصة الخطيب البغدادي حين يفضح الوثيقة التي ادعى يهود خيبر انهم مُنحوا بمقتضاها امتيازات خاصة ، وأظهر أنها وثيقة مزورة . ويقول روزنتال إن هذا الكشف « قد أكسب البغدادي شهرة واسعة باقية . وتجدر الاشارة هنا إلى أن الخطيب البغدادي لم يضف بذلك شيئاً جديداً ، بل لقد فعل ما كان يفعله العلماء المسلمون الذين كانوا يقابلون بين التواريخ المذكورة في الخبر أو القصة التي يحققون في صحتها أو عدم صحتها . وإذا ظهر تباين أو تناقض حكموا بأن الخبر لا يمكن أن يكون صحيحاً على الوجه الذي ورد فيه » [1] . ويؤكد روزنتال أيضاً أن العلماء المسلمين قد أبدوا شكوكهم

(١) المصدر السابق صفحة ١٣٠ ـ ١٣١ .

في صحة كتب كثيرة تُنسب إلى مؤلفين قدماء كأبقراط وجالينوس مثلاً[1].

وحسبهم فخراً أن يطعن اثنان منهم على الأقل في كتابين منحولين كانت لهما شهرة عريضة في العالم الاسلامي والعالم اللاتيني معاً، هما كتاب (الربوبية) أو (اتولوجيا) أرسطو طاليس، وكتاب (سر الأسرار). فهذا ابن سينا مثلاً يقول في رسالته إلى الكيا أبي جعفر «على ما في اتولوجيا من المطعن»[2] كما يدين ابن خلدون كتاب (سر الأسرار) ويحكم عليه بالوضع والانتحال، عندما يقول في (المقدمة): ان هذا الكتاب «غير معزو إلى أرسطو عند المحققين، لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان، ويشهد بذلك تصفحه ان كنت من أهل الرسوخ»[3]. وقد تجلت هذه الروح عنده أيضاً في نقده لطريقة كتابة التاريخ التي كانت متبعة إلى عهده، وفي نظريته في مغالط المؤرخين، كما ظهرت كذلك في نقده للمنطق الصوري والفلسفة الميتافيزيقية. وعلى ذكر الفلسفة الميتافيزيقية والمنطق الصوري ونقدهما ونقضهما يجب ألا ننسى نقد ابن تيمية والصوفية لهذا المنطق وإقامتهما منطقين إسلاميين جديدين على أنقاضه يختلفان أحدهما عن الآخر غاية الاختلاف وسنبحثهما بالتفصيل فيما بعد. كما لا يجوز أن ننسى أيضاً أمر الغزالي الذي كان في هذا الباب أستاذاً لا يُشق له غبار. فملحمته مع الفلسفة هي حقاً من عبر التاريخ. ففي هذه الملحمة كان صيال وكان نضال كاد يطاح فيه بالفلسفة لولا أن كان لها جولة أخرى في الأندلس على يد أعلام كبار من أعلامها كان أبرزهم ابن رشد. فقد جاء هذا الأخير بنقده ونقضه لكتابات الغزالي، فاشتد الصيال والنضال من جديد، وحمي وطيس القتال وعاد الكرّ والفرّ، وانجلى الصراع عن انتصار الفلسفة، ولكنه انتصار مكلوم أنهكه القتال وأثخنته الجروح.

وكثيرا ما كان العلماء العرب يرفضون الأخذ بنظريات جالينوس وبطلميوس وغيرهما لخطأ يجدونه فيها، ويبنون ذلك أما على تجاربهم

---

(١) المصدر السابق.

(٢) انظر كتابنا: من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية، صفحة ٣٢٠ - ٣٢٩. عويدات

(٣) وتفيد عبارة ابن خلدون الأخيرة أنه لا ينفرد وحده بهذا الرأي، بل هناك تيار من «المحققين» أدى بهم الاجتهاد والتمحيص إلى هذا الرأي أيضاً.

الشخصية أو على مجرد التفكير المنطقي . ولو أردنا استيفاء جميع الأمثلة المتوفرة لدينا لطال بنا المقام . لذلك سنكتفي بالقليل منها على أن نستفيض في هذا الموضوع في كتاباتنا القادمة . وحسبنا المثلان التاليان اللذان يتحدى بهما طبيبان عربيان جالينوس ، وما أدراك ما جالينوس ، في ماضي الزمان وسابق العصر والأوان !

فقد انتقد ابن النفيس آراء جالينوس الخاصة بوظيفة الرئتين وتركيبهما ووظيفة الحويصلات الرئوية والأوعية الشعرية التي بين الشرايين والأوردة الرئوية والعروق الموصلة بين الرئة والقلب . فقد كان الاعتقاد السائد بين الأطباء قبل ابن النفيس أن الدم إنما يتولد في الكبد ومنه ينتقل إلى البُطين الأيمن في القلب ، ثم يسري بعد ذلك في العروق إلى مختلف البدن فيغذيها ، وان بعضه يدخل البُطين الأيسر من طريق مسام في الحجاب الحاجز ، فيمتزج بالهواء القادم من الرئتين . وكان هذا المزيج الذي يسري في الشرايين إلى مختلف أعضاء البدن يُسمى الروح الحيواني . هذه هي نظرية جالينوس التي استأثرت بأذهان العلماء والمفكرين أجيالاً طويلة ، وذلك كان مبلغ علمهم . فلما جاء ابن النفيس عارض هذه النظرية وانتقدها بشدة ، ولو كان صاحبها جالينوس الذي طبقت شهرته الآفاق . فقد أدرك ابن النفيس بثاقب نظره وبناء على دراساته السابقة للرئة والقلب ان عملية تنقية الدم إنما تحدث في الرئتين بسبب اختلاطه بالهواء الخارجي عند التنفس . فالدم ينساب من البطين الأيمن إلى الرئة حيث يمتزج بالهواء ويُنقّى ثم ينقل إلى البُطين الأيسر . وبذلك يكون ابن النفيس قد اكتشف لأول مرة ما يسمى بالدورة الدموية الصغرى قبل سرفيتوس الاسباني الذي تُنسب إليه في العادة بثلاثة قرون [١] .

وهناك طبيب آخر هو عبد اللطيف البغدادي ينتقد رأي جالينوس في تكوين الفك الأسفل . فقد كان هذا الطبيب ينتقل بطلابه إلى المقابر ليتحقق بنفسه من أشكال العظام . ولنستمع إليه يقول في ذلك :

---

(١) انظر كتابنا : المرجع في تاريخ العلوم عند العرب صفحة ٢٦٨ ـ ٢٧٤ .

« ومن عجيب ما شاهدناه أن جماعة ممن يتتابني في الطب وصلوا إلى كتاب التشريح ، فكان يعسر [على] أفهامهم وفهمهم ، لقصور القول عن العيان . فأخبرنا أن بالمقس تلاً فيه رمم كثيرة ، فخرجنا إليه ، فرأينا تلاً من رمم له مسافة طويلة يكاد يكون ترابه أقل من الموتى به . . . مشاهدنا من شكل العظام ومفاصلها وكيفية اتصالها وتناسبها وأوضاعها ما أفادنا علماً لا نستفيده من الكتب ، إما لأنها سكتت عنها ، أو لا يفي لفظها بالدلالة عليه ، أو يكون ما شاهدناه مخالفاً لما قيل فيها . والحسّ أقوى دليلاً من السمع . فان جالينوس ، وان كان في الدرجة العليا من التحري والتحفظ فيما يباشره ويحكيه ، فان الحس أصدق منه . . . فمن ذلك عظم الفك الأسفل . فان الكل قد أطبقوا على أنه عظمان بمفصل وثيق عند الحنك . وقولنا الكل إنما نعني به ها هنا جالينوس وحده . فانه هو الذي باشر التشريح وجعله دأبه ونصب عينيه ، وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا ، والباقي لم يخرج إلى لسان العرب .

« والذي شاهدناه من حال هذا العضو انه عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلاً . واعتبرناه ما شاء الله من المرات في أشخاص كثيرين تزيد على ألفي جمجمة ، بأصناف من الاعتبارات ، فلم نجده إلا عظماً واحداً من كل وجه . ثم اننا استعنا بجماعة مفترقة اعتبروه بحضرتنا وفي غيبتنا ، فلم يزيدوا على ما شاهدناه منه وحكيناه . وكذلك في أشياء غير هذه . ولئن مكنتنا المقادير بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكي بها ما شاهدناه وما علمناه من كتب جالينوس .

« ثم اني اعتبرت هذا العظم أيضاً بمدافن بوصير القديمة . . . فوجدته على ما حكيت : ليس فيه مفصل ولا درز . ومن شأن الدروز الخفية والمفاصل الوثيقة انها إذا تقادم عليها الزمان تظهر وتتفرق . وهذا الفك الأسفل لا يوجد في جميع أحواله إلا قطعة واحدة »[1] .

---

(١) نقلا عن (أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب) كلمة الدكتور عبد الكريم شحادة صفحة ٧٠٧ ـ ٧٠٨ .

تلك هي فقرة صغيرة في التشريح وردت عرضاً في كتاب (الافادة والاعتبار) الذي ألفه البغدادي في نهاية القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) .

كما ان كتب جالينوس التي ألفها في غير علم الطب كانت هي أيضاً عرضة لنقد شديد من قِبَل المسلمين . فالبيروني مثلاً ينتقد جالينوس لتصديقه خبر ملكة الحيّات التي إذا رآها امرؤ أو سمع فحيحها مات من فوره . يقول البيروني : « فليت شعري ! من أخبر بمكانها أو أخبر أمرها إذا كان المطلع عليها ميتاً ؟ » [١] .

وكما انتقد ابن النفيس والبغدادي جالينوس في ميدان الطب ، فقد انتقد ابن الهيثم نظرية بطلميوس واقليدس الخاصة بالابصار . ماذا أقول ؟ انه حتى الفكرة البسيطة التي تقوم عليها البصريات الحديثة وهي ان للضوء وجوداً مستقلاً ، لم تكن من الأمور المسلّم بها ، وما ذلك إلا لأن الضوء كان يعدّ عند القدماء شيئاً آلهياً له قدسيته وحرمته ، فلا يجوز للمرء أن يذكره إلا بخشوع . فان اقليدس وبطلميوس وغيرهما من أصحاب التعاليم اليونانيين متفقون على أن الابصار إنما يكون بشعاع يخرج من البصر ، وعلى أن هذا الشعاع يمتد على سموت خطوط مستقيمة ، أطرافها مجتمعة عند مركز البصر ، وعلى أن كل شعاع يدرك به مبصر من المبصرات فشكل جملته شكل مخروط ، رأسه مركز البصر ، وقاعدته سطح البصر . ويرفض ابن الهيثم هذه النظرية ، لأنه لم يكن ذلك الرجل الذي يؤخذ بالأسماء الكبيرة . وخلاصة نقده لها ان هذا الشعاع أما أن يكون جسماً (مادياً) أو لا . فان كان جسماً فاننا إذا نظرنا إلى السماء ورأينا الكواكب والنجوم فقد خرج من البصر جسم ملأما بين السماء والأرض دون أن ينقص من البصر شيء . وهذا كما يقول ابن الهيثم في غاية الاستحالة وفي غاية الشناعة . وان لم يكن جسماً فكيف أحسّ بعملية الابصار ، وكيف أحسّ بالمبصر ، إذ الاحساس لا يكون إلا للأجسام المادية ذات الحياة ؟ فالابصار إنما يكون بالبصر لا بالشعاع الذي

---

(١) نقلاً عن روزنتال : مناهج ، صفحة ١٥٠ .

يخرج من العين بزعمهم . كما ان ظاهرة الامتداد على السموت المستقيمة ، وظاهرة الانعكاس ، وظاهرة الانعطاف (الانكسار) ، تلك الظواهر التي درسها ابن الهيثم واستقصى حقائقها لأول مرة مما جعله مؤسس علم البصريات بالمعنى الحديث ، لا تتعلق بالشعاع الذي زعم المتقدمون أنه ينطلق من العين . وأخيراً لو كان الشعاع ينبعث من العين لا من الجسم المرئي لأمكننا أن نرى الأجسام في غياهب الظلام . فللضوء إذن وجود مستقل كسائر ارجسام الطبيعية ، سواء وُجدت العين المبصرة أم لم توجد . فالعين إنما هي جهاز مستقبل للضوء ، ولا يولده البتة [1] .

كذلك انتقد عالم اسلامي آخر مذهب بطلميوس في ثبات الأوج الشمسي ، وأقام الدليل على تبعيته لحركة المبادرة الاعتدالية ، واستنتج من ذلك أن معادلة الزمن تتغير تغيراً بطيئاً على مر الأجيال . انه البتاني من جهابذة علماء الهيئة المسلمين . كما أثبت البتاني - على عكس ما ذهب إليه بطلميوس - تغير القطر الزاوي الظاهري للشمس ، واحتمال حدوث الكسوف الحلقي . لقد اشتغل البتاني بتحقيق مواقع كثير من النجوم وتصحيح أرصاد القدماء فيها ، أما لارتكابهم خطأً في إجراء هذه الأرصاد ، أو لأن مواقع النجوم نفسها قد تغيرت بالنسبة إلى الأرض . فقد صحح البتاني تقدير بطلميوس لحركة المبادرة الاعتدالية وضبطه بدقة ، كما صحح قيمة مَيْل فلك البروج على فلك معدل النهار ، وجملة أخرى من حركات القمر والكواكب السيارة . وله أرصاد جليلة للخسوف والكسوف اعتمد عليها دنتورن Dunthorne سنة ١٧٤٩ في تحديده لتسارع القمر في حركته خلال قرن من الزمان . والبتاني فضلاً عن ذلك أبو علم المثلثات [2] .

لقد ذهب كثير من علماء الفلك المسلمين إلى حد رفض الأسس التي قام عليها الفلك البطلميوسي (كالأفلاك الخارجة المراكز وافلاك التدوير . . .) وإقامة نظرية فلكية جديدة شاملة . وهذا ما فعله البطروجي

---

(١) انظر كتابنا : المرجع ، صفحة ٣٢٧ - ٣٤١ .
(٢) انظر تفاصيل ذلك في كتابنا : المرجع، صفحة ٤٠٢ - ٤٠٦ .

الأندلسي في القرن الثاني عشر الميلادي . فقد جاء بنظرية معارضة للفلك البطلميوسي ، لكن محاولته لم تكن موفقة من الناحية الرياضية . فان علماء الأندلس ظلوا متخلفين في علم الفلك عن علماء المشرق ، وفي مقدمتهم نصير الدين الطوسي . ففي سنة ١٨٩٣ نشر المستشرق الفرنسي البارون كارادي ڤو بحثاً عن هذا الأخير عرض فيه لنظرية جديدة صاغها الطوسي في (تذكرته) لحركات القمر والزهرة والمريخ والمشتري وزحل . وعلى الرغم من أن الهيئة التي اقترحها الطوسي مخالفة لما جاء في كتاب المجسطي فان كارادي ڤو قد شكك في أهميتها وزعم أن غايتها إنما هي الحفاظ على المبادىء العامة التي جاء بها كتاب بطلميوس ، ولا سيما المبدأ القائل بانتظام الحركات السماوية جميعاً . وكان بعض فروض بطلميوس قد أخلّ بهذا المبدأ . ومع ذلك فان كارا دي ڤو في هذا البحث يبدي إعجابه بما في محاولة الطوسي من اتجاه نقدي في التفكير ، ولكنه لم يفته أن يعرب أيضاً عن خيبة أمله في هذه المحاولة التي ظلت رغم جرأتها حبيسة النظام البطلميوسي ومبادئه الأساسية . ومنذئذ أهملت نظرية الطوسي فلم يُقبل على دراستها أحد من المؤرخين ، إلى أن تغير الوضع تغيراً تاماً بعد سنة ١٩٥٧ نتيجة لاكتشافات جديدة قام بها روبرتس وكنيدي . ومؤدى هذه الاكتشافات أن نظرية الطوسي إنما كانت بداية لمحاولات مماثلة قام بها زملاؤه العاملون معه في مرصد المراغة (كقطب الدين الشيرازي مثلاً) واستأنفها بعدهم ابن الشاطر في دمشق . وكان الهدف من هذه المحاولات تعميم الهيئة التي اقترحها الطوسي بحيث تشمل سائر الكواكب السيارة ، إلى أن وُفق ابن الشاطر إلى تتويج هذه المحاولات بصياغة هيئة جديدة لحركات عطارد . وبذلك أصبح من الممكن لأول مرة تفسير حركات الكواكب السيارة جميعاً دون الخروج على مبدأ الحركة الدائرية المنتظمة . ولكن الكشف الذي فاجأ المشتغلين بعلم الفلك هو الشبه الكبير بين هيئة ابن الشاطر وهيئة كوبرنيقوس ، وبخاصة فيما يتصل بحركات عطارد ، هذا بالاضافة إلى استعمال كوبرنيقوس نفس الحيلة الهندسية التي استنبطها الطوسي واستخدمها في هيئته الجديدة [1] . وقد أورد ابن الشاطر

---

(١) انظر (أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب) ، كلمة د . عبد الحميد صبرة ،

اكتشافه الجديد في الزيج المعروف باسمه (زيج ابن الشاطر) . والفرق الوحيد بين نظرية كوبرنيقوس ونظرية ابن الشاطر أن كوبرنيقوس جعل الشمس مركز العالم بدلاً من الأرض . ولا أهمية لذلك قط من الوجهة الرياضية المحض . وقد اعترف الرئيس البولوني السابق هنريك بابلونسكي ـ مواطن كوبرنيقوس ـ باستفادة هذا الأخير من ابن الشاطر وأخذه عنه ، وذلك في أثناء زيارته التي قام بها لسوريا لحضور حفلة تبادل الهدايا ، إذ قدم الرئيس البولوني تمثالاً نصفياً لكوبرنيقوس وهو يقول بأن هناك عالماً دمشقياً وهو ابن الشاطر ، وآخر البتّاني ، كان لهما دور كبير في آراء كوبرنيقوس الفلكية ، وكان برفقته آنذاك عميد معهد الدراسات العربية في بولونيا . وقد اختصر (زيج ابن الشاطر) محمد بن عبد الرحيم المخللاتي وسماه (نزهة الناظر باختصار ابن الشاطر) .

حتى نظرية ثبات الأرض في مركزها لم تسلم هي أيضاً من نقد العلماء العرب المسلمين . إذ لا يزال الكثيرون يعتقدون أن العرب كانوا يذهبون إلى أن الأرض ثابتة مستقرة في مركز العالم . ألم يقل بطلميوس بثبات الأرض لذلك كان لا بد للعرب ـ بزعمهم ـ من ترديد قوله دونما تحقيق أو تدقيق .

لكن لا . فالبيروني ـ هذا الرجل الفذ الذي لا يؤخذ بالأسماء الكبيرة ـ يقول في كتابه (تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة في العقل أو مرذولة) : « ان الأرض متحركة حركة الرحى على محورها » . وقد وردت حكاية تشير إلى ذلك أيضاً حدثت في مجلس السلطان مسعود ، الذي ارتاع لقول البيروني بحركة الأرض فأمره بالسكوت وعدم تكرار أمثال هذه الأقاويل . كما قال بحركة الأرض على محورها العالم الرياضي المشهور أبو سعيد السجزي (أو السجستاني) من رجال النصف الثاني من القرن الرابع للهجرة . فقد ذكر أبو علي حسن المراكشي ، من علماء القرن السابع الهجري ، في كتابه (جامع المبادىء والغايات) ، هذا النص نقلاً عن البيروني، وذلك في معرض وصفه

= صفحة ٧٠ وما بعدها . وانظر أيضاً (مجلة تاريخ العلوم العربية) المجلد الرابع العدد الأول مقال الدكتور جورج صليبا صفحة ٣ ـ ١٨ .

للاصطرلاب الزورقي : « قال أبو الريحان البيروني إن مستنبط هذا الاصطرلاب هو أبو سعيد السجزي ، وهو مبني على أن الأرض متحركة ، والفلك بما فيه السبع السيارة ثابت » . فالاصطرلاب الزورقي هو إذن ثورة في صناعة الاصطرلابات ، لأنه ليس كسائر الاصطرلابات الأخرى المصممة على أساس أن الأرض مستقرة ثابتة في مركزها ، وإنما هو اصطرلاب من طراز جديد مصمم على أساس أن صاحبه يخامره الشك في نظرية القدماء ، لوجود دلائل عنده توحي بعكس ذلك ، ولهذا فرض الحركة واخترع الجهاز الخاص للوقوف على حقيقة أمرها .

ويبدو أن القول بدوران الأرض على نفسها لم يكن محصوراً بين أفراد قلائل من العرب ، بل لقد كان منتشراً على نطاق أوسع من نطاق الأفراد ، وكان موضع جدل كبير بين الناس ، دون أن تصل إلينا تفاصيل وافية عنه . فقد أشار ضياء الدين الجويني الملقب بامام الحرمين في كتابه (الشامل في أصول الدين) **أن هناك قوماً زعموا أن الأرض كرة متتابعة الدوران . . .** وأعلن رفضه لهذه الفكرة قائلاً إن لديه أدلة على بطلانها . ولئن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل على أن من علماء العرب من كان يخالف بطلميوس في تصوره الأرض ثابتة في مركز العالم ، وكان لهذا الفريق رأي مستقل عن الفلكي اليوناني ، حتى لقد كان ذلك موضع استهجان من المقلدين اتباع كل ناعق ، وكثيرٌ ما هم !

ولم يكن البيروني بدْعاً من علماء الفلك (أو الهيئة) المسلمين ، بل لقد كان وجهاً من وجوههم . فعلم في مستوى علم الفلك لا يقوم على مجهود شخصي واحد أو بضعة أشخاص كأولئك الذين أسلفنا ذكرهم ، بل لا بدّ له في جهاز كامل من المواهب والآلات والأدوات ، لا بدّ له من أجيال متعاقبة من العلماء والنظار والمفكرين ، من أصحاب الخيال الواسع ، والعقل المبدع ، والبصيرة النافذة ، والتعليل الصحيح ، والوصف السليم ، والأيدي الخبيرة المجربة ، والأنامل الطيّعة الدقيقة ، والقريحة الرياضية الخصبة المتدفقة . وهكذا الحال في سائر علوم المسلمين . فما ينطبق على علم منها ينطبق عليها جميعاً . وإلا فلا كان علم ، ولا كان فكر ولا

كانت دولة ولا كانت حضارة [1] .



هذا ولم يكن نقد العرب محصوراً في علوم الدين والمادة ، بل لقد امتد هذا النقد أيضاً إلى علوم الانسان وفلسفة التاريخ والحضارة . فالتاريخ لم يصبح علماً إلّا على أيدي العرب والمسلمين ، وكذلك علم الاجتماع . فقد انتقد ابن خلدون الطرق القديمة في كتابة التاريخ ، وقام بمحاولة فذة رائدة في فهم التاريخ وتحليل أحداثه وردها إلى عللها وأسبابها القريبة والبعيدة . أي أن التاريخ عنده لم يعد سَرداً للحوادث بل لقد أصبح تعليلاً لها . وهذا بيت القصيد في كل علم : التعليل . فهو أول من قال بأن التاريخ علم كسائر العلوم الأخرى ، له موضوعه ومنهجه الذي ينتهي به إلى طائفة من القوانين العامة يمكن بها تفسير الأحداث البشرية تفسيراً علمياً يرد كل حدث إلى أسبابه وعوامله . والتاريخ بحاجة إلى علم الاجتماع (أو علم العمران كما يسميه ابن خلدون) وبانعدامه يبقى التاريخ مجموعة من القصص والأساطير يغذيها الخيال والهوى وولوع النفس بكل عجيب وغريب . إذ حقيقة التاريخ عنده أنه خبر عن الاجتماع الانساني الذي هو عمران العالم ، وما يعرض لذلك العمران من الأحوال ، كالتوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض ، وما ينشأ عن ذلك من الملك . والدول ومراتبها ، وما ينتحله البشر بأعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع ، وسائر ما يحدث في ذلك العمران . ولذلك فان ابن خلدون هو أول رجل عرفه الفكر الانساني وصل إلى القمة في دراسة الظاهرة التاريخية ـ الاجتماعية دراسة علمية منهجية . فالاجتماع الانساني له قوانينه كما للتاريخ قوانينه ، وكما للطبيعة قوانينها ونواميسها . فليس الأمر فوضى متروكة للصدفة والارتجال ، وإنما كل شيء يجري بقدر . وابن خلدون هو كذلك أول من أخرج الأبحاث الاقتصادية من نطاق التصورات المثالية والنصائح العملية والمناقشات الفقهية والدينية والطوباوية إلى ميدان البحث العلمي

(١) انظر كتابنا : المرجع ، صفحة ٤١١ ـ ٤١٣ .

الجاد ، في وقت لم يكن في حسبان أحد أنها تخضع لنفس القوانين التي تخضع لها سائر الظواهر والأشياء . ولم يبدأ العلماء بالكشف عن هذه القوانين وتدوينها قبل النصف الأخير من القرن الثامن عشر. وهنا تظهر أصالة ابن خلدون الطُلّعة الرائد السبّاق . . .

ولا يمكنني بطبيعة الحال أن أستطرد أكثر من ذلك في إيراد الأمثلة والشواهد التي تثبت رسوخ الروح النقدي عند العرب والمسلمين وتدفع تهمة التقليد عنهم . فهذه جولة أفق سريعة لعلها تكون كافية لتوكيد أصالة العرب وقدرتهم على الابداع والتفوق في جميع الميادين التي اقتحموها ، على أن ندخل في التفاصيل في موضع آخر . فقد تلقوا دائرة المعارف القديمة وهضموها وأخرجوها لنا ثمرات يانعة وقطوفاً دانية طيبة الأكل مختلفة المذاق .



إن العرب ـ على جهلهم باللغة اليونانية ـ نبغوا في ثقافاتها وعلومها . والروم والسريان ـ على معرفتهم بها ـ لم يرعوها حق رعايتها ولم ينجبوا حصيفاً واحداً فيها ، اللهم إلا بعد لقائهم بالعرب وتفاعلهم بالأجواء التي جاء بها العرب ، أما قبل ذلك فقد قصّروا وتخلّفوا . إنهم لم يكونوا أبداً في مستوى اللغة التي ينطقون بها ، والحدث الكبير الذي أقحموا فيه دون أن يكون لهم فيه ناقة ولا بعير . لقد كانوا أقزاماً في اهاب الجبابرة !!!

والفرس ، وما أدراك ما الفرس ! إنهم هم أيضاً لهم مأساتهم . فهم رغم اتساع امبراطوريتهم قبل الاسلام وما كانت تتمتع به من ازدهار ورخاء ، ورغم اقتباسهم عن الأغارقة والهنود والحضارات المجاورة لهم أو البعيدة عنهم ، « فانه لم يُتح لحضارة تلك البلاد أن تصبح حضارة مبتكرة مؤثرة إلا في جو عقلي آخر ، وفي ثنايا حضارة ثانية أنجح ، هي الحضارة العربية »[1] الاسلامية ، لما جاءت به من حلول ووضعته من أنظمة ، ولما كانت تنطوي عليه من مبادىء ومُثُل وقيم وأهداف ، أي لما كانت تحمل من أفكار وتبشّر به من أفكار انهارت أمامها الأفكار الأخرى . انها معارك

(١) زيغريد هونكه : شمس العرب تسطع على الغرب ، صفحة ٣٥٥ .

الأفكار . فبالأفكار إنما تُصنع الشعوب . . . إن حضارة فارس لم تنجب قبل الاسلام رجالاً أفذاذاً كالرازي وابن سينا والغزالي وغيرهم ممن ينتمون إلى الأصل الفارسي . كلا . فان أمثال هؤلاء ـ وما أكثرهم ! ـ لم يبرزوا إلا في ظل الاسلام ، وفي جو لقاء العروبة بالاسلام ، وفي الحضارة الجديدة التي تفاعلت فيها طاقات اعتنقت الاسلام ، وأفادت من الفرص التي أتاحتها الحياة في بلاد الاسلام ، وسارت في ركب الاسلام .

فعلام يدل كل هذا ؟ أو لا يدل على أصالة الاسلام ـ بالمعنى الحضاري لا الديني ـ وعلى أنه هو الذي اكتشف المواهب والطاقات ، وأعطى للأصالة العربية الاسلامية ـ التي وجدت فيه هويتها ـ مضمونها الكامل وصيغتها الفريدة ؟

فإذا لم يكن في جميع الشواهد التي أتينا على ذكرها ما يكفي لحمل أولئك الذين يشككون في الأصالة العربية الاسلامية على الايمان بها ، فبأي حديث بعد ذلك يؤمنون؟

الفصل الرابع

أنماط من التطور لا نمط واحد

الأوربي هو الأوربي ، لا يتغير ولا يتبدل . ان ثروته العلمية هائلة ، ولكن عقله متخلف عن علمه . فبينا نراه يعطي دروساً فائقة في الموضوعية والرصانة والاتزان في الحكم والرأي ، إذا به في حالات أخرى يتخلع عن غريزة العقلاء ويطرح حكم المعقول . فهو عندما يعالج ظواهر الطبيعة ونواميس الأشياء يبدي من التجرد والموضوعية ما يثير الاعجاب . لكنه عندما يعالج قضايا الانسان وشؤون المجتمعات يتذبذب بين إصابة الرأي والتجني في الحكم . وكلما كان المجتمع الذي ينكب بدراسة هذا الأوربي له بعيداً عن نمط الحياة الأوربية وفلسفتها السياسية وجوها الديني والاجتماعي ، جار عن القصد وركب متن الهوى ، والتمس العلل والتعلاّت لاثبات تفوقه وحقه في البقاء دون سائر العالمين . انه يتلقى جراثيم الكبرياء في الجو المنزلي منذ نعومة أظفاره ، وفيه يتكون تصوره للعالم وللانسانية . ثم يدخل المدرسة التي تؤجج شعوره بالتعالي والجبروت . ثم يخرج إلى المجتمع الذي يُذكي فيه هذا الشعور ويضيف إليه شحنات جديدة . لقد قضي الأمر وسُدّت جميع المنافذ . لقد انتهى كل شيء . لقد تكونت الحجب والأسوار حول شغاف نفسه وأصبحت عملية الاقتحام أمراً دونه خرط القتاد .

هذا الأوربي - ما عدا نفراً من المخلصين الذين استطاعت بعض الحقائق الدامغة أن تجد ثغرة في نفوسهم التي لم تستكمل حُجبها وأسوارها لأسباب غير معروفة ، وقليل ما هم !- هذا الأوربي عندما يعالج قضايا الشرق ، وخاصة ما يتعلق منها بالعرب والمسلمين يُطلّ عليها من صياصيه العالية ويتناولها بعقلية المتجبر المتكبر الذي لا شريك له في ملكه ولا معقب لحكمه . فلا عملاق إلا هو ، وكل من عداه أقزام صغار !

ولقد أصبح حديثاً معاداً الالحاح على شعور الصلف والتعاظم الذي

يملأ حياة الأوربي وعدم ثقته بكل ما هو غير أوربي ، ثم بكل ما لا يمتّ إلى التراث المسيحي والتراث اليهودي المسيحي بصلة القربى والنسب . مسكينة هذه المسيحية التي نُكبت به ! فبدلاً من أن تحتويه هذه الديانة الشرقية السامية وتقلّم أظفاره فقد بادر هو إلى احتوائها وتسخيرها لأطماعه وغاياته؛هذا عندما اشتد عوده ، أما قبل ذلك فقد دغدغته بالرؤى الطوباوية وملأته بالمشاعر الملكوتية ، حتى لقد ظن أن الله لا عمل له إلا رعاية ابن كنيسته البار والسهر عليه ، وان أم الرب لن تتخلى عنه وستظل تكلؤه بعينيها . . . وعندما خرج إلى العالم الواسع الكبير ، ورأى أن هناك ديانات كثيرة غير ديانته ، وأقواماً غير قومه ، وان الله له شؤون أخرى غير رعاية أخينا هذا ، عاد إلى رشده ، ولا سيما بعد أن تهاوت عليه الضربات تلو الضربات واستيقن أن السماء قد خذلته ، فتمرد على الكنيسة التي أغرقته بالوعود وتولى منذئذ مقاليد أمره بنفسه . فلن يعتمد بعد اليوم إلا على ذاته . لقد أدرك قبل فوات الأوان أنه وحيد في هذا العالم وان السماء لن تغني عنه شيئا . وهنا بدأت عملية الاحتواء التاريخية دون أن يتخلى مع ذلك عن الاعتزاز بانتمائه المسيحي الذي لن يكلفه بعد اليوم شيئاً البتة . ان المسيحية قد خلقت للشرق لا للغرب . فقد أساءت أوربا كثيراً إلى المسيحية وأفسدتها كشأنها دائماً ، حتى أن كلمة (مسيحية) وكلمة (استعمار) أصبحتا تعنيان شيئاً واحداً في نظر كثير من الشعوب . هذه هي أوربا التي ما دخلت أرضاً إلا أفسدتها . حتى الدين لم يسلم من تخريبها فاتخذته غطاء لمآثمها واعتداءاتها ، فلا تدخل بلداً إلا حملت الصليب بيد والخنجر باليد الأخرى . وما كان أحراها ـ وأمرها كذلك ـ أن تعتنق اليهودية . فهي ديانة جشع واستعلاء وعنصرية بطبيعتها وبحكم نصوصها « المقدسة » ! وعندئذ سيوافق شنّ طبقة . أما ان تعتنق أوربا المسيحية فهذا من مهازل التاريخ .



فلا غرو بعد ذلك أن الاوربي كلما وقع على أشياء إيجابيه مهمة في التراث العربي الاسلامي تستحق التنويه ، راغ وزاغ مأخوذاً بنشوة القوة والخيلاء ، ثم مضى كدأبه في متاهات التحليل والتعليل ، ببراءة رجل العلم ، ودهاء رجل السياسة ، وجشع رجل المال والأعمال . ولا يزال يداور

ويوارب حتى يجهز على الضحية أو يكاد . كيف لا وهذه الضحية تنتمي إلى عصر غير العصر الذي ينتمي إليه مارد أوربا الجبار ، وإلى دين غير دينه ، وبيئة غير بيئته وجنس غير جنسه ، وإلى أفكار ومفاهيم ومبادىء غير أفكاره ومفاهيمه ومبادئه ؟ فأين الجامع بينهما وأين القاسم المشترك ؟ هل يستويان ؟ فليُسخر العلم والمنطق لاحقاق الباطل الاوربي ، وإزهاق الحق الشرقي الاسلامي العربي . وهكذا تكون رسالة القلم قد أكملت « رسالة » السيف ، وتوج الفكر دوي المدفع !

أجل ، إن الاستعلاء دأب الأوربي ، وديدنه استحقار الآخرين بابتزازهم واستغلالهم ، ونهب ثرواتهم وخيرات بلادهم . وإذا أظهر بعض « الحب » و « الرفق » فإنما هو « حب » صاحب المزرعة لمزرعته، أو « رفق » ـ ولنقلها بصراحة ـ الجزار بنعاجه وهو يسوقها إلى المسلخ . طلاء رقيق جداً من المدنية تحته مخالب الذئاب . هذا هو وجه أوربا (ووليدتها أمريكا) الحقيقي ، وهو كما نرى وجه كالح ، ولكنه وجه كثير البهارج والأصباغ ، فلا نخدعنّ بظواهر الأشياء . لا مبادىء ولا مثل ولا قيم ، اللهم إلا مبدأ القوة وشريعة الغاب . وما حرب الأفيون في الصين ، وحرب الابادة في فيتنام ، وزرع إسرائيل في قلب الوطن العربي ـ ما كل أولئك وكثير غيره ، أمره عنا ببعيد .



هجوم مستمر لا ينقطع على من كانوا سدنة العلم والحضارة في عصور الظلام الأوربي ، عصور التعصب الديني الذميم . الاسلام عدو الحضارة ، والعرب همج مخربون حاربوا الفكر والعلم وحرية الرأي ، ونشروا دينهم بالتسلط والقهر وحد السيف . أما حملات التنصير التي شنّت على البقية الباقية من العرب المسلمين بعد سقوط غرناطة وانهيار دولة الاسلام بالأندلس ، وإرغامهم على ترك لغتهم وآدابهم وعاداتهم ، وتعريضهم للاعدام والمصادرة لأقل التهم وعدم الاخلاص للنصرانية ، ونفي هؤلاء المشكوك في دينهم من الأراضي الاسبانية أخيراً بعد نحو قرن من الاستشهاد المؤسي ـ أقول أما كل أولئك فاشعاع وتقدم وخدمة لقضية الحرية

والحضارة !

الأوربي عملاق منذ كان هباءً في ضمير الغيب لم يخرج بعد إلى حيز الوجود . وهو كذلك الآن وفي المستقبل . انه عملاق أزلاً وأبداً . انه فذ حتى قبل أن يوجد وبعد أن يزول . هكذا كان ، وهكذا سيكون هو وذريته وأصلابه وأحفاده وأسباطه إلى أبد الآبدين ودهر الداهرين ! انه قُدّ من طينة غير طينة الشرقيين ، ولا سيما إذا كانت طينة عربية إسلامية هي دائماً عبء على التقدم وعلى الحضارة ، ولا تصلح إلا للأغراض العملية التافهة . ومن هنا استجاز الاوربي لنفسه استرفاق أبناء الطينة الأخرى واستعبادهم وفرض وصايته عليهم .

منطق غريب حقاً لا يُقصد به إلا التشكيك في تراثنا الغني الزاخر بالقيم والعطاء . ان التشكيك لا يجدي - بزعمهم - كما تجدي في هذه الأيام التي بدأت فيها طلائع القوة العربية تصاعد ، والمجتمع العربي يزداد تفتحاً ، ورياح التغيير تهبّ عليه لتطيح بمعاقل الاستعمار والصهيونية ، ويستوعب الثورة العلمية والتكنولوجية الراهنة في أصول عملها وآفاق تطورها ، ويعيد إليها ما فاتها من مُثل الشرق وقيم العروبة ومبادىء الاسلام والمسيحية .

المسيحية التي ينتسبون إليها زوراً وبهتاناً إنما هي عطاء شرقي لم ينشأ في الغرب بل في منطقة قريبة جداً من المنطقة التي نشأ فيها الاسلام ، وعلى يد جماعة من الناس هم أقرب نسباً بالعرب منهم بالاوربيين . تُرى ، هل نسوا ذلك أم لعلهم تناسوه بحُكم حق الأقوى حفاظاً على هيبته وصولته وليجول في المنطقة كما يشاء ويهوى ؟ انه خبث القوة تنسى ما تريد وتتذكر ما تريد .

إن من يعيش في أجواء الفكر الاوربي ويقرأ صحفه ومجلاته وما تنشره وسائل إعلاه ن العرب والمسلمين بخاصة والشرقيين - وفيهم المسيحيون - بعامة ، يصعق لما يجده فيها من الانتقاص المستمر لكفاءات هؤلاء ومواهبهم ، ويُحسّ من خلال تلك الكتابات كأن العرب دخلاء على العلم والحضارة ، غرباء على التاريخ يطرقون به الآن أبوابه . وهيهات أن تفتح لهم . وإذا قدّر لها أن تفتح فبفضل الغرْب ، وعلم الغرب ، وحضارة الغرب ! ورغم ذلك فلن يلحقوا بركب الغرب . فالاعلام الغربي لا يني

ولا ينثني عن أن يوحي إليهم شعوراً بالضياع يُفقدهم الأمل والثقة بالذات لتخلو له الساحة إلى الأبد . أوَليس الأوربيون هم صناع الحضارة وورثة أثينا وأبناء الجنس المختار ؟ فلا غضاضة علينا أن نستخذي ونستكين ونطيب نفساً بحكمهم ونرضى بوصايتهم .

يريدون ليسحقوا الشخصية العربية وليطمسوا التراث العربي ، وليطفئوا النور الذي طالما أضاء العالم ، يريدون ليوقفوا مسيرة التاريخ ، والتاريخ متمم مسيرته ولو كره المشككون . انهم ـ كعادتهم دائماً ـ يبرزون بعض النقائص والعيوب التي لا تخلو منها أمة من الأمم ويسلطون الأضواء عليها ، ليصرفوا الأنظار عن الفضائل والمزايا . وبشيء من الحذلقة والثرثرة والمكر السيء ، وببراعة النشال الذي يسلبك ما تطويه في دخيلة جيبك الغائرة ، أو أحد أطراف ثوبك وثناياه البعيدة عن العين والحس ، فإذا أنت أمام تاريخ شاحب ، وتراث هزيل ، وفكر ضحل ، وفلسفة تلفيقية ، وحضارة اتباعية ، وشخصية استسلامية . . . ولولا أن قُيِّض للعرب والمسلمين فئة قليلة مختارة من المستشرقين المشهود لهم بالعلم والتجرد والنزاهة ، عرفوا بعد جهاد طويل فضل العرب ومزايا تراث العرب وحضارة العرب ، لبقيت ـ حتى يرث الله الأرض ومن عليها ـ الصورة الباهتة الشوهاء لبرابرة أجلاف متعصبين متعطشين للدماء ، يفرضون الاسلام بحد السيف ، أعداء للتطور والعلم والحضارة و . . . لقد طرأ بعض التعديل على هذه الصورة في كثير من دوائر الاستشراق ، ولكن ذلك لم يكن له أي تأثير يُذكر في الرأي العام الاوربي ووليده الأمريكي ، لأن هناك من يُلوّح له دائماً بالصورة القديمة البشعة التي لا تكاد يُمحى منها بعض السطور حتى يعاد كتابتها من جديد بوضوح أكبر . ولقد اتقنت الصهيونية وعملاؤها في الغرب هذه الأدوار أيّما اتقان .

ليس التجبر والصلف والاستعلاء صفات شخصية جبليّة في الأفراد ، ولا هي صفات طائفية خاصة بهذه المجموعة البشرية أو تلك ، بل هي صفات تاريخية تلازم دائماً بعض الأنظمة في بعض مراحل حياتها المتخمة بالمال والعتاد . والمثير حقاً أن هذه الصفات أشبه بالمرض النفسي الذي يوهم

صاحبه القوة بينما هذه القوة في طريقها إلى الزوال . فالقوة التي لا تدعمها بعض القيم والمبادىء لا تعمّر طويلاً ، بل لا تلبث أن تهتز وتترنح وتميد الأرض تحت أقدامها . هنا يضطر الامبريالي ـ حفاظاً على جسده وتشبثاً بالمغانم والأرزاق التي تنهال عليه كأفواه القِرَب حتى فسدت الروح ومات الضمير ـ ان يمارس الارهاب الفكري إذا لم يتمكن من الارهاب المادي ، ويعلن الحرب النفسية بعد إفلاس الحرب العسكرية . فيشنّ الحملات على أولئك الذين تجرأوا على مقارعته والرد على عربدته ، ويملأ الدنيا بالتخرصات والافتراءات . ان التقدم هدف كبير من أهداف الانسانية . انه وعي قومي وطموح حضاري . انه حق طبيعي لكل قادر على تحقيقه والدفاع عنه . ولكن الصلف والتجبر والاستعلاء آفات لا يهنأ لصاحبها عيش حتى يخنق كل وعي وطموح ، ويقضي على كل أمل في التقدم وكل ثقة بالذات . فيتصدى للتيار ويقف في وجه المد الزاحف دون أي اعتبار لقوى التاريخ ونواميس الاجتماع . ان درس الدروس وعبرة العبر هي أن الشعب الذي ينتفض بفعل القوى الداخلية والتحديات الخارجية ، ويسعى إلى التحرر وتطوير الذات ، وينفتح على منجزات العلم والحضارة ليستدرك ما فات ، ترعاه قيادة مخلصة واعية لا تخشى في الحق لومة لائم ، دأبها أن ترفعه إلى مستواها لا أن تهوي إلى حضيضه باسترضائه والتملق له طمعاً بأصواته في انتخابات لا معنى لها تجري على رمال متحركة ـ أقول إن هذا الشعب لا بد أن ينتصر في يوم من الأيام ، ولا سيما إذا تحول العلم عنده إلى إيديولوجية ملتزمة بقضايا الشعب وبالتطور الحضاري تعيد إليه أبعاده الجوهرية وكثافته التاريخية وعمقه الحضاري ، وتحقق له ذاته ومعنى وجوده .

إنني أعني هنا الشعب العربي الذي بدأ يستفيق في القرن الماضي في مسيرة يصل بها ما انقطع من مسيراته السابقة . لقد كانت له حتى الآن ثلاث مسيرات على الأقل تفصل بينها فترات زمنية قليلة نسبياً : مسيرة قبل الاسلام نجد شواهدها في النقوش والآثار التي عُثر عليها في اليمن والقسم الجنوبي من شبه الجزيرة العربية [1] ، والمسيرة التي حملت رسالة الاسلام إلى العالم

---

(١) بل في صميم هذه الجزيرة حسب التنقيبات الأخيرة .

وقد توقفت حوالى القرن الثالث عشر تقريباً ، وها هو الآن بعد بضعة قرون من الانحطاط والتخلف يتهيأ لجولة جديدة بدت طلائعه من خلال الغيوم والعواصف والأعاصير التي تسبق الغيث . هناك الكثير من الدلائل والامارات تشير إلى أنه على وشك أن يستأنف مسيرته الثالثة . وهذا لعمري شيء نادر جداً . إذ لم يحدث قط ـ على حد معرفتي ـ أن يكون لشعب واحد ثلاث مسيرات تفصل بينها فترات قصيرة كما حدث للشعب العربي ، هذا إذا صرفنا النظر أيضاً عن الموجات المتعاقبة التي انطلقت من الجزيرة العربية قبل الاسلام إلى بلاد الرافدين والشام ومصر وكانت لها الدول والآثار .

وأما سائر الشعوب فمنها من لم يبدأ مسيرته بعد كشعب جزيرة مدغشقر أو فُولتا العليا أو غيرهما من الشعوب التي يبدو أنها ليست في عجلة من أمرها . فالعجلة من الشيطان ، ومن تأنّى نال ما تمنّى ! والحق إنها مسألة تستحق الدراسة . ومنها من لم تكن له أكثر من مسيرة واحدة كالشعب اليوناني الذي يُضرب به المثل في المواهب الفنية والعقلية والرقي الثقافي والعطاء الحضاري . ولكن هذا الشعب لم يكد يبدأ مسيرته حتى خبا بريقه وذهبت ريحه وانطفأت جذوته . ومنها من كانت له مسيرتان ، لكن تفصل بينهما عشرات القرون كالشعب الصيني مثلاً . ومنها من لا يزال يحبو في أول مسيرة له وهو الآن في طريقه إلى الهاوية ، كالشعب الانكليزي الحديث العهد بالعلم والحضارة . . . ومن هنا تأتي عراقة الشعب العربي ذي المسيرات الثلاث . وهذا مما يوجب علينا حقاً التفاعل المبدع وتراثنا العظيم ، فنستوعب روائعه ونتجنب ما فيه من سقط المتاع ، ونتهيأ لغد مشرق عظيم . وان غداً لناظره قريب !



والمقصود من هذا الكتاب الاسهام في تخليص العرب والجيل الطالع على وجه الخصوص ـ من عُقد النقص والذنب التي يعانون منها وهم يتهيأون للوثوب ، بتعريفهم تراثهم وبتبديد شكوكهم بأنفسهم ، واطلاعهم على الطاقات العظيمة التي يذخر بها تاريخهم ، وتنبيههم إلى حملات الدسّ والتشكيك والتحريف والتشويه التي لا تزال تشنّ عليهم لأسباب شوفينية

استعمارية صهيونية مكشوفة حيناً ومستترة أحياناً ، لبث الوهن في البناء النفسي والأخلاقي للانسان العربي وتجريده من قيمه التراثية وهويته الحضارية ، بحيث يظل أسير هواجس ومشاعر متعددة : الدونية ، والحقارة ، والانسحاق ، والضياع ، والتطفل على الشعوب الحية ، والعيش على هامش التاريخ ، والاغتراب الحضاري . . . حملات لا تنقطع ومعزوفات مللنا من سماعها يكمن خطرها في تكرارها واستمرارها وعدم التوقف عن العربدة بها . فالغرب هو عدونا التاريخي ، عدونا اللدود الذي ينفث سمومه في كل اتجاه وصوب ، ليسدّ علينا جميع المنافذ والمسالك ويشل قدراتنا ويسومنا سوء المصير . ولم يزرع اسرائيل والصهيونية في هذه المنطقة إلا لتكون عينه الساهرة وذراعه الطويلة لتحقق أغراضه وتُنفذ ما دُبر بليل . فلنكن على يقظة من أمرنا .



بقيت هناك معزوفة لا يمكن التغاضي عنها آثرنا أن تعقد لها الفصل الأخير من هذا الكتاب الذي نريد أن نستنفد فيه جميع الوسائل التقليدية المتاحة للرد على حملات التشهير بالعرب والفكر العربي قبل مواجهتها في الكتاب التالي بسلاح السيكوسوسيوديناميكا . فكثير من الباحثين الغربيين يشتكون من « أن التفكير الاسلامي لم تكن له طفولة ، بل لقد برز [فجأة إلى حيز الوجود] في عنفوان المراهقة »[(١)] دون أن يمر بالمراحل المعيارية التي مر بها الفكر اليوناني أو الفكر الاوربي مثلاً . ويشكو آخرون من غموض بواكيره الأولى[(٢)] . وبالتالي فان الفكر الاسلامي لما لم تكن له طفولة ، ولما كانت بواكيره الأولى غير واضحة المعالم ، وبتعبير أدق أكثر صراحة ، لا بواكير له ، فانما هو فكر تراكمي تجميعي غير أصيل ، لا تلقائية له ولا ذاتية . لقد أتخمته الأفكار الخارجية فانتفخ وانتفخ كالاسفنجة تشربت الماء ، لا كالينبوع يتدفق منه الماء . والخلاصة انه وليد غير طبيعي بدأ حياته

---

(١) G. Quadri : La Philos. arabe dans l'Europe médiévale, P. 16

(٢) Encyclopédie de l'Islam, art. Kalam

في طور المراهقة !

ان هؤلاء الباحثين ليسوا علماء نفس بقدر ما هم مؤرخون ، أو قل هم علماء نفس على الطريقة الأميركية ، أي أنهم سلوكية من اتباع مدرسة واطسون . فخطؤهم انما يكمن دائماً في اخضاع الوقائع لنزعاتهم المذهبية الضيقة ، على حين ان العكس هو المطلوب في مثل هذه الأحوال . فهم على ما يبدو يتشككون في ذاتية الذات وينكرون عليها فعاليتها وتلقائيتها وآمالها ومطامحها وصراعها من اجل ان تتحقق وتكتمل ، وبخاصة إذا كانت هذه الذات غير أوربية ، أو لا تنتسب إلى الأوربيين بنوع من النَّسب وصلة القربى .

أجل لقد سلبوا هذه الذات ذاتيتها . لقد أفقدوها نبضها ودفئها ، فماذا عسى ان يبقى منها بعد ذلك ؟ وهكذا أصبحت موضوعاً . فهي في حسبانهم لا تنمو من الداخل كشأن الكائن الحي ، انها انما تنمو من الخارج بالتراكم والتجميع ، كما تفعل البلوريات والرواسب . وبذلك جمّدوا الفكر العربي وافقدوه أصالته وطاقاته الابداعية ومنازع الخلق فيه ، لا لشيء إلا لأنهم لم يكتشفوا بواكيره الأولى ، وإذن فهي غير موجودة أصلاً . فلا فرق عندهم بين الفكر العربي قبل الاسلام والفكر العربي وقد حمل رسالة الاسلام ، وكأنما الاسلام ظاهرة عابرة في تاريخ شبه الجزيرة العربي . وسنرى على ضوء السيكوسوسيوديناميكا كيف ان نواة التفكير الاسلامي والعربي قد تكونت بانتفاضة ابن الجزيرة العربية محمد بن عبد الله في أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للميلاد ، وذلك قبل ان تهبط على العرب بركات اللقاء اليوناني النصراني بزمان طويل : فالسيكوسوسيوديناميكا هي علم البدايات الأولى للتفكير - أيّ تفكير . وإذا أردنا ان نستبق النتائج قلنا بعبارة موجزة انه لولا ان التفكير العربي الاسلامي قد تكوَّن قبل اللقاء المبارك لما أثمر هذا اللقاء شيئاً ولما ترك أي أثر فيه البتة . فجميع كتب الدنيا لا تجدي من لم يكن كفؤاً لها .

هذا من جهة ومن جهة أخرى ، ماذا عسى ان يعني هؤلاء بكلمة (بداية) و(طفولة) و(بواكير)؟هل معناها ان كل جماعة كيما توصف آثارها

بان لها بداية وطفولة وبواكير لا بدَّ لها بالضرورة ان تمر بنفس المراحل النموذجية المثلى - بزعمهم - التي قد مرَّ بها اليونان ؟ هذا ما نحاول ان نبحثه الآن .



هناك في علم الاجتماع مصطلح هام يمسُّ موضوعنا يجب توضيحه أولاً قبل ان نجيب عن السؤال المذكور ، وهو كلمة (التطور أو النمو الطولي) développement linéaire ومعناها التزام المجتمع في حركة نموه وتطوره السير ضمن الخط العام للتطور ، أو على استقامة هذا الخط ، دون ان يحيد عنه يميناً أو شمالاً ، وبالتالي دون أن يطرأ أي تغيير نوعي على بنية هذا المجتمع الذي يسير في طريق النمو والتطور . أو قل ان النمو الطولي هو نمو أو تطور كمي لا تدخل فيه عناصر كيفية جديدة . ويقابله في علم الفيزياء (الحركة المتصلة ذات الخط المستقيم mouvement continu et rectiligne) وفي علم البيولوجيا (التكاثر المتصل للخلايا) حيث ينمو النسيج الحي بمجرد تكاثر الخلايا تكاثراً متصلاً prolifération continue des cellules دون ان ينتج عن ذلك أي تنظيم جديد في تكوينها لم يكن موجوداً من قبل . وهناك أمثلة عديدة في حقل البيولوجيا لهذا النوع من النمو . فنحن نجد أولاً عملية الاستغلاظ grossissement: فالخلية الفردة تستغلظ وتكبر من غير ان تنقسم على ذاتها أو أن يحدث أي تبدل في طبيعتها . وهناك أيضاً ما هو أكثر تعقيداً ، وهو التكاثر بالانشطار prolifération par scissiparité : فالخلية وهي تستغلظ تنقسم بشطرين ، وهكذا دواليك إلى غير نهاية ، دون حصول أي تغيير في نمط نموها ، وذلك كما هو حال النسيج الضام tissu conjonctif مثلاً . ثم هناك الانشعاب والتفرع ramification وهو ما يحصل في عالم النبات ، أي ان تكاثر الخلايا يسير هنا في اتجاهات متعددة متباينة كأفرُع الشجرة تضرب في الهواء في كل اتجاه . وهناك أخيراً أنماط من التكاثر تكون مصحوبة بعملية تغاير وافتراق différenciation أي ان الانشطار هنا نشأ عنه خلايا ليست متشابهة كل التشابه ، وإنما يكون بينها فروق تنتهي بظهور انسجة متباينة يختلف بعضها عن بعض (كالنسيج العضلي ، والنسيج

العصبي الخ) وينشأ عنها جنين انسان أو حيوان مثلاً .

ومع انه يجب علينا في علم الاجتماع ان نتحرز من الاسراف في التشبيهات والمقارنات المأخوذة من علم الحياة ، إلا انه لا بأس من تكوين فكرة عامة عن النمو (أو التطور) الطولي (أو الخطّي) في الميدان الاجتماعي . فاذا نظرنا الى حضارة زراعية صرف تستخدم أدوات بدائية ، وجدنا ان نمو السكان فيها يخلق شيئاً فشيئاً قرى جديدة أو مزارع جديدة،لكن هذه القرى والمزارع تظل كلها متشابهة فيما بينها تشابهاً تاماً . هذا نمط نموذجي من التطور الطولي في الميدان الاجتماعي . فهو اذن عملية كمية صرف مصحوبة بزيادة في النمو لا يرافقها أي تغيير كيفي (نوعي) . انه توالٍ متصل واطراد مستمر في اتجاه واحد أو أكثر لا تحوير فيه ولا تبديل .

●

والآن يحق لنا ان نتساءل : كيف يكون سير الأمم والحضارات ؟ هل هي تسير طولياً أم على نمط آخر ؟ وهل هناك طريق واحد فقط للتطور ونشوء الأمم لا بد من السير عليه أم هناك طرائق متعددة ؟ وما هو السير النموذجي الأمثل ؟

الواقع ان النمو الطولي هو نمو كمّي آلي بسيط لا وجود له إلا في المجتمعات البشرية في أطوارها الأولى . لكن ما ان تبلغ هذه المجتمعات مرحلة معينة من التنظيم حتى يتحول الكم إلى كيف ، وحتى تتعرج بها الخطوط وتتعقد المسيرة . وهنا تبدأ الفروق بينها وبين غيرها من الأمم والشعوب . ان أقلَّ خروج عن الخط يُعقد السير . وكل تعقيد من شأنه ان يجر إلى تعقيد آخر . وهلم جرًّا . فرُبَّ عامل ليس في الحسبان يطرأ على المسيرة في أي وقت من الأوقات ، فينقلب كل شيء ويتغير مجرى الحوادث تغيراً تاماً . بل هذا ما هو حاصل بالفعل . بل ان أكثر من عامل واحد يتدخل في المسيرة فتنقلب المعادلات جميعاً ويعاد التنظيم من جديد . لذلك يمكن القول ان الجماعات في تطورها يندر ان تسلك طريقاً واحداً مستقيماً لا ترى فيه عوجاً ولا أمْتاً ، مهما كانت درجة الركود والاستقرار فيها . بل كثيراً ما يحدث ارتباك وفوضى تقلب جميع الأوضاع ، وعندئذ يعمد المجتمع

إلى تنظيم قواه من جديد واعادة النظر فيها . لكن المجتمعات الراقية المعقدة تتعدد فيها المسارات وتتشابك الطرق وتتنوع المسالك والمناهج ، بحيث اننا لا نجد أبداً مسارين متشابهين أو طريقين متماثلين . فالمسارات والطرق والمناهج تختلف باختلاف الأفراد (والجماعات) وتتفاوت بتفاوت الظروف الجغرافية والتاريخية والسياسية والاجتماعية ، وبحسب تجارب الأمم والشعوب ومبلغها من العلم والفكر والحضارة .

ولا يقتصر هذا على تاريخ المجتمعات ، بل انه ليشمل أيضاً تاريخ الأفكار . ولنضرب على ذلك مثلاً نأخذه من تاريخ الفلسفة. فكثيرون يعتقدون ـ نتيجة لخضوعهم لتأثير فكرة التطور الطولي ـ ان كل شيء يجري في خط ثابت من التتابع السببي والتسلسل العِلّي ، سواء في ميدان الأشياء أو في مجال الأفكار . اننا نظن مثلاً ان فلسفة افلاطون انما هي نتيجة لفلسفة سقراط وعلة لفلسفة أرسطو ، وان فلسفة اسبينوزا هي كذلك نتيجة لفلسفة ديكارت لا لأي شيء آخر . . . ولكن هذه العلة الطولية التي لا نرى في العادة غيرها ، تصاحبها في نفس الوقت ، وربما بنفس المقدار ، علة عرضية أو أفقية إذا جاز التعبير ، بمعنى ان الحوادث الانسانية ـ ولا تخرج الأفكار عن كونها حوادث انسانية هي أيضاً ـ ليست دائماً ثمرة الظروف السابقة لها التي تنحصر في ميدان واحد بعينه ، وانما هي أيضاً نتيجة الظروف المحيطة بها المتصلة بميادين أخرى . وهكذا تختلط الأسباب بالمسببات وتتشابك العلل بالمعلولات ، ويكتمل الطولي بالأفقي ، حتى لكادت تنطمس الحدود وتزول المعالم ، وأصبح من الصعب إيجاد صيغة تعبر عن فردية الأفكار دون أن تضحي بشموليتها وتداخلها بعضها ببعض ، وتفاعل بعضها ببعض . ولعل فلسفة أفلاطون لم تتأثر بسقراط كما تأثرت بالتطور العام السياسي والاجتماعي والثقافي في عصره ، كالخطب التي سمعها في ساحات أثينا ، والتمثيليات التي شهدها في مسارحها ، والصور والمنحوتات التي رآها في معابدها وميادينها . ولعل أرسطو قد اصطبغ تفكيره بصحبة أصدقائه في مقدونيا أكثر منه بأستاذه في الأكاديمية .

هذا مثل بسيط على سذاجة النظرة الطولية والتطور الطولي والتفكير

الطولي . فالأفكار والآراء والمذاهب والمبادىء والحضارات لا يتأثر بعضها ببعض طولياً فقط ، بل هي تتأثر أيضاً عرضياً وفي كل أفق واتجاه . فلا وجود للتطور الطولي إلّا في المجتمعات البدائية الراكدة ، هذا إذا وجدت مجتمعات راكدة حقيقية بالمعنى الدقيق للكلمة . هناك إذن طرق متعدّدة للتطوّر والنمو ، لا طريقة واحدة فقط ، وهذه الطرق ربما كانت كعدد أنفس بني آدم إذا جاز التعبير . فليس ثمة من تشابه بين طرائق الأمم في التطوّر والتقدم ، وما ينطبق على أمة قد لا ينطبق على أخرى . فإن هناك أنماطاً شتى وطرائق قدداً ، تختلف بعضها عن بعض تبعاً لظروف كل أمة وأوضاعها التاريخية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية الخ . فللأمم تجارب وخبرات ، وتطرأ عليها أحداث وأوضاع ، وتكون لها تطلعات ومواقف وآمال ، لا يمكن أبداً وقوع التشابه بينها ، وبالتالي لا يمكن اتخاذ إحداها معياراً للأخرى . ومن هنا ، فلا معنى للقول بوجود سير نموذجي أمثل يجب أن تحتذيه جميع الأمم والشعوب وتجعله نبراساً لها . فلكلٍّ شرعةٌ ومنهاج .

فالقول بأن كل جماعة ـ كيما يوصف تطورها بأنه سليم ـ يجب بالضرورة أن تمرّ بنفس المراحل والأدوار « النموذجية » و « التقدمية » التي قد مرّ بها الشعب اليوناني أو أي شعب راق آخر كالشعوب الأوربية مثلاً ـ هذا القول مرتبط بالقول بوجود قوانين طولية (أو خطية) واحدة للتطور والتقدم تشمل الانسانية جمعاء . لكن هذه القوانين لا وجود لها بالمعنى العلمي الدقيق للكلمة إلّا في المجتمعات الراكدة كما ذكرناه ،ولئن وجدت في المجتمعات الراقية فلا توجد إلّا لفترة قصيرة جداً من الزمن . ذلك بأن العملية التاريخية لا تجري في اتجاه واحد مطلق لا تتعداه كما لو كانت تحدث في الفراغ ، بعيداً عن كل تداخل للقوى الأفقية الداخلية والخارجية . فبعض الظواهر الاجتماعية الثقافية المحدودة نسبياً يجري في اتجاه طولي ، وذلك لفترة قصيرة من الزمان تختلف باختلاف هذه الجماعة أو تلك . لكن بقية الظواهر لا تجري وفق هذا الاتجاه ولا تتقيد به على الاطلاق . فنظراً إلى التغيرات التي تحدث داخل الجماعة ، وكذلك نظراً إلى التأثير المستمر للقوى والضغوط الخارجية التي تقع عليها ، فإن اتجاهها لا يبقى على حال واحدة

طويلاً وإنما هو ينقطع من وقت إلى آخر ، فيلتوي ويتعرّج هنا وينحرف هناك عن مساره المرسوم ، فينشأ عن ذلك تغيرات اجتماعية ثقافية حضارية غير طولية لم تكن في الحسبان .



أجل ، ليس هناك طريقة واحدة ـ وواحدة فقط ـ يصح اتخاذها أنموذجاً وإماماً لنشوء الأمم وتطورها . وكل ما يمكن أن يقال في هذا الباب هو ان هناك مجموعة من الشروط والأوضاع والعلائق إذا انعدمت جمدت الجماعة ولو كانت قد بلغت تمام تطورها ، ومهما يكن من عراقة أصلها . وإذا توفرت هذه الشروط في جماعة ما ، برزت هذه الجماعة جملةً واحدة بجميع مميزات المراحل المتقدمة وخصائصها ، بل من غير أن تعرف المراحل البدائية . وإذا توفر بعضها ولم يتوفر البعض الآخر بعد عصور متطاولة من توفر جميعها ، هوت من عليائها أو انتكست بقدر ما فاتها من هذه الشروط ، ولم يشفع لها ماض عريق وأمجاد تليدة ، فإذا جاء أجلها فإن كل ذلك لن يغني عنها من السقوط شيئاً . فهناك جماعات لا تحصى من البشر عاشوا في الماضي وماتوا دون أن يتمكنوا من الوصول إلى مرحلة متقدمة من التطور . كما ان هناك أيضاً الألوف المؤلفة من الجماعات الانسانية الأخرى لا تزال تعيش حتى يومنا هذا في عصور ما قبل التاريخ . وهناك أيضاً جماعات لم تعرف المراحل البدائية قط ، بل لقد برزت فجأة على مسرح الأحداث دون أن يفوتها شيء من مزايا الأطوار المتقدمة . وهناك كذلك عدد لا يستهان به من المجتمعات قد مرت بمراحل تختلف عما يسمى اعتباطاً بقوانين التطور والتقدم ، وعلى وتيرة تختلف أيضاً عن تلك التي تفترضها هذه القوانين المتعسفة . وهناك جماعات قد عادت القهقرى ونكصت على أعقابها كأن لم تَغْنَ بالأمس ، فانحسر مدُّها وجزر ماؤها ، وتقلبت بها تصاريف الزمان والمكان . وأخيراً ـ ليس من المتعذر أبداً أن نعثر في كل وقت ، ولدى كل جماعة من الجماعات البشرية بأسرها ، على مراحل متعدّدة وأطوار متباينة تتعايش معاً وتتفاعل في البلد الواحد وفي آن واحد ، ابتداءً من أشد المراحل تخلّفاً حتى أكثرها تعقيداً ، بل هذا ما نراه بالفعل كل يوم في مجتمعات الفصول الأخيرة من

القرن العشرين . ماذا أقول ؟ إن كلمة (القرن العشرين) إنما تعني الزمان الفلكي لا الزمان النفسي أو التاريخي الذي يختلف من إنسان إلى آخر في البلد الواحد والقبيل الواحد والبيت الواحد ، فضلاً عن اختلافه من بلد إلى آخر ومن شعب إلى آخر ، لا فرق في ذلك بين شعب بلغ السِّماكين وآخر لا يزال يحبو على الركبتين .

فإذا ما استبعدنا هذه الحالات جميعاً ـ وهي حالات لا حصر لها ـ وإذا ما أشحنا بوجهنا عنها بسبب انحرافها عما يسمى بقانون التطور الذي يقال ان الانسانية بأسرها تخضع له بزعمهم ، فلن يبقى في نهاية المطاف سوى نزر يسير جداً من البشر تجري عليهم أحكام التغيرات التاريخية وفقاً لما يطلق عليه في العادة اسم (اتجاهات التطور الطولي ونواميسه) . وهذا لعمري يكفي وحده ـ بصرف النظر عن اعتبارات أخرى كثيرة ذكرنا بعضها وأمسكنا عن بعضها الآخر ـ للتخلي عن القول بوجود اتجاهات ونواميس للتطور تنطبق على الانسانية جمعاء . فكل ما في الأمر هناك اطِّرادات جزئية لا تنطبق إلاّ على نسبة ضئيلة جداً من الانسانية . فهي ليست بوجه من الوجوه نواميس كلية عامة للتطور الاجتماعي والحضاري . فالعملية التطورية قد تخلّفت وتعثرت أحياناً في طرق مسدودة ، وأحياناً أخرى شقّت لنفسها طرقاً جديدة وانطلقت في آفاق جديدة . ولا غرو في ذلك ، فإن تاريخ الفكر الانساني قد صنعته عصور زاهرة وأخرى راكدة ، بل لقد صنعته عصور ناكصة إلى الوراء في أحيان كثيرة . فعصور التاريخ لم تكن في يوم من الأيام عصوراً متماثلة . إن هذه العصور هي أشد ما تكون تفاوتاً واضطراباً فيما بينها ، سواء من حيث مدّتها أو من حيث جدّتها ، أو من حيث كثافتها بالأحداث والوقائع ، كل ذلك تبعاً لظروف كل بلد وما يحفل به كل عصر وقطر .

ولئن دلّ ذلك على شيء فإنما يدل ـ فيما يدل ـ على أن الزمان ، والزمان الفلكي أو الفيزيائي بنوع خاص ، ليس مقياساً صحيحاً للتقدم والتطور . فالتغيرات التي قد تستغرق قروناً لدى بعض الشعوب ، قد لا تستغرق أكثر من عقود بل سنوات لدى شعوب أخرى . فالتغير الحضاري إنما يعتمد على الامكانيات الذاتية والانفتاح على التجارب الحضارية الجديدة

أكثر منه على فترة زمنية معينة لا تدل على شيء ذي بال . وقد يصبح التقدم بطيئاً جداً لدى بعض الأقوام ، بل قد يتوقف عند انعدام هذين الشرطين ، كما يشهد على ذلك مؤرخو الحضارات الراكدة . فكلما ازدادت فُرص الحضارات الناشئة للاكتساب والتعلم من الحضارات الأخرى ، وكلما كانت أقدر على الاستفادة من هذه الفُرص،لما حبتها به الطبيعة من مزايا وإمكانيات ذاتية رفيعة ، غدت هذه الحضارات أكثر دينامية وتطوراً وارتفعت منزلتها في سُلّم التقدم والنهوض . فالتقاء الحضارات هو بمثابة عملية تجديد لشبابها وإمداد لها بالدم والغذاء ولا سيما إذا كانت تتمتع بمزايا وقدرات رفيعة . وهكذا تصبح الشعوب المنعزلة شعوباً بدائية متخلفة ، بينما تغدو الشعوب المختلطة بغيرها شعوباً راقية بقدر ما تتبادل الخبرة والمعرفة فيما بينها وتتعلم طرقاً جديدة في الرأي والحكم والعمل ومناهج الفكر والحياة .

لهذه الأسباب جميعاً ، ولأسباب أخرى غيرها ، بدأ العلماء منذ عهد غير بعيد يتخلّون عما يسمى تارة (قانون التطور الكلي) ، وطوراً (ناموس النمو الخطي أو الطولي الشامل) ، وحيناً (الاتجاه الأبدي السرمدي للعملية التاريخية نحو الأفضل) ، أو (القوانين الدينامية للتطور والتقدم) ،والتي تقوم على أساس من الزعم القائل بأن التاريخ لا يعود إلى الوراء ، وإنما هو يسير إلى الأمام في حلقات متصلة لا ظفرة فيها ولا وثوب [1] ، قياساً على قانون التطور في علم الحياة (الانتقال من البسط إلى المعقد ، من الأدنى إلى الأعلى ، من الامية إلى الانسان ، من الغريزة والفعل المنعكس إلى العقل والذكاء . . .) ، وعلى مبدأ اللاحدة entropie في علم الديناميكا الحرارية الذي ينص في أحد بنديه على وجود اتجاه أبدي سرمدي واحد لا عودة فيه

---

(١) إن فكرة التقدم هذه فكرة حديثة ، هي رد فعل لفكرة عجيبة قديمة مؤداها ان المجتمع البشري قد بدأ كاملاً ثم هوى . ونحن ما نزال في هذا العصر نشهد أناساً يتحمسون لها ويبكون على زمن مضى وانقضى . فهم يعتقدون أن العالم يسير كل يوم من سيء إلى ما هو أسوأ ، وسيفضي حتماً إلى النهاية القاتلة . فالعصر الذهبي للانسانية عُصر مضى وهيهات أن يعود . ولم تكن فكرة التقدم واضحة قديماً . وعلى الرغم من إمكان الاستشهاد ببعض الأبيات من شعر اسكيبولوس في الثناء على التقدم، وعلى الرغم من نص لابن خلدون يؤكد فيه التقدم في حركة التاريخ ، فان هذه الفكرة لم تكن من الأفكار البارزة في العصر القديم والوسيط .

في كل عملية تغير ، سواء اقتصرت هذه العملية على نظام irréversible حراري دينامي محدود أو شملت العالم بأسره : Carnot — Clausius .

وهكذا لم يعد العلماء في هذه الأيام يعيرون اهتماماً يذكر للتغيرات الطولية ، فقد انتقل مركز الاهتمام في الوقت الحاضر إلى جوانب أخرى من التحولات الاجتماعية الحضارية أكثر خصوبة وإيجابية ، وأعني بها تلك الجوانب المتكررة التي إنما تلازم هذه التحولات ، وهي القوى والعمليات والعلاقات والاطرادات . وهذا هو نفس ما يفعله علماء الطبيعة في استقرائهم للقوانين والنواميس التي يقال انها تكمن وراء ظواهر الأشياء .

وهذا الاهتمام بالجوانب الثابتة للديناميكا الاجتماعية الحضارية ظهر اليوم على وجوه مختلفة . فقد عكف العلماء أولاً على دراسة القوى الثابتة أو العوامل الدائمة للتحولات الاجتماعية الحضارية والتنظيم الاجتماعي الحضاري . ومن هذا المنطلق ، فان رجال المدرسة الميكانيكية أو الجغرافية مثلاً ، بعد أن درسوا مختلف صور الطاقة أو بعض الظواهر الطبيعية كالاقليم وكلف الشمس وما إليهما ، ربطوا بين هذه العوامل وبين الوقائع الاجتماعية والحضارية ، ابتداءً من التغيرات الاقتصادية حتى قيام الأمم واضمحلالها ، وذلك لمعرفة القوانين التي تُسيِّرها . وظن رجال المدرستين البيولوجية والنفسية في علم الاجتماع انهم قد اكتشفوا القوى الثابتة التي يبحثون عنها . فقال بعضهم إنها تكمن في الوراثة والسلالة والغرائز والمنعكسات والرغبات ، وقال آخر لا بل هي تكمن في شتى الدوافع الفسيولوجية أو العمليات الحيوية ، وقال فريق ثالث إنها إنما تكمن في الانفعالات والعواطف والأفكار . ومن ثم فقد ربطوا بين هذه القوى وبين بعض المتغيرات الاجتماعية الحضارية . وهناك علماء اجتماع آخرون ربطوا بين طائفة من الظروف الاجتماعية الحضارية كالكثافة السكانية والوضع الاقتصادي مثلاً ، وبين ظواهر أخرى ، ليصلوا إلى القوانين التي تحكم سيرها .

وهذا الاهتمام بالملامح الثابتة والمتكررة للتحولات الاجتماعية الحضارية قد ظهر أيضاً في دراسة نوع آخر من العمليات التي لها طابع الثبات والتكرار والتي تجري على الصعيد الاجتماعي الحضاري ، كالعزل

والتكيف ، والمخالطة ، والاختراع ، والتقليد ، والصراع ، والقطيعة والهجرة . . . واهتم علماء الاجتماع كذلك باكتشاف علاقات أطراد ثابتة بين متغيرتين أو أكثر كالمناخ ونمط التفكير والبقع الشمسية والانتعاش الاقتصادي وارتفاع نسبة الأجرام - والتكنولوجيا والفلسفة (أو الفنون الجميلة) - والوضع العائلي والثقافة - وتوزيع العمل وأشكال التضامن - والتفكك الاجتماعي والانتحار - وهلم جرا . كما أبدى علماء الاجتماع أيضاً عناية شديدة بدراسة العلاقات الثابتة المتكررة التي لها طابع الدلالة Signification والسببية Causalité والدالة Fonctionوالتي تقوم بين متغيرات مختلفة : كونية - اجتماعية ، حيوية - اجتماعية ، اجتماعية - حضارية ، كما تتبدى فعلاً في عالم المجتمعات والحضارات وهي في طريق التحول المستمر . . . وقد كانت هذه الدراسات وأمثالها خصبة جداً ، إذ تمكن بها العلماء فعلاً من الوصول إلى عدد كبير من الصيغ التي تعبر عن الاطراد والعلاقات الاطرادية بين متغيرات تبدو فيما بينها في غاية التباين والاختلاف .



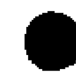
وهكذا ، فبدلاً من إضاعة الوقت في دراسة غامضة مشكوك في نتائجها لعملية طولية متسلسلة واحدة يأخذ بعضها برقاب بعض وتشمل تاريخ الانسانية كلها، فان علماء الاجتماع في الوقت الحاضر ببحثهم عن العمليات التي تتسم بالثبات والتكرار قد أغنوا الدراسات الاجتماعية بثروة هائلة من الدراسات المضنية والاكتشافات القيمة ، وفتحوا آفاقاً جديدة ومجالات رحبة لا يُسبر غورها ولا ينضب معينها ، أين منها مجال التطور الطولي التاريخي ، وهو مجال ضيق هزيل عقيم ؟

لا شأن إذن للنمو الطولي والتطور الخطّي بالحركات الكبرى والمنعطفات الانسانية الحاسمة في مسيرة التاريخ . فالتحولات الاجتماعية الحضارية إنما تنشأ بمعزل عن أي اعتبار خطي (أو طولي) . انها إنما تحدث بقوتها الذاتية وديناميتها الخاصة وعلى نحوها الفريد الذي قد يشابه أو يخالف ما وقع في بلد آخر وفي ظل نظام آخر . وما ذلك إلا لأن كل نظام اجتماعي حضاري إنما هو وحدة دينامية حية قائمة بذاتها ، تحمل في تضاعيفها بذور

تحولاتها الخاصة وانحلالها الخاص ، دون نظر إلى مسيرة خطية أو تطور طولي له طريق مرسوم . فليست العبرة فيما حدث في هذا البلد أو ذاك بقدر ما هي في جملة الحقائق التاريخية الذاتية والظروف الموضوعية لمجتمع من المجتمعات في حقبة تاريخية معينة . ان هذه الحقائق هي التي تنمو على أرضيتها ووفق قوانين تطورها أيّ حركة سياسية أو تحول اجتماعي يتفجر في هذا البلد أو ذاك ويتعامل معه ، ويلتحم بقضاياه ويقضايا العصر الذي نشأ فيه[1].



لا تفسيرات طولية ولا تعليلات خطية لنشوء النظم والأفكار والايديولوجيات والحضارات بعد اليوم . فالتفسير التفسير إنما يكون باعتبار الخواص الذاتية ، الفعلية والامكانية ، لهذه النظم والأفكار والايديولوجيات والحضارات ، وما لهذه الخواص من ارتباطات بالظواهر الاجتماعية الحضارية الأخرى ، وما لها أيضاً من دلالات ومعان ووظائف ، وما تحقق من حاجات وترضي من مطامح وآمال . تأتي بعد ذلك العوامل الخارجية التي من شأنها أن تساعد أو تعرقل ـ أو قد تمنع لبعض الوقت فقط ـ ظهور الامكانات التي تذخر بها هذه النظم والأفكار والايديولوجيات والحضارات ، ولكنها لا تخلقها ، بل هي تظل على وجه العموم دون تأثير يُذكر في سيرها العادي ، في ارتفاعاتها وانخفاضاتها ، في التبدلات الاساسية الكمية والكيفية (النوعية) التي تتعرض لها في تطوراتها المختلفة ومسيراتها المتباينة .



لأسباب من هذا القبيل وأسباب أخرى غيرها يدعو كثير من علماء الاجتماع في الوقت الحاضر إلى التخلي عن مفهوم (التقدم) و(التطور). وإلى أنه لا ينبغي أن نبحث في ثنايا التاريخ عن خط وهمي عام للتطور ، وعن اتجاه مزعوم للتطور التقدمي وما إلى ذلك . إذ ليس ثمة هدف داخلي

---

(١) استأنسنا في كتابة ما تقدم في هذا الفصل بالمقال القيم الذي أسهم به بيتريم سوروكان P. Sorokin بعنوان : . Dynamique socioculturelle et évolutionisme في كتاب : La sociologie au XXe siècle, t. I chapitre V ولكننا لم نتقيد بكل ما ورد فيه .

للتاريخ . فالظاهرة التاريخية ليست ظاهرة بسيطة ، وإنما هي نتيجة لعملية معقدة من التأثير المتبادل لقوى فردية واجتماعية مختلفة غير متساوية من حيث الخطر والأهمية ، تتفاعل وتتداخل على وجوه وأنحاء لا حصر لها ولا سبيل إلى احتسابها أو التنبوء بها . فهي عملية مشروطة بعدد لا يحصى من الظروف والأحوال والملابسات ، وأما الأهداف فلا وجود لها إلا في النشاط الانساني الذي يتدخل في سيرها ويعطيها رموزاً ومعاني خاصة . فان ظروف الحياة لكل عصر من العصور تحدد الأهداف التي يضعها الناس نصب أعينهم وتحدد كذلك إمكانية تحقيقها ، كما انها هي أيضاً تتحدد بهذه الأهداف وتتأثر بها قليلاً أو كثيراً .

وفي المؤتمر الدولي لعلماء الاجتماع المنعقد عام ١٩٥٦ تقرر استبعاد مفهومي التطور والتقدم من العلم الاجتماعي المعاصر ، لما يكتنفهما من إبهام وغموض ولشحنتهما الميتافيزيقية الواضحة التي تعبر عن نزوع الكائنات جميعاً إلى الأفضل والأكمل شبيه بذلك الذي نجده في الفلسفة اليونانية . وقد رؤي الاستعاضة عنهما بمصطلح (التغيرات الاجتماعية)، وهو مصطلح أكثر دقة ووضوحاً للتعبير عن الظواهر الحياتية في علم الاجتماع المعاصر في تميّزه من هذا العلم في القرن التاسع عشر ، حيث كان يقوم على فكرة التقدم والتطور . فضلاً عن أن هذا المصطلح الجديد لا ينطوي على أي عمق ميتافيزيقي . فإذا قلنا بعد اليوم أن المجتمع يتطور ، وان تطوره ذو طابع تقدمي ، فلا نقصد المعنى القديم ، وإنما نقصد مجموعة التغيرات التي أضافت إلى رصيد الانسانية أشياء جديدة لم تكن معروفة من قبل . ففي القرن العشرين ، وخلال حياة جيل كامل ، حدثت تغيرات هائلة في كل مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية . فهناك تقدم هائل في التكنيك والعلم وعلى صعيد العلاقات الاجتماعية والثقافية وغيرها لا يخفى على أحد . فاننا عندما نستقرىء مراحل التقدم على مدى التاريخ نجد تقدماً هائلاً لا بمعنى وجود نزعة عامة في الكائنات تتجه نحو الأفضل ، بل بمعنى وجود تزايد في الخبرات البشرية يُسهم فيها الجميع وهي ميسرة للجميع . ففي تاريخ الحضارة بدون شك يرتسم خط هو في تصاعد مستمر ومن هذه الناحية فقط

يمكن تصور التاريخ على أنه يتصاعد باستمرار رغم ما يحدث فيه من توقف وانتكاسات وردّات وحركات نكوص إلى الوراء . وبهذا المعنى فقط فإن المجتمع يتطور ويتقدم ، وان تطوره ذو طابع تقدمي واضح . فخبرات الانسان في القرن العشرين أضافت رصيداً هائلاً إلى خبراته في القرن الماضي ، رغم ما حصل فيه من انتكاسات وتقلبات وصروف .



إن تزايد الخبرات هذا لا يحدث أبداً عندما يتطور المجتمع طولياً (أو خطياً) ، انه يحدث ، بل يحدث فقط ، عندما يخرج المجتمع عن الخط ، والخروج عن الخط له عوامل داخلية وأخرى خارجية ، والعوامل الداخلية تأتي أولاً وبالأصالة كما أسلفنا مراراً في هذا الكتاب ، وبها إنما تتاح الفرصة لتأثير العوامل الخارجية التي إنما تلي العوامل السابقة وتأتي تبعاً لها . فالعوامل الخارجية لا تكفي وحدها للفعل والتأثير ، بل لا بد لها من المنبت الطيب ، من المناخ المشحون بعوامل الانفجار المكبوت ، لا بد من نضج الظروف الداخلية لتعزيز المؤثرات الخارجية وإعطائها معناها ومبناها . بهذا اللقاء ، وبهذا الصدام يتحقق الخروج عن الخط وبه تنطلق الشرارة وتتفجر الطاقات ؛ وبه يتم المخاض التاريخي المنتظر . هنا تبدأ انتفاضات الشعوب ، وهنا ينعطف مسار التاريخ .

ولقد أصاب سان سيمون كبد الحقيقة عندما تنبه إلى القفزات التي تحدث في حياة الأمم والجماعات . فقد أكد هذا الرائد العظيم أن حياة المجتمعات تتكون من أدوار تتعاقب فيها الفترات « العضوية » والفترات « الحرجة » : الأولى تكون بطيئة ، بينما تكون الأخرى مليئة بالتغيرات السريعة والقفزات المفاجئة . ان ملاحظة سان سيمون هذه ملاحظة قيمة جداً لأنها تؤكد أهمية الثورات والانتفاضات في حركة التاريخ ، هذا أولاً ، وثانياً لأنها تثبت بطلان النظريات الاجتماعية التي تتصور الأمور كأنما هي تجري دائماً على منوال واحد ونسق واحد ينطبق على جميع الأمم والشعوب في كل زمان ومكان ، وبالتالي تلك النظريات التي تريد بأي ثمن أن تضفي على العلوم الاجتماعية ـ وهيهات ! ـ نفس الدقة الرياضية التي لعلوم الطبيعة

والمادة الجامدة .

إن الدقة لا سبيل إليها في العلوم الانسانية . انها طمع في غير مطمع . فهذه الدقة إنما تنحصر فقط في ميدان العلوم الطبيعية وحدها ، وذلك للاختلاف الكبير بين الميدانين . فمنهاج العلوم الطبيعية ومبادؤها وتقنياتها لا تنطبق أبداً على سائر فروع المعرفة الأخرى التي تدخل في تعريف العلوم الانسانية . فلا يجوز مثلاً دراسة الظواهر الاجتماعية الحضارية وتفاعلاتها على أساس العلاقات السببية وحدها التي تكثر في العلوم الطبيعية والتي تضفي على هذه العلوم طابع الدقة والضبط الرياضيين ، وذلك لاختلاف طبيعة الظواهر الاجتماعية اختلافاً جوهرياً عن طبيعة الظواهر الفيزيائية المادية . وهذا الاختلاف يرجع إلى عاملين اثنين أحدهما كمي والآخر كيفي . فمن حيث الكم نجد أن الظاهرة الطبيعية ظاهرة بسيطة جداً بالقياس إلى الظاهرة الاجتماعية التي هي ظاهرة معقدة جداً تدخل فيها أفاعيل ومؤثرات لا حصر لها . وأما من حيث الكيف فإن الظاهرة الاجتماعية ذات دلالة ومعنى ورمز ، واللغة عنصر أساسي فيها . ومن هنا ، فان علوم الظواهر المادية الطبيعية إذا كانت تهتم بما هو عام ومشترك ولا تطمح إلى ما هو أكثر من ذلك ، فان علوم الظواهر الاجتماعية إنما تهتم باقتناص ما هو فريد في هذه الظواهر والنفاذ إلى الطابع الخاص بكل ظاهرة على حدة ، وهو طابع لا يوجد إلا في علاقات مبنية على الرمز والمعنى والدلالة يتخللها مع ذلك نوع من العلاقات السببية المرنة الفضفاضة تختلف دقتها باختلاف الظروف والمواقف . لذلك فان الأحوال التي تتناول السببية الاجتماعية ـ إذا صح التعبير ـ ستظل دائماً أحكاماً تقريبية معرضة للانتقاض في كل لحظة . فكل ما يمكن القيام به في هذا المجال إنما هو ادخال شيء من النظام في عالم يعنو على كل نظام ـ أو يكاد ، إذ لا سببية هنا بالمعنى الدقيق للكلمة ، وإنما هنا نوع من الاطراد تختلط فيه السببية باللاسببية وتتفاعلان معاً لينشأ عالم جديد متفجر لا يكاد يستقر حتى يختل ويثور كالبركان ، ثم يهدأ ليعيد سيرته الأولى .

●

فالتطور إذن على نوعين : تطور طولي عادي ، وتطور أفقي ثوري .

فالتطور الأول هو مجرد تبدل كمي تدريجي بطيء لا يتمخض عن شيء جديد ، أو يكاد .

وأما التطور الثوري فهو تبدل نوعي جذري خاطف ، انه عبارة عن قفزة ، عن انتقال من نوعية إلى أخرى ، ولا يتأتى ذلك إلا في الهزات والانقلابات الثورية الشاملة . فكل تبدل نوعي إنما يتم قفزاً وفي وثبات تاريخية تتقلص فيها أبعاد الزمان والمكان .

هذا ، ولا يستغني التطور الطولي عن التطور الثوري الأفقي في المجتمعات الراقية ، بل ان كلاً منهما شرط للآخر في تلك المجتمعات ، انه طرف في عملية تطور واحدة . فالتبدلات الكمية تهيء القفزات ، والقفزة تخلق شروط التبدلات الكمية التالية . فان المجتمعات المتقدمة لا بد لها من الارتقاء البطيء المتدرج ، والقفزات السريعة المفاجئة معاً ، أي لا بد أن يتوقف التدرج فيها تأهباً للوثوب . وبذلك تجدد الثورة ذاتها وتبقى باستمرار واعية متحفزة مستعدة لكل احتمال . لكن هذه القدرة على تجديد الذات لا تستمر إلى غير نهاية ، فلا بد للمَعين أن ينضب في يوم من الأيام . فالردّات والأزمات والانتكاسات يمكن تلافي آثارها بسهولة في أول الشوط ، ولكن ذلك يزداد صعوبة وتعقيداً بعد ذلك عندما تكون المسيرة قد قطعت أشواطاً بعيدة حيث تتراكم المشاكل والصعوبات تراكماً لا يتناسب مع القدرة على مواجهتها . ولا تزال هذه المشاكل تتعاظم ، والقدرة على مواجهتها تضعف حتى تقع النهاية المحتومة .

غير أن التبدلات الكمية التدريجية (أو الطولية) قادرة بذاتها في المجتمعات التي وصلت إلى مستوى معين من التنظيم والتماسك ، والتي تريد أن تتخطى ظروفها وأوضاعها وتتحدى الحرمان والقهر اللذين أيقظا فيها إرادة الحياة والتصميم على البقاء ـ أقول ان التبدلات التدريجية في هذه المجتمعات قادرة بذاتها على القيام بقفزة جديدة يهيء لها بعض القيادات المخلصة الواعية التي تبرز على حين غرة وتتحفز للوثوب إلى القمة . كما ان هذه القفزة الجديدة تفسح المجال واسعاً لاطراد التبدلات الكمية التالية . وعلى كل حال ، لا بد في هذه المجتمعات من الوثبة التي يتم بها الانتقال من القديم

إلى الجديد . لكن القفزات لا تحدث جزافاً ، وإنما هي نتيجة لحدوث تصدع أو شرخ في التبدلات التدريجية التي تراكمت على مر الزمن . والتصدع يستتبع التصدع ، والشرخ يعقبه شرخ مثله . وهكذا تزداد الشروخ والتصدعات ، ولكن الاحساس بها متفاوت . فإذا كانت الجماهير غافلة عنها لا تعي من أمرها شيئاً ، فان القيادات الواعية المخلصة التي تبرز من أوساط الجماهير الكادحة ، على يقظة تامة مما يجري حولها . انها تسمع وترى وتحس أضعاف الآخرين ، لأنها أقدرهم على التفكير والتحليل واستيعاب الأمور بنظرة سريعة خاطفة. تلك هي وظيفة النخبة التي تدق ناقوس الخطر ، وتبث الوعي بين الجماهير ، وتشحن الأجواء بأفكار جديدة . لقد بدأت المعركة بين القديم والجديد ، ولا يصمد إلّا الأقوى ، وكم من ثورة أُجهضت ، وكم من ثورة نجحت ، والأمر مرهون بمجموعة من العوامل والظروف والمفاجآت إذا أمكن السيطرة على بعضها فلا يمكن السيطرة على البعض الآخر . المهم أن التغيير إنما يكون بصنع الأفكار وضخّ الأفكار ، والنخبة هم صُناع الأفكار ومضخات الأفكار . فلا إصلاح بلا أفكار ، ولا ثورة بدون أفكار ، وكل أولئك إنما يبدأ بالأفكار . فإذا تحققت الثورة الفكرية أعقبتها الثورة الاجتماعية عاجلاً أم آجلاً . وهكذا تسري من القمة [1] إلى القاعدة باستمرار تيارات جديدة تحمل أفكاراً جديدة وتدعو إلى إصلاحات جديدة . ولا تزال هذه التيارات تُضخّ من علٍ وتتخلل القاعدة حتى تتشبع بها . هنا يحتدم الصراع بين القمة التقليدية والقمة الثورية . ولكن النصر دائماً معقود للثورة وان طال المدى ، فلا بد للّيل أن ينجلي ولا بد أن يستجيب القدر . فكلما اشتد الكفاح والنضال ، وحمي وطيس القتال والصيال ، أذنت ساعة النصر . وهكذا ، فالتصدع في التبدلات الكمية الطولية يؤذن بهجوم التبدلات الكيفية الأفقية (الثورية) . فالقفزة في المجتمعات الثورية إنما هي استتمام للتطور الطولي وبلوغ لأعلى غاياته .

●

(١) لا أعني هنا القمة التقليدية التي تتألف من تحالف الطبقة الحاكمة والاقطاع ورجال المال والأعمال ، بل أعني بها النخبة المخلصة التي تخرج من أوساط الجماهير .

قلنا إن التطور على نوعين : طولي وثوري (أو أفقي) . فكلا هذين إذن تطور ، لكن أحدهما بطيء والآخر سريع . فالتبدلات الكمية تجري عادة ببطء شديد ، على حين أن القفزات ـ بحكم التسمية نفسها ـ تحدث في فترات زمنية قصيرة جداً . بل ان القفزة هي أسرع أشكال التطور . إنها أعلى نقطة في التطور ، ففيها يحدث انهيار الشيء البالي المتعفن الذي يمنع حرية الحركة . ان الثورات الاجتماعية هي برهان ساطع على أهمية القفزات في صنع التاريخ ، وعلى صدق حدس سان سيمون وبعد نظره ونفاذ بصيرته وبالتالي على ضرورة ما أسميناه في فصل سابق (بمقولة الانتفاضة) ككل عملية تاريخية عملاقة .

ومعنى ذلك ، ان القفزات ما دامت تطوراً ، وتطوراً سريعاً ، فلا ضرورة فيها لقطع مجموعة معينة من المراحل التقليدية التي قطعتها شعوب أخرى . انها اختصار لهذه المراحل وتركيز لها في حركة واحدة ومرحلة واحدة تُغني عنها جميعاً . حسبها أنها قفزة وليست تدرجاً ، وإذا كان للتدرج مراحله التي لا بد من قطعها ، فالقفزة لا مراحل لها . انها حركة ثورية تاريخية تختزل المراحل جميعاً في مرحلة واحدة والسلام .



والخلاصة إن تطور الطبيعة والمجتمع والفكر الانساني لا يسير في خط مستقيم من التبدلات الكمية لا انقطاع فيه ولا تعرج ، وإنما هو يسير في خط تنقطع فيه من وقت إلى آخر ، التبدلات الكمية التدريجية بقفزات لم تكن في حسبان أحد ، وان كانت أملاً راود العقول طال انتظاره ، وفكرة في ضمير الغيب ما انفك القادة والمصلحون يسعون إلى تحقيقها وتجنيد أنفسهم لها .

هذا ولا تقتصر القفزات على الوجود الانساني والمجتمع الانساني ، بل لها سوابق وجذور راسخة عميقة تغور في الطبيعة المادية ونظام الأشياء . فالقفزات على المستوى الانساني ما هي إلا امتداد للقفزات على مستوى عالم الأشياء . وان نظام العناصر الدوري أول مثال على وحدة الاستمرار والانقطاع في تطور الطبيعة . فالفارق النوعي (أو الكيفي أو الثوري إذا جاز التعبير الأخير) بين ذرات العناصر إنما يقوم على الفارق الكمي (الخطي أو الطولي) في شحنات نواها ، ويتم الانتقال من عنصر إلى آخر بعدها قفزاً . فكل عنصر جديد إنما هو

عبارة عن عقدة نوعية في سلسلة التطور ، انه حلقة جديدة نوعياً ، ومرحلة جديدة . كما ان نشوء الحياة ونشوء الوعي هما أعظم قفزتين ، أعظم انقطاعين للتدرج في تاريخ تطور الطبيعة . فانه عندما انقطعت التبدلات التدريجية في مسيرة المادة بزيادة تعقيدها وتنظيمها تمّت القفزة التاريخية الجبارة ونشأت الحياة في المادة الجامدة . وعندما بلغ هذا التطور أقصاه في الانسان أعقبته قفزة تاريخية أخرى لا تقل خطراً عن القفزة السابقة إن لم تكن تفوقها ، وأعني بها ظهور الوعي .

وما قيل عن وحدة التدرج الكمي وعن القفزات الكيفية في جدول مندلييف وعن الحياة والوعي ينطبق على المجتمع أيضاً . فان كل تشكيلة كيفية اقتصادية واجتماعية جديدة إنما نشأت في أعقاب التطور الكمي التدريجي الذي طرأ على التشكيلة القديمة . انها قفزة وانعطاف في حركة التاريخ . وهذا ينطبق كذلك على تطور المعارف الانسانية الذي يحدث هو أيضاً عندما ينقطع التدرج ، إذ تسبق الاكتشافات العلمية العظيمة فترات تراكم بطيء في الوقائع والملاحظات وفي الأفكار والمعاني الجزئية الافرادية التي تقبع بعضها طبقاتٍ فوق بعض ، انتظاراً للعقل المبدع الذي يلتهمها التهاماً ليعيد صهرها وصياغتها ويخرجها لنا ثمرات جديدة مختلفة الأكُل . وهكذا تحقق ـ وعلى نحو مفاجىء غير ملحوظ ـ قفزة جبارة إلى الأمام وتغيرجذري في تطور المعرفة والمجتمع والتاريخ والحضارة .

وهكذا نرى أن بين العملات المتداولة في معاملات الطبيعة وظواهر الأشياء عملة القفزات ، وان تكن عُملة صعبة . وهذا لعمري يثبت خطأ نظرية ليبنتز المشهورة التي تنكر الطفرة في الطبيعة وتؤكد باستمرار أن لا انقطاع ولا فجوات ولا قفزات non saltus, non hiatus بل اتصال وتدرج . كلا ، هناك تغيرات مفاجئة تحدث على جميع الأصعدة والمستويات ، وان يكن هذا الحدوث الكيفي من الأشياء النادرة في الطبيعة بالقياس إلى ما يجري على وجه التدرج والكم . هناك ثورات وانتفاضات ، هناك مخاضات تفجر الطاقات وتقضي على الانتانات والعفونات وعوامل التخلف لتعيد بناء المجتمع من جديد . وكل أولئك وكثير غيره يتناقض تناقضاً تاماً مع القول بوجود اتجاه طولي عام أبدي سرمدي ، وبوجود مراحل واحدة من التطور الشامل ينطبق على الانسانية جمعاء ـ فضلاً عن

انطباقه على عالم الأشياء ـ في كل زمان ومكان .



وانها لمغالطة كبيرة يقع فيها كثير من الدارسين للفكر العربي الاسلامي عندما يعقدون المقارنات والموازنات بين اليونان وتلاميذهم العرب ، بحيث يكون اليونان هم القاعدة والنموذج الأمثل ، فيُحكم على العرب بحسب اقترابهم من هذا النموذج أو ابتعادهم عنه . لكن هذه المقارنات والموازنات لا تستند إلى أي أساس علمي صحيح . فكما أسلفنا من قبل ، ليس هناك نموذج أمثل ثابت تحتذيه الشعوب وتقتدي به في كل زمان ومكان ، وما ذلك إلا لأنه لا وجود لأسطورة الشعب النموذج . فهناك من النماذج بقدر ما هناك من الشعوب . ان كثيراً من الشعوب قد مرت بعصور ذهبية كانت نموذجاً لغيرها وقدوة ، ثم جاء أجلها وأفسحت في المجال لغيرها . فمن الخطأ الظن إذن بأن خطى التطور لا بد أن تكون واحدة بين اليونان والعرب ، وان يسلك العرب بالتالي نفس الطريق الذي سلكه أساتذتهم من قبل لنحكم عليهم بالأصالة والعبقرية . وما داموا لم يسلكوا نفس الطريق فليسوا جديرين بأن يُذكروا معهم .

وهناك مغالطة أخرى شبيهة بهذه درجت عليها أوربا في حربها النفسية معنا ، ومؤداها أن التطور الاقتصادي للدول الآسيوية يجب أن يسير ـ إذا ما أراد اللحاق بأوربا ـ على نفس النهج الذي سار عليه تطور البلاد الأوربية . وعلى ذلك فلا بد لشعوب العالم الثالث أن تمر بنفس الأطوار التي مر بها الغرب ، بلا زيادة ولا نقصان ، وإلا فلن تحقق أي تقدم يذكر . أي لا بد أن تنتقل بالتدريج من الصناعة الخفيفة إلى الصناعة الثقيلة ، فتبدأ مثلاً بإنتاج منافض السجاير والأحذية والجوارب والأقمشة ، ثم تعمد بعد ذلك ـ وبما يتجمع لديها من أرباح ومكاسب تجنيها من تلك الصناعات ـ إلى بناء مصانع صب الفولاذ والصناعات الثقيلة الأخرى ، وذلك بتدرج طولي بطيء ، كما حصل في أوربا ، حذو النعل بالنعل ، بلا تغيير ولا تبديل ، كأنما نحن هنا بإزاء قانون أزلي أبدي لا يتخلف ، مع أن العكس ممكن أيضاً ، بل هو الأسهل والأكثر احتمالاً . وإلا فما الفائدة من التعليم والاكتساب إذا لم يُعلّم صاحبه ما يفعل الآخرون والاعتبار بهم وتجنب عثراتهم واختصار خطواتهم ؟ فليس هناك أبداً ما يمنع أن يبدأ الآسيويون

ـ مدفوعين بحوافز ثورتهم ـ ببناء مصانع الحديد والصلب ، ثم ينتقلون بعد ذلك إلى الصناعات الخفيفة ، كإنتاج منافض السجاير والكماليات الأخرى . لكن الدول الاوربية (ووليدتها أمريكا) التي تريد من الشرق أن يظل سوقاً للغرب ، هي التي تشجع الشرقيين والآسيويين ـ بخُبث له براءة العلم ـ على تعلم صناعة الغزل والنسيج وتضع شتى العراقيل التي من شأنها تثبيط عزائمهم والحؤول بينهم وبين كل ما يتطلبه إنشاء الصناعات الثقيلة من تكنولوجيا وقروض ومعونات .

وهناك مغالطة أخرى من هذا القبيل أيضاً يقع فيها أنصار الاقتصاد الرأسمالي عندما يعقدون مقارنة غير متكافئة بين أوضاع الدول الرأسمالية المتقدمة وأوضاع الدول المتخلفة اليوم . فالدول المتقدمة انطلقت في القرن السادس عشر وما بعده من أوضاع وظروف لا يجوز أبداً مقارنتها بالظروف والأوضاع التي تحيط اليوم بالدول المتخلفة أو السائرة في طريق النمو . وعلى ذكر الدول المتخلفة فان العالم الاقتصادي الاشتراكي بتلهيم Bettelheim قد اكتشف في صلب هذا التعبير الشائع (الدول المتخلفة) مغالطة أخرى . فهذا التعبير قد يوحي ان الفارق بين الدول المتقدمة والدول الناشئة إنما هو فارق في مرحلة التقدم ، وبالتالي إنما هو فارق زمني ، فارق في العمر ، كما لو كانت الدول الناشئة تجتاز اليوم نفس المراحل الاقتصادية والاجتماعية التي مرت بها الدول المتقدمة منذ عشرات السنين . والحق هو غير ذلك . فالدول التي توصم اليوم بوصمة التخلف ليست أبداً في مرحلة من النمو يمكن تشبيهها بهذه المرحلة أو تلك من المراحل السابقة التي اجتازتها الدول المتقدمة . فان وجود هذه الدول الناشئة وسط عالم متقدم ، وخضوعها لاقتصاد الدول المتقدمة ، وتبعيتها للاستعمار فترة طويلة ، كل أولئك أمور تجعلها اليوم في وضع لا يقاس بوجه من الوجوه بوضع الدول المتقدمة منذ قرنين أو ثلاثة قرون من الزمان . ومعنى ذلك أن التطور الذي ينبغي أن تسير في طريقه الدول الناشئة يختلف عن ذلك الذي سارت فيه الدول المتقدمة خلال قرون طويلة . فالبلدان المتقدمة لم تُعان مثلاً أيام نشأتها الأولى آفات الاستعمار والتبعية السياسية والاقتصادية ، تلك التبعية التي جعلت اقتصاد الدول الناشئة له صفات وعلاقات خاصة ويعاني من ضغوط وتأثيرات خاصة . من ذلك مثلاً ارتباط الاقتصاد الوطني بالاقتصاد الأجنبي ، ومن ذلك أيضاً

سيطرة الانتاج الذي يخدم المستعمِر على الأنواع الأخرى من الانتاج ، ومن ذلك كذلك نمو الصناعات الاستخراجية التي تُمولها رؤوس أموال أجنبية والتي تكتفي باستخراج الموارد الطبيعية الموجودة في البلد النامي ونقل خاماته إلى البلدان الرأسمالية ، كما يجري مثلاً في صناعة النفط والمعادن في كثير من البلدان العربية ، ومن ذلك أخيراً التباين - بل التناقض - في مرحلة النمو بين قطاعات الانتاج المختلفة ، إذ نجد زيادة في نمو بعض القطاعات التي تخدم خاصة اقتصاد البلدان المتقدمة ، وضموراً في القطاعات الأخرى التي هي أمسّ بحاجات الجماهير الكادحة ، كما نجد تقدماً ظاهرياً في بعض نواحي الحياة قد توحي به كثرة السلع الاستهلاكية التي تحقق لأصحابها رفاهية كاذبة ، بينما ينخر سوس التخلف في أعماق الشعب ويفتك بالأضلاع والشرايين الأساسية لحياته الاقتصادية والاجتماعية . ومما يزيد الطين بلة علاوة على ما تقدم ظاهرة الانفجار السكاني في البلدان النامية ، وهي ظاهرة لم يكن لها مثيل إبان تزايد السكان البطيء في بلاد أوربا في مراحل نموها الأولى . فكل أولئك يجعل المقارنة بين المراحل التي قطعتها الشعوب المتقدمة والمراحل التي يجب على الشعوب النامية أن تقطعها مقارنة غير متكافئة ، وبالتالي فقد اختلفت المنطلقات ، واختلفت الظروف ، واختلفت الأطوار والمراحل ، واختلفت النتائج . لذلك كان من الضروري معالجة كل حالة على حدة ، ولكل أمة أن تختار الطريق الذي يلائمها ويتفق مع ظروفها وأوضاعها . ولئن كان الاقتصاد الرأسمالي وسيلة التطور والتقدم المثلى آنذاك ، فانه لم يعد اليوم تلك العصا السحرية التي كانت تفعل المعجزات في الماضي القريب ، حتى لقد أصبح من الصعب جداً على الدول النامية - ان لم يكن من المستحيل أحياناً - أن تتغلب على تخلفها في نطاق النظام الرأسمالي الحر الذي استنفد - أو كاد - جميع إمكانياته اليوم . هذا ما يؤكده بول بيروك P. Bairuck في كتابه (الثورة الصناعية والتخلف) . ان ذلك خير دليل على عقم البنية الرأسمالية اليوم - وهي التي أسدت خدمات جلى في الماضي القريب - وعلى ضرورة إقامة نظام اقتصادي مبني على تخطيط اشتراكي سليم ، هذا فضلاً عن دلالتها على فساد الوحدة المرحلية التي يراد تطبيقها على جميع الأمم والشعوب ، دون نظر إلى ظروف الزمان والمكان والتاريخ والتراث والحضارة .

●

وزبدة القول ، لقد سقطت جميع النظريات الطولية التي كانت سائدة في القرن الماضي والتي كانت تقول بوجود مراحل متعاقبة تسير على خط واحد مستقيم وتمر بها كل المجتمعات . فالشعوب المتخلفة تبعاً لهذه النظريات لا يزال أمامها طريق شاق طويل عليها أن تقطعه قبل أن تلحق بالأمم الصناعية الغربية ، هذا إذا لم يكن من المتعذر عليها ـ بزعم العنصريين الغربيين ـ أن تلحق بها في يوم من الأيام . أجل لقد سقطت هذه النظريات العنصرية الرجعية جميعاً ، وسقطت معها كل ما ترتب عليها من نتائج فاسدة . واليوم ، وعلى الرغم من الاتساع المطرد للهوة التكنولوجية الفاصلة بين أحدث المكتشفات في الشعوب الصناعية وبين الأدوات التي يستعين بها الفلاح والحِرَفي في البلدان المتخلفة ، فان دول العالم الفقيرة قادرة على تطوير ذاتها سريعاً لتلحق بمستوى معيشة المجتمعات الصناعية الراقية ، على أن ترد هذه المجتمعات الأخيرة بعض الدّين الذي تدين به للدول الفقيرة . إذ يتعين على الأمم الغنية الأخذ بناصر الأمم الفقيرة وتوجيهها للافادة على نحو أمثل من كل مصادر ثروتها ومواردها الذاتية . ولكن هل تفعل ؟ هيهات ! فليس عند الغرب غير القول المعسول والنفاق والمراوغة ، ليس عنده غير الأنياب والبراثن مغطاة بحرير ناعم رخيص ، بل بأرخص أنواع الحرير ! فإذا جدّ الجد كشّر عن أنيابه وانشب براثنه في الضحية ، لا وازع من ضمير ولا رادع من خلق-هذه هي رسالته الحضارية التي طلع بها على الشعوب ! فما على الدول الفقيرة في هذه الحالة إلا أن تشمر عن سواعدها وتتولى بنفسها زمام أمورها . لقد امتهنها « الكبار » طويلاً وشروها بثمن بخس ، دراهم معدودة ! فلا خلاص لها إلا بالعودة إلى نبع الذات والاعتماد على الذات ، واسترجاع ما فقدت من هوية ، وما تفتت لها من تراث ، وما ضاع لها من تاريخ ، وان تتفاعل وروح العصر وما يجري فيه من أحداث ووقائع ، على أسس علمية سليمة . فهناك ميكانيزمات ضرورية لاثبات الذات وتحقيق التحولات الاجتماعية السريعة ، على علماء الأمم الفقيرة أن يسعوا إلى اكتشافها ، بمساعدة بعض العلماء المخلصين في أوربا وأمريكا ودول المعسكر الاشتراكي ، وبذلك يؤدون لبلادهم وللعلم الاجتماعي خدمات لا تُقدّر بثمن . فما دامت النظريات القديمة قد سقطت ، والعوائق العنصرية قد فقدت كل قيمة علمية ، فما يمنع هذه

الشعوب بعد ذلك أن تستدرك ما فات ، وتتهيأ لما هو آت ؟



وهكذا تسقط جميع الحجج والنظريات التي تسعى بشتى الوسائل الممكنة إلى التقليل من شأن الفكر العربي والانتفاضة العربية . فهذه الانتفاضة قد نشأ عنها فجأة ـ ودون اعتبار لأوضاع العرب قبل الاسلام وللمراحل الطولية التي كان عليهم أن يقطعوها في تقدير المؤرخين التقليديين الغربيين ، الذين لا همّ لهم إلا تطبيق المادة التاريخية الهزيلة التي في حوزتهم على ظاهرة معقدة كالفكر العربي الاسلامي لا يكفي مِسْبَر التاريخ وحده للنفاذ إليها والوقوف على طبيعتها ، بل لا بد من مسابر أخرى تنضم إليه وتعمل معه ، دون اعتبار أيضاً للزمن الذي تتطلبه مثل هذه الانتفاضة عند شعوب أخرى قد تكون أعرق من العرب فكراً وحضارة ـ أقول نشأ عن هذه الانتفاضة ودون اعتبار لذلك كله ظواهر معينة ذات خواص ثابتة يمكنها أن تنمو نمواً ذاتياً دون لقاح خارجي ، فكيف إذا انضم إليها هذا اللقاح ؟ وهي تحمل في تضاعيفها بذور تحولاتها الخاصة وبذور انحلالها أيضاً ، بصرف النظر عن أي اعتبار مرحلي . انه لا يمكن تفسير هذه الانتفاضة إلا بتحليل ما فيها من قوى دينامية وطاقات كامنة تؤذن بالانفجار تباعاً على نظام سيكوسوسيوديناميكي مرسوم تحدده شحنتها الداخلية وعلاقاتها الخارجية كما سنرى ذلك مفصلاً في كتابنا القادم . ان لهذه الانتفاضة دلالة في رؤوس الذين نادوا بها وحملوا رسالتها ، ولها رموز ومعان لا يفهمها إلا ذووها ، وتنطوي على قوة جذب وفاعلية استطاعت أن تغزو بها كل من اقترب من وهجها وأتى منها بِقَبَس . . . وكل أولئك عناصر لا مادية لاوجود لها إلا في نسيجها هي وفي تضاعيفها وأغوارها ، دون العالم الفيزيائي والبيولوجي الذي يريد المؤرخون السطحيون المتعلقون بمبدأ السببية وقانون المرحلية ـ الذي لا وجود له إلا في أذهانهم ـ ان يرجعوا إليهما وحدهما في تفسيرهم لظواهر الفكر العربي ومنجزات الحضارة الاسلامية . هذه الخصائص الذاتية للانتفاضة العربية الاسلامية هي التي أعفت العرب ـ إذا جاز التعبير ـ من اجتياز المراحل المزعومة للتطور الطولي مرحلةً بعد أخرى ، وهي التي جعلتهم يظهرون فجأة على مسرح الأحداث بجميع مميزات الأمم المتحضرة المكتملة النمو ، المتّسقة الفكر والروح

والوجدان .

●

إن وراء الأحكام المتسرعة التي مافتىء الدراسون الغربيون للفكر العربي يصدرونها عليه جزافاً ، ذلك الخطأ الشائع الذي استولى على أوهام الدارسين منذ زمن طويل ومؤداه أن التاريخ إنما يفسّر بالتاريخ . ولقد فطن ابن خلدون إلى هذا الخطأ قبل مؤرخينا المحدثين حفظهم الله بعدة قرون ، فقال ان المؤرخ الصحيح « يحتاج إلى مآخذ (مصادر) متعددة ومعارف متنوعة ، وحسن نظر وتثبت بفضيان بصاحبهما إلى الحق ، ويُنكبّان به عن المزلّات والمغالط ، لأن الأخبار إذا اعتمد فيها على مجرد النقل ، ولم يُحكم [فيها] أصول العادة ، وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأحوال في الاجتماع الانساني ، ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب ، فربما لم يؤمَن فيها من العثور ومزلة القدم ، والحيد عن جادة الصدق . . . »[1] .

ويوضح ابن خلدون ما يقصده بالمآخذ والمعارف فيقول : « فإذاً يحتاج صاحب هذا الفن إلى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات ، واختلاف الأمم والبقاع والأمصار ، في السير والأخلاق والعوائد والنّحل والمذاهب وسائر الأحوال ، والاحاطة بالحاضر من ذلك ، ومماثلة ما بينه وبين الغائب من الوفاق ، أو بَوْن ما بينهما من الخلاف ، وتعليل المتفق منها والمختلف ، والقيام على أصول الدول والملل ، ومبادىء ظهورها وأسباب حدوثها ودواعي كونها ، وأحوال القائمين بها واخبارهم ، حتى يكون مستوعباً لأسباب كل حادث ، واقفاً على أصول كل خبر . . . »[2] .

أرأيت إلى هذا الشمول في نظرة ابن خلدون إلى التاريخ ؟ فالحدث التاريخي في رأيه ليس بسيطاً حتى يُكتفى فيه بمادة واحدة ومِسْبَرٍ واحد ومأخذٍ واحد ، وإنما هو ظاهرة معقدة متعددة الوجوه والجوانب يحتاج تفسيرها إلى حذر شديد ويتطلب الكثير من الشمول . ومعنى هذا ان التاريخ لا يكتفي بنفسه ،

---

(١) المقدمة : ١ / ٢١٩ .
(٢) المصدر السابق ، صفحة ٢٥١ .

وإلاّ ظلّ يدور في الفراغ . فهو محتاج إلى العلم بأصول العادة ، وقواعد السياسة ، وطبائع الموجودات ، واختلاف الأمم في سيرها وأخلاقها وعوائدها ونِحلها باختلاف الزمان والمكان ، وأسباب ذلك كله . وبالتالي ، ان علم التاريخ محتاج إلى علم النفس ، وعلم النفس الاجتماعي ، وعلم الاجتماع ، والانتروبولوجيا ، وعلم الاقتصاد والسياسة والاقتصاد السياسي ، وعلم الطبيعة ، وعلم البيئة والمناخ . . . فلا قيام لعلم التاريخ إلا بهذه العلوم جميعاً على الأقل ، وإلاّ كان نقلاً للحوادث وسرداً للوقائع لا يتميز فيه الغث من الثمين . فلو أن مؤرخينا التزموا ببرنامج ابن خلدون وتقيدوا به ، لما تعرضوا له من المزالق والمغالط ، وبالتالي لما وقعوا فيها وقعوا فيه من الأوهام العنصرية والنظرة المرحلية ، ولماوجدوافي النقل والاقتباس مطعناً ، ولأثبتوا الأصالة ملكةً لجميع الشعوب لا حكراً لبعضها دون البعض الآخر ، وإذن لأدركوا أن الانسان هو الانسان ، في كل زمان ومكان . . . إن إمكانيات عصر ابن خلدون في الدراسة التاريخية شيء لا يُذكر في جنب إمكانيات العصر الحاضر . ومع ذلك فقد تخلف مؤرخونا عن ركب ابن خلدون . وسيمضي وقت طويل قبل أن يصلوا إلى مستواه !



وعلى كل حال ، لقد نما الفكر العربي الاسلامي وتطور على نحوه الخاص وطريقته الفريدة . ولم يكن ذلك في خط مستقيم ، بل في خط متعرج طويل تحكمت فيه ظروف البيئة وتصاريف الأحوال وأوضاع العرب والمسلمين في كل يوم ، بل في كل ساعة . ذلك بأن كل عامل جديد يطرأ على عناصر الموقف لا بد أن تترتب عليه آثار ونتائج تظهر في تغيير اتجاه هذا الخط وتعرجاته ، وهي آثار تختلف باختلاف قوة هذا العامل وأهميته ودلالته ومعناه . . . وكل أولئك أمور يصعب جداً أن يقع التشابه فيها بين أي شعب وآخر سبقه أو أعقبه . فمن النادر جداً ـ ان لم يكن من المستحيل ـ أن يتطور في نفس الخط المتعرج الطويل شعبان اثنان مهما تشابهت ظروفهما الخارجية . فكيف إذا اختلفت هذه الظروف وتناءت في الزمان والمكان ؟ كالماء تصبه في مكان على سطح الأرض فيشق لنفسه طريقاً غير الطريق الذي كان سيشقه لو صببته في مكان آخر . فما على الخريطة الأرضية

نهران متشابهان ولو سارا في خطين متوازيين . فلكل بقعة من الأرض ظروفها وأحوالها التي تختلف بها عن أي بقعة أخرى من بقاع العالم ، ومن هنا كان اختلاف الأقاليم وبالتالي اختلاف الأمم والشعوب .

لقد كان الفكر العربي منفتحاً على الفكر الانساني ، فهضمه وأساغ منه ما زاده قوة وحياة . فهو كأي فكر منفتح حي آخر لم يكتف بتجربته الخاصة وموارده الذاتية ، بل لقد ضم إليه تجارب الآخرين ومواردهم ومكتسباتهم ليستدرك ما فاته من مراحل الطريق . تلك هي وظيفة النقل والاقتباس . ففضلاً عن أن كل عنصر اقتباس جديد يصب في المجرى الكبير لا بد أن يحدث تغييراً ما في اتجاه خط سيره وسرعته ، فانه أيضاً يعفي صاحبه من قطع بعض المراحل التي كان سيقطعها لو سار في الدرب وحده معتمداً على قواه الذاتية ، وهكذا تقل عقاب الطريق ووعثاء السفر . فإذا كان اليونان قد قطعوا عدداً من المراحل لتحقيق بعض النتائج ، فهل معنى ذلك أن هذه المراحل إنما هي مراحل نموذجية يجب تمثيلها والاقتداء بها في كل زمان ومكان وبكل ما فيها من أخطاء ومآس وتجارب قد لا تخص غير اليونان ؟ وهل لزام على تلاميذهم العرب أن يستأنفوا تجارب أساتذتهم من جديد ويعيدوا أخطاءهم ؟ وإذا كان الأوربيون قد قطعوا طريقاً طويلاً جداً للوصول إلى نتائج معينة لأنهم أول من شق الطريق وواجه أخطاره ومتاعبه معتمدين على أنفسهم وإمكانياتهم المحدودة ، فهل من الضروري أن يقطع العرب والافارقة وسائر دول العالم الثالث نفس الطريق ويواجهوا نفس الأخطار ويذللوا نفس العقاب ، رغم توفر عدد من الامكانيات الجديدة الهائلة التي لم تتوفر للرواد الاوربيين الأوائل ، ورغم إمكانية التعلم منهم واختصار تجاربهم وتجنب أخطائهم ؟ وإلا فما جدوى التعليم إذا لم تكن غايته الاعتبار بالآخرين واكتساب خبراتهم والافادة من تجاربهم وعدم الوقوع في أخطائهم مرة أخرى ؟ وهكذا اختلف طريق العرب ومناهجهم عن طريق أساتيذهم اليونان ومناهج اليونان . وهكذا تختلف الشعوب بعضها عن بعض ويتميز بعضها من بعض بمدى استعدادها للتعلم واكتساب معارف الآخرين والافادة من تجاربهم وخبراتهم وتسخيرها لأغراض الحياة والتطور . فبئس التعلم إذا لم

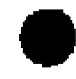
يكن في نهاية الطريق القدرة على اكتساب خبرات الآخرين والافادة منها واختصار الطريق الذي ساروا فيه وتجنب المزالق والعقاب التي اصطدموا بها .

أما البواكير الأولى للفكر العربي ، تلك التي يشكو المؤرخون التقليديون من غموضها أو عدم وجودها ، لعدم انطباقها على نماذج ومعايير مأخوذة من الفكر اليوناني أو الفكر الاوربي ، فهي في الحقيقة من البواكير الفريدة الفذة في التاريخ ، ولعل طابعها الفريد هذا هو الذي صرف الأنظار عنها ، أنظار التقليديين الذين تعودوا نمطاً خاصاً من البواكير وسيطرت على أذهانهم أوهام وتصورات ومفاهيم ضيقة محدودة عفّى عليها الزمن ، ورانت على أبصارهم فوق ذلك غشاوة من التعصب والحقد والكبرياء . وستتولى نظرية السيكوسوسيوديناميكا جلاء هذه البواكير وإزالة ما يكتنفها من شبهة الغموض والابهام . ماذا أقول ؟ ان هذه البواكير هي التي أوحت إلينا بنظرية السيكوسوسيوديناميكا منذ خمسينات هذا القرن عندما كانت نظرية شاحبة هزيلة لا تكاد تصمد للنقاش . وما زلنا منذئذ ننقح فيها ونصحح ونضيف ونحذف ونقلب وجوه الفكر والنظر ، حتى اكتملت عناصرها الأساسية أو كادت ، وتفتحت لنا آفاق لم تكن تخطر لنا على بال . وسنطرحها للنقاش العلني قريباً ، وسنرى مدى قدرتها على المواجهة والتحدي ، وكيف تصمد في الصّيال والنضال . ونرجو ألا يكون في كلامنا هذا ادعاء كثير .



هذا ولم يتوقف الفكر العربي الاسلامي-وقد برز إلى الوجود- عن التجدد والحركة طوال عصوره الذهبية ، فنما وتشعب وتطاول ، وتعددت فيه المدارس والمذاهب والأنظار ، وبلغ التنوع فيه أقصاه ، وكان ذلك نتيجة حتمية للانفجار السيكوسوسيوديناميكي الذي انطلق في القرن السابع للميلاد ، فحشد الطاقات وجنّد الامكانيات وعبّأ النفوس للحدث العظيم . وهذا ما يفسر لنا ظهور ذلك العدد الهائل من القادة والرادة والعلماء والأدباء والفلاسفة والمفكرين والشعراء في عصور متقاربة . وعندما استنفدت هذه التعبئة جميع إمكانياتها وجف النسغ ، نضبت العقول ، وجمدت الأذهان ،

وتوقفت القوى المبدعة الخلاقة ، واهتزت أركان الدولة من أوسطها إلى أقصاها ومادت الأرض من تحت أقدامها . لقد ضعفت الهمم عن الدراسات القوية ، فأقفل باب الاجتهاد ، وغلبت الرواية على الدراية ، وكثر الحشو والتقليد والتحاور في الألفاظ والتقارع في أذناب المعاني ، واشتد التمسك بالرسوم والطقوس وظواهر النصوص ، وشاع التزمت والتعصب ودب الفساد في كل شيء ، في الفكر والأخلاق ، في القول والعمل ، في العقل والقلب ، في الفرد والدولة وأسلوب الحكم ، لقد تبدلت الحياة غير الحياة والقوم غير القوم . بالتعبئة السيكوسوسيودينامية غلبوا وسادوا ، وبتوقفها غُلبوا وسُوِّد عليهم . فالتوتر السيكوسوسيوديناميكي هو في آن واحد نشاط عقلي ، وامتداد سياسي ، وتوسع عسكري ، وتقدم اقتصادي ، وفتح علمي ، واشعاع حضاري . فالسيكوسوسيودیناميكا هي الفكر ، وبالفكر إنما تحيا الشعوب . فان خبا الفكر ذهبت المنعة ، وضعفت الشوكة ، وزال البأس ، واختلت المدارك ، وضعفت الأركان ، وانهارت القيم ، وانحطت الغايات ، وكثر الفقر والجوع والمرض ، وأقبلت الدولة على الهرم . لقد غُلبت البلاد على أمرها فصارت في ملك غيرها . لقد قُضي الأمر . جفّت الأقلام وطُويت الصحف . فإذا رأيت ثمّ رأيت بوماً ناعقاً ، وخراباً بلقعاً ، وغُثاء تافهاً ، وزبَداً راغياً ! انها عصور الانحطاط ، وما أدراك ما عصور الانحطاط !



كل ذلك ينفي عن العرب ما يراد إلصاقه بهم من جمود وتخلف فطريين . فقد قامت في الاسلام حركات عظيمة مستمرة وتغيرات متصلة لم تتوقف إلا في عصور الانحطاط والتخلف ، أي عندما تراخى التوتر السيكوسوسيودیناميكي وانطفأت جذوته . أما قبلئذ فكان الأمر غير ذلك . فجمود الحياة الفكرية عند العرب والمسلمين في تلك العصور والذي لا يزال سوسه ينخر في أصلاب كثير من الأقطار العربية والاسلامية ، ليس مرده إلى الاسلام وإلى طبيعة المسلمين كما يتقوّل المتقولون ، بل إلى مجموعة من العوامل والظروف التي يتلاحق بعضها في إثر بعض ويأخذ بعضها بأعناق بعض ، فإذا اختلّ أحدها تبعه الآخر في سلسلة مترابطة من الهزات

والانهيارات قد يمكن استدراكها والسيطرة عليها قبل ان يستفحل الداء ويتفاقم المرض . لكن ذلك غير ممكن عندما يتآكل الجسم وتتساقط الأضلاع . والدليل على أن الاسلام لا شأن له في كل هذا إن المجد العقلي والسياسي والحضاري الذي تحقق للعرب في عصور الازدهار العظيم إنما يدينون به للاسلام وقيمه ومثله . فالاسلام هو الذي قذف بهم في الآفاق وكان فرصتهم الذهبية لصنع المعجزات وبلوغ أقصى الغايات . كما ان الجمود ليس من طبيعتهم بل هو شيء طارىء عليهم ، وإلا لما استطاع الاسلام أن يفجر طاقاتهم الكامنة ويكشف ما يذخرون به من مواهب وقدرات حتى دخلوا التاريخ من أوسع أبوابه وأسلس لهم قياد العالم بسرعة مذهلة . فالاسلام كما سنرى في كتابنا القادم لا يحيي الموتى ولا يخرج من في القبور، إنما هو كشاف للمواهب في وقت كانت فيه مكبوتة ممنوعة من الظهور تحجبها عوامل متعددة . فكشف النقاب عنها وأطلقها من عقالها، وأوحى اليها ان هُبِّي من رقادك واستيقظي من سباتك . انت سر الوجود ومناط كل موجود . حيَّ على الصلاح ، حيَّ على الفلاح ، حيَّ على البحث والنظر ، حيَّ على خير العمل ! لا خلاص لك إلا بالفكر والتفكير ، ولا نجاة لك إلا بالعلم والتعليم . تفكري في خلق السموات والأرض ، واسلكي سبل العلم ذُلَلاً ، ولا تخشَيْ فيه لومة لائم ، فانما يخشى الله من عباده العلماء . . . فانتهضت هذه المواهب جميعاً من مكامنها ، واستفاقت من غفوتها . لقد سمعت النداء فاطاعت، واستجابت للدعوة بالتلبية والتهليل والتكبير . تلك هي انتفاضة حضارة « اقرأ » في بطن مكة ، التي ترددت أصداؤها في كل مكان وجلجلت في كل أفق ، وفتحت للعرب فتحاً مبيناً . . .

بهذه الروح ساد القوم ، وبهذه الروح انطلقت مواهبهم وانكشفت قدراتهم ، وبرزت إلى السطح مجموعة من الصفات والخلال والمزايا كادت حياة القاع ستقضي عليها . لقد هبَّت من مهاجعها لتحتل القمة وتطل على السفوح والشطآن . ولكن القمم ليست بالمقام الدائم . فما وصل إلى القمة أحد إلا آذن بالانحدار . فما بَعْدَ القمة مطمع ، ثم تأتي رحلة العودة والرجوع القهقرى . فاذا كان السلف قد ارتفعوا بالعلم والفكر ، فقد

خَلَفَ من بعدهم خَلْف اضاعوا العلم والفكر واتبعوا الشهوات وما زالوا يلقون غيّاً . فالجمود اذن مرده إلى عوامل اجتماعية واقتصادية وسياسية خارجية . . . صرف لا شأن للاسلام بها ولا دخل لطبيعة العرب والمسلمين في أمرها . فالجمود انما هو صفة لهذا الطور من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . . . وليس أبداً صفة خاصة بالعرب وحدهم دون سائر العالمين . هذا هو حكم الشعوب ـ جميع الشعوب ـ في عصور الانحطاط والاضمحلال .

فليس هناك إذن حكم نطلقه على العرب والمسلمين في جميع عصورهم المختلفة . وإذا كان لنا ان نقارنهم بغيرهم من الشعوب فلا تستقيم المقارنة إلّا بين أمم في طور واحد من النمو أو في مرحلتين متقاربتين من الحضارة . انها لا تصح أبداً بين أمة متبدية وأخرى متحضرة . بين شعب متخلف وآخر متقدم ، بل انها انما تصح ـ وتصح فقط ـ بين أمتين متقدمتين أو شعبين متخلفين . هكذا تكون الموازين وهكذا تستقيم المعايير . وهناك أمثلة كثيرة على أمم مختلفة تقلبت في أطوار متعددة من الغنى والفقر والعلم والجهل ، والازهار والأفول ، والحضارة والبداوة . . . فالانكليز اليوم ليسوا هم انكليز القرون الأولى أو القرون الوسطى . وعرب ما قبل الاسلام ليسوا هم أنفسهم عرب صدر الاسلام أو عرب هذه الأيام . فلكل أمة أجل ، ولكل أجل كتاب ، وكل كتاب فيه سجل طويل بالدروس والعبر . والويل ثم الويل لمن لم يعتبر !

فاذا لم يكن للعرب علم وفلسفة . . . قبل الاسلام ، فلا يستتبع ذلك أبداً الا يكون لهم حظ منها بعد الاسلام ، وإذا كانوا قمة في العلم والفكر والرأي في عصور الازدهار ، فلا يستتبع ذلك أبداً انهم لن يهبطوا إلى السفح في عصور الانحطاط . فالقمة ليست مقاماً أبدياً لأحد ، انما هي دُوْلة بين القادرين عليها .

ان العلوم والفنون والآداب . . . وليدة مراحل اجتماعية وظروف تاريخية وأوضاع اقتصادية وحضارية معينة ، انها لا ترجع أبداً إلى أصل الفطرة وتفاوت الأجناس البشرية . لقد كان للعرب علم وفن وفلسفة وقانون

ومناهج و . . . حقبةً طويلة من الزمن كانوا فيها منائر العالم ومراكز الاشعاع فيه . ولم يحدث ذلك في لحظة أو ومضة ، بل لقد تدرج ببطءٍ ، ونما كما تنمو الشجرة الباسقة العميقة الجذور ، واستوفى الزمن اللازم لنموه ، كما استوفى الجهد الموصول المطرد الضروري لهذا النمو ، واحتاج الى العناية الساهرة والصبر الطويل ، والدأب المتواصل ، ومعاناة التجارب المريرة والخبرات الشاقة المضنية .أوظل أمر العرب كذلك حتى خانوا العهد ، ونكثوا الوعد ، والقوا السلاح ، وتقلبت بهم الرياح[١]. فذلوا بعد عز ، وهَوَوْا بعد ارتفاع . فهلك العلماء والعلم ، وذهب الأعيان والأعلام والصدور وجميع المشيخة ، كأن لم يَغْنوا بالأمس . فهل إلى مردٍّ من سبيل ؟

المصادر العربية [1]

أبحاث الندوة العالمية الأولى لتاريخ العلوم عند العرب الجزء الأول . معهد التراث العلمي العربي . جامعة حلب سوريا ١٩٧٧ .

أبحاث المؤتمر السنوي الثاني للجمعية السورية لتاريخ العلوم . معهد التراث العلمي العربي جامعة حلب . سوريا ١٩٧٩ .

ابن خلدون (عبد الرحمن محمد) : المقدمة . لجنة البيان العربي . القاهرة .

ارنولد (سير توماس و .) : الدعوة إلى الاسلام (الترجمة العربية) الطبعة الثانية مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ١٩٥٧ .

ديورانت (ول وايريل) : مباهج الفلسفة . مكتبة الانجلو المصرية ، بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر . القاهرة ـ نيويورك (الترجمة العربية) .

ديورانت (ول وايريل) : قصة الحضارة . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة (الترجمة العربية) .

روزنتال (فرانتز) د . : مناهج العلماء المسلمين في البحث العلمي . دار الثقافة . بيروت . بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر . بيروت ـ نيويورك ١٩٦١ .

زريق (قسطنطين) : في معركة الحضارة . دار العلم للملايين . الطبعة الأولى . بيروت . ١٩٦٤ .

سارتون (جورج) : تاريخ العلم (الترجمة العربية) . دار المعارف بمصر . بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين المساهمة للطباعة والنشر . القاهرة ـ نيويورك .

(١) الكتاب الذي يتالف من جزءين فأكثر والذي قد لا نحتاج إلى جميع أجزائه سأكتفي هنا بذكر اسمه واسم مؤلفه وما يشترك فيه مع سائر الأجزاء الأخرى ، هذا ما لم تكن جميع أجزائه مطبوعة في وقت واحد وصادرة عن دار نشر واحدة . وعند الاستشهاد بأحد أجزائه في متن الكتاب فسأشير إلى هذا الجزء في الحاشية مع التفاصيل الأخرى .

عبد الرازق (مصطفى) : تمهيد لتاريخ الفلسفة الاسلامية . لجنة التأليف والترجمة والنشر . القاهرة ١٣٦٢ هـ ـ ١٩٤٤ م .
عبد الرازق (مصطفى) : فيلسوف العرب والمعلم الثاني . مؤلفات الجمعية الفلسفية المصرية . ملتزم الطبع والنشر أصحاب دار احياء الكتب العربية . القاهرة ١٣٦٤ هـ ـ ١٩٤٥ م .
علي (جواد) د . : تاريخ العرب قبل الاسلام . مطبوعات المجمع العلمي العراقي بشركة الرابطة للنشر والطبع المحدودة بغداد .
علي (جواد) د . : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام . الطبعة الأولى دار العلم للملايين بيروت . مكتبة النهضة بغداد .
غارودي (روجيه) : حوار الحضارات . (الترجمة العربية) منشورات عويدات مجموعة زدني علماً . الطبعة الأولى بيروت ـ باريس ١٩٧٨ .
لنتون (رالف) : شجرة الحضارة . مكتبة الانجلو المصرية بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر . (الترجمة العربية) القاهرة ـ نيويورك .
مرحبا (محمد عبد الرحمن) : قبل أن يتفلسف الانسان . دار النشر للجامعيين . بيروت ١٩٥٦ .
مرحبا (محمد عبد الرحمن) : من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية . منشورات عويدات . بيروت ١٩٧٠ .
مرحبا (محمد عبد الرحمن) : المرجع في تاريخ العلوم عند العرب . مكتبة السائح ـ طرابلس ـ لبنان ١٩٧٩ .
مجلة تاريخ العلوم العربية : معهد التراث العلمي العربي . جامعة حلب . سوريا . تصدر مرتين في السنة .
النشار (علي سامي) د . : مناهج البحث عند مفكري الاسلام . دار المعارف بمصر . المكتبة الفلسفية . الاسكندرية ١٩٦٥ .
وهبة (مراد) د . : المذهب في فلسفة برجسون . مكتبة الدراسات الفلسفية . دار المعارف بمصر . القاهرة . ١٩٦٠ .

المصادر الأجنبية

Bouthoul (Gaston) : Traité de sociologie, Payot, Paris.

Bouthoul (Gaston) : L'invention. éd. Marcel Giard, Paris, 1930.

Boyd (W. C.) : Génétique et races humaines, (traduit de l'américain) Payot, Paris, 1952

Burkchardt (Titus) : Art of Islam. Language and Meaning. With photographs by Roland Michand. Translated by J. Peter Hobson. Foreword by Seyyed Hossein Nasr, world of Islam Festival Publishing company Ltd. First published, 1976.

Démissov (V.) : Qui fait l'histoire ? éd. de l'Agence de presse Novosti, sans date.

Fouillé (Albert) : Histoire de la philosophie, 14[e] éd. Paris 1919. Paris 1919

Fouillé (Albert) : Esquisse psychologique des peuples européens Paris, 1903.

Garaudy (Roger) : La théorie naturaliste de la connaissance, P. U. F. Paris, 1953.

Gauthier (Léon) : Introd., à l'étude de la philosophie musulmane, Léroux, Paris, 1923.

Girod (Roger) : Attitudes collectives et relations humaines. Bibliothèque de la sociologie contemporaine. P. U. F. Paris, 1953.

Gurvitch (Georges) : La sociologie au XX[e] siécle. P. U. F. Paris, 1947.

Gurvitch (Georges) : La vocation actuelle de la sociologie. Bibliothéque de la sociologie contemporaine. P. U. F. Paris, 1950.

Hankins (Frank H.) : La race dans la civilisation.

Payot, Paris, 1953.
Klinberg (O.) : Race et psychologie. Unesco, Paris, 1951.
Laffin (John) : The Arab Uind considered, A need for Understanding. Taphing Publishing Company, New—York 1975.
Laffin The Dagger Islam, London, Sphere Books L. T. D. 1979.
Lévi—Straus (Claude) : Race et Histoire. Unesco. Paris, 1952.
Lévy—Bruhl (Lucien) : Les fonctions mentales dans les sociétés inférieures.. 9ème édition. P. U. F. Paris, 1951.
Lévy—Bruhl (Lucien) : Les carnets de — P. U. F. Paris, 1949.
Lévy—Bruhl (Lucien) : La mentalité primitive. 15[e]édition. P. U. F. Paris, 1947.
Maquet (Jacques J.) : Sociologie de la connaissance. Institut de recherches économiques et sociales, Louvain, 1949.
Maisonneuve (Jean) : Psychologie sociale (Que sais—je ?) n 458 P. U. F. Paris 1951.
Moreno (J.—L.) : Fondements de la sociométrie (trad. de l'anglais) Bibliothéque de sociologie contempo - raine. P. U. F. Paris, 1954.
Nestourkh (Mikhail) : Les races humaines. (Trad. du russe) Editions du progrés, Moscou sans date.
Quadri (G.) : La philosophie arabe dans l'Europe médiévale (Trad. de l'italien). Payo Paris, 1947.
Renan (Ernest) : Histoire générale et système comparé des langues sémitiques. VI[e] édition. Paris, 1898.
Schlauch (Margaret) : La vérité sur l'aryanisme. (Trad. de l'américain) éd. Médicis. Paris, 1945.
Sorokin (Pitirim) : Dynamiques sociales et culturelles. in La sosciologie au XX[e] siècle, chapitre V. pp. 96—121. Tome I, les grands problèmes de la Sosciologie, Publié

sous la direction de Georges Gurvitch. Bibliothèque de la philosophie contemporaine P. U. F. Paris, 1947.
Spengler (Oswald) : Le déclin de l'occident. N. R. F. Paris. 1948
Varagnac (André) : Civilisation Traditionnelle et genre de vie. Albin Michel Paris, 1948.

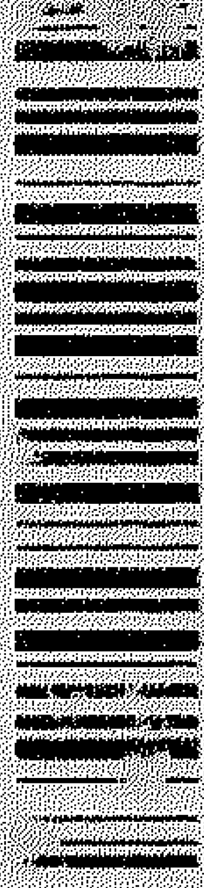
كتب أخرى للمؤلف

نظرية النسبية لآلبرت آنشتين . دار المقتطف . القاهرة ١٩٤٨ .
قبل ان يتفلسف الانسان دار النشر للجامعيين . بيروت ١٩٥٨ .
آنشتين حياته - عصره - نظرياته . فلسفته طبعة ثانية . (وستصدر الطبعة الثالثة قريباً) دار النشر للجامعيين بيروت . ١٩٦٢ .
الانسان (ترجمة عن الفرنسية) تأليف جان روستان . منشورات عويدات . بيروت ١٩٦٥ .
من الفلسفة اليونانية إلى الفلسفة الاسلامية . منشورات عويدات . بيروت ١٩٧٠ .
المسألة الفلسفية . طبعة ثانية . منشورات عويدات . بيروت ١٩٧٧ .
المرجع في تاريخ العلوم عند العرب . مكتبة السائح . طرابلس - لبنان ١٩٧٩ .
مع الفلسفة اليونانية . منشورات عويدات . بيروت ١٩٨٠ .
تحت الطبع - الكندي منشورات عويدات - .

الكتاب القادم : مخاض الجزيرة العربية .
في التحضير : آفاق الفكر العربي .
في التحضير : العلم في طريق المثالية .
في التحضير : منطق الكون ومنطق الانسان .

فهرست

منشورات عويدات ٨٢١ / ١٩٨٢


Bibliotheca Alexandrina
0351573